فتى الغور

فتى الغور 67 (رواية)

كامل أبو صقر

الطبعة العربية الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري(87)، ط1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan. publish@gmail. com

www. alaanpublish. com

المراجعة اللغوية: م. سامر المجالي

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN: 978-9923-13-480-1

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2022 /2 /775)

306

أبو صقر، كامل محمد

فتى الغور67/ كامل محمد أبوصقر. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(576) ص

ر. إ: 775/ 2/ 2022

الواصفات: الروايات العربية/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

كامل أبو صقر

فتى الغور 67

The Valley Boy 67

رواية

إهداء

إلى كل أبناء الأغوار، وكل من كان الغور مستودعه ومستقره، وإلى كل من عبر الغور، مغرّبًا أو مشرّقًا، أو متجوّلًا، وإلى كل أطفال العرب، إلى الذين تركوا حقائبهم المدرسية وعملوا في حدائق الغور، وكان آخرهم هؤلاء الفتيان الذين قضوا هناك، وإلى والدي رحمه الله وزوجتي وأبنائي وأصدقائي، وأصدقاء الغور..

كامل أبو صقر

زيد
ياسر
زاهي
بني جامع
محمد
حمزة
أبو صقر
عمارة
حسام
بني جامع

حمادة حسام بني جامع
أنس حسام أبو غنيمان
محمد حمزة أبو صقر
زيد محتسم بني منيه
براء زكريا بني منيه
أحمد حكمت بني جابر
ياسر زاهي بني جامع
يزيد إبراهيم جبالي

تنويه وتحذير: استُلهمت الرواية من أجوبة بعض أهالي الغور على مدار عشر سنوات. وكان السؤال يقول: كيف تتذكَّرون وأنتم أطفال الشهورَ السبعة الأولى من **نكسة العام 67؟**

وحُرِّرَت أجوبتهم، وجرى تتبّع الأماكن والعيون والكهوف التي ذُكرت وزيارتها، وكُتب ما تذكَّروه.

لقد دوّن الكاتب وتخيّل كثيراً من الأحداث في العمل الروائي وعناصره، فإذا تصادف وجود تطابق وتشابه في أسماء الأماكن والأشخاص والمواقع، فهي لغايات العمل الروائي ليس إلا، وهي بالضرورة ليست الأماكن والمواقع نفسها التي وردت في الإجابات.

إن الناشر والمؤلف يخليان مسؤوليتهما كاملة عن ذلك، وما قد يترتب على سوء الفهم من آثار ونتائج مباشرة وغير مباشرة.

رحلة الشتاء

رفض أبو نسر السماح لولده الصُّعود لقمة جبل القرن، ونظر للجبل، وقال لولده: أعرف من خبرتي في جبال الأغوار، أنها لا تكون أكثر شموخًا أو علوًّا من ثقتنا بأنفسنا؛ حالما تطأ أقدامنا قممها، تكون موطئًا ثابتًا وصادقًا لنا!

إن رحلة الشتاء لـ«أبونسر» وابنه فتى الغور، وإخوانه وأقاربه وحمولته ومعظم أهل بلدته المطلة على الغور، تبدأ من شفا الغور، فهي بلدة تقع على جبال الغور الغربية، وتضمُّ سبع حمايل إحداها اندثرت، وقُطع سبيل ساكنيها لأنهم كانوا قطاع طرق، فبقيت فيها ست حمايل، أكثرهم رعاة ومربون للماشية، وقليل منهم مزارعون، وأغلبهم يمارسون المهنتين معًا.

كانت تقع قرية «مَصْطَبة»، بلدة «أبونسر»، في منطقة جبلية وعرة، تتخذ من أحد بطون سلسلة شفا جبال الغور الغربية المنبسطة كالمَصْطَبة موقعا لها، فكانت تحيطها الجبال. وبحكم موقعها الصعب الوصول إليه، استقر فيها منذ القدم العابرون للغور سواء كانوا داخلين إليه أو خارجين منه، فأول مكان للراحة بعد تعب صعود العقبات من الغور، وتنفّس الهواء البارد هو «مَصْطَبة»، وأول أماكن النازل أو الهابط إلى الغور ليرتاح فيه قبل رحلة الهبوط، هو كذلك مَصْطَبة. لقد هبتها الطبيعة سطحا منبسطا أملس كمَصْطَبة البيت الإسمنتية مع مصرفين، واحد يصرّف الماء إلى الغور من وادي الناطوفة الذي تعتليه من جانبة الأيسر صخرة الناطوفة،

وآخر يصرف الماء غربا حتى المتوسط. لقد أقام في مَصْطَبة المرضى الذين لا يستطيعون مواصلة عبورهم إلى الغور، والمتخلفون، وبعض المتجولين، والجالين والمنفيين من بلدانهم. وحط بعض الرعاة والنَّوَر رحالهم فيها، فأصبحت بلدة من لا بلد له، فالمتخلفون عملوا بالزراعة، والرعاة والنَّوَر جاوروهم، وقطّاع الطرق حموهم، ومن تعاقب عليها من الغزاة تركوا خلفهم آثارهم وآبار جمعهم الماء والبرك ومعاصر الخمر والزيتون.

كانت أراضيها تمتد شرقا، أينما تصل أغنامهم وحلالهم في المناطق الرعوية من الغور، لا يوقفها إلا مجرى نهر الشْريعَة شرقا، وقناة فصايل جنوبا، وقناة وادي الفارعة شمالا، فكانت المياه الجارية حدودها.

تتكرر العادة الموسمية للتكيف مع تغير طبيعة فصول السنة، ومَصْطَبة لا تمسك الماء أبدا حتى سمّوها البلاعة، بينما ماء المطر والثلج يتجه شرقا للغور أو غربا إلى ساحل المتوسط.

إن طبيعة البلدة المرتفعة الباردة والممطرة في الشتاء، التي لا تمسك ماء المطر، جعلت ساكنيها يسلكون مسالك خاصة بهم، وطريق الماء إلى الغور الذي ينعم بالماء والدفء، فيخرج زرعه، فيصبح مشتى ودفيئة لهم بالشتاء، وجنة يرتعون فيها هم ومواشيهم في الربيع، أدى بهم وبآبائهم الأولين، إلى القيام بما يسمى رحلة الشتاء على مدار القرون، فأصبحت أراضيهم حتى حدود النهر، والقنوات الجارية أراضيَ يملكونها بحكم رعي مواشيهم وزرعهم لها، فكانت متاعا لهم وتحت سيطرتهم.

إنها بلدة ترقد على شفا الغور، وتنتظر قطرات الماء في شتاء كل سنة

لتجمع تلك القطرات، وتُخزَّن في آبار وبرك، فلا عيون ولا أغادير تمدها بالماء إلا عيون شرقها المنخفض، ومن تحت الشفا، فيشربون منها عندما تفرغ آبارهم.

إن عائلة أبونسر كغيرها من العائلات تنتمي إلى عشيرة، والعشيرة تنتمي إلى حمولة تضم عدة عشائر، فيكون «عزب» العشيرة في رحلة الشتاء في الغور بجانب بعضهم في أماكن تعارفوا عليها.

تتنوع أصول ومنابت العشائر والحمائل بحسب الهجرات الطوعية والاختيارية، وحركة رعي الأغنام على مدار تغير فصول السنة.

لقد كانت عائلة أبونسر تنتسب إلى الجد السابع الذي سيطر على مكان عال في بلدة مَصْطَبة، وجعله وكرا له كوكر النسر، فكان يكفي أن يترك عباءته معلقة بعصاه على حافة صخرة حتى يعرف الناس أن النسر يراقبهم من مكان عالٍ، فأُطلق عليه اسم النسر، وعلى ذريته دار «أبونسر»، بينما كانت الحمايل الأخرى تحمل أسماء منسوبة للقبائل، أو تنتمي إلى أول بيت قدموا إليه، وسكنوا حوله، وهو الدير، فأصبحت الحمولة تنتسب لهذ الدير.

كانت بيوت تلك البلدة بيوت عقد، وأحواش وأروقة وطرق ضيقة بين الحارات، فتحيط بيوت الحارة الواحدة ببيت كبير، يسمى مضافة الحمولة أو الحارة، فالحارات أو الحمايل تحيط بالجامع، والبيوت في كل حمولة تحيط بالمضافة، وكلها حول الجامع الكبير.

كانت البيوت مبنية على الطراز القديم، وتحيط بالجامع الحديث الذي أقيم مكانه مسجد بقبة عمرية جُددت في عهد المماليك، وتم هدمه

من أهل البلدة في العام الذي وُلد فية «سقف الحيط».

يذكر أبونسر أنه درس في القبة عندما استُعملت ككتّاب ومسجد، بعد أن بناها الرومان كدير للتعبد، واستعملها بعد ذلك المسلمون بعد أن هزموا الروم مسجدا، وتعاقبت عليها الأجيال إلى أن وصلت إلى أبونسر فتعلم تحت قبتها القرآن الكريم، وتعلم القراءة والخط والكتابة، إلى أن هُدمت وأُقيم مكانها جامع كبير.

كان تحت القبة بئر رومانية عميقة، وعلى مدخلها شجرة توت كبيرة، وارفة الاغصان والظل، تتربع بباب الجامع ويستظل بها عُمّار بيت الله قبل الصلاة وبعدها، على مقاعد حجرية أسطوانية كبيرة، بعضها زُين بنقوش لم يفكَّ لغتها أحد، وقُطعت التوتة وهُدمت القبة، وسرقت الحجارة ولم يبق أي حجر من الحجارة التي تحمل النقش، وبقي البئر.

إن موقع البلدة هو على شفاة الغور العطشى، فالشفاة لا تمسك ماء المطر ولا تخزنه، فلم تنفجر فيها عيون ماء ولا ينابيع، فماء السماء إما أن يسيل للشرق على الغور، وإما أن يسيل ويجري للغرب على ساحل المتوسط، فاحتاط ساكنوها الأوائل من الرومان ومن سبقهم، فحفروا وبنوا بركة كبيرة، لتحفظ بلدة مَصْطَبة ماء المطر الجاري من الجبال ليستقر في البرك فتكون خزان ماء لشربهم، أو في آبار جمع ماء المطر التي حفرت في الصخر بأيديهم وأيدي من سبقوهم.

اعتاد أهل القرية، ومنهم عشيرة أبونسر أن يقوموا كل عام برحلتهم في الشتاء للغور، ويبقوا فيه حتى نهاية فصل الربيع في الأغوار.

وصادف في ليلة عاصفة وماطرة وشديدة البرودة، أن وُلد فتى الغور في

الغور، في إحدى رحلات الشتاء السابقة قبل سبعة اعوام، فمنذ أن صرخ صرخته الأولى أثناء ولادته في سعد العود في النزل في الغور، صرخت الريح العاصفة مع صرخته، واستمرت بالصراخ والهبوب مع المطر المنهمر سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوما. اقتلعت بيوت الشعر لعائلة أبونسر ومن في العزب، فتطايرت البيوت والأمتعة، وتفرقت أغنامهم، وأخذت السيول متاعهم، فحملوا ما استطاعوا من الأطفال والمواليد والمتاع الخفيف، وسارعوا إلى المغر والكهوف منهكين ومقشعرّين من البرد، وثيابهم مبللة وبطونهم لاوية وخاوية.

لقد أوت أسرة أبونسر كغيرها إلى أقرب وأكبر مغارة شمالي منطقة المَداحِل، بالقرب من عين الحَفيرَة، والبقية تسللوا إلى الخزوق والمغر الصغيرة شرقي عين الحَفيرَة.

لقد وَسِعت تلك المغارة الكبيرة أسرة أبونسر الذي انشغل مع الرعاة في إنقاذ قطعان الأغنام، وتجميعها في سقوف وعرقان قريبة.

كانت نصرة، زوجة أبونسر، في منتصف العقد الثالث من عمرها، وكانت طويلة القامة ومكتنزة، وذات عيون مشروحة كحبات اللوز المشهورة بها بلدتها التي تعلو بلدة مَصْطَبة، فأخذت البلدة اسمها، قرية العِلِّيَّة، فكان من يسكن بها، كأنه ساكن في علية تطل على بلدة مَصْطَبة، من جهة الجنوب الغربي.

كانت نصرة أثناء العاصفة في حالة النفاس، فبعد أن وضعت ولدها الرابع قبل أسبوع، أوت وأولادها الصغار، وأبناء وبنات زوجها أبونسر، وسلفاتها وأولادهن، وبعض العجايز من العشيرة إلى مغارة كبيرة،

وسكنوا كلهم في تلك المغارة ذات الباب الواسع، والسقف العالي والحيطان المدرجة، وكأنها مقاعد حجرية.

كانت العاصفة القوية، قد أذهلت نصرة عن رضيعها الذي لا يتجاوز عمره أسبوع، فقد سارعت من هول الصدمة ومن معها من نساء النزل والأولاد إلى الهرولة نحو المغارة الكبيرة بجانب عين الحقيرة، وبدون وعي وإدراك، ولاهتمام كل واحد بحياته وشأنه الخاص، لم يلتفت أحدهم وراءه أو حتى بجانبه، فكل واحد يريد أن ينقذ نفسه بعد أن تخلّى عمّن لا يستطيع أن يمشي ويلحق بهم، وما إن وصلوا إلى المغارة حتى كانوا سكارى وما هم بسكارى، وكانت نصرة قد أصابتها حمى النفاس، واشتد عليها البرد والحمى، فاعتقدت مخطئة وواهمة أن رضيعها تجمد وفارق الحياة جراء العاصفة، فذهلت عنه وتركت جثته في جحر صغير، وسدت بابه بحجرين وتركته خلفها، وأسرعت تلحق بنساء النزل وهي تلهث وتنزف وتفرفر من شدة الحرارة أحيانا، وأحيانا من القشعريرة، ولم يخطر ببالها أن رضيعها الذي ذهلت عنه وتركته في الجحر حي.

لم تترك العاصفة لعشيرة أبونسر سقفا يظلّهم في ذلك الوقت إلا سقف حيط المغارة.

ولد فتى الغور، في مثل هذة الظروف القاسية، ولُقب بسقف المغارة، وبعد ذلك بسقف الحيط، فبعد أن هدأت العاصفة، ونجوا بأنفسهم وبأغنامهم، أحضر والده أبونسر جسده ليدفنه، فعادت الروح للرضيع في المغارة.

لقد كبر سقف المغارة وبلغ أربع سنوات، وعلى أثرها تفتحت ذاكرته

الغوارنية ونضجت للوجود الواعي في الغور، وأكملت ذاكرته الغورانية البناء على ذاكرته الجنينية، فأصبح يتقن فن الإصغاء والإنصات ولغة الجسد على حساب لغة الكلام والخطاب، ولما بلغ سبع سنوات، بالتحديد في أول ستة شهور من عام 67، حملت ذاكرته ما حملت حملا ثقيلا من تلك السنة.

لقد عاش الطفل بلقب سقف المغارة، وبعد ذلك سقف الحيط، وكناه جده أبوجابر من قرية العِلِّيَّة بفتى الغور، وأخيرا سماه والده «نصير» اسمًا يدخل به المدرسة. وما بين الغور والقرية والمدينة عاش وكبر بأسماء وألقاب مختلفة تطورت بتطور مراحل ذاكرته التي سجل فيها كل إرهاصات ومعطيات وحصيلة أيام الغور في رحلة الشتاء الأخيرة لأهالي بلدة مَصْطَبَة.

لم تكن تعرف أسرة أبونسر وسكان الغور من أهالي البلدات المطلة عليه، أن هذه آخر رحلة شتاء لهم في الغور، بعد أن قام آباؤهم بها عشرات القرون كل سنة، فكانت ذاكرة فتى الغور تُسجِّل أحداث رحلة الشتاء الأخيرة لهم.

إن بلدة مَصْطَبَة، هي إحدى البلدات الكبيرة المطلة على الغور، وتعتبر أكبر بلدة فلسطينية، ولها أراضٍ تمتد إلى نهر الشْريعَة، وهي في معظمها أراضٍ رعوية والقليل منها زراعية. مع ذلك، كان ثلث سكان البلدات والقرى المطلة على الغور، يرتحلون رحلة الشتاء من بلداتهم المطلة على الغور إلى الغور، ولا يتبقى في البلدات إلا طلاب المدارس والعجائز، فكان مجموع من يسكن الغور بصورة دائمة عددا قليلا، ويتضاعف هذا

العدد أضعافا كثيرة في فصلي الشتاء والربيع، فيبدأ القرويون المطلون على الغور بالنزول والسكن فيه من تاريخ دخول المربعانية في كل عام.

كانت رحلتهم موسمية كالطيور المهاجرة، تستمر لمدة ستة شهور أو أقل، فيأكلون من خيرات الأغوار، هم أنفسهم ومواشيهم، ويتمتعون بالدفء، ويسرحون ويأكلون ما تنبته أرض الغور قبل غيرها من أراض أخرى.

وعندما تبدأ المربعانية، ينتقل معظم أهالي القرى المطلة على الأغوار إليها.

إن أبونسر وإخوانه وبعض الأصحاب والأصهار وأهالي القرى المجاورة يرحلون كغيرهم للعيش بالغور، وهذا الانتقال يكون برفقة قطعان الأغنام والأبقار والحمير والبغال والخيل التي تحملهم وتحمل أثقالهم.

لم تكن رحلة الشتاء مقصورة على أصحاب القطعان، فمن يملك منوحة واحدة سواء كانت عنزا أو بقرة «يعزب» فيها، وإن كان طاعنا في السن أنزلها كسائبة في الغور، ومن كان لا يملك شيئا كان يرتحل بنفسه وزوجه إلى الغور في الشتاء، ويختار له مغارة قريبة من عيون الماء، فيأكل مما تنبت أرض الغور، فإن عافت نفسه الخبيزة والحميضة، كان يساعد أصحاب الاغنام مقابل طعامه وشرابه من الحليب واللبن والجبن.

إن أسماء المغر والكهوف والشقوف والعراكات، كانت تسمى باسم أول من سكنها، وتصبح معروفة به، فلا يسكنها أحد إلا هو وذريته.

كان للمكان، أي مكان في الغور، اسم، سواء كان سهلا أو واديا أو جبلا أو تلة أو دبة أو كهفا أو مغارة أو شقافا أو عراكا، وحتى العقبات

والطرق الوعرة، كانت لها أسماء اشتقت من جغرافيتها أو من اسم شخص ما كان له شأن فيها، فسميت العَقَبة باسمه.

كانت الأسماء تُعلَم وتعرف بالتواتر مما يقوله الكبار والرعاة وأصحاب الأراضي للصغار، فيتوارثونها بتلك الأسماء التي بالعادة تكون مطابقة للمسمى أو دالة عليه، أو من اسم الشخص الذي حازها حيازة هادئة مؤقتة كانت أو دائمة، أو ممن سكنها أو عزب فيها، ومن زرعها مرة أو مرتين، فمن الطبيعي أن تجد سهلا أو دبة أو هضبة أو حتى سادَّة هجعت فيها أغنام شخص ما سنين كثيرة، فتصبح بسبب زبل الاغنام مكانًا متميزًا باخضراره، وسائدا على ما جاوره من أماكن، فتسمى السَّادَّة، باسم صاحب تلك الاغنام، فتجتمع عائلته الكبيرة (العرب) في تلك السَّادَّة، كسادَّة أبونسر في المَداحِل، وتُنصب بيوت الشعر بها فتصبح (النزل) وتُلحَق بها الكهوف التي بجوارها.

كانت سادَّة أبونسر التي ورثها مع إخوته قد خصصت لأولاد شاهين، ومنهم أبونسر وعائلته وإخوانه وأقاربهم وأصهارهم، كانوا قد توارثوا منطقة واسعة خُصصت لهم مراعيَ لقطعانهم الكبيرة، فكانت سادَّة أبونسر تتسع لتضم مناطق واسعة، تتوسطها قرن صِرْطِبّة شرقا، وعين الحَفيرَة غربا، وتتوسط القرن إلى فصايل جنوبا، وكروزلية وعمرة شرق جنوب القرن، وكان نزلهم في السَّادَّة في منطقة المَداحِل، وهي المنطقة المحببة لسقف الحيط، التي وعتها ذاكرته وكانت قريبة من عين الحَفيرَة.

إن المَداحِل عبارة عن مجموعة من الأكتاف المتدرجة، والموصولة مع بعضها البعض التي تؤدي إلى السَّادَّة، فمن يصعدها لا يشعر بالتعب،

ومن ينزلها تكن نزلته سهلة، وكأنها «تدحله» دحلا حتى يصل إلى السَّادَّة التي تموضعت بين دبتين متقابلتين بينهما وادٍ.

تُنصَب بيوت الشعر للمعزبين بالعادة على الدبة من الجانب الغربي للواد، وللرعاة من الجانب الشرقي له.

كان بيت الشعر لأبونسر ينصب في الدبة الغربية من السَّادَّة، وهي أعلى نسبيا من الشرقية، وكانت أبواب بيوت الشعر تفتح نحو المشرق، وظهرها إلى الجبل الغربي ليشكل مصدًّا للريح عنها، ويبتعد بيت الشعر قليلا عن الوادي الذي يفصل بينهما، ويجري فيه الماء عندما ينزل المطر في الشتاء، وتبقى البيوت منصوبة في النزل من المربعانية حتى أوائل الصيف حين يجف الماء من العود، فتبدأ رحلة الصعود والعودة إلى مَصْطَبَة والعِلِّيَّة وغيرها من البلدات بعد الربيع، وتكون رحلة الشتاء قد انتهت بالنسبة لأبونسر ولهم، فحرثوا، وزرعوا، وأكلوا مما تنبت الارض، وربعت أنعامهم، فشربوا اللبن، وعملوا الجبنة والسمنة والجميد، وحصدوا ما زرعوا من القمح والشعير، فاذا ما أقبل الصيف، وتم الحصاد، وأصبح العشب مصفرًّا وهشيمًا، يعودون إلى بيوتهم في قراهم مع أنعامهم، وتنتهي رحلة الشتاء.

عزبت عائلة أبونسر في الدبة الغربية في السَّادَّة في نزل المَداحِل في الغور، ونصبت بيت الشعر، وكان يجاوره إخوانه وأقاربه، وجميعهم لديهم الأغنام ويفلحون الأراضي بالغور، فكانت أشبه ما تكون بضيعة صغيرة، لكنها تُسمى بلغة أهل الغور الدراجة العزب أو النزل، وهو المكان الذي اعتادوا كل سنة على النزول فيه.

خصص أبونسر الدبة الشرقية من الوادي للحظائر والسير، كمهاجع لمبيت الأغنام والأبقار، وجعل خربوشا من الخيش الصغير للرعيان، بجانب المهاجع والسير والحظائر المعدة للأغنام والأبقار.

وخُصّص الجانب الجنوبي من السَّادَّة، الدبة الغربية، لتكون حظائر صغيرة للخرفان والسخول، ومرابط للحمير والخيول والبغال، بجانب «ربك» الحلب الذي يستعمل لربط الاغنام من آجل حلبها من قِبل النساء، فكانت قريبة من بيوت الشعر، في حين كان الجانب الشمالي من نفس الدبة مخصصًا لقضاء الحاجة، بجانب مكان تخزين الحطب وخم الدجاج.

كانت مسافة الخصوصية تزيد على عشرين ذراعا بين بيت الشعر والآخر.

كان أهل النزل ينظّمون حياتهم، فيكون لهم كبيرٌ أو شيخ يجتمعون عنده، قادر على تخصيص شقٍّ أو بيت للاجتماع والصلاة وللضيوف، فيختار الشيخ أحدهم ليكون مؤذنا وإماما، أو يقوم هو بذلك، إذا كان حافظا، وصوته حسن وجهوري.

يستقيظ أهل النزل مبكرين عندما يسمعون الأذان، ومن قبله صياح وتسبيح الديوك، وعواء الكلاب.

تقوم النساء بحلب بعض الأغنام التي وَلَدت مبكرا، وهي معدودة على الأصابع، فيسخن الحليب، ويكسرن الخبز اليابس في «دبسية» أو «لاكن»، ويُصَب الحليب الساخن على الخبز ويُرش السكر عليه، فتكون أكلة الخميعة، وهي وجبة الإفطار الرئيسية لهم مع الشاي، وكله يتم عمله

على نار الحطب.

استيقظ سقف الحيط ذو الأعوام السبعة كغيره، وتناول من الاكل ما تناولوه، وحمل زوادته ومطرته وعصاه، وسار مع كلبه سرحان باتجاه سير الأغنام، وكان الرعاة يقومون بفصل الخرفان والسخول عن أمهاتها، لتبقى في السيرة أو الحظيرة المعدّة لها، وحالما يسوق الرعاة القطيع وتتوارى خلف الجبال عن أعين حملانها، يقوم سقف الحيط بفتح السيرة أو الحظيرة لها، ليسرح فيها في دبة أو بطن جبل قريب من النزل ومعه كلبه سرحان.

يتجاذب الرعاة الحديث في الصباح الباكر وهم يشربون الشاي، ويدخّنون الهيشي، قبل أن يفتحوا الحظائر، ويكون حديثهم حول الأماكن التي سيرعى كل واحد بقطيعة فيها، ويتفقون أن يتلاقوا بعد الظهيرة في مكان ما في مناطقهم الرعوية، ليتقاسموا ما في زواويدهم، ويعملوا الشاي على النار، ويتذوق كل واحد منهم ما وضعت لهم نساء معزبيهم من رزق. وعلى إثر الحديث، يحمل كل واحد عصاه، ليعد أغنامه وهي تخرج من الحظيرة، ويحضر حماره، ويحلي مرياعه بقليل من السكر مع كبشة شعير، ويطعم كلبه كسرة خبز، ويقومون، كل واحد، بسوق قطيعه، لجهة ومكان مختلف ذي عشب كثيف لم يتم رعيه منذ وقت قصير، ولا يتقابلون إلا بعد الظهيرة، وفي المساء عند عودتهم إلى النزل، لتبدأ حفلة السمر بعد صلاة العشاء، وهم يحيطون بموقد النار، لتقوم النساء بطبخ ما أحضره الأولاد يوم الخميس من القرية.

ينتظر أهل النزل نزلة أولادهم من المدراس يوم الخميس، فينزل

الطلاب عند أهاليهم في الغور. كان سقف الحيط، ينتظر إخوته بفارغ الصبر، فسيحضرون الزواويد والملبَّس والشاي والسكر، وبعض الخضروات الموسمية من بصل وبطاطا وغيرها، فيكون يوم الجمعة مميزا بطبخه غير الذي اعتادوا على أكله كل يوم.

لقد سجلت ذاكرة سقف الحيط طعم أول أكلة له يوم الجمعة، وقيَّمت حاسة الذوق عنده تلك الطبخة، فكانت من البطاطا مع البندورة والبصل وخبز الشراك. يجلس الجميع ويتهافتون على الأكل، وبالعادة يكون هناك نوع من التسابق، لأن هذه الأكلة ليست بأكلة عدس حتى يتم التباطؤ بها، فهي أكلة يتم عملها مرة في الأسبوع إن كانوا محظوظين، وكان الدكنجي لديه تلك الاشياء، فهو أيضا يحضر ليوم نزلة الخميس، ويعرف ماذا سيأخذ الطلاب لأهاليهم في الغور، ويسجل على الدفتر.

يحرص سقف الحيط على أن يوجد في شق عمه الكبير أبوالعبد ليلة يوم الجمعة التي اعتاد الرجال، ومنهم والده أبونسر، أن يحضروا ويتسامروا فيها حول موقد النار وفنجانين القهوة وكاسات الشاي، بينما علبة الهيشي تدور بين الكبار بين كل حين وحين، وهو ينصت لكلامهم وشكواهم من أولادهم الكبار، كيف تركوا رعي الغنم والغور وسافروا إلى الكويت، ومنهم من التحق بالجيش العربي، ومنهم من التحق بجيش التحرير أو المنظمة، ومنهم من سافر إلى أمريكا.

لاحظ سقف الحيط في تلك الليلة أن والده أبونسر كان متذمرا وشاكيا لأخيه أبوالعبد ولإخوته الآخرين قائلا: «معقول أنا عندي ثلاثة شباب كبار، ربيتهم وتعبت عليهم، وأصبحوا رجالا أشداء، ثم أشغّل عندي

قطاريز ورعيانا». وقال متسائلا: «وعشان أيش؟ عشان عشرة دنانير بيجيبها نسر كل آخر شهر من الجيش». ويستطرد في الكلام: «والأصغر منه يمكن أرجى شوية، فعمله في الكويت وراتبه أحسن، لكنه صرّيف، وبالكاد بودي لزوجته مصروف، وأمّا أصغرهم، راح مع الثورة، والتحق بجيش التحرير مش عارف شو يسوي في العراق».

رد عليه أبوالعبد الأخ الأكبر له: «الحال من بعضه يا أخي، أنا قررت أبيع الغنم والأراضي في الغور، وهاي آخر سنة بعزب فيها، وأولادي عملوا مثل أولادك، وزوجتي قالت لي مهددة: هاي آخر سنة بتعزب. وأنا صرت وحداني مش مثلك؛ أنت عندك أولاد من زوجتك الثانية نصرة، وهم يساعدونك، وعلى الأقل يحضرون يوم الخميس وبجيبوا لكم مونة، وهاي عندك بنتك حمامة ما شاء الله عليها، قايمة بكل شغل زوجتك نصرة التي بقيت في البلد، وعندك سقف الحيط دائما معك، مرافق لك كظلك في الغور، على الأقل يسرح بالخرفان والسخول».

انفض السامر وأصبح الجو باردا في الغور، عاد سقف الحيط مع أبيه لبيت الشعر، ولاحظ والده عليه، أنه عندما ترك موقد النار وسارا قليلا، كان يرتجف من البرد، فقرَّبه منه، ووضعه تحت الفروة، ولاحظ أن ملابسه بالية ومتسخة، فوعده بأن أول واحد يأتي من إخوته الكبار من السفر، فسوف يجبره على شراء كسوة له: بنطلون وقميص وقندرة.

فرد علية سقف الحيط: أنت بتعرف متى بيجون؟

رد علية والده: «الغايب عذره معه، بلاش إخوتك يجيبوا لك، أنا راح أجيب لك من المدينة لما نعمل جبنة، ونحمل قصات الجبن، بخش على

المدينة».

سمع سقف الحيط اسم المدينة لأول مرة، فأثار هذا اللفظ فضولة الغوراني، فهو يسمع ويعرف القرية، لكنه لأول مرة يسمع بالمدينة، فسأل والده: أيش يا أبي المدينة؟

رد عليه والده، وقد فرش له الفرشة وأحضر اللحاف وقال له: مد نفسك لأغطيك الليلة، ليلة باردة، ونام راح أخبرك شو المدينة.

حاول سقف الحيط أن ينام، وكان منتظرا من والده أن يحدثه عن المدينة، فقد أصبح حلمه أن يزور المدينة، ليحقق له هدفه، وهو تغيير ملابسه التي أصبحت بالية، وممزقة ومرقعة من عند الركب، والقندرة البلاستيكية خُزقت من أطرافها ومن مقدمتها رغم ربطها بسلك حديدي رفيع.

لقد تركه والده ينام، وذهب يستطلع أحوال النزل في الليل على الدبتين، ويتأكد أن حراس النزل قد أطعمهم الرعاة، فالكلاب كما كان يعتقد إذا جاعت ابتعدت عن النزل للبحث عن الطعام، وبسبب انشغاله لم يُحدّث ولده عن المدينة، وقد قال سقف الحيط في نفسه وهو يتثاءب: «غدا سوف أسأل أبي عن المدينة». واستطرد في تفكيره: «ملابسي أصبحت قديمة، فمنذ الصيف الماضي، عندما حضر أخي من الكويت وتزوج، اشترى لي هذه الملابس»، وما أن أنهى هذا التفكير، حتى نام بعد ما شعر بالبرودة بقدميه، فسحب اللحاف عليهما ونام.

صحا سقف الحيط في الفجر على صوت عمه الجهوري، فسمع آخر كلمات الأذان (الصلاة خير من النوم) وبقي متدثرا بلحافه ما بين اليقظة

والنوم، وهو يسمع أحيانا أصوات نباح الكلاب، ويسمع حركة حوله، فقد كان والده قد عاد من الصلاة، وأخته حمامة توقد النار. كانت حمامة أصغر أبناء أبونسر من زوجته الأولى. توفيت أمها وهي رضيعة، وأصبحت الآن بالغة ومخطوبة لابن عمها، وتستطيع أن تدير شؤون العرب.

شم سقف الحيط رائحة دخان النتش والرتم، فاستيقظ وقام من فراشه، وأخته حمامة تضع بكرج الحليب على النار، وبجانبه إبريق الشاي، وجلست تغذي النار، وجلس بجانبها ليسألها عن آخر شيء فكر فيه قبل أن ينام، وآخر شيء سمعه من والده، فقال لها متسائلا: أنتِ عمرك رحتِ على المدينة؟

استغربت حمامة سؤاله وقالت: آه لمًا أجى ابن عمي من الكويت، وخطبني وعملوا لي خطبة، رحت معهم على المدينة لأشتري بدلة الخطبة والدبلة.

وأضافت وهي ترفع بكرج الحليب عن النار بعد أن غلى الحليب، ووضعت مكانه إبريق الشاي، ونهضت إلى زاوية بيت الشعر وأحضرت دبسيتين، وخبزا قديما ملفوفا بالصلاوية قائلة: «وإن شاء الله في هذا الصيف راح يجي، ونتجوز وبروح معه عالكويت، ونرتاح من هاظا الشقا والتعب».

رد عليها سقف الحيط وكان يحبها وكأنها أمه، وقد عاش معها في الغور أكثر مما عاش مع أمه نصرة: «أنت دائما مع أبي في الغور، بدك تصيري كويتية»، وقال لها مداعبا: بدك اطيري يا حمامة للكويت عند

أخينا الكويتي، وتجيبي هدايا مثل ما جاب لنا معه من مجلات فيها صور ومحفظة.

قالت وهي تبتسم وتكسر بالخبز في الدباسي وتدلك الحليب المغلي عليه: يا إقشيلي، أنا بعرف أقرأ حتى أجيب مجلات؟ وما هي المدرسة للأولاد، وإحنا البنات على دورنا ما في مدرسة، وإن شاء الله أنت بتروح عالمدرسة السنة الجاية.

كان سقف الحيط يريد أن يعيد سؤالها عن المدينة التي زارتها يوم خطبتها، لكن أباه حضر فقال له: خذ دبسية الخميعة إلى الرعيان، وتعال خذ إبريق الشاي لهم، خليهم يفطروا وينشوا الغنم، اليوم الدنيا صحو، وبدي أحرث هالذراعين اللي قبالنا، وبعفرهم شعير، وبخلي بذار القمح الأسترالي لأرض فصايل.

جلس بجانب الموقد، وصب ثلاث كاسات شاي، بينما كانت ابنته حمامة قد انتهت من الدبسية الثانية من الخميعة لوالدها ولها ولسقف الحيط والذي حضر وقال له والده: خذ إبريق الشاي إلى الرعيان، وتعال أفطر، اليوم الدنيا صحو وورانا شغل كثير، وأردف قائلا: والرحمن هو المستعان.

المربعانية

بدأ أبونسر في أواخر أيام شهر يناير 1967 يجهز عدة الحراثة والبذور، ويشد الرحال بعد أن استمر المطر في المربعانية بالهطول، فكان مطرها قد روى الغور، وسالت الأودية واهتزت ورقصت أرض الغور المنخفضة، وسقط الثلج على قمم جبال شفا الغور وما لبث أن ذاب واتجه ماؤه نحو أودية الغور.

حمل أبونسر من نزله في المَداحِل عدة الحراثة والبذور وسجة الحراثة (المحراث)، بعد أن عفر الشعير في المَداحِل، ليبذر ويزرع القمح الأسترالي في فصايل وكروزلية.

لقد قدَّر أبونسر من تجاربه السابقة، أن تستغرق الحراثة على البغلة في منطقة قناة فصايل، ومنطقة أخرى تسمى عيون كورُزْلِيّة، خمسة أيام إلى ستة بما فيها مسافة الطريق، فقد كانت تبعد عن المَداحِل مسافة ثلاث ساعات بسير البغلة.

لم يرغب أبونسر أن يأخذ ابنه الملقب بسقف الحيط معه إلى فصائل، مع أنه مولود في الغور ومعتاد عليه، لأنه سيضطر أن ينام في المغارة الليالي اللازمة للحراثة، فقرر أن يتركه بالنزل عند أخته حمامة في المَداحِل، وكان تقديره أن سقف الحيط لا يزال صغيرا، ولا يتحمل أعباء هذه الرحلة، والزاد القليل، والنوم بالمغارة.

جهزت حمامة لأبيها الزوادة، وخبزت كراديش الذرة، بعد أن عجنتها بالزيت، وخبزت طرحتين من خبز شراك، وعبأت مطرة زيت الزيتون،

ووضعت قليلا من الجبن المغلي الناشف والجميد والطحين والشاي والسكر، وسعن ماء ومونة البغلة من الشعير والتبن.

كان أبونسر الولد الرابع لأبيه المتوفى والمدعو شاهين، وكان أبونسر من الزوجة الأولى من بين تسعة إخوة وأشقاء، وكان في العقد السادس من عمره، رشيق الجسم، وليس بالقصير ولا بالطويل، وتزوج مرتين. له من الزوجة الأولى المتوفاة ثلاثة أبناء أكبرهم نسر الذي هرب من الرعي والتحق بالجيش العربي، وابنتان، إحداهما هي عائشة، متزوجة زواج «شغار» أو ما يسمى في القرى «البدل»، بدلا بزوجة أخيها نسر، والثانية هي حمامة المخطوبة لابن عمها والتي تساعده في النزل.

كان زوج عائشة ابن عمها أيضا، وقد هرب من الرعي على أثر زواج البدل إلى مكان مجهول، وعُرف في ما بعد أنه ركب الباخرة مهاجرا، لأمريكا من بيروت ولم يعد.

أما الأخ الصغير محفوظ، فقد التحق بجيش التحرير، واستقرَّ في العراق، وأما الأخ الأوسط حافظ، فقد ودعوه بمطار قلنديا إلى بيروت، ومن بيروت سافر للكويت.

عاد حافظ بعد سنتين من الكويت وقد تغير شكله وأصبح له شنب، وتغيرت ملابسه وكشف عن رأسه فبان شعره الممشط والمزين، وعاد محملا بالهدايا، وقد تصادف ذلك مع بدء ذاكرة سقف الحيط بالوعي بالوجود لما حولها، فقد التقطت ذاكرته أول ما التقطت لحظه عودة أخيه حافظ وخزَّنتها، فأصبحت ثاني ذاكرة للوجود الواعي للأشخاص بعد أبويه، وخرافه وكلبه سرحان، والغور.

لقد تشكل هذا الانطباع في ذاكرة سقف الحيط بأشكال الهدايا والمجلات، وما بها من صور، وبكلمات وألقاب سمعها لأول مرة عندما أطلقت الفتيات على أخيه لقب الكويتي، فحفظت ذاكرته ذلك المصطلح، والأشكال والصور في المجلات، نتيجة ذلك الحدث.

كان شقيقه حافظ قد عاد من الكويت ليتزوج، وأحضر معه قرشين وهدايا ومجلات وصناديق دخان أجنبي.

لقد شدت الصور الملونة في المجلات انتباه سقف الحيط، وشكَّلت لديه ما لا ينساه أبدا عندما تعلق بإحدى المجلات التي تحوي صورا كثيره ملونة، حتى إنه رفض أن يعيدها لأخيه الكويتي، وبعد المحاولات الفاشلة من قِبل حافظ لاستعادتها، اضطر لإرضاء سقف الحيط، بمقايضته المجلات بمحفظة جلدية صغيرة، فاستعاد حافظ مجلته ذات الصور التي أحبتها خطيبته وطلبتها لمشاهدة ما تلبس النساء فيها.

كان أبونسر نشيطا في عمله، وديناميكيًّا ومرنًا بمعاملاته، وهادئا بنفس الوقت، وقليل الحديث، لكن إذا تحدث استمع له الجميع. ومع أنه قليل الحديث إلا أنه يحب قص القصص والسير، وقد نال أبونسر شيئا من التعليم في الكُتّاب في مسجد القبة القديم على يد الشيخ نورالدين، وحفظ أجزاء من القرآن الكريم، فهو يقرأ المكتوب، ويخط الخط بيده، ويكتب في بعض الأحيان، حجج البيع والشراء والرسائل بقلم كوبيا، يحتفظ به في صندوق حديدي لدخان روثمان أحضره حافظ الملقب بالكويتي من الكويت، واستعمله أبونسر.

كان أبونسر مربوع الوجهة، وكثيف الشعر الذي تحول بسبب الشيب

إلى شعر أبيض، وكان حليق اللحية، وشواربه غليظة بيضاء صبغت باللون الأصفر من أثر قطران دخان الهيشي. كان معتدل القامة، وجسده مشدودا دون ترهل، وله عيون واسعة مع لمعة ذات تأثير على من حوله. وكان قوي البنية كما يذكره سقف الحيط، ومستعجلا دائما وسابقا لإخوته وأهل البلد بالعمل الفلاحي والرعوي.

كان بعد أن أعد عدة الحراثة ونظَّف السكة وعاين كل مستلزمات جر عود الحراثة، وبدأ تحميل البغلة، وحمامة تضع الزوادة بالخرج، وسقف الحيط ينظر إليهم ويحضّر نفسه ليرافق والده كما كان يفعل من قبل، أحب أن يذهب مع والده، إلا أن أبونسر قال له: «اطلع مع إخوتك إلى البلد، فعطلة المدرسة قربت تخلص، فروح معهم أو خليك في النزل عند أختك حمامة وساعدها بالتحطيب، واذهب معها إلى عين الحَفيرَة لملء السعن والقربة بالماء». لم تعجب سقف الحيط خيارات والده، فقد كان متعلقا به، وحتى، وهو في البلد كان يرافقه في العزائم وفي المآتم وفي صلاة يوم الجمعة في الجامع والأعياد وسوق المواشي.

ترك أبونسر النزل وساق بغلته. وعلى حين غفلة لحق به سقف الحيط، وهو محتفظ بمسافة عدم الرؤيا، فكان حذرا أن يراه والده فيعيده للنزل، وتبع سقف الحيط كلبه سرحان الذي سبق أن رباه وهو جرو صغير.

تابع سقف الحيط مسار والده، فحيثما تخطّى دبة أو قطع واديا كان يلحق به وقد أمسك برباط كلبه حتى لا يكشف أمره، حتى إذا ما ابتعد أبونسر عن مكان النزل وأصبح ليس بمقدوره أن يعود بسقف الحيط إلى

النزل، بدأ بالاقتراب وأطلق قيد كلبه سرحان تاركا مسافة أقرب ليراه والده. وكان ذلك، بعد أن قطع أبونسر والبغلة أكثر من واديين ومن جبل، فتأكد سقف الحيط أن والده لن يعيده، فركض باتجاهه بعد أن كان يسير ببطء ويختبئ خلف الصخور، فسمع والده نباح سرحان، فالتفت إلى الوراء فرأى ما رأى؛ سقف الحيط وكلبه، فوجد نفسه في موقف صعب؛ أيعيده ويخسر نصف يوم أم ياخذهما معه؟ فاستسلم للأمر الواقع بسبب أنه لا يريد أن يعود به إلى النزل، فيضيع الوقت بعد أن قطع كل هذه المسافة، خصوصا أن العودة مع البغلة والحمل الذي عليها مرهق وهدر للوقت، فقال له: «اركب يا بني على ظهر البغلة، لكن احذر سكة عود الحراث لا ينخزك»، وساروا والكلب سرحان تقريبا ربع نهار، ما بين صعود للجبال ونزول للوديان والسير على الهضاب وفي مسالك الأغنام، حتى وصلا إلى المنطقة التي تسمى كورُزْلِيّة، وكانت قريبة من فصايل، والمغارة تقع في منطقه وسطى بين فصايل وكروزلية، واختار أن يبدأ بكروزلية، فأرضها أصغر من فصايل.

وصلوا بعد الظهيرة، وكان قد تبقى نصف النهار، فصلى أبونسر الظهر بعد أن سقى البغلة من العين، ووضع لها العليق في رأسها، لتأكل ما تيسر لها حتى تقدر على الحراثة، وجر العود الذي يخترق ويتلم التراب بعمق عدة سنتميترات.

قام بعد الصلاة وعقد على البغلة عدة الحراثة، وبدأ ببذر القمح الأسترالي الذي يتحمل حر الغور، وبدأ الحراثة وهو يخط التليم والبغلة ذاهبة وعائدة، وهو يمسك عود الحراث بيده اليمنى، واليد الأخرى

تمسك بالمهماز.

بينما كان أبونسر يحرث كان سقف الحيط يلعب هو وسرحان، بعد أن أخذ رغيف خبز الشراك مع الجبن، ويرمي إلى سرحان قطعة من الجراديش، وأحيانا يسيران مع البغلة أو خلفها أو يلعبان بالماء بعين كورُزْلِيّة. مكثا يومين، وكانا ينامان في المغارة التي كانت في بطن الجبل الذي يفصل عين كورُزْلِيّة عن فصايل، وينام سرحان على باب المغارة، وبعد العشاء يتم إطعامه من كسرات الكراديش. وخلال تلك المدة، وقبل غياب الشمس، يجلسان على باب المغارة، فقد كان هناك صفا (صخرة ملساء)، وكان أبونسر يمسك حجرا له حد كالسكين، تسمى (شحفة) ويعلّم في الصخرة بالكتابة، فتحدث نقشًا على الفطريات الصخرية السوداء المنقطة باللون الأخضر. وكان يحاول أن يعلّم سقف الحيط كيفية كتابة اسمه. وما يتذكره سقف الحيط أن والده أمسك بيده، فأخذت يد والده تدفع يد سقف الحيط لينقش ويخط حروف اسمه على الصخرة، فكانت الحروف الأخيرة من الاسم الذي لم يكن يعلمه سقف الحيط. لم ينقش أبونسر أول حرف من اسم ابنه، فكانت محفورة بذاكرة سقف الحيط كما هي محفورة بالصخرة (... صير) دون أن يعرف ماذا تعني أو أنها ستكون جزءا من اسمه، واستمر هذا النقش بذهنه، وقد استغرق وقتا طويلا حتى عرف أنه يجب أن يضاف لها حرف في البداية (ن). وقد حاول في ما بعد البحث عن تلك الصخرة، ويبدو أنها أُزيلت ليقام مقامها قاعدة إسمنتية تحمل مدفعا رشاشا، لكن الصخرة لم تزل صورتها قائمة في ذهنه، وأثرت على طريقة إنجازه وتنفيذه لخطوات عمله، بتغافله دون

علـم عـن الخطـوة الأولـى والمقـدمات، فكـان سـقف الحـيط مسـتعجلا للنتائج غافلا عن شيء ما، مهم في إنهاء الأعمال التي يقوم بها في ما بعد.

كـان هنـاك بعـض الحـراثين في تلـك الأرض المنخفضـة، وكـان والـده وهو يحرث ينظر إلى السماء لمعرفة إذا ما كان هناك غيم أو سحاب يمهّد للمطر، وينهر البغلة دي... الله يغيثنا. وكـان سـقف الحـيط يقـاطع والـده وهو يمشي أحيانا بمحاذاته أو خلفه في التلم، ويرافقه كلبه ويسـأله: «شـو يعني الله يغيثنا؟».. فيتبسم أبونسر قائلا: «يا ابني، إذا لم تمطر خـلال هـذا الشـهر مطـرة تـروي عطـش الارض، فجميـع مـن في الغـور –وهـم كثـر– سـيعودون إلـى قـراهم خـائبين، فقـد جـاؤوا إلـى الغـور مسـبّحين يبتغـون الرزق، من القلة ونقص المونة والجـوع، ففـي الغـور إذا أمطـرت، وروت الأرض، اهتزت ورقصت وأنبتت أرضه من كل أنواع النباتات والأعشاب ومما يأكل الناس من خبيز وحميض، وبيسوم وخردل وسلك، ويجمعون بيض الشنار، ويكون محظوظا من وجد مدحاة فيأكل البيض، ومـنهم مـن يصيد الأرانب، ويفنس الطيور في المغر والكهوف، فالناس تأتي إلى الغور بـدون أي متـاع، وتعـيش هنـا بالـدفء وتأكـل مـن الأرض، وتشـرب مـن الينابيع حتى يربعوا ويخرجوا قبل دخـول الصـيف علـى الغـور، فيبـدأ مـن زرع بالحصاد بالغور قبل أوانه وغيره من المناطق، فيسدد دينه لبطرس من أول بيدر».

بين الضفتين

كان أبونسر وابنه قد آووا إلى المغارة التي تعرف باسم أخ من إخوته، كان عمل لها ساحة للجلوس على مدخلها، وأزال الصخور من حول الباب، وحسَّن أرضيتها، فأصبحت كالحجرة في بطن الجبل الذي يطل على جبال شفا الغور الشرقية. وقبل أن يناما كانا يحدقان بالشرق، فباب المغارة مواجه للشرق، فكان سقف الحيط ينظر إلى الجبال الشرقية التي تعلو وهو مستلقٍ على حلس البغلة، ومتغطٍ بجزء من فروة والده المقلوبة، فالصوف كان من الداخل، والجلد من الخارج، ولا يوجد قماش بها.

كانت تبدو الجبال الشرقية لهما بسبب ارتفاعها قريبة وهي بعيدة، لكنها أقرب من بلدتهم مَصْطَبة، فسأل سقف الخيط والده: ماذا يوجد في تلك الجبال؟

أجاب والده وهو ينفث دخان هيشته: «يوجد ناس عايشين فى قراهم في الجبال الشرقية في الضفة الشرقية للشريعة، والمطلة على الغور»، وأضاف: هم مثلنا يقومون برحلة الشتاء، وينزلون في المربعانية وبالربيع إلى الغور.

أراد أبونسر أن يزود ابنه الفضولي بما يعلم حتى يتفادى سؤالًا آخر فقال: إن هناك ضفة شرقية وأخرى غربية، ونحن الآن في الضفة الغربية. وأراد كذلك أن يسترسل ويخبر ابنه بالنهر، إلا أنه تفاجأ بفضوله الذي كان يتحاشاه، فسأل سقف الحيط ببراءة والده: ليش في ضفتين؟

لقد وقع الذي كان يخشاه والده، فهو فضوله، فلقد كان دائما يرافقه أينما ذهب، وتفتحت ذاكرته في الغور، فسقف الحيط لا يعرف إلا القليل عن أهل القرية، فمنذ أن بلغ أربع سنوات وهو في الغور، وأصبح كل ما في ذاكرته متعلقا بالغور وصمت الغور وسكونه، فتشكلت لديه ذاكرة غورانية، تتقاطع مع ذاكرته الجنينية وهو يبلغ من العمر سبعة أعوام، ووالده يخطط ليبعده عن الغور، ويعطيه اسما غير لقبه، ويدخله في مدرسة القرية، ويعيش بين إخوته وأبناء عمومته، ويتفاعل مع أطفال القرية، ويعيش حياته كطفل، ويكون بذلك لم يظلمه، ولا يشعر بأي تأنيب للضمير. لهذا السبب كان يجيب عن أسئلته، حتى لو لم يكن لديه جواب كان يخلق جوابا له من أجل أن يشبع فضوله، ويزوده بما وصل إليه من معلومات ومعارف، وما اكتسبه من خبرات، لأنه لم تتح لسقف الحيط فرصة اللعب والتعلم والاحتكاك والانفعال، والتفاعل والتقاتل مع الأطفال، وحتى مشاركتهم أحلام يقظتهم. فكان أبونسر رغم تعبه من الحراث، لا يتذمر أن يرد عليه حتى لو كان سؤالا بالنسبة له تافها، كهذا السؤال الذي سأله سقف الحيط لوالده؛ «ليش فيه ضفتين؟».

استرخى أبونسر على جنبه وأسند ذراعه على حجر، كان قد وضع فروته فوقه وأجاب وهو يقول لنفسه: «ساخبره بكل ما أعرف حتى لا يسأل مره أخرى». وبعد أن أنهى لف سيجارة أخرى من الهيشي من علبته قال: «لأنه يفصل بينهما الشْريعَة أو ما يسمى نهر الأردن، وهو نهر طويل ومتعرج يفصل بين الضفتين الشرقية والغربية، ويحيط بجوانبه شجر كثيف من القصيب والدفلى والسدر وتسمى بمنطقة الزور». وأضاف أبونسر وهو يسترجع

ذكرياته: «ويوجد في النهر مخاضات لا يعرفها كثير من الناس لكننا نعرفها، وكنا نرشد الناس الذين يريدون أن يقطعوا الشْريعَة ليسلكوها دون غيرها ولا يسحبهم الماء، وإذا كان هناك أغنام، فلا بد من الذهاب بها إلى الجسر». وكان يتوقع أن يسأله سقف الحيط عن منطقه الزور. إلا أن سقف الحيط سأل والده عن المخاضات: «أيش يعني مخاضات؟».

أجاب أبونسر وهو يبتسم: «يعني زي مخَّاضة سقا اللبن»، وقد قال ذلك وحول ابتسامته إلى ضحكة وقدح بالصوفة والصوان، فأشعل النيران بالصوف والقش، وبعض أعواد الحطب، وولع سيجارته، ووضع بعض الحطب الذي جمعه مسبقا، حتى إذا ما اشتعلت، قرب الأحجار الثلاثة، ووضعها حول النار ووضع إبريق الشاي فوقهن على النار، وقال: «لا يا ابني، مخَّاضة يعني منطقة واسعة في النهر، وبها ماء ضحل يجري الماء فيها ببطء وليس بسرعة، يعني يقدر الرجال والدواب تمشي وتقطع النهر دون أن يغرقوا إلى الجهة الأخرى». وأضاف: «وإذا أردت أن تقطع أنت أو خرفانك فسوف تغرقون، ففي العادة يتم حمل الصغار على الأكتاف أو على البغال والحمير، أو يذهبون بهم إلى الجسر، تماما كما لو كان هناك أغنام وماعز».

واسترسل أبونسر قائلا: «ذكرتني يا ابني بوالدي، عندما كان يحرث هذه الأرض قبل خمسين سنة أو أكثر، وكنا صغارا، بس كنت أنا أكبر منك، وكان بيت الشعر منصوبا أسفل هذا الجبل، وكانت أيضا بيوت شعر شاهين أبوالعبد من بلدة العِلِّيَّة الأكثر ارتفاعا وبرودة من مَصْطَبة، وفيها عيون ماء، وكان هناك أصهار ونسايب لسيدك شاهين من قرى

أخرى، ذهبوا يلاحقون ضبعا في جحره في منطقة اسمها عمرة».

توقف أبونسر عن سرد قصه والده شاهين ليضع الشاي والسكر في الإبريق، ويسخّن بعض أقراص الخبز المعجون بالزيت والشومر، فهو يعرف أن سقف الحيط جائع، وبعد أن ولَّع هيشته من جمرة من النار مباشرة، وقال مكملا قصة والده شاهين:

«لقد صادف في ذلك الزمان، وفي نفس هذا المكان يا بني، أن جاء ضيوف لسيدك من عرب التعامرة من جهة الخليل، ونصبوا بيوتهم بالقرب من العزب، وكانوا يعرفون سيدك، ونزلوا ضيوفا في شق الضيوف، وقصرت والدتي في إكرام ضيوفه في غيبته، فلم تقم بذبح ذبيحة وطبخها وتقديمها للضيوف، واعتقدت أن النساء الأخريات في النزل يتوجب أن يطبخن. ويبدو أن المرحومة والدتي كانت مريضة أو زعلانة أو معذورة، فالنساء يا بني عند كل شهر يتغير سلوكهن مع الجميع حتى مع الزوج فيعتزلها، وتكون شياطين الأرض مشعشعة برأسها، وتتكلم بكل كلمة توحي لها بها، شياطينها والله اعلم، الله يرحمها.

عندما حضر سيدك أبوالعبد، الحاج شاهين الله يرحمه، روحه طلبت الرحمة، وشاف الضيوف بدون ضيافة اشتاط غضبا مع إنه، الله يرحمه، كان معروفا عنه أنه حليم وصبور، وقال لها: يا أم العبد ما دام الضيوف دخلوا البيت عندي فهم ضيوفي، حتى لو لم أكن في البيت. ويبدو أن المرحومة رادته بالكلام وهو منهمك، ويفكر كيف يتدارك الموقف مع الضيوف، وكان يصرخ بأخي الكبير؛ قم أحضر كبشا أو تيسا من عند الرعيان، واذبحه لإكرام الضيف.

كان الضيوف قد وصل إلى سمعهم وهم في الشق كلامه وشكواه من التقصير، وغضبه فقاموا وهم يقولون: خيرك وكرمك واصل يا أبوالعبد، احنا تقهوينا وارتحنا ومستعجلين، ومعزبنا بالعوجة ينتظر وصولنا، وحبينا نسلم عليكم وأهلك ما قصروا، واحنا من رفضنا وحلفنا على أم العبد ما تذبح شيء.

لقد كان سيدك يعرف أنهم يقولون ذلك حتى لا يشعر بالحرج، فحلف عليهم أنهم إذا لم يبيتوا هذه الليلة، ويذبح لهم ذبيحة أنه سيحضر ضرة لها. فلم ياخذوا كلامه على محمل الجد، فقاموا وودعوه ومن في النزل».

واستطرد أبونسر في سرد الحديث لابنه قائلا: «لم يهدأ سيدك، وكان إذا قال أو أقسم فعل، فقرر ألّا ينام الليلة إلا أن يجيب لها ضرة». أخذ أبونسر نفسا من السيجارة ورماها، وصب الشاي وتبسم موجها كلامه لسقف الحيط الذي كان يستمع ويسجل في ذاكرته: «لكي تتعلم أن تكرم الضيوف في غيابه مرة ثانية»، وأكمل: «لقد كنا صغارا في ذلك الوقت -بس مش في سنك-، أنا كنت أكبر منك، وكان عمري ثلاثة عشر عاما، وعلى ما أذكر أنني سمعت من أخي الذي يكبرني، وكان موجودا في ذلك الوقت، أنه رأى سيدك امتطى فرسه التى كانت تدعى صبحة، لوجود بقعه بيضاء فى جبينها وسار نحو الشرق إلى الضفة الشرقية، وأنه قطع الشْريعَة من المخاضات، ووصل إلى البلقاء»، وهنا قاطعه سقف الحيط: «أين كنت أنت يا أبي؟»، أجاب أبونسر بسرعة: «كنت رايح أبعث زوادة للرعيان».

عاد للحديث عن والده أبوالعبد قائلا: «وكان له أصحاب ومعارف في البلقاء، ومنهم واحد صديق له من أهل بلدنا، ومعروف في البلقاء، وكان

صديق سيدك، ويدعى جهيمان، وهو يعرف قبائل كثيرة من البدو، فاستضافه وقص عليه القصة، وقال له جيهمان: طلبك عندي يا أبوالعبد، فأخبره أن هناك امرأة توفي والداها وهي من البدو وكنت ناوي أتزوجها، لكن أنت تعرف زوجتي قوية وغنية وكبيرة، وما جابت إلا صبي واحد ووقفت. وأضاف: قوم معي، والله لأخليك الليلة توفي بالقسم، بشرط إنك إذا كتب لك النصيب، وخلفت منها تزوجني ابنتها. ضحك سيدك، وهذه أول مرة يضحك منذ ترك العزب وتوجه تلقاء البلقاء، وما هي إلا ساعات حتى كانوا في بيت الشعر عند شيخ القبيلة، الذي أكرمهم وصب القهوة لهم فلم يشربوها، فغضب الشيخ ثم استدرك بالكلام قائلا: اشربوا قهوتكم، وطلبكم مجاب حتى لو كان لبن العصافير.

شربوا القهوة وتناولوا المقسوم من الزاد وسهر معهم، وحكى لهم السولافة، فقال شيخ العشيرة وهو من عشيرة معروفة في البلقاء: طلبكم مجاب عنا يا أبوالعبد، هاظ مثل أخوي جيهمان صب القهوة مرة ثانية يا ولد لعمك.. وتزوج سيدك تلك المرأة، وشهد جيهمان على الزواج، وأُحضرت البدوية وضحة للمجلس، فرآها أبوالعبد، فكانت امرأة ناضجة في منتصف العقد الثالث من عمرها، بلباسها البدوي الأسود والمطرز بالأحمر والوشم المضروب بوجهها ويزيّن خديها وجبهتها، في حين كان غطاء رأسها ملفوفا حول رأسها وجيدها، ومزينا بقطع فضية تتدلى على جبهتها، وكانت تضع في أحد جيوبها غليونا للدخان، يظهر رأسه من جيبها الأيمن، وكان جيبها الأيسر مملوءا بالتبغ.

قال شيخ العشيرة: يا أبوالعبد، هاي بنتنا وضحة هدية ما من ورائها

جزية، هي من بنات عمومتنا، توفي أبوها وأمها، وهي صغيرة فتربت عندنا مع بناتنا، فهي حلالك على كتاب الله وسنة نبيه، وشو بتمهرها هي راضية فيه، وأمام الشهود.

أخرج أبوالعبد عشرين جنيها فلسطينيا كمهر، وسلمها للشيخ ولي العروس، وعقد قرانه في نفس الليلة وفي نفس المجلس، وأحضرها وراءه على الفرس، بعد أن شكر صديقه بنفس الليلة وقال له: احنا على الوعد.

حزمت وضحة أمتعتها، وهو متاع قليل وقالت له: يا ابن الحلال أنا مبتلية بالدخان بالغليون، فلا تمانع أنك توفره لي».

واستطرد أبونسر قائلا: «وكان سيدك ما يدخن، لكنه رضي بشرطها، فركبت وراءه على الفرس». وتوقف أبونسر عن سرد القصة، وأشعل سيجارة وصب الشاي، وأعطى سقف الحيط نصف فطيرة القرص ليأكلها وهي ساخنة، وأكل جزءا يسيرا، وشرب الشاي وقال: الله يرحمها زوجة أبوي وضحة البدوية علَّمتنا على الدخان.

وواصل سرد قصة والده أبوالعبد قائلا: «عاد فجر ذلك اليوم بارًّا بقسمه، فقسم بيت الشعر إلى ثلاثة شقوق (أقسام)، وجهَّز لها شقا في بيت الشعر في نفس الليلة، وذبح الذبائح، وعزم وجهاء العرب، ومن في الأغوار من أهل البلد على وليمة الزواج».

تثاءب قليلا أبونسر قائلا بثقل: «لقد أصبحت ستك الله يرحمها كريمة بعد تلك الواقعة، وبعد أن أوفى بوعده، فكانت أكثر واحدة كرمًا بالنزل، ومطاوعة، وسيدك أكرمها فحجت معه، وكان يحاول أن يعدل بينهن، ويتنافسن بالحبل والولادة، لا حبا في الأولاد والبنات، بل لأنه سيدك

كانت إذا حملت إحدى زوجاته نقلها إلى القرية».

لقد خلفت وضحة ثلاثة ذكور وثلاث إناث، وهن عمات سقف الحيط، فقال سقف الحيط متعجّبا وبراءة الطفل: يعني أعمامي ثلاثة وأخوالهم من الضفة الشرقية، وأنت وأعمامي الخمسة خوالكم من الضفة الغربية.

اجاب أبونسر: «نعم يا ولدي، بس عماتك كلهن أخوالهم من الضفة الشرقية»، وتوقف الحديث برهة من الزمن، وبعد صمت وتفكير من سقف الحيط سأل أباه، لكن بنبرة فيها أدب وخجل: «يا أبي أنت تزوجت والدتي، وزعلت مثل أبيك من خالتي المرحومة، والدة إخوتي الكبار وشقيقتي حمامة؟». فتبسم أبونسر وقال وهو يسحب نفس من سيجاره الهيشي: «لا يا ابني، خالتك المرحومة توفيت فجأة، وكان إخوتك صغارا، والحلال كثيرا، والبيت لم يكتمل عقده، والبئر لم ينتهِ حفره، والتعزيب.. وكل ذلك يحتاج إلى سند، والزوجة هي سند زوجها، فلم يكن لديَّ خيار إلا أن أتزوج. وكان النصيب فتزوجت والدتك التي كانت أرملة، وهي من خوالي من بلدة العِلِّيَّة القريبة، فرزقني الله أنت وأشقاءك وشقيقاتك لتكون أنت دون إخوتك معي في الغور في هذه الوقت ومن قبله».

سكت أبونسر قليلا، وأردف: «بس عمك شقيقي الأكبر مني عمل زي ما عمل والدنا، بس زعل من زوجته بسبب العزايم، ورفضها الطبخ راح متزوج عليها من البلد». وعاد وتوقف عن الحديث وصب الشاي ولف سيجارة وولعها من الجمر، وأخذ ينفث عليها ويتفل بعض قطع التبغ الصغيرة التي علقت في فمه، وهو يتذكر شريط حياته، فهو في هذا الوقت

ابن ستين عاما، قضى معظمها في الغور، وهو يشعر أن الغور وما فيه مثل قبضة يده، فلقد قضى عمره في فلاحة الأرض، وفي نقل الحلال من الغور إلى الجبال الغربية، حتى إنه وصل إلى مردا وكيري وقراوة بني حسان، وأحيانا كان يقطع بها الشْريعَة ليرعوا في البلقاء.

لم ينس أن يقص على سقف الحيط الذي بدأ يتثاءب عن أيامه أثناء الحرب العالمية الثانية، وكيف أنهم وصلوا إلى العراق من أجل شراء الأبقار وجلبها إلى فلسطين، وكيف ساقوا قطيع البقر من العراق إلى فلسطين لبيعه للإنجليز، وكيف قطَّعوها نهر الزرقاء والشْريعَة من مخَّاضة الصعايدة. وأضاف أبونسر: «غدا الخميس بدنا نرجع على المَداحِل من طريق ثانية أبعد شوية، بس أسهل على البغلة بعد حراثة خمسة أيام، من الطريق التي حضرنا منها، وإن شاء الله بتشتي الدنيا، وبحضروا إخوتك من المدرسة، وبجيبوا لنا أخبار البلد، وراح يجيبولك توفة وملبس، ويجيبوا بعض الأغراض، وأكيد أمك عملتلك شيء أو زوادة خاصة فيك، وأرسلتها لك مع إخوتك، ويمكن ترسلك غيار (لباس) أخوك، ما أنت على راسه بعد ما صار ضيق عليه وخيطته، حتى تغير ملابسك التي لم تبدلها منذ أن عزبنا في الغور من ثلاثة أسابيع». لم يكد ينهي حديثه حتى كان سقف الحيط قد نام، فوارى أبونسر جمر النار بالتراب، وجعل الحجارة فوقه، وتمدد بجانب ابنه، بعد أن وضع الخرج وسادة. وضع حطته على عينيه، وتغطى بالفروة، ومن تحتهما حلس البغلة، وسرحان باسط ذراعيه على الأرض في وصيد المغارة، والبغلة قد ألقت بجسدها على جانبها الأيمن في أسفل الجبل.

جبل قرن صِرْطِبّة

استيقظ أبونسر قبل أذان الفجر على نباح سرحان، فغطى سقف الحيط بكامل الفروة، نزل من المغارة ليعلف البغلة، فاليوم آخر يوم حراثة، فلقد تبقى قليل من البذار يكفي لما تبقى من الأرض، وهو عبارة عن خصم بجانب الجبل، كان قد أضافه لأرضه، ولا تستغرق حراثته إلا نصف نهار.

كان سرحان قد بدأ يشمشم حول موقد النار لعله يجد شيئا من بقايا الطعام، بينما كان أبونسر يرفع الحجارة عن الموقد. نهرَ سرحان ليبعده قليلا فاستجاب وجلس غير بعيد على مؤخرته ورجليه مستندا إلى ذراعيه، وهو ينوص مذكرا أبونسر بطعامه، وكان أبونسر ينبش بعصاه التراب عن الجمر، ويضع فوقه رتما جافا وحطبا، ووضع إبريق الشاي بعد أن اشتعلت النار، وصلى الصبح، وصب الشاي ورشف منه قليلا، وفتح علبة الدخان ولف سيجارة الهيشي، وأشعلها من الجمر، وأخذ ينفث دخانها، فاعتدل مزاجه بعد أن أمد جسمه بالكافيين، فوضع قرصا من الفطير على حجارة الموقد ليسخنه، بعد أن قسم منه جزءا صغيرا، ورماه لسرحان الذي هجم عليه، في حين تناول أبونسر نصف ما تبقى من القرص، وشرب كاسا آخر من الشاي، وخبأ النصف الآخر لسقف الحيط ليأكله عندما يستيقظ من نومه.

نهض أبونسر، وركَّب عدة الحراثة وبذر ما تبقى من البذار في الخُصُم، وكان يساوره الشك بأن الزرع بالخُصُم سوف يكون دليلا، وتوكل على الله وبدأ بالحراثة، وطلعت الشمس عليه وهو يحرث على البغلة، فإذا بسقف الحيط قد استيقظ، ونزل هو وسرحان عنده، فقال أبونسر له: «إن شاء الله

بنخلص عند صلاه الظهر، روح هاي في نصف قرص من الفطير سخنه والشاي على النار، وأفطر وارمِ قطعة لصاحبك سرحان».

أنهى أبونسر الحراثة، وقد تعامدت الشمس، والبغلة عرقها يسيل، ففك عنها العدة وغطى ظهرها بكيس البذار الفاضي، وقادها للقناة لتشرب وتأكل، وطلب من سقف الحيط أن يلم العدة والأمتعة، بينما هو يتوضأ من القناة ليقوم لصلاة الظهر، وليأخذ بعدها قيلولة ما بعد الظهيرة، فيكون قد ارتاح وارتاحت البغلة فيصلي العصر، ويعودون للنزل من طريق آخر من جهة قرن صِرْطِبّة.

حمل أبونسر العدة على ظهر البغلة من جهتين، وجعل مكانا على ظهرها لسقف الحيط، ومد رسن البغلة وربطه بشجرة السدر.

ابتعد قليلا عن ظل الشجرة، ونظر إلى السماء والشمس، وغرس عصاه في الأرض، وعاين ظلها فوجده قد سكن شرقي العصاة، فنزعها وقال على مسمع ابنه: «أعتقد أن ميقات صلاة العصر قد حان»، ودلف قليلا إلى القناة، وتوضأ وملأ السعن بالماء، وعاد فصلى العصر، وفك رسن البغلة، وألقى نظرة أخيرة على حرثه، وقال داعيا ربه: اللهم اسقنا الغيث، واسقِ الزرع والضرع، وتلا الآية الكريمة: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}.

وأضاف: إن شاء الله نحصد ونذري يا ابني، وهذا ما وعدنا به الرحمن.

حمل ولده، ووضعه في المكان الذي خصصه له على ظهر البغلة، ورمى بالفروة على ظهر سقف الحيط.

ساروا والكلب سرحان خلفهما، وأحيانا يسبقهما، ويشمشم بين الصخور، لعله يعثر على عظمة أو أي شيء يتسلى به، ولربما يعثر على أرنب

أو نيص أو حتى قنفذ، إلا أنه استمر باللهاث، وهذه حال الكلاب سواء كانت تعبانة أو مرتاحة؛ دائما تلهث، واستمر بالبحث واللهاث، وهو يسير خلفهم ومن جنبهم.

ساروا على حدب تلال، وحواف الوديان، والشمس تميل للغروب، حتى طلعوا من الوادي على سفح دبة، وكانت البغلة التي يقودها أبونسر تسير في مسلك توسَّع وتماسك ترابه نتيجه تكرار سير الأغنام عليه، فحفرت أرجلها مسلكا، تَشكل في الشعاب من قبلها، وجاءت بعدها الدواب من حمير وبغال، فزادته حوافرها صلابة وتوسعا، فأصبح الإنسان والحيوان المحمل يسلكه، وكأنه طريق يسهل سلوكه من العابرين للغور.

إن الحيوانات بالعادة، أمهر من البشر في اختيار أسهل وأقصر الطرق، فهي بغريزتها تبحث عن أسهل الطرق وأقصرها، وما على الإنسان إلا أن يتبعها. إن معظم طرق الغور لم تكن من صنع الإنسان، بل كانت من اختيار الحيوانات وهي تسرح وترعى في الغور، فيقوم الإنسان بسلوك نفس مسالكها، فأصبحت في ما بعد هي الطرق المعروفة للناس العابرين في الغور.

سار أبونسر حتى تجاوز حدبة الجبل المطلة على طرف من فصايل من جهة، ومن جهة ثانية تطل على منطقة عمرة، وهي منطقة وعرة وكثيرة الصخور، فقال أبونسر لابنه: «هذه المنطقة اسمها عمرة»، وأشار بعصاه وأضاف: «وهذيك المغارة، إذا كنت تراها يا بني، مرة أنا وأعمامك، أيام الرعي والشباب في سنوات القحط، طخينا فيها ضبع بعد ما كان مخوف الناس بالليل، فلا يستطيعون أن يخرجوا بالليل حتى لا يسرق عقولهم ويلحقوا به وهم ينادون وقف يا أبي، حتى إذا ما دخل الشخص المسروق

عقله (المضبوع) الموجرة (الجحر) فتك به الضبع وافترسه». وراح أبونسر يقص عليه قصص الضباع والوحوش في الغور، وكيفية سرقتها لعقول الناس، وقص عليه قصة الرجل من القرية المجاورة، وجدوه قد علق بين صخرتين، ولم يستطع أن يلحق بالضبع إلى جحره، فكان تعلقه بين الصخرتين، وعدم تمكنه من الخروج سبب نجاته، فسمع صوته الرعاة في صباح اليوم التالي، فتابعوا مصدر الصوت، وهو لا يزال يهذي وينادي الضبع، فاستغاثوا بأهل القرية فأنقذوه.

سأل سقف الحيط أباه مستغربا: «كيف يسرق الضبع عقل الزلمة؟». أجاب أبونسر: «إذا ما فاجأ الضبع الشخص بالليل، يقفز على ظهره، ويصدر أصواتا قوية في أذني الشخص، وشيء من الرغوة، واللعاب الذي يخرج من فمه فيستنشقها الشخص، ومن الصدمة والخوف يفقد السيطرة على أعصابه، ويذهب عقله، ويتوهم ويعتقد أن الضبع والده، وهو ليس بوالده، بل هو حيوان مفترس، تتركز قوته بفكه القوي، فيلحق الشخص الضبع متوهما ومستسلما له، ومناديا عليه، ومتوهما إياه كوالده ويناديه حتى ينتظره، فإذا دخل الضبع جحره، دخل وراءه فيفترسه». واضاف ليطمئن ابنه حتى لا يخاف، قائلا: «إن الضبع في النهار كالكلب، وفي الليل فهو ضبع، ويضبع الناس الذين يخافون منه، فعمرك ما تخاف منه».

استمر أبونسر يقص القصص على ولده، وذلك من أجل تضييع الوقت، وحتى لا يشعر بالملل من طول الطريق والوحدة بعد قضاء خمسة أيام في الحراثة وأربع ليالٍ في المغارة.

واصل أبونسر قص القصص على سقف الحيط، فذلك شيء يحبه،

ويعلم أنه يُشبّع فضول ابنه، فقص عليه قصة بنائه لأول بيت قبل سبع سنوات، عندما كان سقف الحيط لا يزال جنينا في رحم أمه.

فقال أبونسر: «لقد فكرت أن أبني بيت العمر»، وأخذ أبونسر يصف البيت قائلا: «بيت العقد بقبة، وذو حيطان سميكة، فعرض الحائط متر تقريبا، وتقل سماكة الحيطان كلما ارتفع، ويكون السقف على شكل قبة وبدون حديد أو إسمنت، والبناء يبدأ بتكويم التراب ليرتفع بارتفاع الجدران التي تُبنى بحجار وجير محروق، وطين وتبن، وكنت في ذلك الوقت لا أزال أعيش مع زوجتي الأولى وأبنائي صغارا وأعيش مع إخوتي في حوش العائلة الذي تركه لنا سيدك، وكان كبيرا يضم عدة حجرات ورواقا للدواب كبيرا، وكان في البلدة القديمة.

كان معلمو البناء والحجارون من قرى شفا الغور المختلفة، وكان يجب أن يوفر أصحاب البيت مونة الحجارين وحفاري البئر.

لقد كانت سنوات تعب ومأساة وفرح، وقد استغرق بناء بيت العقد وحفر البئر أكثر من سنة، وتوقف العمل عندما وصلوا في البناء إلى سقف البيت، وهو عبارة عن قبة، واحتاج البناؤون لفزعة أهل مَصْطَبَة لرفع التراب، وعمل جبارة كبيرة، تحتاج إلى حطب كثير، لحرق الحجارة لتصبح شيدا».

كان سقف الحيط، ينصت لأبيه، ويسجل بذاكرته الغورانية كل كلمة، وسأل والده: «ليش كانت مأساة وفرح مع بعض، وليش توقف العمل؟».

لم يكن والده يحب أن يكمل القصة، فذكرى تلك الأيام تؤلمه.

أصر سقف الحيط على والده، فقال بعبارات مختصرة: «لأن زوجتي ماتت وتيتم إخوتك، فتوقف العمل، وكنت أيضا مشغولا بالإشراف على

الرعاة والأغنام وفلاحة الأرض».

رد سقف الحيط: هذه المأساة، فما هو الفرح؟

قال أبونسر متبسما من سؤاله: كان الفرح أني تزوجت أمك.

وأضاف، بعد أن توقف قليلا ودخن هيشي قائلا: «أوقفنا الشغل، وكان إخوتك صغارا، فاهتمت بهم أمك نصرة الله يخلينا إياها، وبعد ما طلعنا من الغور كملنا بناء البيت، ولم نكمل حفر البئر، فما سكنّاه لأن البيت بدون بئر ماء لا يسكن، وما سكناه إلا بعد خمس سنين، يوم ما انتهى تجهيز البئر في الصخر، وكانوا بقصروا فيه وأمك حامل فيك، وأنت جنين في بطنها وعمرك الجنيني أربعة شهور».

لم يكمل القصة له، ولماذا وقف أبونسر عندما كان عمر سقف الحيط أربعه شهور في رحم أمه كجنين؟

سأل سقف الحيط والده أن يكمل تلك القصة، لكن أبونسر غيَّر الموضوع، وأخذ يساعد البغلة في اختيار مسلك بين صخرتين، لتصعد إلى الطريق الأوسع، وانتقل أبونسر إلى موضوع آخر، متجاوزا تفاصيل حمل وولادة سقف الحيط، وإنهاء أعمال البئر، وعقده أعمال سقف المنزل، وانتقل إلى أيام مولد سقف الحيط، قافزا عن تلك الفترة وقائلا: «كنا في الغور في نزل المَداحِل، وكانت سنة خير، لكن هبت عاصفة استمرت سبع ليالٍ وثمانية أيام، وقد ولدت أنت في أيام العاصفة قبل ست سنوات!».

توقف أبونسر عن قص قصة حمل وولادة ابنه سقف الحيط، وأوقف البغلة بجانب إقْطّان، وجلس وقد لف الرسن على كوعه، وأخذ يلف سيجارة وولَّعها، وأخذ يدخّنها، ولف عدة لفائف أخرى ووضعها في علبة

الدخان، وقام وساق البغلة، واستمر صمت لا يسمع فيه سقف الحيط إلا حوافر البغلة وأشعة الشمس تداعب وجهه. وقد شاهد لأول مرة جبل القرن عن قرب، فوجده حبلا كبيرا وعاليا وشديد الانحدار، وكان يريد أن يسأل أباه عنه، إلا أن عودة أبونسر للكلام كانت أسرع من سؤاله، فلقد غطى كلام والده على سؤاله، فكسر أبونسر صمت رحلة العودة في الغور الصامت، وبدأ بقص قصة أخرى، ليس لها علاقة بالأولى، وكانت بالعودة للحديث عن الضباع، مما جعل سقف الحيط يؤجل سؤاله ويستمع إلى حديث والده عن الضباع، فقال أبونسر إنه شهد كثيرا من الغورانيين عند سنوات المحل والقحط والسنوات العجاف، يبحثون عن الضباع في المغر والجحور، فإن اصطادوا ضبعا فإنهم يأكلون النصف الأيمن من الضبع أو الوحش، ويرمون النصف الأيسر للكلاب، وكان الشيوخ هم الذين يفتون لهم بذلك على أساس أن الضرورات تبيح المحظورات، فعند المجاعة تكون الضرورة بقدر الحاجة فكانوا يأكلونها.

واستطرد أبونسر يقص ويروي لابنه حكايات الغورانيين، وكيف أنهم يربون الكلاب لتحرس الأغنام، أو على الأقل تنبح على الوحوش، عندما تعدو على الغنم، ليصحو الناس والرعاة ويطخوا على الوحش، وإذا كانت مجموعة من الكلاب، فقد تفتك بالوحش الواحد، خصوصا إذا كان جائعا وهرما، أما إذا كان هناك قطيع من الوحوش فتنهزم الكلاب، وتختبئ عند الرعاء.

وصلوا إلى هضبة كبيرة مسطَّحة، وقد أصبح جبل قرن صِرْطِبّة على يمينهم، ويتلقّى كمية أكبر من شعاع الشمس منهم، بسبب ارتفاعه، وكانت

الشمس تميل إلى الغروب، وهبت عليهم نسائم باردة، فقال أبونسر: «هذه الساحة الكبيرة تسمّى «الملعب» وسمعت من الآباء وشيوخ البلد، إن الرومان استعملوه للمصارعة والاحتفالات، وكان بعض الختيارية يقولون إنه أقدم من الرومان، وإن اسم الجبل صِرْطِبّة مرتبط باسم البلدة، مَصْطَبة، لكن يا ابني ما حدا عارف!

لقد كان الملعب أرضا سهلة فوق هضبة، وبها الكثير من معاصير للخمر، يعني كانوا يزرعون الغور بالعنب، ويعصرونه في هذه المعاصر أو أنها لجمع الماء».

كانت عينا سقف الحيط تحدّقان بالجبل الذي يقف على مقربة من الهضبة، وهو جبل مخروطي وعالٍ، يقف شامخا ومتميزا بشكله الغريب والعجيب، كأنه هرم أو مثلث، يرسو على الجانب الشرقي من الملعب، وهو من جهة الملعب، يرتفع أقل ممن ينظر له من الجانب الشرقي، وهو جبل كقرن البقرة، وقد أطلق عليه أهالي بلدة مَصْطَبة قرن صِرْطِبّة بلهجتهم المحلية..

لقد كان على ما يبدو أنه بقايا فوهة بركان، ثار بعد الانهدام الأحفوري، فشكل تلال وجبال الغور.

كان القرن متميزا، ويأخذ أيضا شكل بندول يدور في السماء، وهو عال وشديد الانحدار: فقال أبونسر بلهجته المحلية والدارجة: «هذا الكرن (قرن صِرْطِبّة) عليه قلعة رومانية كبيرة أنا شفتها، ما زال جزء من أحد جدرانها قائما وحجارته كبيرة وتأخذ شكل القلب».

وأضاف: «حكوا لنا الأجداد، أنها كانت بنفس ارتفاع جبل الكرن من هذه

الجهة المواجهة للملعب، وكانت تسكنها زوجة أحد ملوك الرومان، وكان الناس يعيشون بالغور، الذي كان كحديقة ذات بهجة، وتتناثر به القرى الصغيرة حول قلعة الملكة التي على ظهر هذا القرن. وكان هذا الملعب»، وأشار إليه بالعصا قائلا: «كانوا يجتمعوا فيه الجنود، وأهل الغور في يوم الزينة للاحتفال، وتتفرج عليهم الملكة من شرفتها بالقلعة في القرن»، وأضاف أبونسر حتى لا يترك مجالا لابنه ليسأله: «على جنبات القرن مغر تبدو كأنها مخازن للماء والغذاء، بعضها موجود وظاهر لليوم، وبعضها مطمور لم يكشف عنه حتى الآن.

إن المغر الظاهرة نسميها صهاريج، وهي مغر كبيرة من صنع الإنسان، كانت تستعمل لتخزين الغذاء والعتاد، ومستودعات أخرى لتخزين الماء، وأخرى كانت عبارة عن سجون لتعذيب الأسرى والمساجين، وتنفيذ حكم الإعدام.

إن الصهاريج الطاهرة -اشار لواحد منها- يظهر لهم عن بعد، كفجوة أو تجويف في بطن القرن، كان لتخزين الماء والغذاء بها، إذا ما حاصرهم الأعداء»، وأضاف أبونسر: «وأنا شخصيا دخلت بعضها ولم أدخل الأخرى، ولكن أغلب الناس يخافون أن يدخلوها، معتقدين ومتوهمين أن الذين دخلوا بها أصابهم الجنون أو المس، لأن الملكة وضعت عليها طلسم ورصد وحرس من الجن، فيصيبهم الجن بالمس قبل أن يدخلوا فيها، فيخافون من الجن الحارس على تلك الكهوف، وكنوز الملكة، ويفرون قبل أن يدخلوها».

توقف أبونسر عن الحديث، واستطرد بعد ذلك قائلا: «لا أعرف كيف حملوا الصخور الكبيرة، ورفعوها على رأس القرن، ربما كانوا عمالقة، وبنوا القصر أو القلعة المتهدمة الآن بسبب الزلزال»، واستطرد في الحديث: «وهذه الساحة الكبيرة كما قلت لك، كانت ملعبا رومانيا، كانوا يتصارعون فيها، ويدربون ويروضون الخيول فيها، ويتبارزون فيها، ولربما حصلت معارك تحت هذا الجبل عندما كان يحاصر من الغزاة، فيكون هناك قتلى وأموات، وجثث مدفونة في هذا المكان، وممكن خيالاتهم تطلع خصوصا في الليل، ولازم نسرع السير فيها، مثل ما كان يحكي لي أبوي الله يرحمه، إذا مريت من جنب القرن والملعب اسرع يا ولد، وكان كثير من الرعاة يرفضون الرعي في هذه المنطقة، هيك حكى أجدادنا». طلب سقف الحيط من والده أن يطلع على القرن، لكنه رفض، وقال له: «إنه شديد الانحدار، وإنه ولد صغير بتخاف تتسحسل، وتقع أو تجرت، وتقع في الواد المنخفض من تحت الجبل مثل ما حصل مع الراعي الذي كان عندي وعند عمك، عندما لحق بالعنزات التي تسلقت الجهة الشرقية من القرن، ولم تستطع أن تعود، فلحق بها وصعد على الجبل ليحضرها، فتزحلقت رجله وجرت من فوق الصخور العالية في الوادي، وتوفي رحمه الله عليه، وقد نقلناه إلى الجفتلك، ونام عند الجثة في تلك الليله عمك الذي يصغرني، وكان خائفا جدا من خيال أو قرين الراعي، فترك الجثة وهرب، وجاءت الشرطة، وحققوا معنا عن سبب الوفاة، وبعدين أخذنا الجثة، وأرسلناها إلى أهله في الضفة الشرقية، وأخذنا معاها غنماته التي حصل عليها، كأجرة من الرعي عندنا طوال ثماني سنين، عشان هيك ما

بخلي حدا من أولادي أو أقاربي يطلع على القرن»، وأضاف أبونسر بصوت منخفض قائلا: وبعدين يا ابني احنا الآن تعبانين والشمس توشك أن تغيب.

غابت الشمس عن أبونسر وسقف الحيط، وكان سقف الحيط يثني صدره ورأسه نحو القرن الذي ما زالت الشمس تغشاه بضيائها، ويودع القرن بصمت متمنيا أن يتسلقه، ويستكشف ما به ويطابق رواية والده على ما يشاهد فيه من آثار ومعالم!

كان سقف الحيط، رغم صغر سنه، معتادا على تسلق تلال وهضاب ودبب الغور، وكان إذا رأى أو صادفته تلة وهو يرعى الخرفان يتسلقها ويجلس على أعلى صخرة فيها، وها هو الآن يمر عن أعلى جبل في الغور قرن صِرْطِبّة، ولا يستطيع أن يتسلقه ويجلس على أعلى صخرة فيه.

قطعت البغلة الملعب، وتركوا وراءهم القرن المكان العالي الذي يكشف الغور وما حوله، فكان قرن صِرْطِبّة سقفا للغور الذي يعيش فيه كثير من الناس والأنعام في الشتاء والربيع، وإن كان الغور بدون غطاء أو سقف من شجر.

كان سقف الحيط يشعر بالنعاس، وأصبح غير قادر على رؤية القرن بسبب الظلام، فاستقام على ظهر البغلة، ولم يعد يثني صدره ورأسه ليرى القرن، أعلى قمة بالغور!

إن قمم الجبال أينما كانت، تغري الناس، كما تغري سقف الحيط، فما إن يصل الإنسان إلى القمة، يحس أن الجبل بعظمته وقوته، هو تحت قدميه، وإن هذا الإحساس يزيد من ثقته بنفسه.

الجسر

كانت الشمس قد غابت عندما قطعوا الملعب ووصلوا إلى الجسر، وبعض الغيوم أصبحت تتشكل فتقطع أشعة الشمس الذهبية المسترسلة من الغرب إلى الشرق، والهابطة على تلال الغور، فكان الصمت الغوراني لا يقطعه إلا زقزقة الطيور، وهي تحلّق في السماء، وتتهادى إلى مخادعها، فتزيده جمالا وحبورا.

تابع أبونسر وولده سقف الحيط سيرهما باتجاه الغرب نحو النزل في المَداحِل، وأثناء مرورهم على ظهر الجسر، خفف من حركة سير البغلة وهو يقول:

«إن هذا الجسر يا بني يربط بين الجبلين اللذين بينهما الوادي المنخفض، وقد ردم سكان الغور في قديم الزمان الوادي بالحجارة والتراب، وكما ترى أصبح الردم كجسر بين الجبلين، وكما أخبرنا الآباء أن الرومان هم من بنى قناة الماء في باطن الجسر لإيصال الماء إلى القلعة في القرن».

وأضاف: «يُعتقد أن القناة تبدأ من الباذان، وتصعد على الجبال إلى سادَّة المُبَشِّر، ومن فوق بئر أبوالدَرَج، وتمر على الجهة الغربية من الجبال المواجهة لبلدة مَصْطَبة، لتكون على مستوى هذا الجسر، وبعد ذلك تصعد المياه في القناة إلى خزانات الماء في خواصر القرن».

سأل سقف الحيط ببراءة الأطفال وفضول الغوراني والده: «كيف يصعد الماء إلى كل هذه الجبال، وبعد ذلك إلى القرن؟». واستطرد

بفضول الغوراني قائلا: «يا أبي لو الماء نازل من القرن، ممكن بس كيف الماء بصعد إلى فوق؟».

أجاب أبونسر: «لا أعرف يا بني، ولكن هذا ما سمعناه، وقيل لنا أبًّا عن أب».

صمت الاثنان برهه من الزمن، ورجع أبونسر لنفسه، فعقب على كلامه قائلا: «والله معك حق يا بني، لو كان الماء نازلا من الجبل، كان صدقنا، لكن لا يوجد ماء متدفق من القرن ليروي الغور، وتنزل الماء بالقناة؟».

رد أبونسر بصوت مرتفع على نفسه وعلى أسئلة ابنه: «لا أعتقد»، واسترسل محدثا نفسه وابنه: «طيب وليش غلبوا حالهم، وعملوا هذه القناة الطويلة، وبعدين أنا بعرف قناة الباذان عندما كنا نرد عليها، المية في ضعيفة وليست قوية الجريان، إلا إذا كان في ذلك الزمان، نهر نازل من الباذان، ويجري فيه كثير من الماء المتدفق من الجبال الغربية المنحدرة، فيكون لهذه المياه قوة ضغط ودفع للأعلى إذا ما تم تركيز مجرى تدفقها وحصرها في مجرى ضيق، فتندفع بقوة ذاتية فتدفع الماء ليصعد بالقناة إلى الجبال».

لا شك أنه كان عندهم تقنيات لدفع الماء وضخه للأعلى عن طريق استعمال قوة دفع نفسها، وكان لدى الرومان كثير من العبيد وأسرى الحروب، وما نراه من آثار لقلاع وقنوات وجسور، بناها أولئك العبيد والأسرى، ومن ضمنها القلعة على القرن والقناة في بطن الجسر التي يمر عليها أبونسر وولده.

قد لا يعلم أبونسر، أن اقوى مخلوق من مخلوقات الله في الدنيا هو الماء، إنه أقوى من الريح، وأقوى من النار، وأقوى من البراكين، وأقوى من الناس.

إن توجيه قوة جريان الماء من المنحدر في قناة، تجعل طاقة الماء الذاتية تدفعه إلى قمة جبل بنفس علو الجبل الساقط منه الماء، وبنفس المقدار، فيصعد الماء دون مضخة إلى خزانات الماء في القرن، ولتحفظ وتستعمل في ما بعد ممن يسكن القلعة على قمة القرن، خصوصا إذا حاصر الأعداء القرن.

كان سقف الحيط يترنح على ظهر البغلة، وكان متعجبا من كم المعرفة بالغور عند والده الذي قال: والله ممكن، فوادي الفْجِم، عندما يجري يحمل الأحجار والأخشاب والأغنام. وأكد أبونسر مرة أخرى: أنا من شاف ورأى ذلك عند جريان وفيضان واد الفْجِم.

انتهى أبونسر من الكلام، وعاد سقف الحيط لصمته الغوراني، ويبدو عليه الاستغراب من مسألة صعود الماء إلى الجبال، فلم يتقبله عقله الصغير، إلا أنه قال ببساطة لوالده: أنت قلت إنه كان في قلعة وفيها الملك والملكة، وكان يحاصرهم الغزاة، طيب ممكن القناة تكون نفق وطريق تحت الأرض للملكة والملك، حتى يهربوا ويخرجوا من الجهة الأخرى، فأنا لا أستطيع أن أتخيل الماء يصعد من هذه القناة إلى قمة جبل القرن!

أوقف أبونسر البغلة، على حافة الطريق على الجسر، وأنزل سقف الحيط عن ظهرها، وأشار بعصاه إلى فتحة على الجسر، بعرض نصف متر وبطول متر، وقد أراد لابنه أن يعاين، ويشاهد بعينه، فلقد استدرك أنه

يخاطب طفلا، وأن عقل الطفل أول ما يؤمن، يؤمن بما يشاهده من ماديات مشخصة، ويبدأ بتحسس الأشياء، فالشيء المشخص له شكل ووجود مادي، فقال له: انظر، وتعال ننزل ونشوف، هل هو نفق أم قناة ماء؟

أراد أبونسر أن يجعل ولده يقتنع بأنها قناة، كانت الماء تصعد من خلالها إلى القرن، وأن يقطع شك ابنه بأنها الطريق الذي يهربون منه، نفق الهروب! وعندما نزل سقف الحيط ووالده، وشاهدا النفق المبني على الجسر المقام فوق الردم أو السد بين الجبلين استغرب سقف الحيط! وسأل والده: كيف بدها الماء تطلع من هان على القرن؟

لا أعرف يا ابني، منذ الاف السنين ربما كان بها ماء أو كما قلت أنت! وكان الأب غير متأكد من جوابه رغم المعاينة، فالوقت كان بعد غروب الشمس، والمعاينة غير واضحة، ولولا أنه رأى الملاط الذي يصل بين الحجارة المستطيلة الملساء، حتى تحفظ الماء من التسرب داخل الأرض لكان اقتنع أنها نفق هروب وليست قناة ماء.

أشار إلى ابنه إلى الملاط الذي تم وضعه بين الحجارة، وقال: لو كان هذا نفقا أو طريق هروب، فما كان هناك من حاجة لوضع الملاط الذي يمنع تسرب الماء، ولهذا فهي قناة لتوصيل الماء إلى الصهاريج في القرن لتخزين الماء بها.

شاهد سقف الحيط ذلك، فأيقن أن كلام والده صحيح، مع أنه ولد صغير، وعقله لا يستطيع أن يستوعب هكذا مسائل وأمور، وأخذ كلام والده كمسلمات، لكنه كان يتساءل كما يتساءل والده: كيف يمكن نقل

الماء بهذه القناة التي بنيت على هذا الجسر، وتدفقت من الباذان، وصعدت ونزلت الجبال والمسافات لتسير في القناة لتصل إلى قمة الجبل (القرن)؟ عاد للاعتقاد بأنه قناة ماء، وبنفس الوقت نفق هروب، يمكن استعماله عند الحصار من الغزاة، وبعد موت الجنود، واستنفاد كل السبل، فتبقى الروح اللي ما بعدها روح أو حياة، فيهرب الملك والملكة! ومع ذلك ظل سقف الحيط يحلم بأن يصعد إلى قمة جبل صِرْطِبّة، ولم يترك له والده ذلك الخيار قائلا: إن هذه القلعة المتردية على ظهر القرن وهذه القناة ونفق الهروب، قد بنيت منذ آلاف السنين، ويمكن يا ابني أنها من زمن الرومان أو من سبقوهم، والله اعلم؟

كان الطقس مع قدوم الليل وغياب الشمس، قد بدأ بالبرودة، مع أنه معروف أن الغور دافئ، وبعد أن غابت الشمس خلف جبال قرى شفا الغور الغربية، وبلدته مَصْطَبة، ولم يبقَ منها إلا ربعها يطل عليهم، وما لبثت أن رقدت أو نامت على رأي سقف الحيط، وكان آخر شيء داعب نظره، هو منظر غياب الشمس في مَصْطَبة على بعد 15 كيلومترا، فقال لوالده: غابت الشمس، يعني أمي وإخوتي هناك هسا بتعشوا وبناموا، وتثاءب قليلا، فوضع الفروة عليه وقال له: سأتيمم وأصلي المغرب، وبعد ذلك نسير للنزل، وتفاجأ أبونسر بسقف الحيط يقول بصوت خافت: أنا جيعان يا أبي.

«باطل»، أجاب الأب ونهض إلى الخرج الذي كان على ظهر البغلة، ومد يده، فاستخرج قطعة خبز شراك مع كسرة جميد، وقال له: «كل وتسلى كلها ساعة زمن وبنصل النزل، بس خليني أصلي».

شمر الأب عن ساعديه، وجلس القرفصاء بعد أن مسح على بلاطة كبيرة بعرض نصف متر وطول متر، وضرب بكفي يديه على البلاطة التي عليها شيء من التراب ثلاث مرات ومسح وجهه بعد أن نفض يديه بنفس العدد، وعلى ساعديه، وتمتم بعبارات فيها من الحمد والتشهد والشكر لله، وأقام صلاة المغرب متوجها إلى القِبْلة، وبعد أن سلَّم وفي تلك اللحظة كان سقف الحيط قد أكل نصف الخبزة، وبقيت لقمة غير ممضوغة في فمه لم يبلعها، لانه وجد نفسه قد نام تحت الفروة، وما إن انتهى والده من الصلاة حتى نادى عليه فلم يجب، واقترب منه فإذا هو نائم واللقمة في فمة، فنزعها من فمه وحمله وأركبه على ظهر البغلة بعد أن ربطه بشدة بالحلس، وكان سقف الحيط أحيانا يفتح عينيه، وأحيانا يغمضهما، فالنوم كان في النهاية غالبا، وما إن شدَّه حتى لا يقع غط بالنوم، ولم يعد يفتح أو يغمض عينيه.

بدأت البغلة بالانحدار والسير نحو النزل في المَداحِل، وسقف الحيط يغط بنومه، والأب يقود البغلة ويسبّح بحمد الرب، ويدعو الله بإنزال الغيث، وبعد سير أكثر من ساعة في الظلام، وقد أصبح الأب يسير خلفها، بدأت البغلة بالنزول إلى المنحدر والمنطقة التي تسمى المَداحِل، وكانوا قريبين من الأهل والنار، وما إن أصبحت بمنتصف الوادي حتى بدأت هداية النار ورائحة الحطب والدخان تتخلل إلى أنف سقف الحيط ووالده والبغلة، فصحا سقف الحيط، وبدأ يهرش بيديه جلده ورأسه، وأحيانا يمد يده خلف ظهره، فكان شيء يلسعه، وقال لوالده: «في شيء بقرص بظهري»، عرف الوالد أنه لربما كان قملا، فهو لم يستحم منذ مدة

طويلة، أو لربما علق به أحد البراغيث من المغارة، فقال له: «بس تصل خلي أختك تحممك، وتفرك لك راسك بصابونة، وبكره بخلي عمك يحلق لك، فقد تعلم الحلاقة لما كان يحرس الحدود على أيام الإنجليز، وخليه يحلقلك على الصفر، وبس إخوتك يجيبوا لك الغيار».

تقدم سرحان الركب، بدأ يرد على نباح الكلاب في النزل، يشعرهم بقدومه، إلا أن نباح الكلاب تواصل، ويبدو أنها كانت ترد على الكلاب من النزل الأخرى بنباح آخر، هو أشبه بسمفونية تطلقها الكلاب، بها نوع من المد الطويل للعواء الصادر من الكلبة الرقطاء التي أصبحت عجوزا، وهي أم الكلب الأسود وجميع الكلاب التي بالنزل، وهذا العواء يسمى «الجوح»، وهو حزن على الفراق وفرحه بالعودة. إنه عواء للترحيب بعد غياب سرحان الحبيب.

نزلة الخميس

كان يوم الخميس في مدرسة البلد، نصف يوم دوام أو أقل، ففي كل الأحوال لا يتعدى العدد أربع حصص لجميع الصفوف.

أما الطلاب من الغور، فكانوا يستغلون استراحة التنفس بعد الحصة الثالثة، ويقطشون الحصة الرابعة، التي بالعادة تكون رياضة أو زراعة أو رسما، وهي مواضيع لا تهم أهل القرى كثيرا في حياتهم اليومية.

حضر كثير من الطلاب، بعد أن فلوا في التنفس، وسارع بعضهم ليغير ملابسه، ويأخذ بعض الحاجات من هيشي، وشاي، وسكر، وقهوة، وبعضهم كان لا يغير ملابسه المدرسية، بل ينزل بها حاملا كتبه ودفاتره، لأنه سيعود صباح يوم السبت للمدرسة.

كان الجو في القرية باردا، والسماء ملبدة بالغيوم، والشمس تطلع أحيانا، وتختفي أحيانا بفعل السحاب المار على شفا الغور.

كانوا ينزلون إلى الغور سيرا على الأقدام، وهم يمشون جماعات، وفرادى وأزواجا.

اعتاد طلاب مدرسة بلدة مَصْطَبة بعد قيام أهاليهم برحلة الشتاء إلى الغور، أن ينزلوا نهاية كل خميس، وهي نهاية الأسبوع الدراسي، فعندما يفج الطلاب من الدوام في المدرسة، ولأجل نزلة الخميس للغور، يقطشون الحصة الرابعة من بعد فرصه التنفس، ليستغل بعضهم ذلك لتغيير ملابسه، وتناول ما هو موجود ومقسوم من الطعام، وإعداد وتدبير الأغراض والصرايرالتي سيحملونها معهم إلى الغور، كان بعضهم لا يغير

ملابسه المدرسية، ولا حتى يضع أكياس كتبه ودفاتره، بل يحملها معه، وينزل مشيا على الأقدام.

اعتاد الطلاب أن يقطعوا مسافة العشرة أميال أو أكثر قليلا بساعات مختلفة، كل بحسب موقع نزل أهله في الغور، فمنهم من كان أهله مقيمين في سقايف الطويل على طرف الغور، وحول نبع الجهير وعين الدوَّة، والوادي الأحمر وعرقان السبع، ومنهم من نزل أهله في عمق الغور في سادَّة الفَقِع والقُرِّيس، وبئر أبوالدَرَج، ومنهم من نزل أبعد من ذلك في المغر التي حول عين الحَفيرَة، وآخرهم أهالي إخوة سقف الحيط، وأبناء عمومتهم، فقد نزل أهاليهم في أدنى الغور، في المَداحِل، بحكم الأعداد الكبيرة لقطعانهم ومواشيهم، فكانت نزلتهم تستغرق نصف نهار، بخلاف غيرهم، ويتحتم عليهم قطع مجرى وادي الفْجِم.

سار ابناء أبونسر أكثر من نصف نهار بسبب توقفهم عند وصول من كانوا برفقتهم إلى نزل وبيوت أهاليهم، فكانوا يتوقفون معهم قليلا للسلام على من في العزب، ويواصلون بعد استراحة قصيرة نزلتهم إلى المَداحِل، وهم يحملون على ظهورهم وبأيديهم الأمتعة وأكياس الكتب والدفاتر، فكانت الأحمال تثقل كاهلهم، فيحملون بأيديهم وعلى ظهورهم بعض الصرر والاغراض من السكر، والشاي، والقهوة، وحتى الملابس الشتوية، وكان المحظوظ منهم من كان لديه حمار، فيتم وضع بعض الأمتعة الثقيلة عليه، ويتم ركوبه عند التعب من قبل الصغار.

استغرقت مسيرتهم ونزلتهم أكثر من نصف نهار على الأقدام، وهم فرحون ولا يشعرون بالتعب، لأنهم في حالة النزول للجبال، وهو أهون

عليهم من فجر يوم السبت، يوم الرجعة إلى مدرسة مَصْطَبة، فتلك ليست بنزلة بل طلعة، والصعود والطلوع للجبال والعقبات، وتحتاج إلى جهد وتستغرق أكثر من نصف ليلة وربع نهار، مما يفقدهم أول حصتين في المدرسة، ويتعرضون للعقاب من مدير المدرسة.

إن النزول من أعالي شفا الجبال الغربية للغور إلى عمق الغور، والسير في العقبات والوديان والوهاد، تكون بالعادة كطريق هابط أسهل من الطريق الصاعد، مع أن المسافة هي نفسها والأشخاص أنفسهم، لكن الزمن يتغير فيكون أطول عند الطلوع، وأقصر عند النزول.

بالرغم من وجود عيون وأبار ظاهرة على جنبات طرق الغور فتكون استراحات لهم من حملهم ولشرب الماء، بالرغم من ذلك، كان الطلاب النازلون يقطعون صمتهم ببعض الأحاديث عن المدرسين، وهم يسيرون فرحين بلقاء الأهل القريب، ويقولون: «الله يعينا على الرجعة والطلعة صباح يوم السبت»، داعين الله أن لا يكون سبتا ممطرا. إن المربعانية شديده البرودة، وإن كان الغور لأنه منخفض عن مستوى البحر يقلل من برودتها، إلا أن ذلك لا يمنع أن تثور العواصف المتوقعة.

أن ما يعرفونه أن ليلة السبت قصيرة ومزعجة، وأن أهاليهم، وخصوصا أبونسر، سيوقظ أبناءه قبل منتصف ليلة السبت، ليسيروا نصف ليلة وصباح يوم، فبالكاد يصلون إلى المدرسة وهم متعبون، وينامون بالدرس. وكان بعضهم، يحضرون معهم كتبهم ودفاترهم، لا يتدارسون فيها، بل لأنهم عند العودة يذهبون مباشرة إلى المدرسة.

وصل إخوة سقف الحيط إلى النزل في المَداحِل في عمق الغور بعد

غياب الشمس، وكان الجو باردا ومهيأ لنزول المطر، والتقى سقف الحيط بإخوته، وفرح بما أحضروا من حلوى له، وملابس قديمة.

كان يتسلل إلى أكياسهم المدرسية، فيشغل نفسه في تصفح كتبهم، رغم أنه لا يقرأ، لكنه كان مغرما بالصور التي تحتويها كتبهم، فهو لم يدخل المدرسة في ذلك الوقت، وهو أصغر منهم، لكنه يظهر نفسه، بأنه هو ملك الغور، ويعرف كل شيء، ويريد أن يحدثهم عن مغامراته مع والده في كورُزْلِيّة وفصائل، وعمّا سمعه منه من قصص وأحاديث، وعن الملعب والقرن والجسر، وعن دخوله النفق، وما حصل معه في رحلة الذهاب والإياب.

بينما كان إخوته منهكين من النزلة، فآووا للشق في بيت الشعر للنوم بجانب موقد النار، فناموا على فرشة واحدة بالعرض، ودس سقف الحيط نفسه بينهم، فكانت أرجلهم على الأرض، تضرب بعضها ببعض، فما تسمع من أحدهم إلا أن قال للآخر: شيل رجلك عن رجلي.

وتغطوا بلحاف واحد كان لا يكفي للتغطية الكاملة لثلاثتهم، فاذا ما سحبه أحدهم تكشَّف الآخر، إلا أوسطهم سقف الحيط، فكان خيارهم أن يتغطوا به بالعرض، فتظل أرجلهم مكشوفة للبرد، ومع ذلك فأجسادهم تدفئ بعضها البعض، كان سقف الحيط بالوسط، وكان محظوظًا من ناحية الغطاء لصغر جسمه.

ما إن نام أخواه باسم الكبير وباسل الأصغر من باسم، من شده التعب، حتى تسلل بلطف وخفة، وفتح كيس أخيه باسم الذي كان في السادس الابتدائي، وأخرج منه كتابا، وعاد تحت اللحاف وهو يتصفح الكتاب

على ضوء النار، باحثا عن صور كصور مجلة أخيه حافظ الكويتي، ومتذكرا الصور التي شاهدها في المجلة.

استوقفته صورة رجل يلبس خوذة على رأسه، فنهض وجلس بجانب النار التي كانت مشتعلة، وأخذ يتأمل الصورة على ما تجود به النار من ضياء، فوجود الصورة لرجل بلباس عسكري، ويتدلى من تحت خوذته شعر السوالف الطويلة، ويحمل رشاشا بيد، واليد الأخرى على الزناد وعلى خوذته نجمة، شيء عجيب وغريب، فعاد إلى مكانه في الفرشة، وضرب برجله على رجل أخيه باسم، فصحا قائلا: «ابعد رجلك عن رجلي»، فتبسم سقف الحيط بقراره نفسه، فذلك ما كان يبغي، فهو يريد أن يسأل باسم عن الصورة.

فقال باسم وهو غاضب: «خليني أنام، أنا تعبان»، ومع ذلك فتح عينيه وتطلع إلى كتابه فعرف الصورة فقال: «إنها صورة يهودي في كتاب التاريخ»، وأضاف باسم مظهرا معرفته بالتاريخ: «عندما احتلوا جزءا كبيرا من فلسطين عام ٤٨، وما يسمى النكبة».

سبق لسقف الحيط أن سمع باليهود من حديث والده وأعمامه في الشق، وهو ينصت لحديثهم، فسمعهم يتحدثون عن اليهود، والمجازر والمذابح التي ارتكبوها بحق الفلسطينيين، وسمع كلمات جديدة لم يسمعها في الغور، كالمهاجرين، واللاجئين، والمخيمات، وكرت المؤن، وأسماء بلدات غير بلدته مَصْطَبة، ككفر قاسم ودير ياسين، وسمع عما فعله اليهود، لكنه لم يشاهد يهوديًّا واحدًا، وهو لأول مرة، يرى صورة ليهودي، فتنطبع بذاكرته الصغيرة التي بدأت تدرك الأشياء والصور

والأشكال قبل أن تدرك المفاهيم والكلمات، وتربط بين فعلة اليهودي وصورته في الكتاب الذي يتأمله، ويخزن بذاكرته الغورانية شكل اليهودي من هذه الصورة، بالإضافة إلى كل الأحداث والمشاهد الأخرى التي يخزنها في ذاكرته بكثرة.

أخذ باسم الكتاب منه وقال له: نام وشيل رجلك عني، واحذر أن تضرب رجلك برجلي.

شال سقف الحيط رجله لكنه لم يتوقف عن الحديث معه، فهي فرصة له ليتكلم ويكسر صمت الغور الذي علمه على استراق السمع والإنصات، ففي هذه الليلة فرصة ليتكلم مع إخوته، ومن تحت الغطاء، فيقوم بنقيض ما تعود عليه من الصمت الذي انطبع فيه نتيجة بيئة الغور الصامتة، فليتكلم، فإخوانه لا يراهم إلا في الأسبوع مرة واحدة، فأخذ يقص عليهم مغامراته وهم نائمون، ويقص عليهم ما سمعه من والده في وقت قريب، وكان ذلك آخر ما سمعه، فما زال من السهل عليه أن يعيد سرد ما سمعه مفصلا، من المعارك التي كانت تحصل بجانب القرن، وكيف أنه أراد أن يتسلق ويصعد على قمة جبل القرن ومنعه والده وأمسكه وأعاده. وكيف دخل في القناة ومشى بها، ولولا والده لحق به وأعاده لظل يمشي بها حتى يصل إلى الباذان، وهنا تنحنح الوالد أبونسر من الشق الثاني من بيت الشعر عندما سمع حديثه، فقال: نام ولا تسرح في إخوانك بهذه القصص وبخيالك الواسع!

غط الجميع في النوم، وسقف الحيط ظلَّ يفكر بالصورة التي انطبعت بذاكرته، ولن تمحى أبدا. وكان باسم قد بلغ، ونبز الشعر في شواربه، ومع

ذلك كان لا يزال في الصف السادس الابتدائي وقد لحق به أخوه باسل فأصبحا في نفس الصف، ويجلسان في نفس المقعد.

كان باسم هو الابن البكر لأبونسر من زوجته الثانية نصرة، لم يمانع بتسمية نصرة باسم على اسم زوجها السابق الذي قتله الإنجليز واستُشهد، ولم يمانع أيضا أن تقوم نصرة بتسمية الولد الثاني باسل، على اسم ابنها من زوجها السابق الذي توفي وهو رضيع، وكانت نصرة قد اعتقدت أنه توفي بسبب حزنها على زوجها الأول، وبسبب تسممه من حليبها الذي تخثر ولم يعد صالحا للرضاعة.

كانت قد دللت باسم، ورأت فيه تعويضا عمّا فقدته هي نفسها، كانت نبيهة ولديها القدرة على الحساب في ذهنها، رغم أنها أمية لا تقرأ ولا تكتب، وتحفظ من القرآن الفاتحة والمعوذتين والضحى، وكانت لديها قدرة على ارتجال الأهازيج والغناء في الأفراح أو النواح في المآتم. وتولدت لديها رغبه قوية في أن يتعلم أبناؤها ما لم تتعلمه، وأن يدخلوا المدرسة، ولم يكن باسم محققا لرغبتها، لكنها أصرت وعاندت رغبه زوجها أبونسر بإخراجه من المدرسة عندما رسب.

كان رسوب باسم متكررا، ورغم ذلك لم يخرجه أبونسر من المدرسة تحت ضغط نصرة، لكونه ابنها البكر حتى لو قضى في الصف الواحد سنتين، فأراد أبونسر أن يستفيد من وجود باسم ويعلّمه الحراثة في «مارس» جمونيا، فأعد له عدة الحراثة على الحمارة القبرصية البيضاء، فهي مسالمة وغير شموصة كالبغلة، وطلب من حمامة الذهاب معه لتدله على المارِس حتى لا يحرث مارس عمه بالخطأ، وترشده كيف يحرث

ويبذر البذار.

كانت العلامات بين قطع الأراضي عبارة عن قناطر حجرية يسهل إزالتها، فيضلون عن أراضيهم، ويحرثون بالخطأ أرض الغير.

كانت حمامة تعرف حدود الأراضي حتى بدون قناطر، فخبرتها المتراكمة وهي «تبحش» وراء والدها، وهو يحرث ذهابا وإيابا، جعلتها تحفظ الحدود عن ظهر قلب وتبذر البذار. كانت حمامة تريد أن تطير مع أخيها باسم لتنفرد به، وتسأله بحياء عن أخبار البلد، وبالذات عن موعد قدوم خطيبها، فتبسم لها أخوها باسم وقال لها: «أنا عارف بتسألي ليش عن البلد؟ بدك تعرفي متى سيأتي خطيبك من الكويت، بدك تتزوجي، وترتاحي من التعب وشقاء أبونا أبونسر والغور»، ضحكت، وقالت له: «امشي المشوار طويل أمامنا!». بينما أبونسر انشغل في حراثة الذراع الذي بجانب بئر جمع الماء في «جنيفيش» مملوك لعائلة أبونسر وتحيط بالبئر قطعة أرض صلبة، لا تزرع وتستعمل كبيادر.

بدأت السماء في نهاية يوم الجمعة غائمة، وبعد انتهاء باسم من الحراثة والعودة مع حمامة للنزل، بدأت مع حلول الظلام تتلبد بالغيوم، وبدأت الرياح تشتد شيئا فشيئا، فقال أبونسر لأبنائه وهم يجلسون أمام النار في بيت الشعر: «علينا تثبيت أوتاد البيوت، ووضع أحجار على أطراف بيوت الشعر الملامسة للأرض وحزق الحبال، وعمل قنوات من خلف بيوت الشعر لتصريف الماء، بعيدا عن بيوت الشعر حتى لا يداهمها الماء، فيغرق الفراش والمتاع». أكد الشقيق الكبير عبد الرضا على كلام أبونسر: صدقت يا خوي، يا الربع اشربوا الشاي، وقوموا يا رجال، الليلة ثبتوا

بيوتكم، إن شاء الله مطر ورزق من السماء.

رد أبونسر وقد هز راسه وثبت عقاله على حطته قائلا: وانتو يا أولادي تعشوا، وبعد العشاء سيروا بسرعة واقطعوا الوادي، وباتوا عند نسايب عمكم دار الهلالي، في نزلهم بِسَادَّة القُرِّيس غربي الوادي، لأنه إذا أمطرت بغزارة، فإن الماء يتجمع من الجبال الغربية، ومن القرى، ويجري في السيول والوديان، ويتجمع بوادي الفجيم الذي يصل إلى الشْريعَة، وإذا ما فاض الوادي سوف تحاصرون، ولا تستطيعون قطع الوادي، وبتروح عليكم مدرستكم لمدة أسبوع أو أكثر حتى يخف مجرى الوادي.

الصورة والحلم

ودع سقف الحيط إخوانه باسم وباسل، وكان قد غافل أخاه باسل مرة أخرى وتسلل إلى الكتاب، وقطع الورقة التي بها صورة اليهودي، وأعاد تأملها ووضعها بجيبه، وأراد أن يذهب معهم فصرخ عليه والده: وين رايح هم رايحين على مدرستهم، وأنت ما عندك مدرسة، روح نام.

لم يذهب سقف الحيط إلى النوم، بل كان يراقب ما يفعل والده وأعمامه من أعمال لتثبيت بيوت الشعر، وحفظها من مياه المطر التي من الممكن أن تجري من أعلى الجبل وتسيل على متاعهم.

شغل سقف الحيط نفسه بمراقبة الرعاة، بالكاد يسمع ما يقولون وهم يسوقون الأغنام إلى الشقاف في الجبل، وهو كهف كبير وبابه إلى الشرق، ويعطي نوعا من الحماية من الرياح والأمطار لمن يأوي إليه. حاول أن يمسك كلبه سرحان حتى لا يلحق بالكلاب التي لحقت بالرعاة، ولا يحب أن يبتعد عن والده وأعمامه فهو يريد أن يسمع حديثهم، فذلك يشبع فضوله.

بدأت زخات المطر الهطول، وزادت بعد ذلك حدة الريح، وازداد انهمار المطر، وكان أبونسر وإخوانه يخشون من استمرار العاصفة، وسمع سقف الحيط والده يقول لأعمامه: «أخشى أن تكون عاصفة قوية، وتستمر كالعاصفة التي واجهناها سنة مولد سقف الحيط، قبل سبع سنين، التي استمرت سبع ليالٍ وثمانية أيام، ولم تأتِنا منذ ذلك الوقت أي

عاصفه بقوتها».

ما إن سمع سقف الحيط ذلك حتى تأكد من مقولة نساء النزل بأنه ولد في الغور أيام العاصفه القوية، لكن أكثر شيء تأكد منه أن عمره سبعة أعوام.

أنهى أعمامه ووالده الأعمال المطلوبة، وأنزلوا الأغطية على أبواب بيوت الشعر، وجلس أبونسر أمام موقد النار بجانب «الشِّعب» الأوسط، يمسك به عمود البيت، وذهب كل واحد من إخوته لبيت الشعر الخاص به.

إن أهم شيء في بيت الشعر هو عامود الواسط، فإذا ثبت ثبتت باقي أعمدة البيت. لقد وضعوا على جوانب العمود أحجارا كبيرة لزيادة تثبيته.

تسلل سقف الحيط من البرد ليحشر نفسه مع والده في داخل الفروة، فتكون فرصة ليسأله عن الصورة، ويشعر بنفس الوقت بالأمان والدفء، فالعواصف تخيف الناس، ولا ترحم إذا كانت شديدة وماطرة. وكان يسمع دعاء والده وهو يقول الله يستر من هذه الليلة: «إن شاء الله تكون سلاما علينا، وسمعه يقول لنفسه، لكن بصوت مرتفع: وأن يصل أولادي بدري ويناموا عند نسايب أخينا، في سادَّة الفقي غربي الواد، قبل ما تشتد العاصفة، فالوادي يفيض بسبب الأمطار الساقطة على شفا الغور، ويذهبون غدا إلى مدرستهم قبل طلوع الفجر».

بينما كان سقف الحيط متدثرا مع والده بنفس الفروة سأل والده سؤالا غريبا: هل شفت يا والدي يهودي؟

استغرب الأب من السؤال وقال: «شو جاب هذا الموضوع على بالك؟ نعم شفت»، وأزاح الفروة عنه قائلا له: «روح نام يا ولد، ما بنعرف

الليلة شو رح يصير فينا، إذا هبت العاصفة»، وأضاف: «الله لا يعيد تلك الأيام منذ سبع سنوات، فقد كانت عاصفة لم أشهد مثلها في الغور!».

استمر تساقط المطر طيلة الليل، ولم تكن هناك ريح قوية، ولم تحدث أي عاصفة في تلك الليلة كما توقع والده، بناء على خبرته، وكان المطر عبارة عن زخات ورشات مع هبات رياح طيبة، ولم يكن هناك إلا قليل من برق، وصوت الرعد المتأخر عن البرق، فلم يكن ليخيفهم، بالرغم من الاستعدادات التي قاموا بها بناء على ما خبروه في سالف الأيام، وبقيت بيوت الشعر صامدة كما هي، ولم تقلعها الريح، ولم يبتل الفرش، وبقي داخل بيوت الشعر دافئًا وجافًّا.

صحا سقف الحيط وهو يسمع أصوات ضربات المطر المنهمر من خارج البيت، وهو يتراقص ويتساقط ويتجمع في الحفر التي كونتها أقدام الأغنام، فيفيض بقدر، ويجري منظفا منطقة الرِّبْك المخصصة للحلب، فيأخذ معه الأوساخ والرِّبعي، ويطهر الأرض من البعوض والذباب الغوراني الأزرق.

كان سقف الحيط يمشي خارج بيت الشعر، وبعض نقاط ماء المطر تنزل على وجهه، ويمد يده ليتحسس الورقة التي في جيبه ليتأكد أنها جافة، فلا تتشوه صورة اليهودي، فيرفع يده من جيبه ويمسح عن وجهه قطرات ماء المطر قبل أن تتبلل ملابسه، فيعود إلى مخدعه ولديه شعور وإحساس بأنه نعسان ويرغب في النوم.

نام سقف الحيط في الفجر، ولم تكن عادته أن ينام في مثل هذا الموعد،

فكان يحسُّ بالخمول والكسل، واستغرب لأن والده، الذي يحب أن يقص القصص، لم يخبره بتفاصيل عن اليهودي الذي رآه، واكتفى بقوله: نعم رأيت يهودي!

لم تكن إجابة والده كافية، كان يريد أن يريه صورة اليهودي التي قصها من كتاب أخيه باسم المدرسي، فنام متأخرًا فجرًا، وهو يفكر في أمر الصورة، وكان نومه مضطربا، فاستدعت ذاكرته الجنينية ما استنسخته في اللاوعي من حركات الجنين في بطن أمه، وطافت حول ذاكرته الغورانية الواعية لوجود الصورة المقصوصة والمحفوظة بجيبه، فرأى مناما أن اليهودي الذي شاهده بالصورة، قد تشخص له في مكان وعر ومرتفع في صخرة تحت ظل شجرة، مع مجموعة من الجنود وقد عرفه من بينهم، وتعارك معه ووقف اليهودي على قدميه، وهو يحمل نفس السلاح الذي يحمله في الصورة، لم يكن سقف الحيط يعرف المكان الذي تقابل فيه مع اليهودي ومن معه في المنام، والذي شكله يطابق شكل من في الصورة التي في جيبه، لكنه يتذكر أنه مكان وعر وبجانب صخرة وشجرة لم يرَ مثلها في حياته.

لقد كان حلمًا مريعًا، فلقد فاجأ اليهودي في الصورة ومن معه وهم يصعدون ويحملون السلاح، وسقف الحيط نازل وكلبه سرحان يركضان من جانب منعطف منحدر، فكانا وجها لوجه معهم، فأرعبهم، فانبطحوا أرضا وأطلقوا الرصاص في الهواء، ونحو جمع من الناس أسفل المكان، وليس نحوه، في حين أن كلبه سرحان أخذ يهاجمهم وينبح عليهم، فخافوا

منه ونزلوا هاربين يمشون على جثث الناس الذين طخّوهم، ودخلوا بيوت الناس وأخرجوهم وطردوهم إلى الغور وهم يسوقونهم كالحمير.

صحا سقف الحيط من هذا الكابوس، وهو يصرخ، فصحا والده وأمسكه ووضعه بجانبه تحت الفروة، لكنه لاحظ أنه يتصبب عرقا، وجسمه مثل النار، ودقات قلبه متسارعة. أخذ يهدئ به ويقول: اسم الرحمن عليك، ماذا حصل لك؟ كأنك صحوت من كابوس.

قال لوالده وهو يمسك بيديه: «شفت حلم وكابوس»، ومد يده لجيبه وأخرج صورة اليهودي وقال: «يا أبي شفت هاظ اللي بالصورة، وهو جندي حي يحمل نفس السلاح مع يهود آخرين، وطخوا على ناس، وقتلوا بعض الناس ومشوا على جثثهم، وكان سرحان معي فنبح عليهم وهاجمهم، فتركوني لكن ساقوا الناس كالحمير إلى الغور».

كان والده يستمع إليه ويقول له: «هذه أضغاث أحلام، تف عن اليمين والشمال، وتعوذ من الشيطان، ولا تحدث به أحدا وخصوصا إخوتك».

حين سمع رد والده هدأ، وزاد هدوؤه عندما سمع سيرة إخوته وتحذير والده له بأن لا يقص حلمه أو رؤيته على إخوته، فسأل والده قائلا: «ليش خليت إخواني يمشوا في الليل، كانوا ناموا معنا، وبعدين راحوا على المدرسة؟».

رد عليه والده وهو يمسح على جبهته ويسقيه الماء ليعوض العرق الذي فقده قائلا: «يا ابني الاحتياط واجب، من زمان قبل ما ولدت أنت اتهدمت بيوت الشعر من المطر، وسحبت السيول الفراش وبعض

الأغنام، وجرى الوادي، وتحاصر الناس شرق الواد وغربه». واستطرد: «المهم إنه هذا عام الخير والغيث، والرزق نزل من السماء، والحمد لله أننا عفرنا العفير من الشعير، وبذرنا القمح، وخلصنا حراثة، وأن القمح الذي زرع قد سقي من هذه المطرة، وأن العشب الذي قرب أن يذبل بكرة بنعنش وبكبر، والغنم بترعى وبتدر وبنحلب الحليب، وبنجبن الجبنة وبنبيعها، وبنخش على المدينة وبشتريلكم ما تحتاجون». قاطعه سقف الحيط عندما سمع المدينة قائلا: «بتوخذني للمدينة معك؟».

سكت والده ولم يجب، وترك سقف الحيط بحيرة من عدم الجواب، وأراد أن يعيد نفس السؤال، لكن والده عرف، فأعاد ليكمل حديثه بمواضيع أخرى غير سيرة المدينة فقال: «والخبيزة راح تكبر، والناس راح تبقل، وراح يبلشوا يطبخوها، ويفرموا أوراقها الخضراء المدورة ويقطعوها قطع صغيرة ويغلوها بالماء ويعصروها، وبعد ذلك يحمسوها بالطنجرة، بعد وضع قليل من زيت الزيتون، لتصبح الطبخة المشهورة باسم المعصرة».

كان سقف الحيط، يستمع لوالده وهو يعرف ما يقوله، فهو ليس بشيء جديد عليه، ويعرف أن تلك إحدى الأكلات الرئيسية اليومية للغداء طوال فصل الربيع بالغور، لكل أهالي البلد الذين اعتادوا النزول للغور من أجل أن يأكلوا ما تنبت الأرض لهم من خبيرة، وسلك وبيسوم، ولتأكل أنعامهم. عند العشاء تقوم النساء بعمل أقراص الحميض، ويعملن منها كميات كبيرة ليأخذها الرعاة والحراثون معهم، وحتى طلاب المدارس،

فيعودون بها إلى من تبقى في القرية، ويتذوقها المدرسون الذين كانوا يأتون من المدينة، ولا يعرفون أقراص الحميض ولا المزنرة. واستطرد والده قائلا: «بس لسه الحميض أول تنبيت والخبيزة».

كان سقف الحيط يترقب انتهاء والده من الكلام عن خيرات الغور، ليسأله عن سؤال سابق لم يجب عليه والده. أراد إجابة تشفي فضوله وتخفف أثر الكابوس الذي رآه في المنام، فمد يده في جيبه وأخرج الورقة وأكد لوالده أن ما رآه في الحلم كان حقيقة:

«هذه صورة اليهودي الذي رأيته بالحلم الليلة مع يهود آخرين يطردون الناس إلى ومن الغور».

ارتبك أبونسر، وأراد أن يجاري ابنه، فأخذ الورقة منه ونظر فيها متأملًا، ثم أراد أن يغير الحديث فقال: «آه هذه من كتاب أخيك باسم. أنت مزعتها ليش؟».

رد سقف الحيط: «أنا بحب الصور من لما أخوي حافظ حضر من الكويت وجاب المجلات المصورة معه، وأخذهم مني، وعطاني بدلهم محفظة»، وأضاف سقف الحيط: «وهان في الغور ما في صور، فلما شفت كتاب باسم وجدت صورا كثيرة، ولما قلتلي نام، وبلاش تسرح في إخوتك، كنت بتفرج عليها ومزعتها ووضعتها بجيبي، وما حدا بعرف حتى أفرجيك إياها وتحكيلي عنها». امتعض أبونسر من حديثه وقال: «لا أريد أن أرى صورة هالقتلة الذين هجروا الناس وأخذوا بيوتهم وقتلوهم»، رد سقف الحيط: «يعني مثل ما شفت في الحلم»، وسأل أباه:

«طيب مين هؤلاء الناس يا أبي؟».

أجاب أبونسر وهو غاضب وقد أشعل هيشية: نحن الفلسطينيين أصحاب الأرض، ورثناها من آبائنا الأولين.

لم يفهم شيئا مما يقوله والده، وأعاد ما سبق أن قاله لأبيه: «مثل ما شفت أنا بالحلم». واستطرد قائلا: «طيب وينهم اليهود؟ أنا ما شفت حدا منهم إلا في الصورة والحلم؟».

تنهد الوالد وقال: هل تعرف جارنا في البلد الذي نطلق عليه المهاجر؟

أجاب سقف الحيط: ذكره الأولاد في الحارة عندما كانوا يقولون خلينا نلعب في ساحة بيت المهاجرين.

أراد أبونسر أن يقرب الموضوع لذهن سقف الحيط فقال إن بيت المهاجرين هو لأحد الذين طردهم اليهود من بيوتهم في فلسطين، وهاجر وسكن في البلد عندنا، في مَصْطَبة، لإنه ما بده يسكن في المخيم، وأضاف: لأنه تزوج واحدة من نساء البلد.

توقف المطر في الخارج، وظهرت شمس الغور التي ألقت بأشعتها الذهبية على الربيع لتمده بالطاقة والحرارة بعد أن أمدته السماء بالرزق، فأصبح الجو أقل برودة، حتى إن والده وضع الفروه جانبا، ونهض لينهي الحديث مع ابنه ويغير الموضوع، فقال له: «اليوم بتظل في البيت، ما في خرفان تسرح فيها، وبتروح مع أختك على عين الحَفيرَة، وبتساعدها بملء سعون الماء، وأنا ذاهب لأرى ماذا حصل مع الرعيان والأغنام». فاطمئن على الخرفان والمواليد الجدد، وتفرقا.

تذكر سقف الحيط إخوته الذين لم يناموا عند نسايب عمهم في ساده الفقي غربي الوادي، واعتقد أنهم وصلوا إلى مَصْطَبة لأن العاصفة لم تحدث والوادي لم يجرِ.

تابع إخوته سيرهم، وصلوا إلى المدرسة متأخرين حتى وجدوا بوابة المدرسة مقفلة، فأشار إليهم آذن المدرسة مازحا معهم: «إذا جبتوا شيء من الغور بفتح الباب لكم»، ضحك باسم وقال: «يا عم ما أنت عارف لسه ما فيه لا خبيزة ولا حميضة ولا جبنة. إن شاء الله المرة الجاية»، ففتح لهم باب المدرسة ودخلوا الصف السادس، وما إن جلسوا على المقاعد حتى رن الجرس وخرج الطلاب للتنفس.

سعد السعود

انتهى سعد الذابح وجاء سعد السعود، وكان المطر يتساقط والأرض تستقبله بحفاوة ورقص واهتزاز، والعشب الأخضر ينبت بسرعة بسبب الماء والدفء الذي تمتعت به أرض الغور، فأنبتت من كل زوج بهيج من الأعشاب والشجيرات الرعوية التي تهيج، وقبل أن تصفر وتستغلظ تقضمها الأغنام والأبقار، ويقطفها الناس.

تزينت سادات الغور بنبات الخبيزة المعروفة للناس، والتي تنبت بسرعة وبكثرة على جوانب الطرق، وفي البيادر وبجانب العيون والآبار، لكنها أكثر ما تنبت في السادات المعروفة كمهجع للأغنام وللعزب، ومن أشهر تلك السادات: سادَّة الفقي، والقُرِّيس، والحَفيرَة، وسادَّة المُبَشِّر... إلخ.

تسود السادات على ما حولها من الأراضي، وتعلم نفسها في الغور، أول ما تعلمه باللون الأخضر الغامق، ودرجة الخضرة فيها نظر للغورانيين، فيعرفون من ذلك أن هذا عام يغاث فيه الناس والحيوان.

يحرص الرعاة، وأصحاب الحلال ألا يقتربوا من السادات بأغنامهم، فهذه السادات كانت مهجعا لأغنامهم بالصيف، فيشكل روثها الذي يختلط بالتراب تربة عضوية غنية حاضنة لما يأكل الناس وليس الأنعام، فتلك قسمة الرحمن وفق نظمه وقوانينه المودعة في خلائقه، سواء كانت بشرية أو حيوانية أو حتى طبيعية. وهذا الإبداع الرباني يكون وفق موازين دقيقة، وبكميات محسوبة بقدر حاجات النبات والحيوان، وأخيرا الإنسان المسيطر المتمتع بكل ذلك المتاع، فلا تفسد المنظومة

الآيكولوجيـة الإ بتـدخل الإنسـان المنحـرف الضـال العابـث بقـوانين الرحمن من أجل إشباع جشعه وطمعه، فينسى أن كل ذلك مسخر له، فلا يأكل بقدر حاجته بل بقدر شهوته، فيأخذه الطمع والجشع ويتعدى على ما خصص للنبات والحيوان.

إن النظم الربانية هي سلاسل غير متناهية، تبدأ من العدم الذي أوجده الرحمن فأصبح موجودا. فتنطلق كل منظومة من منظومة وترتبط بمفصل مع منظومة أخرى. وكل واحدة تعتمد على المنظومة التي قبلها، وتدعم المنظومة التي بعدها، فمنظومة الربيع والزرع والنبات في الغور، قد اعتمدت على منظومة المطر وتربة الغور المنخفضة، ومنظومة الحيوان وأغنام أهل بلدة مَصْطَبة، وحلال أبونسر، تعتمد على منظومة عشب ونبات الغور، فتأكلها أنعامه، وأبونسر وعائلته وسقف الحيط وغيرهم يأكلون من منظومة الأنعام من حليب وجبن ولحم، ويتمتعون بالصوف والشعر والجلود.

يتلو النظم الرحمانية الكلية نظم فرعية، كالنحل والحشرات، وكل له دور في تلقيح ونقل بذور النبات ونشرها في الأرض، حتى وإن صغرت أو كبرت، فكلها مسخَّرة للإنسان القادر على إدارة هذه النظم وفق نظم وقوانين الرحمن، فإن تعدى تلك القوانين وظن أنه قادر على السيطرة عليها، يكون حينئذ معرضا لأمر الله بالعذاب والهلاك، فبسبب فعل الإنسان المنحرف عن النظم، ينقلب السحر على الساحر، فيذوق العذاب الأدنى بسبب ما أفسد.

إن الأنعام في الغور، وإن كان معظمها سائبًا، إلا أن لها أماكنها التي ترعى فيها. وكل مخلوقات الرحمن تعيش في الغور، وكأن الغور بيت

واحد بدون سقف إلا من السماء، سواء لمَصْطَبة أو القرى والبلدات المطلة عليه.

يعطي الرحمن بسخاء من عطاء الربوبية للجميع وبقدر، فهو لا يفرق بين الناس والأنعام، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، وبالنسبة لجميع المخلوقات بما في ذلك الإنسان، فإن الغور مستقر ومستودع، لكنه للأسف بدون سقف، فهو مكشوف لا غطاء له سوى السماء، والكسوة الخضراء بالربيع، والكسوة الصفراء بالصيف، وهذا ما كان يجعل سقف الحيط؛ يتوحد مع الغور، ويصبح له ذاكرة غورانية واعية للوجود الغوراني، تنسج وتغزل على ذاكرته الجنينية غير الواعية بوجوده برحم أمه.

لقد منحت مقومات الغور المادية سقف الحيط مفاهيم غير مشخصة، تعلَّمها من خلال التجوال في الغور، بلا قيود أو حدود أو أوامر من أي شخص حتى من الأب أبونسر.

لقد كانت أول صفات الغورانية الحرية، كلمه الله تعالى الأولى التي سبقت للناس جميعا، وكانت الصفة الثانية التي تميز الغورانية هي كلمات الله التي لا تعديل عليها، كقانون الجاذبية التي تجعل نزول إخوة سقف الحيط وغيرهم للوديان يوم الخميس سهلًا ومريحًا، وصعبا وشاقا عند صعودهم للجبال والعودة للمدرسة يوم السبت، مع ذلك توافقوا وانسجموا مع كلمات الله ونظمه.

كان سقف الحيط متحركا ضمن المنظومة الرحمانية التي صقلت وبلورت غورانيته، فحركته دائمة بحرية دون أن تمنعه قيود أو حدود،

وجعل صعوده ونزوله للجبال غورانيته متوافقة مع كلمات الله، فهو يشعر بأنه هو سقف الغور.

يُطلق على ما بعد منتصف شهر مارس، الشهر الذي ولد فيه سقف الحيط، سعد السعود، وهي الأيام التي يسعد فيها المولود؛ فبعد مولده بأسبوع، بدأت عاصفة غير عادية، شديدة الريح والمطر، واستمرت سبع ليال وثمانية أيام دون توقف، فطارت بيوت شعرهم، وتفرقت أغنامهم، وجرفت السيول حملانهم ومتاعهم، فلجؤوا إلى المغر والكهوف، واعتقدوا أن المولود الجديد قد أخذت روحه الملائكة، وتركت جسده الضعيف باردا بعدما تجمد الحليب في ثدي نصرة هذه المرة، وقد سبق أن تخثر حليبها وفسد عندما فقدت زوجها باسم، ففقدت على أثره ابنها باسل، وعوضها الرحمن من زوجها أبونسر بابنيها باسم وباسل.

لم تنس نصرة ذلك الحدث المؤلم، واعتقدت أنه يكرر نفسه مع مولودها الجديد الذي ولد قبل هبوب العاصفة بأسبوع، ومن شدة العاصفة والبرودة وهول الصدمة وذهولها عن رضيعها وتجمد الحليب في ثدييها ومرضها، تركته معتقدة أنه مات.

تلك قصة لم تُكمل نصرة قصها على سقف الحيط، لكنه كان قد سمع من النساء أن لقبه الأول كان سقف المغارة، بعدما عادت الروح له في المغارة على إثر العاصفة، واستبدلت نساء النزل اللقب في ما بعد ليكون سقف الحيط، ويعيش بلقب دون اسم، معتقدين أن البركة مصاحبة للمولود ولمن يصحبه، فهو بنظرهم ولد ومات، ثم عاش بعدها.

لم يكن سقف الحيط يعرف تفاصيل تلك العاصفة ولا ما حصل له،

رغم أنه كان يلح على أمه وابيه ليحكوا له تفاصيل ذلك، لكنهم كانوا يتهربون من ذلك، ويبقونه لما كان يسمعه من نساء النزل.

إن كل ما يعرفه سقف الحيط عن نفسه أنه وُلد وتربى في الغور، وأن لحمه ودمه من حليب أمه نصرة التي كانت تعشق أكل خضرة الغور، فأصبح لحمه وروحه نتاجا من منتجات الغور، ومن أرضه التي بدأت الكسوة الخضراء تكسو تلالها وهضابها، وبدأ القمح والشعير ينبت في السهول والدبب والوهاد، وبدا سهل لفجيم وجمونيا وبعض الأكتاف في المَداحِل سجادة خضراء تغطي التراب، في حين إذا ما ارتفعت إلى المستوى الأعلى من الغور في «الطويل» و«ظهر حمار» و«الخُصُم»، وصولا إلى «الرَّواع» و«الفَخْت» في الطويل، كان الزرع ما يزال ينبت من الأرض، فكانت الخضرة مع التراب البني تعطي لونا مختلفا.

إن من نظم الرحمن أن الغور منخفض، فالحرارة مرتفعه نسبيا عما هي عليه في الجبال، ولزيادة المطر تلك السنة في سعد السعود، نبت الربيع والعشب بسرعة، وبدأت الحياة بالغور، وكان أهل بلده مَصْطَبة والبلدات الأخرى المطلة على الغور، هم وأنعامهم من سكان الغور.

كان سقف الحيط دائما يرافق أباه وهو يشقر على الزرع ويتفقده، فقد أصبح القمح أطول من شبر، ولا بد بعد فترة من تعشيبه، وقد بدأت أيضا النعاج بوضع مواليدها من الخرفان، فكان سقف الحيط يرافق والده لمساعدة الرعاة في فصل النعاج التي تولد وتتأخر عن القطيع، فيتم ترك سقف الحيط مع خمس أو ست نعجات أمهات مع خرافها ليحرسها لوحده، وكان دائم النظر إلى الخلاصة التي تنقطع أثناء الولادة، فتلعق النعجة بلسانها جسد

صغيرها لتنظيفه، حتى إذا ما وصلت إلى الصرة التي يتدلى منها الحبل السري، أكلت جزءا منه بطريقه لا تؤذي الحمل، وما إن يقف الخروف على قدميه حتى تحني راسها إلى مؤخرته، فتمرر فمها تحت ليته الصغيرة، فينتعش وتدب الحياة به ويصبح خروفا. يقف على رجليه خلال ثوانٍ بعد تلك اللحسة، وحالما يقف تستمر الأم بدفعه من مؤخرته بفمها ورأسها، حتى يهتدي إلى درتها وحلماتها، فيرضع لينمو، وينافس سقف الحيط رضيعها بالباء أو اللباء الذي كان يعشقه سقف الحيط.

تبدأ حياة جديدة للخراف مختلفة عن الحياة الجنينية في رحم أمهاتها، ويصبح الخروف أحد سكان الغور، فينمو ويترعرع تحت رعايه فتى الغور.

يبقى الغور مكانا عاريا من الشجر وأرضا هابطة وغائرة تحت مستوى البحر، ومكشوفًا أو مغطى بغطائه الأخضر أو الأصفر أو بحسب فصول السنة.

استمر سقف الحيط وكلبه سرحان في رعي الخراف، في سعد السعود الذي تدور به المية في العود، واستمر في المراقبة والحراسة حتى إذا ما جاءه والده قبل غروب الشمس وضع الخراف في الخرج على ظهر البغلة، وسارت الأمهات خلفه وهي تصدر أصوات الثغاء منادية على حملانها، فترد عليها الخراف بمأمأة، لتقول إنني موجودة وقريبه منك، وتستمر هذه السمفونية طوال الطريق حتى يتم الوصول إلى النزل، ويتم حلب شيء قليل من كل النعاج الوالدة، لعمل ما يسمى «لباء»، وهو حليب حين يسخن قليلا يتخثر ويجمد قليلا، ويتم إطعامه للصغار من الأطفال والكبار من الشيوخ والعجائز، وطعمه ليس لذيذا إلا إذا أضيف إليه

السكر، وهو مفيد، ويقوي مناعة الجسم، فالخروف الذي لا يلبى، يظل مريضا وهزيلا.

كان سقف الحيط، يستمد فتوة غورانيته من اللباء، ويأكله سواء بالسكر أو بدون سكر، ولعل ذلك قد خلق عنده شعور بأن الخراف والسخول إخوانه على الأقل بالرضاعة وبالمعيشة، وقضاء أيام معهم دون أن يتكلم مع إنسان، فتلك ميزة أخرى للغورانية التي تعلم الصمت والإصغاء، كان سقف الحيط يتقن فن الإصغاء واستراق السمع وهو يمارس مهمة الرعي بالخراف والسخول حول النزل، فبعدما تسرح أمهاتها مع القطيع وتغيب عنها، تبقى الخراف ترعى في تلال الغور، بعدما بدأت بعضها تأكل الربيع، مع أن ذلك لا يغنيها عن الحليب الذي ترضعه في المساء عندما تعود الأمهات وتدر محزقة ومدرة، فيتم الاعتداء على حصة ونصيب الخراف من الحليب من قبل الإنسان، بعد حلب نصف درتها وترك النصف الآخر للخروف، فتراه «يهمط» حلمات الدرة، حتى إذا فرغت الدرة من الحليب، وبدأ يؤلمها مص الحلمة، رفسته النعجة برجلها ليترك ثدييها.

كان سقف الحيط يعوض الخراف عن حصتها المفقودة بالرعي بها طوال النهار دون أن يعلم ذلك، وإذا جاء المساء كان يراقب الرعاة وأباه وأعمامه ونساءهم، وهم يربطون النعاج الحلوبة في الرِّبْك، فتتقدم نساء أعمامه وشقيقته بالبكارج للحلب، وهن يتخبطن بالرِّبعي المتكون من روث النعاج الرخو مع الطين، نتيجة أكل الربيع، فيصبح لون الطين أخضر، وإذا لم يمتزج بالتراب الناشف فإن من يدوس عليه قد ينقلب

على عقبيه، وكانت عملية حلب الأغنام عبارة عن معركة بين الحلّابات والأغنام، فهن يحلبن الأغنام بعد أن يقوم الرعاة والرحال بربط رؤوس الاغنام بحبال الرِّبْك، وكانت أخته تطلب مساعدته ليمسك العنزة من قرونها حتى لا تتحرك بينما هي تُحلَب، فسعد السعود ليس فقط يُدبُّ الماء في العود بل أيضا الحليب في الضروع.

لم تكن عملية الحلب مقتصرة على الغنم والماعز، فحلب البقر كان أصعب، وكانت لأبونسر بقرة من الصعب حلبها إلا من قبلة. لقد كانت من نوع البقر، الذي ما إن تبدأ حلبها حتى ترفس برجلها الحلابة، فيقع بكرج الحليب على الأرض، وهذه أسوأ عقوبة لأصحابها، فلا يمكن إعادة الحليب المسكوب على الأرض للبكرج.

كان سقف الحيط ينظر إلى نساء النزل ويستمع إلى أحاديثهن أثناء الحلب وعمل الجبنة، بعد غلي الحليب ووضع المسك والملبن وسكب الحليب باللكن ووضعه في قطع قماش بيضاء، مقطعة بشكل مربعات ورصه بين خشبتين، ووضع الحجارة فوق الخشبة العلوية عليه حتى يمصي الميص، ويتم ترتيب أقراص الجبنة في التنكات. سمع مرة إحدى نساء عمه تقول لحمامة: «ليش ما بتقوشي عن الحليب، وتعملي زبدة وسمنة؟». ردت حمامة عليها: ما حدا حكالي وعلمني أقوش.

قالت زوجة عمها الكبير: «كانت أمك الله يرحمها أشطر واحدة في عمل السمنة من حليب الغنم البياض لأنه دسم»، واقتربت منها قائلة: «لازم خالتك نصرة علمتك إنه أثناء الغلي بتقوشي الزبد وبتعملي السمن، وبعدين بتعملي الجبن، وإذا بدك تعملي لبن والحليب في السقا

بمتخضي شويا السقا، وبطلعي الزبدة».

قالت حمامة: خالتي حكت إنه إذا بدهم يبيعوا الجبنة، فحرام القوش عنها.

أجابت زوجة عمها: هيك حكت لك؟ وينها هيه؟ هي ليش ما تنزل وإلا قاعدة في البلد، وتاركة كل شيء عليك.

أجابت حمامة: خالتي والدة من شهر، ونفاس وما بتقدر تنزل، وبترضع.

لم يعجب رد حمامة زوجه عمها فقالت لها: روحي جهزي الحطب وشغلي الموقد خلينا نقوم بالتشريك وخبز الشراك لنا وللرعيان، ونضع لهم شوية زبدة على الشراك السخن.

كان سقف الخيط قبل قيامه بِنَش قطيع الخراف يترقب خم الدجاج، فإذا وجد بيضا أحضره، وطلب فقس البيض بالزبدة من فم السقا، فيكون قد غير طعم فمه من الخميعة. يأكل البيض بالزبدة الطازجة المملحة في الصباح، قبل أن ينش خرافه للمرعى المجاور، فيعود قبل المساء، وقبل حضور والده مع الأمهات، فتلتقي مع الخراف ليعود إلى النزل، فيتناول ما قسم له من لباء وجبن ولبن.

إن أول القيظ له طعم خاص، فهو يأتي بعد حرمان منه. وعندما يأتي الربيع وسعد السعود يسعد سقف الحيط بأكله اللباء، وشرب الحليب وأكل الجبنة وهي طرية وغير مملحة، وشرب اللبن المخيض ومذاق البيض المفقوس بالزبدة، أو أكل الخميعة مع الرعاة، وقد سمع والده يقول: «إن شاء الله الأسبوع القادم ستمتلئ التنكات بالجبنة، ويحضر

الرعاة تنكات من السدد أو السادات الأخرى القريبة علينا، ونحملها على الحمير لنقلها إلى مَصْطَبة، ومنها إلى المدينة للقاء تاجر الكمسيون وبيعها». يقايضونها بحاجات لهم ولأنعامهم، ويشترون ما يحتاجون من شاي ورز وقهوة وبعض الملابس، وكذلك بعض الأدوية للأغنام، وبعض حاجات الرعاة من دخان هيشي ودفاتر لف سجائر، وحتى الكنافة النابلسية المصنوعة من الجبنة نفسها. لقد كانت التعاملات مقايضة أكثر من كونها نقدية، وكل واحد ينتظر الموسم، سواء كان موسم جبنة، أو بيع الخراف، أو الحصاد والبيادر، أو قطف الزيتون.

لقد سمع سقف الحيط ذلك من حديث والده مع أعمامه في الشق، وكان يصغي لوالده حتى نهايه حديثه عندما قال أبونسر لإخوته خبر أنه سيدخل المدينة. وكان سقف الحيط قد سمع عن المدينة الكثير، وعرف أنها متميزة، وأهلها مختلفون عن أهل الغور والقرى.

الجبنة والعَقَبة

حمَّل أبونسر الحمير تنكات الجبن، كان ذلك في أواخر شهر مارس سنة 1967، وكان الحمل لجبنة جميع من في النزل في الغور، بشكل خاص له لكونه أكثر من يعمل جبنة. وحمل لإخوته وأصهاره، ولبعض أصدقائه من أهالي مَصْطَبة الذين كانوا ينزلون في منازل بعيدة عنه، كـ«ست حريز» و«وادي الزكازكة»، و«عمرة»، الذين يرسلون تنك جبنتهم مع أبونسر لإيصالها لنزل أبونسر في المَداحِل، فتكون المَداحِل مركز تجميع من أجل إرسال قافلة الجبن إلى البلد، ومن بعدها لتوصيلها إلى تاجر الكمسيون أبوسعود في المدينة، فيقوم بتوزيعها بدوره على الكنفانية لاستعمالها في الكنافة النابلسية.

يعلم أبونسر أن رحلة نقل الجبن من الغور إلى مصطبه والمدينة ستستغرق أسبوعا، وسيرى نصرة التي تكون قد تطهرت، بعد أن مر على ولادتها أربعون يوما، وليحضر بعض الأغراض والحاجات من المدينة، ويعرف أخبار بلدته مَصْطَبة وما حولها، والأخبار عموما، وأخبار القضية.

كانت الرحلة فرصة لسقف الحيط ليلتقي بأمه وإخوته، ويرى شقيقه الرضيع الذي لم يره ويطمئن على المحفظة التي خبّأها في خابية القمح، ووضع صورة اليهودي فيها. لكنها كانت لتحقيق أمنية له، وحلم أبعد من زيارة بلدة مَصْطَبة ولقاء أمه، كان حلمه أن يدخل المدينة، فما إن لمّح لوالده له لمرافقته، حتى فرح بذلك.

كان أبونسر لديه رغبه قوية في أن يعيد سقف الحيط للقرية حتى لو لم

يطلب سقف الحيط أو يلمح لمرافقته، فقد كان يشعر أن وجود هذا الطفل منذ أن تفتحت ذاكرته في الغور سيؤثر على شخصيته، وأنه لم يعش حياته كطفل، وأن هذا العمر الطفولي يؤثر في بناء شخصية الإنسان، لهذا رحب به وشوَّقه للقاء أمه وإخوته.

لم يكن أبونسر يعلم بحلم سقف الحيط لمرافقته إلى المدينة، بل كان معتقدا أنه كطفل مشتاق لوالدته وإخوته الصغار وأصدقائه في الحارة، ومنهم أبناء عمومته وصديقه المميز الأحدب الذي كان ينفر منه أولاد الحارة إلا سقف الحيط، فيلعب معه ولا يسخر منه.

لقد أخفى سقف الحيط حلمه الذي يتجاوز حدود القرية ذات اللون والشاكلة الواحدة.

بدأت رحله الصعود بقيادة أبونسر والحمير تسير خلف بعضها البعض وتُصدر في بعض الأحيان أصواتها المؤذية للأذن، وكانت خمسة حمير محملة بأثقال تنكات الجبنة. وقد أركب أبونسر سقف الحيط على ظهر الحمارة البيضاء القبرصية، وهي كبيرة الحجم نسبيا لكونها قبرصية، كانت بحجم البغلة وبقوتها، وهي تشبه البغال بأنها لا تحمل ولا تلد، وتختلف عن البغال بأنها ليست شموصة مثل أكثر البغال، فهي رفيقة بالصغار والكبار، وتعرف طرق الغور جميعها، وهي من موجودات أبونسر التي مر عليها عقد ونصف، وكانت كما يقال هي رجله ويدع، فأطلق عليها اسم «الحمرة».

كانت الحمرة تقود قافلة الحمير، فهي تعرف الطريق التي يبلغ طولها خمسة عشر كيلومترا، وتعرف الطلعات والعقبات، وتسلك الطرق

السهلة والضيقة واللفات والمنحنيات، ولا تتوقف لترتاح ولا تتباطأ كغيرها من الحمير ولا تسرع كالبغال.

كان سقف الحيط يركب على ظهرها بعد أن مد ساقيه على تنكات الجبنة التي كانت محملة على جانبي الحمارة وهو جالس على ظهرها. وكان ظهر الحمرة قد أصبح مثل الأريكة. استغرقت القافلة من نزل في المَداحِل إلى بلدة مَصْطَبة سبع ساعات، وخلال الرحلة كان أبونسر يقطع الصمت بوقف الحمرة عن السير فتقف الحمير للراحة، ويقوم أبونسر بالجلوس ولف ثلاث أو أربع هيشيات، ليقوم بتدخينها أثناء سير القافلة.

إن الطريق طويل، وقافلة حمير الجبنة تسير متخطية وعورة طرق الغور، ما بين طلوع ونزول، والسير على حواف الوديان المليئة بالصخور والصفوان والقطاين.

كان سقف الحيط، يحب أن يرافق والده مسافات طويلة ليستمتع بقصص وحكاوي والده الذي كان يستغل طول الطريق، فلا يشعروا بالتعب. ولقد أتاحت مرافقته لوالده في موسم الحراث له تخزين معلومات كثيرة عن القرن والقناة والرومان والضباع، وعن جده الذي تزوج الزوجة الثانية في ليلة ومن شرقي النهر، وها هو يركب على الحمرة، وينتظر والده ليمارس هوايته في قص القصص، فماذا يخبئ أبونسر من القصص خلال رحلة طلوع العقبات والحمير محملة بالجبن، وكان على وشك أن يسأل والده عن المدينة، وهو الأمر الذي كان يشغل ذهنه تماما.

تفاجأ بوالده يقص عليه سيرة أبي زيد الهلالي، وكيف أن أبا زيد قد غدر بخاله يونس عند بئر «أبوالدَرَج» في الغور وقتله، وكان سقف الحيط

يحب هذه الحكايات والخرافات، فقد سمع بعضا من سيرة عنترة وسيرة الزير سالم، وأحيانا كان أبونسر يتوقف عن قص السير و«يروض» ببعض الأهازيج وهم يقطعون عَقَبة بعد عَقَبة، وكانت أصعب وأخطر عقبيتن هما عَقَبة المُعَلَّقَة وعَقَبة «أبو سليم»، وما بين الأولى والثانية مسافات من الطرق الضيقة؛ منها السهل، ومنها الوعر، إلى أن وصلوا بعد أذان المغرب إلى مشارف بلدة مَصْطَبة الشرقية المطلة على الغور.

إن تجاوز عَقَبة «أبو سليم» في نهاية المسيرة هو إنجاز بحد ذاته كما قال والده: «إذا قطعنا عَقَبة «أبو سليم» وصلنا البلد». لأن أبونسر يعرف أن التعب والارهاق يكون دائما في النهايات، ومعروف عندهم وعند العرب عموما أن الخيل الأصايل هي التي تثبت في السباق أو القتال حتى آخر ضربة أو عند آخر قدم.

كان سقف الحيط قد نام على ظهر الحمارة فلما انتهوا من عَقَبة «أبو سليم» وأصبحوا على المرتفعات الغربية للغور، أيقظته النسمات الباردة التي هبت عليهم، وشعروا بشيء من البرودة التي بدأت تجفف عرق أبونسر وعرق الحمير نتيجة طلعة العَقَبة الحادة، أما سقف الحيط فلم يتعرق لكونه راكبا على ظهر الحمرة، لكنه شعر بالبرد فاستيقظ، فهو لم يتعب من السير كباقي القافلة.

شعر سقف الحيط بالبرد فهو لم يتعود على برد المرتفعات الجبلية في شفا الغور، ولم يتعود على الريح التي تجمّد الأطراف، لقد بدأت الريح تزداد قوة وحدّة مع قدوم الظلام ومع الارتفاع، فقد أصبحت تكوي وتلفح الوجوه التي لا عاصم لها من برد الجبال والمرتفعات إلا التلثم

بالكوفية أو الحطة. انتبه أبونسر لسقف الحيط المتعود على جو الغور الدافئ، وكان ذلك عندما وصلت القافلة فوق منطقة جبل الناطوفة وهي البوابة الشرقية لمَصْطَبة، فغطى سقف الحيط بالفروة وهو على ظهر الحمارة وقال له: «من اليوم وطالع بدك تلبس لباس ثقيل غير لباس الغور الخفيف، أنت في البلد على ظهور الجبال مش في الغور بالدفا والحرارة».

وصلوا بعد أذان العشاء فأخذته والدته بحضنها بقوة، فشعر بقوتها، فقد كانت أمه في نهاية الأربعينيات من عمرها، وذات بنية قوية وفاردة الطول ذات بشرة بيضاء، وعيون مشروحة وواسعة، تشبه حبات اللوز الكبيرة التي تشتهر بها بلدتها العِلِّيَّة.

شعر سقف الحيط بحاذبية حضن أمه ودفئه بعد أن كان يرتجف من البرد. لم يرد النزول من حضنها لولا أنها تركته لتحمل رضيعها في حضنها، فقد بدأ يحتج بصراخه وعياطه، فضغطت عليه وأنزلته من حضنها، وأشعلت بابور الكاز الذي كان بجانب منقل الحطب ذي الجمر المتوقد، وأخذت تفقس البيض بالجبنة والزبدة، وأحضرت رغيف خبز طابون ووضعته على حمالة الحطب بجانب إبريق الشاي الذي كان البخار والهبا، يخرجان من تحت غطائه ومن زعبوبته.

بينما كان سقف الحيط يتدفأ بجانب الكانون وينتظر العشاء، كان والده قد أنزل تنكات الجبن وربط الحمير في الياخور، وسقاها وعلفها شيئا من التين، وذهب تحت التينة وأخذ على يده ليتوضأ، ودخل إلى البيت بعد أن علَّق حطته خلف الباب، فوجد أبناءه مجتمعين حول سقف الحيط، وقد اجتمع حوله إخوته الصغار، خصوصا أصغرهم الذي بدا

سعيدا برؤية شقيقه، فهو على رأسه، فأقام الصلاة المغرب جمعا مع العشاء، وبعد أن سلم أقام صلاة العشاء قصرا.

جلس مع أبنائه وسمى بالله، وحمد الله وشكره، وتناول العشاء المقسوم، وكان سقف الحيط، قد سبقهم بذلك لكونه جائعا وما زال أثر البرد فيه، والأكل يدفئه.

توجه أبونسر بعد العشاء إلى النملية التي تحمل على ظهرها صندوقا خشبيا له أزرار، وتعلوه بعض الفتحات الصغيرة، وحرك الزر فخرجت أصوات مع تزعيق، واستمر في التحريك بلطف حتى ظهر صوت واضح من هذا الصندوق العجيب ليقول بعد الموسيقى الثورية: «هنا صوت العرب»، وجلس أبونسر بالقرب منه يستمع وينصت، بينما كان سقف الحيط يتدثر بفروة أبيه من البرد، ولم يشغله البرد عن فضوله الغوراني، فسأل والده عن هذا الشيء العجيب الغريب: فقال له: «إنه راديو، نسمع منه الأخبار ونتابع صوت العرب، لنعرف متى سيطردون اليهود، ويحررون فلسطين؟»، وأردف أبونسر قائلا: «إن ناصر والعرب، يقولون إنه قريبا سيطردون اليهود ويرمونهم بالبحر ليأكلهم السمك، ويعود المهاجرون واللاجئون إلى قراهم ومدنهم».

لم يتذكر سقف الحيط إن سمع ذلك الكلام من قبل، ولا إن شاهد ذلك الصندوق الذي يتكلم، لكنه بالتأكيد شاهد صور المجلة التي أدت لحيازته المحفظة وصورة اليهودي التي مزعها من كتاب أخيه المدرسي، التي يحتفظ بها في جيبه، ويتذكر باص القرية، ومسجد القرية، وسوق يوم الجمعة، والتوتة التي على باب المسجد.

أغلق الوالد الراديو، وكانت الوالدة مشغولة بتسخين الماء في طنجرة كبيرة، ولم يعرف سقف الحيط كطفل، لماذا كانت مشغولة بذلك؟ كانت تقف بجانب لمبة الكاز الموضوعة في الشباك، وتقف أمامها تتأمل، بينما سقف الحيط يتذكر الشباك الكبير، وتذكر سقف الحيط أنه كان ينام وشقيقه به، وكانت نصرة تضع مرآة صغيرة أمام اللمبة، وتقرب وجهها للمرآة، وتضع شيئا على وجهها وفي عيونها، وما إن انتهت حتى جهزت الفراش، وذهبت إلى الطابون، فأحضرت صينية تفوح منها رائحة الحمام والبطاطا والبندورة والبصل، وهي مغطاة بصينية قش، ووضعتها في الزاوية البعيدة بالقرب من فراش زوجها في أقصى زاوية بجانب مد الفراش، وقامت بسحب ساتر القماش، فأصبح مكان الفرشة وكأنه غرفة صغيرة منفصلة، وما إن انتهت من الترتيب حنى قالت نصرة لأبنائها: «بس تخلصوا أنت وإخوتك بتناموا هي فرشتكم جاهزة، وبتتغطوا مزبوط، وبكرة بحممك يا سقف الحيط»، فاجاب: «بكرة بدي أطلع مع أبوي على نابلس». لم تعر أمه أي اهتمام لما قال، ولم يعلق الوالد على ذلك، فكان عدم تعليقه إشارة شؤم على سقف الحيط، كانت لمبة الكاز مشتعلة، وترسل ضوءها الخافت لجوانب البيت وفضائه الواسع، مما يجعلها غير كافية لإضاءة هكذا بيت من البيوت القديمة المعقودة والتي لها قبة.

تغطى سقف الحيط باللحاف، وبجانبه شقيقه الأصغر، ومن الجهة الأخرى شقيقته الصغيرة. تغطى وبقيت عيونه مفتوحة، فشاهد عن بعد في الواجهة التي فوق الشباك صورتين معلقتين، واحدة لرجل مربوع الوجه له

شاربان صغيران وشعر قصير، ولا يضع غطاء على راسه، وكان يتأمله، وهو لأول مرة يرى الصورة، صورة هذا الرجل الذي لا يعرفه كانت توحي بأنه في منتصف العمر، وأنه رجل حرب وقتال، فعيناه فيهما إشعاع وشرر!

لم يكن يعرف سقف الحيط لمن هذه الصورة، فهي بالتاكيد ليست لأحد من إخوته وأقاربه، في حين كانت الصورة الأخرى، وهي ملونة بألوان باهتة، تصور امرأة جميلة جدا، تغطي نصف شعرها بشال خفيف، وتجلس بهدوء واطمئنان، وتوحي عيونها ونظرتها للحياة بالسلام والمحبة.

تأمل سقف الحيط عيونها ونظراتها، فكان يخيل له أن في عيونها القنوت والرضا، وأحيانا يتدفق منهما ومن وجهها النَّوَر، وكأنها تقول له: أنا الآن وأنا الحياة.

قال لنفسه قبل أن يسلم للنوم: أنا مش متأكد أن أخي حافظ الكويتي، هو من أحضر وعلق هاتين الصورتين، ما في غيره هو من أحضر المجلات المصورة والهدايا، وهو من أعطاني المحفظة. أغمض عينيه واستسلم لسلطان النوم وهو يقول في صمت: سأسأل الوالد أو الوالدة عن هاتين الصورتين غدا.

سأل أبونسر عن الإخوة الكبار الذين يدرسون بالمدرسة، فقالت الوالدة: لقد ذهبوا لينامو عند عائشة، وهي الابنة الكبيرة، وكانت عايشة لوحدها، وليس لها ولد ولا قلد، وزوجها مسافر في أمريكا منذ سنتين، واخباره مقطوعة، وأردفت نصرة بعد توقف قصير وقالت: بسلوها في وحدتها، وبيتها قريب من المدرسة، وبفرغوا البيت لنا.

تنهد أبونسر تنهيدة طويلة قائلا بصوت فيه شيء من الندم:

«لقد ظلمت هل البنت عندما زوجتها لابن شقيقي، بدلا بابنته لابني نسر».

وأخذ يلف سيجارة الهيشي ويحضرها إلى ما بعد العشاء الخاص به الذي كانت تفوح رائحته من تحت الصينية، وبعد ذلك تسلل باقي الإخوة إلى الفراش، وقد كان آخر شيء سمعه سقف الحيط قبل أن ينام، وهو يستنشق رائحة الدخان، أمه تقول لزوجها أبونسر: «المية سخنت، قوم تحمَّم يا حج وخليني أشيل صينية الأكل»، ونفخت على لمبة الكاز وأطفأت الضوء.

أبوعمر البياع

استيقظ سقف الحيط فجر اليوم التالي على صياح الديك وصوت والده وهو يحدث نصرة، وصوت بابور الكاز، بينما كانت رائحة سيجارته الهيشية تفوح بأرجاء البيت. وما إن نهض وذهب تحت التينة وقضى حاجته، حتى أخذته أمه إلى زاوية في البيت، وخلعت عنه ملابسه، ووضعته في «لكن» كبير، وأحضرت طنجرة الماء الساخن من فوق البابور، وبدأت بصب الماء الساخن على راسه، وأخذت تفرك بيديها بالصابون، وتدعكه بالليفة حتى أصبح جسمه أحمر، بينما أمه تحممه وهو يفرك عينيه من الماء والصابون. وما إن فتح عينيه حتى وقع نظره على صورتين معلقتين على جدار البيت، فوجود الصور يجذبه، وكانت إحداهما لرجل والأخرى لسيدة. أخذ يقارن بينهما، فصورة الرجل كانت توحي للناظر بالقتال والحرب، وصوره المرأة توحي بالسلام والمحبة، بينما كان سقف الحيط يقارنهما بصورة اليهودي التي قطعها من الكتاب، ويحتفظ بها في جيبه. وقد خاف أن تغسلها والدته، فكان ينتظر حتى تلبسه والدته ثيابا نظيفة ويسارع إلى بنطلونه البالي ليأخذ الصورة ويذهب إلى خابية القمح فيخرج محفظته ويضع الصورة فيها.

نشفته والدته وألبسته ثيابا نظيفة لكنها قديمة وضيقة، من فضلة أشقائه الذين حملوا أكياسهم المدرسية، وودعوا والديهم، وهم يقبلون أيديهم.

لقد سألهم الوالد عن أخبار المدرسة، وهددهم بأنه سيسأل المدير أبوعزيز أو سيسأل الأستاذ نذير جارهم. وقد مد أبونسر يده في القمباز،

وأخرج قرشين وأعطى كل واحد منهما قرشا، وقال لهما: «تنسوش تنزلوا الجبنة على البيادر وتستنوا الباص، وبدأ بسؤال نصرة عما تحتاج من أغراض من المدينة، وطلب منها أن تسأل زوجات أولاده في الغرفة الثانية من البيت، إذا ما كن يحتجن لشيء. وأثناء ذلك عاد أبونسر يقلّب الإذاعات بالراديو، فقد كان صوت الراديو ضعيفا ومشوشا ومقطّعا، وكان يحرك بعض الأسلاك المتصلة بالبطارية، من التي كانت تحت النملية.

انتعش سقف الحيط من الحمام، وكان يشم رائحة الصابون على جسده الذي لم تمسه الماء منذ ما يزيد على ثلاثة أسابيع، وذهب مسرعا إلى لباسه القديم، وأخرج الصورة ودسها في جيب بنطلونه النظيف، وقد اقترب من والده ليصغي إلى ما يصغي إليه من إذاعات. وقد سمع والده يقول على مسمع الجميع: آه لو ألاقي إذاعة لندن أو إذاعة أمة العرب، وأسمع شو يقول الباشا نوري سعيد من العراق إللي قال: تجوع يا سمك، وأضاف: إحنا زهقنا من إذاعة صوت العرب التي تهدد إسرائيل، وما بتعمل شيء.

لاحظ سقف الحيط أن والده ينظر إلى صورة الرجل المُعَلَّقَة على الجدار، والتي شغلت ذهنه، وسمع والده يقول: «العراقيين رجال أكثر ناس من العرب، استشهدوا في فلسطين وقبورهم ما زالت موجودة»، وبينما كان أبونسر يسمع الإذاعة ويحرك الأزرار انقطع الصوت من الراديو، ولم يعد يسمع له حتى التزعيق أو التشويش، وقام أبونسر بهزه، والضرب على ظهره بيده، وهو يقول: لقد خلصت البطارية.

ما إن انهى كلامه حتى حضرت «الكنتان»، وهما تسيران خلف بعضهما البعض. وكانت المتقدمة زوجة أكبر أبنائه «نسر» الذي يخدم في الجيش، والثانية زوجة حافظ الكويتي. بادرتا بالسلام، وتقبيل يد أبونسر قائلات: «وكيفك يا عمي»، وتظاهرون بالسؤال عن من في الغور، وعن ابنته حمامة التي في الغور، وكان أبونسر قد تجاهل الإجابة، وقام بإغلاق الراديو، وتنزيل الشرشف عليه وفك أسلاك البطارية.

بينما كانت نصرة تتكلم وهي تقوم بصب الشاي، أخذت منها زوجة نسر الأبريق، وقالت: «عنك يا خالتي»، وبدأت تصب الشاي، وأبونسر يلف سيجارة الهيشي، في حين واصلت نصرة كلامها الموجه إلى زوجها: «ما عرفت مش رجع ابن خالك من الكويت، وبقولوا جايب مصاري كثير من الكويت، وزوجته بتقول إنه بده يشتري غنم، وينزل يعزب بالغور، بس أمها لزوجته معترضة، بتقول: إحنا زوجناه البنت عشانه بالكويت، وهسه جاي يرجع، يشتري ويرعى الغنم!». وأضافت نصرة: «حلفت أمها يمين قائلة: والله إذا فعلها راح أطلقها منه». رد أبونسر وهو يشرب الشاي ويبتسم حتى بانت أسنانه من تحت شاربيه اللذين غزاهما الشيب، فتلون الشيب الأبيض باللون الأصفر من القطران وأدخنة السجائر: «شو بده في التعب بعد ما راح على الكويت، وقضى ست سنين هلا جاي على حياه التعب، والله أنا بفكر أبيع الغنم!».

ردت نصرة: «ما أنت بتعرف يا حج، هو من زمان حابب يكون عنده حلال بس حماته معارضة»، وأضافت وقد هزت رأسها: «آه والله بيع وريح نفسك والأولاد، ما أنت بتعرف حمامة راح تتزوج وتروح على الكويت».

كانت نصرة في قرارة نفسها تتمنى ذلك، وتقول: «فرصة يبيع الحلال لابن خاله»، بينما كانت تخرج طقم الروزا الأبيض من الخزانة، مع حطة بيضاء وجاكيت أسود، وهو اللباس الذي يصلي به أبونسر الجمع في المسجد، ويذهب به إلى المناسبات، ويلبسه عندما يذهب إلى نابلس، وبعدما لبس وتهندم، قال لها: «لا تنسي تحضري لي العصا، ولا تنسي تذكري واحدة من الكنين تلمع الحذاء، وتستعمل البويا إللي بستعملها زوجها في تلميع بسطاره العسكري، مثل ما بتلمع لزوجها».

قام أبونسر بفك بطارية الراديو التي كانت من نوع البطاريات الكبيرة ليأخذها معه إلى المدينة ليشحنها ويعيدها، وقال موجها كلامه لأولاده: قبل ما تروحوا على المدرسة بتحملوا جميع تنكات الجبنة وبطارية الراديو على ظهر الباص، وبعدين بتروحوا على المدرسة، واستطرد أبونسر بعدما رأى تذمر أولاده لأنهم سوف يتأخرون عن المدرسة، غاضبا: «احمدوا ربكم هالأيام في باص بالبلد، زمان كنت أخلي إخوانكم الكبار، يوصلوا تنكات الجبنة على الحمير للخان في المدينة، ويعودوا راكبين على الحمير من المدينة».

كانت أمنية سقف الحيط أن يرى المدينة بعدما سمع عنها الكثير، ولم يحب القرية.

إن المدن تختلف عن القرى، فأهالي القرى دكة واحدة، وأقارب، ومتشابهون في سلوكهم وعاداتهم وأعمالهم.

كان سقف الحيط يسمع أن المدينة مختلفة، حتى الناس الذين يسكنون فيها مختلفون، ولا يشبهون بعضهم البعض، ومللهم مختلفة

ومتعددة، ولا يوجد مختار واحد، ولا أغنام ولا عرب، وحتى لا يوجد فلاحة فيها بل تجارة.

لقد سمع أيضا أن أهل القرى يحضرون معظم الأشياء منها، فكانت فرصة أمام سقف الخيط أن يستغل محبة والده له، ليأخذه معه إلى المدينة، وقد طلب ذلك فرفض والده، وأراد سقف الخيط أن يستعمل حيل الاطفال العفوية المتمثلة بالبكاء والإلحاح للذهاب، وبالرغم من أنه لا يتقن التمثيل، إلا أنه كان فعلا حزينا ويبكي لهذا الموقف، ورغم بكائه وصراخه الشديد، وتشبثه بملابس والده ليسمح له بالذهاب معه، إلا أن أبونسر تخلص منه، وفك يده الصغيرة من ملابسه ودفعه إلى الأرض دفعة قوية، فسقط على ظهره في قاع البيت، وهو «يتفعفل» لكي يجبر والده على أخذه معه. لكن محاولته باءت بالفشل، وأحس بإحساس غريب في بدايه الأمر؛ أنه يكره والده، فهو دائما مرافق له في المناسبات وفي الغور، وكان ينام بجانبه، فلماذا تغير سلوكه معه؟ ولماذا هذه القسوة؟ ربما أن أبونسر لا يريد أن يُظهر معاملة خاصة له أمام أبنائه الآخرين، فهم دائما يقولون إن سقف الحيط مدلل عند أبيه! ولا يريد الوالد أن يكون هناك غيرة بين الأبناء. ذهب أبونسر وترك سقف الحيط في المنزل وهو يبكي مكسور الخاطر.

توقف سقف الحيط عن البكاء، وفقد الأمل بالذهاب إلى المدينة، وتجرع الصدمة التي لاقاها من والده، وأراد أن يتخذ موقفا، فالغورانية التي رضعها بالغور هي موقف، فهل يكون موقفه أن ينتقم بطريقته الخاصة، بعد أن ضربت غورانيته وحريته.

كانت الشمس مشرقة بالرغم من أنه فصل الشتاء، الذي بالعادة يكون باردًا، إلا أن ذلك اليوم كان مشمسا، ولا يوجد مطر، فاستدعت ذاكرته الصور في المجلة والمحفظة، فذهب مسرعا إلى خابية القمح ونزل بها، وأخرج المحفظة التي سبق أن خبأها فيها، قبل أن ينزل إلى الغور مع أبيه ومسحها ووجد الشلن، فوضع الورقة التي تحمل صورة اليهودي بها، بعد أن طواها في المحفظة، وأدخلها في جيبه وخرج من حجرة الخوابي، فإذا به يسمع أحد الباعة المتجولين من قرية أخرى ينادي: «من يريد أن يشتري»، فعرف أنه أبوعمر البياع من بلدة قبلة، المعروف بحماره الأبيض. فكر أن يشتري من الشلن الذي ربحه من جده أبوجابر قبل نزوله إلى الغور، فلقد لاعبه جده لعبه فتح قبضة يده، ففتح قبضة الجد، وأخذ ما بها فكان هذا الشلن الذي يحتفظ به في المحفظة، فهل يشتري به حلوى جوز الهند الطويلة؟ إلا أنه وجد نفسه، وانتقاما من والده الذي حرمه من الذهاب المدينة، ودفعه فأسقطه على الأرض، وجد نفسه مسرعا إلى خم الدجاج، فتناول بيضتين، لأن الدجاج في الشتاء يكن ولا يبيض كثيرًا، وحمل البيضتين بيديه الصغيرتين، وذهب يركض خلف الحاج أبوعمر البياع الذي ابتعد قليلا وأصبح عند رأس العَقَبة، وهو ينادي على أهل الحارة معلما إياهم بقدومه. وما إن صار سقف الحيط بجانبه حتى تعثر بحجر فسقط وانكسرت البيضات، وانجرحت يداه اللتين تخضبتا بصفار البيض، فانحنى الحاج أبوعمر البياع ووجد بيضة واحدة ما زال محها سليما بالرغم من أنها انكسرت، فلم تتلوث بالتراب، فأمسكها وشربها، وربت على ظهر سقف الحيط وأعطاه كبشة قضامة، فلم يأخذها سقف

الخيط وقال: أريد جوز الهند.

فأعاد أبوعمر البياع كبشة القضامة إلى مكانها، وأعطاه حلوى جوز الهند، وخشم منها خشمة ومضغها، بينما أبوعمر البياع يتأمله ويقول: «كأنك يا ولد سرقت البيضات سرقة، والله جازاك، ووقعت وانكسروا البيضات، وانجرحوا إيديك»، وأضاف: «لا تعملها يا ولد مره ثانية».

كان سقف الحيط يمضغ أول خشمة من جوز الهند ولم يبلعها بعد، فوقع حديث أبوعمر البياع كالصاعقة عليه، مستغربا كيف عرف؟

وتذكر والده عندما كان يقص عليه قصص الحلال والحرام، وإنه الواحد مش لازم يسرق ويأكل الحرام. فقال سقف الخيط لنفسه: «بس أنا ما سرقت البيضات، كانوا من بيتنا».

رد على نفسه: «بس أبوك وأمك ما بعرفوا».

وبصق ما في فمه ورمى قطعه الحلوى، وقد لاحظ أبوعمر البياع ذلك، وأخذ سقف الحيط يركض وهو يقول محدثا نفسه: «ما بدي إياهم يعرفوا إني سرقت البيضات، بكفي إني وقعت، وتسلخت ايدي».

ذهب ليلعب مع إخوته وأقرانه الذين لم يشاهدهم منذ فتره طويلة. كانوا يجتمعون على بيدر «أم قدور»، فهو قريب من المنزل، ويشكلون بأيديهم الصغيرة كرات وأشكالا من الطين من تحت الزيتونة التي كانت بجانب البيدر. كان الطين المعجون على أشكال شاهدوها، كشكل باص القرية الطويل، وأغنام، وأبقار وخيول، وأحيانا أخرى يعملون الخرق البالية، ويحزمونها ويضغطونها ويشكلونها كالكرة، ويقذفونها بأرجلهم، مقلدين بذلك أولاد المدرسة الذين يلعبون الكرة، وهم يلبسون الشرتات.

الرجولة المبكرة

حاول سقف الحيط، بعد انتقاله من الغور إلى القرية، أن ينصهر مع أولاد الحارة ويلعب مثلهم، فلم يسبق له أن لعب لُعب الأطفال، وقد مل من اللعب مع أقرانه وأبناء عمومته الذين هم من جيله.

كانت تسيطر عليه نزعته الغورانية، وكلما حاول أن يلعب مع أولاد عمومته وجيرانه كان يمل ولا يستمر باللعب، فغورانيته تجعله يشعر بنفسه أنه لم يخلق ليلعب ويلهو كالأطفال، بل ليرافق الكبار ويكون معهم، ويستمع إليهم، وأحيانا يتحدث لغتهم، ويفرح مثلهم عند ميلاد الأبناء وفي الأعراس، ويحزن عند موت أحد الأقارب. وهذا شيء طبيعي بالنسبة لطفل يتربى في بيئه تحتضنه ليكون ابنًا لها، فصدق من قال: إن الإنسان ابن البيئة، فبيئة الغور القاسية، والجبال الوعرة الجرداء، والكهوف والمغر، والصخور، والهضاب، وقلة الماء والحر الشديد، والهدوء أو الصمت المطبق، كل تلك المتناقضات أو المتقابلات، جعلت منه متميزا عن غيره، فهو كفتى عاش بالغور، وتفتحت ذاكرته على الغور، وجد اللعب مع الأطفال بالنسبة له شيئا زائدا لا لزوم له، مع أن لعب الأطفال هو تعبير وانعكاس لحياة الطفولة، وهو ديدن معظم الأطفال، وهو وسيلة تعلم لهم، لكنه شيء غير محبب لسقف الحيط.

لقد جعلت منه حياه الغور القاسية ورعي الأغنام بالغا راشدا، فتعود على شظف العيش، وقساوه الطبيعة، ليشعر بأنه فتى الغور، وهذا الفتى يحسن التصرف أو يتماهى بتصرفات البالغين ويقلدهم، فكيف له أن

يستمر باللعب واللهو مع أولاد عمومته.

تسلل سقف الحيط، وانسحب من اللعبة مع أقرانه من الحارة وأبناء عمومته الفرحين باللعب، فكانت أصواتهم مرتفعة وهم يلعبون حتى أزعجوا الحارة. تحسس جيبه فتأكد أن المحفظة ما زالت في جيبه، وما إن إبتعد قليلا عنهم حتى شاهد جارهم العجوز أبا قادح، الذي يبلغ من العمر سبعة عقود، وهو رجل معروف بأنه جبار بشدته وعناده، ولا يفعل إلا ما يدور برأسه، وله تصرفات غريبة. كان أبوقادح يقود حمارته ذاهبا إلى بئر الماء الذي كان يملكه في نزل الزيتون، وكان يسير خلفه حفيده، وهو من نفس جيل سقف الحيط، وكان هذا الحفيد معاقا وأحدب الظهر إذ تعلو ظهره حدبة كبيرة، وإحدى رجليه تزحف وراءه بسبب قصرها وإصابتها بالشلل. ما إن شاهدهم سقف الحيط حتى رافقهم إلى البئر، ليس رغبة في رؤية أبي قادح، بل لأن ذاكرته، سبق لها أن سجلت حدثًا مأساويًّا يتعلق به، ولولا وجود صديقه المعاق لما لحق بهم ومشى معهم.

ساروا جميعا خلف الحمارة التي اعتاد ذلك العجوز أبوقادح، المدعو أحيانًا بالجبار، أن يذبح أولادها عندما تلد، حتى لا يرضعوا منها وتضعف، ولا تعود قادرة على العمل في الحراثة ونقل الأحمال والأثقال.

شاهد سقف الحيط لهذا الجبار حدثا لم يستطع نسيانه. كان منظرا مقززا ومقرفا، ومنفرا، ولم يكن ليتقبله كطفل أبدا، وكاد يغمض عينيه عندما شاهده وهو يقود الحمارة وابنها الكر الصغير الذي لم يكن عمره أكثر من يومين إلى منطقة نزل الزيتون، فربط الحمارة بالزيتونة، وسحب الكر الصغير خلف قرمية الزيتونة الضخمة، وقام بذبحه، فأغمض سقف

الحيط عينيه، لكنه لم ينس ما حدث، فكان ينظر إلى هذا العجوز الجبار كمجرم قلبه أسود، وعرف أن ما يقوله الناس عنه صحيح، فرأسه قاسٍ وجبار، وهو لا يخاف الله.

لقد عرفت ذاكرة سقف الحيط بعد هذه الحادثة أن هناك قتلًا وذبحًا، وأن الإنسان يمكن أن يُقتَل أو يُذبَح كالحيوان أو يموت بمجرد سقوطه عن ظهر الحصان.

لقد رأى سقف الحيط دموع الحمارة تنزل على خديها بغزارة، وكانت تُصدر أصواتا تشبه إلى حد ما الجوح المتقطع، وسمع النهيق الذي لا يكاد يخرج من حنجرتها حزنًا على ابنها، بعد أن جر أبوقادح جثة الكر من أرجله وأدخله المغارة، وقد اختلط دمه بالتراب، ليعود هذا الجبار مع حمارته ويربطها خلف الدار.

ورآه سقف الحيط مرة أخرى، عندما كان يقدح بالصخر ليحفر قبره بيده مع رجل آخر قوي استأجره ليساعده بحفر قبره في الصخر، وليس في التراب، ولما انتهى منه سده بالنَتّش.

إن هذا الجبار يعرف أن الموت سيأتيه، ولم يكن يرغب في أن يكون قبره مع الناس أو في التراب بل في الصخر!

كان سقف الحيط لا يتقبل أن يسير خلف هذا الجبار أو معه، لكنه رغب في رؤية صديقه الأحدب. سار معهما إلى البئر التي تقع عند باب المغارة. قال الأحدب له: «عمي جاء من الكويت، لكن لم يحضر شيئا معه». لم يعقب سقف الحيط، فهو يعرف أن العجوز أبا قادح قاتل الكر شديد البخل، فهل يتوقع من ابنه أن يحضر من الكويت شيئا يفرح به

الأولاد! قطع الأحدب على سقف الحيط كلامه الصامت قائلا: «لكنه تقاتل هو وزوجة عمي لإنه بده يشتري غنم، وينزل يعزب بالغور»، سأله سقف الحيط: «أبوك ما أجى من الجيش؟». فأجاب الأحدب: «لا ما أجى». رد سقف الحيط: «معناته شقيقي الأكبر لم يحضر معه». فقد كانا يأتيان ويذهبان معا.

وصل ثلاثتهم إلى البئر في الجهة الغربية من نزل الزيتون وهو في أعلى سفح الجبل، وهذه البئر تقع أمام مغارة كبيرة، ذات فم وباب صغير، ومن فوقها يقع سفح الجبل حيث توجد بعض المنازل. ورغم أن أرض الجبل ليست لهذا الجبار، إلا أنه مالك للبئر والمغارة، والبئر يستخدم لجمع المياه والأمطار، ويبدو أنه لم يمتلئ ولم يفض لأنه لا يوجد له ساحة ليتم عمل قناة لجمع ماء المطر لتصب فيه.

بينما كان أبوقادح يرمي الدلو في البئر، ويملأ القرب والسعون، زلف سقف الحيط إلى داخل المغارة، وهو شيء عادي بالنسبه له، فهو فتى الغور، وكان ذلك لغاية قضاء حاجته، وأيضا بدافع الفضول. وأثناء قضاء حاجته كان يجول في نظره بالمغارة، ويتأمل ما بها، وما إن فرغ حتى استكشف المغارة، فاذا هي واسعة وكبيرة. لكن ما أزعجه منذ البداية أن رائحتها كريهة وتختلط بالعفن والرطوبة. كانت بعض الحيوانات تستعملها مخبأ لها لنهش وأكل فرائسها وتركها جيفا ذات رائحة خانقة ونتنة. كانت المغارة كبيرة وتحتوي في زواياها وبعض جدرانها غرفا صغيرة مليئة بالجماجم والعظام التي لا تشبه عظام وجماجم الحيوانات، بل هي جماجم بشر، فتجاويف العيون والأسنان في عظم الفك المفتوح

كانت تخوف الكبار قبل الصغار. كان ذلك شيئًا مرعبًا لسقف الحيط، وخطر له في تلك اللحظة، تقبّل مسألة أن يموت ويصبح عظاما ورفاتا كهؤلاء أصحاب الجماجم. وقد تذكر أنه قبل شهرين شاهد أحد رجال الحارة حين وقع عن حصانه فمات، وما زال المنظر عالقا بذهنه: الجثة على الحصان، وأرجله بشقة الخرج، وراسه بالشقة الثانية، وتمت تغطيته ببطانية، وسار الحصان ومن خلفه أهل الميت إلى بلده مَصْطَبة، فلم يكن أحد يدفن في الغور. فذلك الرجل المرحوم أصبح بنظر سقف الحيط مثل هذه الجماجم والعظام، مع ذلك لم يكن سقف الحيط يخاف من هذه الجماجم والعظام أكثر من خوفه من ذبح الكر أو المهر، وجرهما إلى داخل المغارة، سواء من قبل ذلك الجبار أبي قادح الذي كان في تلك اللحظة عند البئر، أو من قبل عمه الكبير شاهين الذي سبق أن شاهده مع الأولاد وهو يذبح المهر بعدما ولدته فرسه.

خرج سقف الحيط من المغارة مسرعا وهو يضع يده على فمه وأنفه، وإذا بالجبار أبي قادح قد حمَّل حمارته بسعون الماء وسار، وكان الأحدب يسير خلفه بسبب بطء حركته، لكنه بعيد عنه، فيخيل للناظر عن بعد أن سقف الحيط يجلس عند خرزة البئر وبابه.

ولما خرج سقف الحيط من المغارة وجلس على خرزه البئر، وكان صديقه الأحدب يسير ببطء شديد خلف جده، فالتفت وراءه وشاهد سقف الحيط ما زال جالسا عند خرزة البئر الذي تركه العجوز مفتوحا ولم يقفله، فلربما يريد أن يعود لنقله ثانية من الماء، وخصوصا أنه ترك الدلو عند البئر.

جلس سقف الحيط على خرزة البئر ليتنفس ويستنشق الهواء الغربي، بعد أن شعر بأنه مخنوق من الروائح الكريهة في المغارة، وأن مصارين بطنه سوف تخرج من فمه، وأن هناك نارًا وحُرقة في معدته لا يطفئها إلا الماء، فأحس بشهوته لشرب الماء، فأمسك بالدلو بعد أن سحب باب البئر الحديدي الجرار، فانفتح باب البئر، ورأى الماء في البئر على بعد عشرة أمتار، وأشعه ضوء الشمس تنعكس في ماء البئر العميق فتضيئه.

شاهد سقف الحيط لأول صورة طفل جميل ووسيم منعكسة بالماء، فاستغرب، وهز الدلو داخل الماء فاختفت. أوقف الهز ورفع الدلو، فهدأ الماء وعادت صورة الطفل الجميل للظهور. حرك يده فتحركت يد طفل في الصورة المنعكسة، فعرف أنها صورته أو خياله، وأخذ يتأملها وهو معجب بنفسه، ورغم عطشه وحاجته إلى الماء إلا أنه ظل يتأمل صورته، حتى وصل إلى حد الإعجاب بنفسه.

ثم غلبت حاجة سقف الحيط لأطفاء النار والروائح التي في بطنه، فأرسل الدلو إلى الماء فتبعثرت صورته التي لم يرها من قبل، وشرب الماء، وهدأ ضجيج معدته.

لقد كان معجبا بصورته المائية، فكان يشعر أنه ليس فقط فتى الغور بل إنه فتى له من العمر سبع سنوات، أبيض البشرة، ومربوع الوجه، وشعره أشقر ذهبي وطويل، وعيونه خضراء واسعة يخضبها اللون الزيتي الممتزج بالعسلي، وتحيط بتلك العيون الواسعة رموش طويله وحواجب كثيفة.

لقد أعجبه خياله بالماء، وافتتن بنفسه، وكان لا يعرف أن الدلو عند

وصوله إلى الماء سيبعثر ويشتت صورته ويزيلها، ولو أنه عرف ذلك لما أدلى بالدلو، ولبقي متأملا خياله المائي، ولربما وقع ودب في البئر ليلحق بظله المدود بالماء. رفع سقف الحيط رأسه، فلم يعد يرى الأحدب وجده الجبار، لقد اختفيا بين الزيتون. سحب الدلو ورفعه فوق رأسه وأخذ يشرب الماء البارد الذي كان يتساقط على شدقيه وذقنه، وحتى رقبته، وابتل جزء من قميصه، فأحس ببرودة ماء البئر على صدره وعادت إليه أنفاسه، واستقرت حالته، وترك البئر وسار من حيث أتى، والأفكار والهواجس تشتعل برأسه بشأن الرغبة في الانتقام من والده لعدم أخذه إلى المدينة. أصبحت رغبة الانتقام تسيطر على عقله الصغير، وتقوده الهواجس إلى أن الانتقام سيكون بالغياب عن البيت حتى يقلق الجميع عليه، فيبحثوا عنه، ويكون قد أسكت ما بداخله من نزعات وإرهاصات تؤرقه.

سرقة المحفظة

ترك سقف الحيط البئر ونزل إلى الطريق العام وما زالت نزعة الانتقام تسيطر عليه، وأثناء سيره مد يده إلى جيبه الخلفي ليتأكد من أن الورقة ما زالت بالمحفظة، وأخذت تجول بخاطره قصة امتلاكه لتلك المحفظة التي كانت عطية له من أخيه حافظ الكويتي عندما حضر وتزوج قبل سنة، وأحضر كثيرا من الهدايا والصور والأمتعة والكتب، وصناديق الدخان الحديدية، والمجلات، والأقلام، والمحافظ. ومع أن سقف الحيط ذو ذاكرة قوية، إلا أنه لم يتذكر هل الصور المُعَلَّقَة على الحيط كان قد علقها حافظ الذي كانوا يطلقون عليه في الحارة (كويتي)، خصوصا الفتيات اللواتي كن يتمنين أن يتزوجن شابا يعمل في الكويت.

أخرج سقف الحيط المحفظة من جيبه، وتأكد ما بداخلها من محتويات، وتذكر لحظة انبطاحه على مَصْطَبة البيت الباردة، وهو يمسك بكلتا يديه إحدى مجلات أخيه، وأخذ يتفرج على الصور الملونة فيها، فخزنت ذاكرته الصور من ذلك الوقت، وكان فيها مناظر الجبال التي تكسوها الثلوج البيضاء، والأشجار الطويلة الباسقة والمتلاصقة، وبعض الحيوانات والأشجار التي لا تشبه أشجار الزيتون المتباعدة في بلدته، فتلك البلاد المصورة في المجلة أجمل من بلدته مَصْطَبة، وأجمل من الغور.

كان سقف الحيط أثناء سيره وتفقده محفظته يتذكر كيف حاول أخوه الكويتي نزع المجلة واستعادتها منه، فكلبشَ بها بكلتا يديه، وضمها إلى

صدره وانبطح عليها، فاضطر أخوه حافظ إلى أن يرفعه ويحمله بين يديه وينزع المجلة منه.

لقد وقع سقف الحيط في غرام الصور الملونة، ولا يريد أن يفقد المجلة التي تحتوي على الصور، وهذا شيء طبيعي لطفل غوراني، غذى ذاكرته الطفولية بالمناظر الغورانية، فالدماغ الطفولي يتقبل المشخصات والأشكال قبل تقبل المفاهيم والأفكار المجردة، ولهذا السبب كانت الصور أقرب لسقف الحيط من اللغة والكلمات.

أراد سقف الحيط أن يحتفظ بالمجلة وما بها من صور، واستعمل كل وسائل دفاعه عندما قاوم أخاه حافظ الذي أراد أن يستعيدها منه، وعندما أُسقط الأمر بيده، حاول استعمال سلاح الضعفاء، وهو البكاء، فالضعف عند سقف الحيط أحيانا قوة، وما إن وضعه أخوه على الأرض بعد أن حمله ونزع المجلة منه معتقدا بأن سقف الحيط سوف يستسلم وينتهي الأمر، تفاجأ بأنه استمر في الصراخ والبكاء، حتى يأتي أخوه حافظ ويرضخ له، ويتخلص من بكائه فيراضيه ببديل للمجلة.

لقد نجح معه سلاح الضعفاء، فأخوه الكويتي الذي يستعد للزواج، وحتى يتخلص من صراخه، ومن بكائه أعطاه المحفظة الصغيرة التي يحتفظ بداخلها بصورة اخرى.

اعتبر سقف الحيط، ذلك انتصارا له، فالمحفظة بدل المجلة، تلك قسمة مقبولة له، فاحتفظ بها، وخبأها بالخابية بين القمح، فكانت المحفظة أول شيء يمتلكه ويصبح ملكا خالصا له، ويستأثر به، ولا يشاركه فيه أحد، كالفراش والأكل واللباس.

وعندما عاد من الغور تذكرها، فهي أول شيء يحوزه ويلمسه بيديه الصغيرتين، واحتفظ بداخلها بصورة جندي يهودي تشغل جل تفكيره، وبدأ يحتفظ بداخلها بما يحوز عليه من التعاريف والقروش، وكان محظوظا عندما وضع فيها شلنا كاملا متكاملا، بعد أن أحرزه من جده أبوجابر عندما زارهم قبل ثلاثة شهور، فكان هذا الجد ورغم كبر سنه وهرمه، يأتي على البغلة من قرية علية، ليصل ابنته وأخواله، ومن عادته أن يلاعب الأطفال، فقد كان معروفا بعمله الصالح الذي يقوم به، وبتجبير الكسور والرضوض في الأطراف، وقد تعلم ذلك من تجبيره للأغنام التي تنكسر أرجلها، وعلَّم ذلك لأبونسر، وحتى لابنته نصرة، وكان قد أصبح معروفا بذلك على مستوى جميع قرى شفا الغور، وهو لا يتقاضى أجرا على علاجه للكسور والرضوض، وإن كان لا يرد الهدايا.

كان يحب الأولاد والأطفال ويلاعبهم، وإحدى الألعاب المفضلة لديه أن يضع الشلن داخل قبضة يده، فإذا فتح الطفل القبضة أخذ ما فيها، وقد حاول سقف الحيط فتحها وحاول إخوته دون نتيجة. كان الجد قويا جدا رغم تقدمه بالسن، إلا أنه في النهاية كان يرخي قبضة يده لمن يحبه، فأرخى لسقف الحيط يده وكأنه يريد أن يكافئه على إصراره، ففتحها الجد ببطء ليشعر سقف الحيط أنه هو من فعل ذلك، فأخذ الشلن ووضعه في المحفظة، وكان سقف الحيط كطفل غوراني، قد صدق نفسه، وظن أنه فتحها بقوته مما يعني أنه يستحق ما بداخلها، فأصبح الشلن ملكه.

بينما كان يسير، كانت هذه الذكريات تتنازعه، فشغلت عقله وفكره بها، وكانت كالمخدر له لينسى ما حصل له من أحداث مع والده الذي

دفعه أرضا، ولا يريد أن يذكرها، فأخذ يحث الخطى بالطريق العام الذي يسير فيه. ثم توقف فجأة عندما انتهى شريط ذكرياته إلى المحفظة، فعادت إليه نزعة الانتقام، وفكر ألّا يعود إلى المنزل عقابا لوالده بعدما رفض أخذه معه إلى المدينة، ودفعه بيده فاسقطه أرضا، وبقيت نوازع الانتقام تتنازعه كلما فرغ شريط الذكريات.

سار سقف الحيط حتى وصل إلى وسط البلد، ووقف أمام المطحنة (بابور الطحين) حيث كان صوت البابور أشبه بصوت مطرقة حديد على صفيح حديد، وهي تطحن الطحين ويتناثر غبار وعجاج الطحين، وكأنه ضباب مختلط بغبار أبيض ساخن، وقف قليلا أمام المطحنة، لكن فضوله الغوراني جعله يزلف قليلا داخلها مستطلعا تلك المكائن التي تُخرج تلك الأصوات القوية والغريبة، فوجد جوا دافئا، شبيها بجو الغور، فتقدم سقف الحيط فتفاجأ برجل ضخم الجثة، يلبس لباسا بلون كاكي، تعلوه طبقة من الطحين الأبيض الذي طغى على اللون الكاكي وعلى وجهه فعلق الغبار الأبيض بحواجب وشاربي هذا الرجل الذي نهره بقوة قائلا: اطلع برة يا ولد.

خرج سقف الحيط مسرعا، وسار بضع خطوات إلى الوراء. بعد ذلك أدار وجهه نحو البيادر، وتوجه تلقاءها، فوقف بجانب أحد شواهد القبور الكبيرة، وجلس على أحد أحجار القبر، وأسند ظهره إلى شاهد القبر الكبير، بينما فكرة الانتقام تتجاذبه، وسأل نفسه: هل يأخذ الاتجاه الشرقي من طريق البيادر ويعود إلى الغور مشيا على قدميه من حيث أتى دون أن يعرف أحد من أهله، أم يعود إلى البيت الجديد في القرية.

لقد كان الغور منزله قبل هذه البلدة، فمشى بضع خطوات باتجاه الغور وتوقف، فطريق الغور طويلة، وهو يشعر بشيء من الجوع بعد أن واجه أحداثا كثيرة، وقال لنفسه: إن طريق الغور طويل وتستغرق نصف يوم سيرا على الأقدام، ولا يوجد زوادة ومطرة ماء معه، فرجع إلى الوراء قائلا: «خليني أطلع إلى المسجد والتوتة، فهناك الدكاكين وسأشتري شيئا بالشلن لآكله، بعد ذلك أنزل وأروح إلى الغور». لقد كانت الفكرة المسيطرة عليه في تلك اللحظة هي أن يغيب عن البيت ليعاقب والده الذي خيب أمله، ووالدته نصرة التي لم تتدخل لتقنع والده. ولقد غلبت على سقف الحيط نزعة الغورانية، بأن يغور في الأرض مختبئا، المهم أنه رغب في تلك اللحظة في أن يشعر بأنه حر، ويفعل ما يشاء، ولا أحد يراقبه أو يسأله، فتلك هي الغورانية، فلا سقف يغطيه ولا قاع ليبلغه ولا حدود أو قيود توقفه.

سار سقف الحيط نحو الطريق العام المؤدي إلى الطريق الضيق بين السقائف في البلدة القديمة، متوجها إلى جامع بلدة مَصْطَبة، وقادته قدماه وذاكرته الغورانية التي كانت تصطاد دائما الأمكنة، فتقيدها بأدراجها في خلايا الدماغ، فلا تمحى أبدا، وقد تزاحم ذاكرته الجنينية غير الواعي بها في مكان ما بدماغه.

استدعت ذاكرته أحداثا قديمة، عندما رافق والده أبونسر إلى سوق الجمعة لصلاة الجمعة، وشراء اللحم، فهذا هو الجامع الكبير بمئذنته العالية، وشجرة التوت الكبيرة التي تشكل أغصانها ظلا وافرا، ومظلة من رذاذ الأمطار للختيارية المنتظرين الأذان، أو الخارجين من الصلاة

ليأخذوا مقاعدهم على صف من الحجارة الأسطوانية الكبيرة تحت محيط ظل الشجرة.

كانت مقاعد الحجارة كبيرة، أبقى عليها أهل مَصْطَبة مما تبقى من حجارة مسجد القبة الأثري الذي قاموا بهدمه، وسقف الحيط يتذكر ذلك، فلقد كان ذلك قبل ثلاث سنوات، ومع تذكره لبناء الجامع، إلا أنه لا يذكر أبدا في مخيلته مسجد القبة أو الدير سابقا، ولا هدم تلك القبة، بينما يتذكر بناء الجامع الحالي.

كانت تلك المقاعد الحجرية الأسطوانية باقية تحت التوتة، ويقعد عليها سقف الحيط ليسترق السمع لأحاديث الشيوخ والرجال.

لقد استعمل أهل البلد بعض حجارته الكبيرة التي يوجد عليها رسومات ونقوش، كمقاعد يتسطح عليها الرجال والختيارية. فما إن ينهي الرجال الصلاة حتى يخرجوا من الجامع، ويجلسوا على تلك الأرائك الصخرية ليتجاذبوا أطراف الحديث. وفي مقابل التوتة إلى الأعلى قليلا تقع دكانة اللحام الذي اعتاد أن يأخذ والد سقف الحيط معه لشراء اللحمة من عنده، وحالما وقعت عيناه على ذاك الدكان استعادت ذاكرة سقف الحيط منظر والده وهو يصرخ في أذن اللحام بصوت عال نسبيا: «عاوزين رطل لحمة يا حج، بدون لية أو شحمة». وكان هذا الرجل، وهو من جيل أبونسر والد سقف الحيط، وصديقه المقرب إليه، ويورد اليه الخرفان، يهز رأسه معبرا بلغة الجسد، والإشارة اللتين يتقنهما ذلك الرجل الذي فقد السمع.

كان سقف الحيط يستغرب لماذا يقوم والده بذلك؟ ولماذا يهز الرجل

رأسه بالموافقة؟ كان أبونسر يتكلم باللغة المحكية وذاك اللحام يتكلم بلغة الجسد والإشارة.

كان سقف الحيط يلقي نظره على الدكاكين الأخرى حول الجامع التي تشكل سوقًا صغيرًا، وتبيع السكاكر وخلافه، وكان الملأ من وجوه أهل القرية موجودين ومتفرقين، وجالسين على مقاعد قشية صغيرة أمام الدكاكين، وهي فرصة لسقف الحيط لأن يفتح المحفظة على مرأى من أعينهم، ويخرج الشلن أمامهم ويشتري ما يريد. المهم بالنسبة له أن يفتح المحفظة أمام أعين الناس والأطفال الآخرين، ويشعرهم بما يمتلك من المال، فنزعة التملك والقدرة على الشراء تظهره بمظهر البالغ الراشد الذي استوى وحاز على مال يلمسه بين يديه ويراه بعينيه. لكن هل يكفي أن يحوزه، وان يراه لوحده؟ كلا، لا يكفي ذلك، فلا بد للغير أن يرى، ويشهد على ذلك، ويقر أن هذا الطفل الغوراني يمتلك المال الذي يقدره الجميع ويتنافسون عليه.

إن هذا ليس تفكير الاطفال، بل هي عقلية من يقلدون الرجال، فينسون أن يعيشوا الطفولة، ولا يمرون بمراحل العمر المختلفة. قد لا يكون مقصورا على أطفال الغور دون أطفال بلدة مَصْطَبة؟

وصل سقف الحيط وهو منهك قليلا وجائع، لا بسبب المشي، فهو معتاد على السير لمسافات طويلة في الغور، بل لأنه انصدم في صباح هذا اليوم بسلوك والده، فترتب ما ترتب على ذلك السلوك الغريب الذي خزنته ذاكرته الغورانية، وأضافته وهو لا يعلم أو يعي ما سجلته الذاكرة الجنينية، فالحدثان للذاكرتين متشابهان من حيث الضحية، وإن اختلف

الطور الزمني الذي كانت فيه، والفاعل هو واحد، هو والده أبونسر. لكن هل كان والده يقصد أن يضرب الجنين في بطن أمه، فعندما اشتكى حفارو البئر أنهم لم يتناولوا الطعام، ما كان من أبونسر إلا أن ضرب زوجته الحامل بسقف الحيط على خاصرتها.

لقد كان وسط البلد مختلفا عن الحارة، حيث الدكاكين والرجال والحركة، والجامع والتوتة، وبعض الحمير والخيول المربوطة، ومخفر الفرسان، وخيولهم المزينة، لكن لا يوجد مكان للجلوس إلا أمام الدكاكين بمقاعد محدودة، أما المكان الواسع الذي يمكن أن يجلس فيه من يشاء، دون أن يُسأل لماذا يجلس هنا فهو تحت التوتة عند باب الجامع، وبحسب تقدير سقف الحيط، فتحت التوتة يشبه الغور، فلا أحد يسألك لماذا تجلس هنا؟

تقدم نحو التوتة، فشاهد مجموعة من الرجال الكبار بلباسهم القروي الثقيل، وبعضهم لفَّ نفسه بفروة، يجلسون على الأحجار الأسطوانية الكبيرة تحتها، باستثناء واحد منهم كان لباسه مختلفا، فهو يلبس البنطلون والجاكيت الذي تحته قميص أبيض، وتنزل منه ربطة حمراء متدلية على صدره، وعلى رأسه الحطة، وكان واقفا أمامهم وغير جالس، ويتحرك ويسير قليلا أمامهم إلى اليمين وإلى الشمال، ويتوقف ويؤشر بيديه، ويخاطب الآخرين كأنه خطيب أو يلقي درسا. كان صوته أكثر ارتفاعا منهم، لكنه هادئ ودون الصراخ، وما إن جلس سقف الحيط حتى انتهى الرجل من حديثه، فسمع آخر عبارة قالها ذلك الرجل: «يا رجال إللي عنده بارودة، يبيعها أو يخبيها».

توقف هذا الرجل عن الحديث لحظة جلوس سقف الحيط في الجهة المقابلة لهم. وما لبث أن جلس. في هذه الأثناء سمعهم سقف الحيطوهم يتجاذبون أطراف الحديث، لكن في تلك اللحظة كان أحدهم جالسا في الوسط، هو من يتحدث والآخرون يستمعون له، وكان سقف الحيط جالسا في مواجهتهم بجانب الدكان، كان يسترق السمع لحديثهم فهو يحب أن يسمع الكبار، وبماذا يتحدثون؟

قال الرجل الذي يتوسطهم: أنا بشوف إنه يكون لكل حمولة مُخَضِّر بدلا من مُخَضِّر واحد، لانه مُخَضِّر واحد لكل البلد ما بكفي.

رد عليه رجل آخر وكان يحرك عصاه بين قدميه الممدودتين ويجلس في آخر الصف: «بس يا حج في بعض حمايل ما تحتاج إلى مُخَضِّر، لإنه كل أغنامهم وأبقارهم في الغور، وأنت عارف بس حمولة أو حمولتين يحتاجون مُخَضِّر، لإنه في ناس عنده معزتين أو بقرة، ويمكن يرعوا الزرع اللي بلش يطلع».

كان سقف الحيط يصغي إليهم ويتأملهم، وقد أحس بإحساس منتعش عندما ذكر الرجل الغور، فأعجبه ذلك، أما باقي الحديث فلم يعجبه أو لم يفهمه، وما كان يدري ما هو المُخَضِّر الذي كان يحمي الزرع من أغنام وأبقار الرعاء.

بينما كان سقف الحيط قاعدًا مقعد السمع لم يحس بمن جلس بجانبه، وكان يراقبه ويتتبعه منذ لحظة وصوله.

لف سقف الحيط رأسه فرأى بجانبه فتى يكبره بسنتين، أشقر الوجه، ومن شدة شقار وجهه يُخيل إليه أن جلده مسلوخ ومقشر ومتبقع، فقد

كان ذلك الولد مصابا بالبرص، ما جعل لون بشرته بلون الدم الفاتح، وكان شعر ذلك الولد ذهبيا، وعيناه زرقاوين، وكأن أصوله من الترك أو الكرد أو البشناق الذين كانوا أقلية في قرية مَصْطَبة.

اقترب ذلك الفتى على غفلة من سقف الحيط وجلس غير بعيد عنه، وبعد أن أنهى ذلك الرجل الواقف الحديث لاحظ سقف الحيط أن الولد يراقبه أو يريد أن يتكلم معه.

كان ذاك الولد الأبرص أكبر عمرًا وجسدًا منه، فحاول سقف الحيط أن يزيح نفسه ويبتعد قليلا عنه ليترك مساحة أمان. فلقد استشعر سقف الحيط بغورانيته خطرا قادما إليه، لكن لا يعرف لمَ استشعر ذلك، هل هو البرص أم كبره وتقربه منه. وفي نفس الوقت كان يشعر بنزعة جوانية من الفخر تدفعه لإظهار ما يملك من محفظة بها شلن، فتغلبت نزعة الإظهار والفخر والتفاخر، على نزعة الشعور بالخطر أو عدم الارتياح أو مسافة الأمان.

لقد كان ذلك الأبرص يراقب سقف الحيط عندما قام ومشى قليلا نحو الدكان ليشتري شيئا يأكله، فاقترب ذلك الفتى منه، وشاهد الضحيه أو الفريسة يُخرج المحفظة من جيبه ليخرج الشلن أثناء مشيه إلى الدكان، وبسرعة كلمح البصر، وثب الأبرص من خلف سقف الحيط واختطف من يده المحفظة في ذات اللحظة التي كان مشغولا فيها سقف الحيط بفتح المحفظة، وأخذ يركض بسرعة دون توقف. ولما أحس سقف الحيط بذلك انصدم من هذا الفعل، فتمالك نفسه، وركض وراءه بشكل عفوي وتلقائي، وهو يصرخ «محفظتي». ويبدو أن ذلك الولد الأبرص كان

أسرع ركضا، واستغل عنصر المفاجأة، فأربك الضحية التي كانت لا تعرف المكان، فأفقدها توازنها، والتفكير برد الفعل.

لقد انزلق الأبرص إلى أحد الأزقة في البلدة القديمة، وتوارى عن أنظار سقف الحيط، فبقي الأخير يدور حول الجامع ليراه، وأحيانا يبعد عن الجامع حتى يصل إلى البركة الرومانية، ويعود أدراجه تحت التوتة فيتوقف قليلا تحتها، ويعود يطوف حول الجامع، فإذا ما انتهى سعى مرة أخرى نحو البركة، وعاد وهو يندب حظه العاثر في هذا اليوم المليء بالأحداث المحزنة.

لقد بدأ هذا اليوم في القرية من دفع والده له وإسقاطه أرضا حتى لا يأخذه معه إلى المدينة، ومن رغبته في الانتقام بسبب ذلك، فقام بسرقة البيضات، ووقع بجانب البائع المتجول أبوأيمن، مرورا بحدث البئر والمغارة والجماجم التي بها والروائح الكريهة، وصولا إلى أن يكون هو ضحية فيسرق الأبرص محفظته وما بها، فجلس مستسلما على أحد الحجارة الأسطوانية وهو مهزوم وحزين وجائع. ولم يدر كطفل أن كل ذلك كان نوعا من الجزاء له، وأن الجزاء من جنس العمل، وأن الأفعال تتبع أسبابها، سببا فوق سبب، لتؤدي إلى النتائج المترتبة على العمل الأول.

الفتنة

جلس سقف الحيط على مقعد حجري تحت التوتة، وأخذ ينظر إلى الرجال وكأنه يستنجد بهم ليساعدوه، لكنهم كانوا مشغولين بالحديث، وفكروا أنهم مجرد أولاد يلعبون مع بعضهم بعضا. وكان سقف الحيط تعبا من الركض والطواف والسعي خلف الأبرص، وجلس على الحجر الأسطواني نفسه الذي كان جالسا عليه من قبل، والدموع في عينيه تتساقط على النقوش المحفورة على الحجر، وأخذ يبكي، ووضع رأسه بين يديه، فهذا اليوم كان شديدًا عليه. بدأ منذ الصباح عندما دفعه والده دفعة ألقته على الأرض على ظهره حتى لا يذهب معه إلى المدينة، ثم بعد تلك الوقعة انكسار البيض، والمغارة والروائح الكريهة، والذكريات الأليمة لذبح الكر والمهر!

جلس سقف الحيط منكسرا بعد أن سُرقت محفظته وما بها، وأصبح مفلسا لا يملك شيئا، ولا غطاء له، فهو بهذه اللحظة حيط بدون سقف، وبينما كان يمسح دموعه تقدم اليه أحد الرجال الكبار، ذو لحية بيضاء طويلة وكثة، وهو بالعقد الثامن من عمره، ويحمل عصا يتوكأ عليها، وقال له: لماذا تبكي يا ولد؟ وين أبوك؟ ابن مين انت؟

كانت هذه الأسئلة التي يطرحها الرجل عليه مخيبة لما فكر فيه، لقد حسبهم يعرفون لماذا يبكي؟ وأنهم شاهدوا ما حصل! مع ذلك أجاب: لقد سرق الولد الأبرص محفظتي وهرب!

أخذ سقف الحيط يمسح بدموعه، ويتمالك نفسه، فهو يتحدث مع

رجل أكبر بالسن من والده، فقال له الرجل؛ أيش فيها المحفظة؟

رد عليه، وهو يكفكف دموعه: فيها شلن وصورة يهودي.

ضحك الرجل وقهقه، ليس على عبارة «فيها شلن»، فذلك شيء عادي بالنسبة له وربما لم يسمعها، لكنه ضحك لأنه، سمع بأن في المحفظة صورة يهودي!

نادى على رجل آخر له لحية قصيرة وسوداء، بها بعض الشيب وهو ذو شارب محفوف، وضخم الجثة، وقال: «يا شيخ هذا الولد بقول إنه ولد سرق محفظته، وفيها يهودي!». وأردف قائلا بسخرية وضحكة صفراء: «أنت ما غيرت رأيك إنك بدك يا شيخ تتجوز اليهوديات بعد ما يحرر فلسطين ناصر بالظافر والقاهر، وبعد ما تسبي نساءهم»، وقهقه، هه هه، وانصرف إلى مقعده الحجري.

علت ضحكات الرجال، لكن عجوزا كان يتوكأ على عصا وله لحية بيضاء طويلة تتدلّى على صدره، وظهره منحنٍ قليلا، ويظهر عليه الوقار، مد يده في جيبه من تحت الشداد وأخرج قرشا، ومد يده التي ترتجف قليلا نحو سقف الحيط ليعطيه القرش الذي كان لونه بنيا قائلا له: «اذهب واشترِ لك حلوى»، وأردف قائلا: «وبعدين يا ولد روح على داركم، أنت بتعرفَ وين داركم؟».

لم يمد سقف الحيط يده ليأخذ القرش، وشعر بالإهانة من هذه المعاملة ومن السخرية من الرجل الأول، وبالشفقة من العجوز، وأيضا من النصيحة والاستفسار عما إذا كان يعرف الدار، فهو من يعرف الغور شبرا شبرا، يسأله أحد الرجال، «أنت بتعرف داركم يا ولد؟»!

لقد تولد لديه شعور بالإهانة بعد أن أصبح محل سخرية وسطو، وعاد الرجل إلى مقعده ووضع القرش بجيبه، وأخذ يواصل حديثه مع الرجال قائلا: «ما بنفع في حال العرب والمسلمين إلا الخلافة»، وأضاف: «يجب على المسلمين حتى يحرروا فلسطين، وينصلح حالهم أن يقيموا دولة الخلافة».

لم يفقه سقف الحيط شيئا من ذلك الحديث، لكنه مارس موهبته، وهي السماع والتخزين في الذاكرة الغورانية، ولا شك أن سماع هكذا حديث جعله ينسى قليلا ما حصل له قبل قليل من السرقة، والسخرية والإهانة.

بينما هو يستمع إلى الأحاديث أذن المؤذن لصلاة الظهر، فسكت الرجال عن الكلام، وبدؤوا يدلفون فرادى أو أزواجا إلى باب الجامع، وبقي سقف الحيط وحيدا، فاليوم ليس يوم الجمعة حتى يصلي كما اعتاد مع أبيه، فنهض، لكن ليس إلى الجامع بل سلك نفس الطريق التي أتى منها، وهو خاوي اليدين وحزين!

وما إن وصل البيادر وتوقف عند نفس شاهد القبر حتى بدأ يفكر: هل ينزل إلى الغور ليحافظ على ما تبقى من عزة وكرامة له، أم يعود للمنزل منكسرا وذليلا. ولربما كانت العودة إلى المنزل أولى من الغور. سار ببطء شديد أثناء عودته للبيت الذي شكل غيابه عنه أحداثا وقصصا، ودراما وتراجيديا، ليس فقط في أهل بيته، بل في الحارة والبلد.

لقد كان هذا اليوم الفريد والمتميز مليئا بالأحداث، فكانت الحال والوضع في بيت أهله أفظع من حالته ووضعه، وأكثر مأساة وتراجيديا، فقد قامت بغيابه الدنيا ولم تقعد، وخصوصا في بيت أبونسر.

كان سقف الحيط ضيفا جديدا على القرية قادما من الغور، فهو لا يعرف من القرية إلا بمقدار ما يستكشف منها، وأمه كانت تدرك ذلك. ولما طال غيابه، سألت عنه من كانوا يلعبون معه من أبناء عمومته، فقالوا لها: كان يلعب معنا، وفجأة تركنا ولحق بالأحدب وجده أبي قادح، إلى بئر مغارة أبوالريش.

واصلت السؤال، وسألت الأحدب وجده، قالوا لها من خلف السنسلة: «نعم كان معنا، ودخل المغارة يقضي حاجته». وأكد الأحدب أنه شاهده جالسا على خرزة البئر. أخرجت نصرة حلوى الملبس وقالت للأحدب: «احكِ وما تكذب وهاي الحلاوة لك»، فأخذ الأحدب يحلف الأيمان أنه آخر مرة شاهده فيها كان جالسا على باب البئر.

إن الأجوبة المختلفة التي سمعتها نصرة، وتأكيدات أبي قادح، وهو رجل في عقده السابع وما في قلبه على لسانه، وكلام حفيده الطفل الأحدب الذي لا يكذب، حاله كحال الأطفال الآخرين، كلها جعلت نصرة تقلق من مسالة وجوده عند خرزة البئر، واحتمال أنه وقع فيه، فلعبت الشياطين في عبها، وكادت أن تنوح وتجوح، وترمي الشالة والشيلة، وتمزق ثيابها، وتعفر وتنثر التراب والرماد على رأسها ووجها، وترفع يديها من أجل تقوية الصراخ والنواح، ليصل نواحها وصراخها إلى آخر الحارة، ويعلم الجميع بالنبأ العظيم!

أفاقت من هبة الحزن، واستغفرت ربها، وتماسكت، وكأن طائفا خفيا ثبت فؤادها، كما ثبت فؤاد أم موسى، وهداها ربها لتركض إلى البيت، وتستدعي من كان موجودا ليرافقها إلى البئر.

بئر الوهم

ركضت نصرة وكناينها، ولحق بهن أولادها الصغار ومن كان في الحارة من الأولاد الذين كانوا برفقة سقف الحيط أثناء اللعب، وبعض نساء الحارة المتواجدات، وبدأن بالهرولة، والأحدب بالكاد يلحق بهن، فهو من شاهد سقف الحيط لآخر مرة عند البئر. كانت نصرة أول الواصلين فوجدت بابه مفتوحا، وبدون أن تدري دبت الصوت، وينك يا ابني؟ وأصبحت الحقيقة المرة قاب قوسين أو أدنى، وكاد فؤادها أن يتفجر، وصاحت، ولم يعد التماسك التي حظيت به حتى وصلت البئر، قادرا، على الصمود أمام فم البئر المفتوح.

كان في سفح الجبل شخص اسمه أبوخشبة، يبني بيتا صغيرا لأحد أهالي مَصْطَبة، وهو بنّاء معروف بالبلد بخشباته قليلة العدد، فسمع صراخ نصرة قادما من بطن الجبل ومن جانب المغارة، فجاء مسرعا والميزان مثبت على جنبه، والمسطارين بيده.

وصل فوجد حشدا من النساء والأولاد والبنات الصغار، وهم يقولون: سقف الحيط دب في البئر.

حاول أبوخشبة، أن يهدئ نصرة التي كانت تقول له: مشان الله يا حج، انزل في البئر بسرعة، وشوف طلعه قبل ما ينخنق في الماء ويموت.

عادت نصرة لتتماسك في هذه اللحظة، وكأن من ثبت فؤادها قبل قليل، يقول لها: «لا يزال يوجد أمل، وما تنوحي ولا تجوحي إلا ما تشوفيه». أسرع أبوخشبة وهو رجل خمسيني ويحسن النزول في الآبار،

تسلق المداميك ونادته والدة سقف الحيط بلقب ابنه الكبير، وليس بكنيته: «انزل ولك عندي ذبيحة فوقها زوج زغاليل».

لقد اشتعل الأمل في قلبها، وجاءتها النصرة من حيث لا تدري، وتوقفت دموعها، فالرجل سينزل في البئر، ويبحث وما هي إلا دقائق، ويأتيها بخبر يقين.

ربط أبوخشبة الحبل جيدا في خرزة البئر، ولف نهايته على خصره، ونزل برجليه ويديه، بعد أن دلى رجليه على الحبل وأمسكه بيديه، وأمسك أسفل الحبل بقدميه محدثا شكلا لولبيا بينه وبين قدميه بطريقة يعرفها من كان متعودا على قصارة أو حفر الآبار وتنظيفها أو قياسها بالشبر عند بيع الماء الذي بداخلها. وكان أبوخشبة صاحب خبرة في ذلك، إلى أن وصل إلى قاع البئر، الذي كان يبلغ عمقه حوالي عشرة أمتار، وصاح: «لا يوجد أحد في البئر». ما إن سمعته نصرة حتى تنهدت قليلا وأخذت نفسًا عميقًا، وقالت: «الحمد لله!». لكن ما لبث أن سيطر عليها شعور بالانتكاسة التي غلبت الشعور بالنصر عندما سمعت صاحب البئر أبا قادح الذي حضر متأخرا يقول: «يوجد لِجُف طويل باتجاه المغارة، ابحث فيه يا زلمة»، فرد عليه من داخل البئر بصوت ممتزج بالصدى: الدنيا عتمة مش شايف شيء، جيبوا قنديل. رد عليه العجوز: ارفع صوتك شو بدك؟

«نزلوا لي قنديل»، وما إن سمعت نصرة ما يريد حتى ركضت بسرعة إلى أقرب بيت على سفح الجبل، وكانت صاحبته تربطها بها صداقة، وخلال دقائق معدودة أحضرت القنديل، ومن خلفها تلك الجارة، وأنزلوه بالدلو، بعد أن أشعلوه، فالتقطه أبوخشبة، وكانت شعلته خافتة

نتيجة نقص الأوكسجين، مع ذلك، أمسكه أبوخشبة بيده، بعد أن أخرجه من الدلو، وراح يبحث على ضوئه الخافت العاكس في الماء، وهو يمشي بالماء الذي كان يصل إلى ركبته في لجف البئر، ولم يعثر على شيء، وصاح: ما في حد.

عندما سمعت نصرة صوته القادم ببطء وبضعف من قاع البئر، تنفست الصعداء، وأخذت نفسا طويلا، وقالت الحمد لله رب العالمين إنه مش داب في البئر.

هدأت نصرة قليلا، فبعد الدعاء والاستنجاد والخوف، تملكها شعور آخر بالتوعد والعقاب قائلة: «وين راح هالغضيب؟ والله لأربطه برجل التخت، حتى يتعلم ما يخرج من البيت إلا يخبرنا»، وأضافت: «أبوه خربله طباعه لما أخذه معه على الغور، وترك له الحبل على الغارب، وخلاه يفكر نفسه إنه زلمه ويروح ويجي دون ما يخبر حد».

عاد سقف الحيط إلى المنزل وهو منكسر الخاطر وحزين، ولا يريد أن يخبر أحدا بما حصل له بعد أن تعرض لعملية سطو وسرقت محفظته وما بداخلها، بما فيها الورقة التي تحمل صورة اليهودي، فوجد البيت قائما قاعدا والناس متجمهرة ومنتظرة لتعرف أين كان الغضيب، وأكثرهم يريد أن يضربه لما سببه من خوف وفزع، فأمسكته نصرة من كتفيه، وهزته بين يديها قائلة: «حرقت قلبنا عليك، وخلينا الزلمة ينزل في البئر يدور عليك. وين كنت؟».

صمت سقف الحيط ولم يتكلم، ومكث غير بعيد في مكانه، فهو يتعرض للوم والتوبيخ والعقوبة بعد أن تعرض للسرقة، كل ذلك لأنه

انكسر خاطره من والده أبونسر الذي لم ياخذه معه إلى المدينة، والذي قطع كل تلك المسافة من الغور إلى البلد، على أمل أن يذهب معه إلى المدينة! أمسكته والدته وقالت: حلفت يمين لأربطك برجل التخت.

قادته نصرة من يديه وساعدها أخوه الكبير باسل الذي ثبته بينما أمه تقوم بتقييد يديه الصغيرتين بحبل مصيص، وربطهما برجل التخت وهو ملقى تحته، وقالت لأخيه: «طول زوج زغاليل من برج الحمام من جانب الياخور، وروح وديهن للزلمة إلي نزل في البئر»، وأضافت مسمعة الجيران: «هذا نذر علي».

لم يكن أمام سقف الحيط أي خيار آخر سوى الاستسلام والرضا بالعقوبة وهو ملقى تحت التخت، ويداه ممدودتان نحو أسفل التخت، ورأسه الصغير وخده الأيمن يفترش مَصْطَبة البيت الباردة، ودموعه تتساقط من عينيه على خده لتصل إلى المَصْطَبة. رفع نظره قليلا إلى واجهة البيت، فشاهد الصورتين، وأشغل تفكيره بهما، وتوقف عن التنهد والبكاء، وجفت دموعه.

أراد أن يشغل عقله فينسى بأن يديه مقيدتان، فأخذ يتجول ببصره على الحيطان، ويقول مخاطبا نفسه: بس لو أعرف صورة مين، صورة هالرجل على الحيط؟

كانت عيونه ترنو إلى الصورة التي يُخيل إليه أن فيها شررا وشعاعا وقوة، وهو يقول: «ممكن هالزلمة حامل في راسه هموم كثيرة، بس مش أكثر من همومي».

لقد كانت هموم سقف الحيط صغيرة، ومتمثلة بالقيد في اليدين،

والربط في رجل التخت، والحبس وتقييد الحرية، وهذه أكبر عقوبة له، لإنه دائما هارب، ويعيش حرًّا.

انتقل بنظره إلى الصورة الجميلة للمرأة على الحائط، فهي لا تشبه أيًّا من نساء الحارة، ولا أي امرأة شاهدها، عيونها هادئة، ترسل النَّوَر والمحبة، والسلام، والرضا، وكان يفكر بمن علق هذه الصور على الحيط؟

قال لنفسه: «آه يمكن أخونا حافظ لما حضر من الكويت، وتزوج، وجاب معه المجلات والصناديق»، وأخذ يقنع نفسه بأنه هو.. هو من أحضرها. شعر سقف الحيط بالنعاس يسيطر عليه بالرغم من الجوع الذي كان يشعر به بعدما سرح بالصورتين المعلقتين على الحائط، وصورة اليهودي التي سرقت من محفظته، ونام، وهو مقيد اليدين في رجل التخت، مسجونا داخل الغرفة، بعد أن كان يتجول في الغور حرا طليقا، معتبرا نفسه سقف الغور، وليس سقف الحيط، وهو لا يعرف ماذا سيحصل له بعد أن يصحو من النوم؟

هل ستمتد العقوبة ليحرم من النزول إلى الغور؟ فنام دون أن يصل بتفكيره إلى أي جواب.

بين الحرية والغورانية

إن الأيام الأولى التي تفتحت بها ذاكرة سقف الحيط على الغور، كانت ذاكرة واعية للوجود الغوراني بكل تفاصيل الغور وصمته وغضبه في الشتاء وسكونه في الليل وسكانه في الربيع.

لقد سبقت ذاكرته الواعية لوجوده الغوراني ذاكرته الجنينية التي كانت غير مستقرة، وقد عرف في ما بعد من أمه نصرة، فسجلت تعرضها لحادث عرضي كاد أن يودي بحياته، لولا أن أمه رجعت عندما نزفت، وذهبت إلى عمتها التي أخدتها للمدينة، فتعالجت وتوقف النزيف، وثبت الجنين في رحمها.

لقد كانت ذاكرة سقف الحيط الجنينية منعكسة على الذاكرة الواعية للوجود الغوراني، التي كانت تتقبل كل شيء تسمعه، فحركة الجنين ونزوله بعد تعرضه لضربة، وثباته بعد ذلك، صقل الذاكرة الواعية بالانفتاح والتجوال، بين القمم والقيعان اللامتناهية، فما إن يصعد قمة جبل حتى يهبط إلى قاع واد ما، وبعد ذلك تصعد فتهبط، وتصعد وتهبط، فكل صعود يتبعه هبوط، وكان ذلك انعكاسا لحركته في بطن أمه نصرة، وكان الرابط بين الذاكرتين الأحلام والكوابيس التي كان يراها في المنام. فكم من مرة وقع عن قمة جبل وهبط في الوادي أو طار في الهواء أو سبح في بحر أو وقع في نهر! وكان يحدث والده أبونسر بذلك فكان يقول له: أضغاث احلام، تف عن يمينك وشمالك، وتعوذ من الشيطان.

كان سقف الحيط يمتلك كمًّا ومدى من الحرية اللامتناهية، سواء

كانت بالصعود أو الهبوط الذي كان يمارسه يوميا، فكانت تلك منحة ربانية، منحها الخالق له بالغور، وقيمة لا يمكن التنازل عنها، إلا أنها مع صعود سقف الحيط إلى القرية، والتفاعل مع من يسكنها، صارت غير مكتملة، نتيجة اصطدام سقف الحيط بسلطة والده ومن حوله، فنتج عن تلك الأحداث أن والده وقف أمام تمنياته وحريته وقام بدفعه بقوة، فاهتزت تلك الحرية التي يتمتع بها، وعندما عبر سقف الحيط عن رفضه لهذه السلطة باحتجاج عن طريق امتداد يده إلى البيضات، وسرقتها كردة فعل على سلطة والده، كان الأمر كلعبة أحجار الدومينو، فإذا ما سقط حجر انتقل التأثير إلى جميع الأحجار، لتنتهي جميعها ملقاة على الأرض.

كانت سلسلة التفاعل والاحتكاك والتدافع والسقوط، منذ لحظة دفع والده له، وسقوطه إلى البيضات وإلى البئر، والتوتة، والأبرص وسرقة المحفظة، وفقدان كل شيء، حتى أول شيء يملكه، سببا لتعود السلطة التي لها الحق فى العقاب والثواب، وتكون العقوبة مقيدة لحركته وحريته عن جريمة لم يرتكبها سوى ما حدث له من حزن ومشاكل وإزعاج لإنقاذه من البئر الذي لم يقع فيه، فكان الاصطدام بسلطة الوالدين، فنتج عنها أنه يرقد تحت السرير، فإذا لم تكتمل تلك الأيام فإن ما رضعه من الانطلاق والتمرد، والحرية التي منحتها له عشوائية الغور، يفقد تماما، فسقف الحيط مقيد ومربوط كخروف ولكن برجل التخت، ولا يستطيع أن يتقلب على جنبيه أثناء النوم، فتقلبه أصبح أيضا معدوما، حتى إنه لا يستطيع أن يأخذ وضع الجنين فيتحرك ببطن أمه نصرة، وها هي ذات اليد

تقيد حريته.

تلك هي مأساة سقف الحيط الذي استيقظ على صوت أذان الفجر، وفتح عينيه في يوم جديد مجهول، وأراد أن ينهض إلا أنه شعر بأن شيئا يشدّه إلى الأسفل، فعرف أنه ما زال مقيدا ومربوطا برجل التخت. لقد وضعت له أمه أثناء نومه جنبية تحته، وغطته بلحاف صغير، حاول يائسا أن يريح رسغيه قليلا، وأن يضع يده تحت راسه، فلا يقدر، فيحاول أن يفصلهما عن بعضهما البعض فلم يفلح، فعاد لنفس الوضعية وأغمض عينيه مستسلما، لكنه لم ينم منتظرا الأمل وشيئا ما سيحصل، لقد كان يسمع حسفة تدور في الظلمة التي تتلاشى في الزاوية البعيدة في البيت التي يسترها شيء من القماش الساتر، إذ يتسلل فيها ضوء لمبة الكاز الخافت، ويتزامن مع هذا الضوء موجات صوتية تتسلل إلى سمعه. إنه صوت الحياة وصوت الماء المسكوب من الكيلة على جسد الإنسان، ليطهره من جنابته وملذاته، ويرافق هذه السمفونية التي تتمازج بين الضوء والماء، كلمات الإنسان الصادرة من والده بالتشهد بالوحدانية، وأن لا إله إلا الله والعبودية للخالق. إنها مرحلة الاستعداد للصلاة والتهيؤ للوقوف بين يدي الخالق، ليكون الاتصال مباشرة معه. إنها صلاة الصبح الذي يتنفس، ولا يقطع تنفس الصبح، إلا كحة بسيطة مع حشرجة، وبلغم الهيشي الخارج من صدر والده أبونسر.

لقد عرف سقف الحيط أن والده قد استيقظ، ويتهيأ للذهاب للمسجد، ولاحظ سقف الحيط من طرف عينيه قبل أن يلبس والده كوفيته، ويثبت عقاله الأسود الغليظ على رأسه للخروج لصلاة الفجر، أن والده يتأمله

من طرف خفي، يلتفت إليه قليلا، فيغمض سقف الحيط عيونه حتى لا يظهر أنه طالب للنجدة لفك قيده، لكنه ترك بصيرته مستيقظة، ليقرأ من خلالها بصيرة والده من خلال سماعه لأنفاسه، وصوت دبيب قدميه اللتين كانتا تتقدمان نحو سقف الحيط، وهو يحمل لمبة الكاز التي أسدلت ضوءها الخافت على وجهه الشاحب، وعينيه المغمضتين، اللتين كانتا تتربعان في وجهه، وهما في حاله محيرة، فلا هما مغمضتين ولا هما مفتوحتين، لربما ينام سقف الحيط نومة الغزلان أو أن عينيه أصبحتا عيون ملائكة لا تغمض ولا تنام، فهي تسبح في نور التسبيح بلا فتور، مسح الوالد بيده الخشنة التي تسطح كفَّها من الشقاء والحراثة، فأصبحت مليئة بالأخاديد والحفر، وقد تلونت باللون البني والأخضر، فذرات التراب وبقايا عصارة العشب الأخضر والآثار التي تركها عود الحراثة والعصا، شاهدة وباقية على التضحية من أجل أرض الغور التي شكلت تضاريس يديه، فأصبحتا كتضاريس الغور من قيعان وقمم، وهضاب وتلال، فوجدت ذرات التراب لها ملجأ في هذه الأخاديد الخشنة فتوطنت بها، وأصبح من المستحيل إزالتها لا بالماء ولا بالصابون. كان أبونسر يدرك مدى توحده مع الأرض، فهو منها ولها وفيها، ولحمه ودمه لا يختلفان كثيرا إن لم يتطابقا مع عناصر الأرض ومكوناتها، فماذا تبقى لوالد سقف الحيط سوى تلك النفحة الربانية، والأمانة الثقيلة التي تثقل ليس فقط كاهله وجبال الغور، بل جميع الجبال الرواسي فلا تعود قادرة على تثبيت الأرض فتميد بهم كما مادت نصرة به وقيدته برجل السرير؟

أحس سقف الحيط بهذه الخشونة الممزوجة بذرات الارض ونبتها،

وتخللت رائحة الغور إلى خياشيم أنفه، كان من الممكن أن تجرح تضاريس الغور خده الشاحب مع أنها تحنو عليه، وتمتد على جبينه. وأحست بصيرة سقف الحيط بتلك اليد الخشنة، تقوم بسرعة بفك حبل المصيص من يديه اللتين حُلّيتا بأساور لحمية مزينة بأحافيرها الرسغية، ولونتا بلون الحرية الحمراء القاني التي يعشقها سقف الحيط، وما لبثتا عند فك حبل المصيص عنهما أن تحولتا إلى لون أزرق قاتم، في حين كانت كفاه تكادان تتفجران بعد أن انتفختا وتضخمتا، نتيجة شد الحبل بقوة عليهما لأكثر من ليلة ونصف نهار.

الهدية

قال أبونسر متمتما وهو يقترب من سقف الحيط على الأرض بحسرة: «الله يلعن الشيطان، حكتلي أمك كل شيء صار». وأضاف: «كان لازم أخذتك معاي إلى المدينة، ليش صار معاي هيك ما بعرف؟».

أجاب نفسه: «يمكن فكرت إنك راح تغلّبني، وأنا بطبعي دائما مستعجل، فأنا مخلوق على عجل، وما بحب أحد يأخرني، وفكرت إنك بتأخرني!». وأردف قائلا على مسمع الجميع: «بس أنا جبتلك هدية»، هنا فتح سقف الحيط عينيه بشكل كامل، فاختفت منهما هالة حفظ الملائكة ونومه الغزلاني، وأصبحت عيناه عيني إنسان يذرف الدموع، دموعا لم يقدر أن يحبسها، ولا يدري أهي دموع العتب على والده الذي لم يعد صديقه بعد أن مارس عليه سلطة الأبوة، ام أنها دموع الفرح بفك القيد؟

حمله والده، واحتضنه وضمه إلى صدره، لم يشعر سقف الحيط بحضن والده دافئا كما كان يشعر من قبل، خصوصا عندما يكونان تحت الفروة. كان حضن أبونسر هذه المرة باردًا، فلم يشعر سقف الحيط بالدفء، كما شعر به والده. إنها غريزة الأبوة.

لم يكن أبونسر يملك تفسيرا لذلك الدفء الذي شعر به عندما احتضن ولده، فكان مميزا هذه المرة، فلقد كانت يداه تمتصان دفء جسد الابن، بينما سقف الحيط لم يكن له غريزة البنوة، ليشعر أنه ابن، لأنها سقطت باستعمال الأب لسلطته، فقتلت تلك الغريزة.

سار أبونسر في البيت وهو يحمله وأخذه إلى زاوية البيت، وأخرج من كيس الخيش كيسا ورقيا، وقال: «جبتلك كندرة جديدة، مش كوشوكة،

قيسها».

لم يشأ أن يرفض فالكاوشوكة القديمة كانت قد تفتقت، وأصبح فمها الذي يشبه فم البطة مفتوحا من الأمام، ومفروطة من الجانبين، وقد كانت الأشواك والحجارة كلما مشى، تأبى إلا أن تعانق قدميه، فتجعله دائما حذرا ويقظا، فأدمت أصابع قدميه. الغور لا يرحم الأقدام الحافية، ويعلم سقف الحيط أنه لا شيء يوفر الراحة لقدميه، أو أقدام المتجولين أو الرعاة في الأغوار مثل الحذاء، فالحذا شيء مهم للإنسان، ومنذ القدم، عندما زاد عدد أفراد الاسرة، وأخذوا يتنقلون، ومنهم من يضرب في الأرض للصيد، أخذ الإنسان يفكر كيف يحمي قدميه اللتين تحملانه من منطقة إلى منطقة، وتساعدانه على الهرب عند الشعور بالخطر، فكانت جلود الحيوانات تحمي تلك الأقدام، فلما استقر الإنسان حسَّن الجلد، وربطه بإحكام على قدميه.

كانت أهمية الحذاء كأهمية حمل العصا التي دائما تتقدم على القدم بالخطى، والتي فيها مآرب كثيرة.

وضع سقف الحيط قدميه بالحذاء فوجده واسعا، وقال أبونسر: «إنه واسع لكن مش كثير»، وأضاف أبونسر مستدركًا: «لازم يكون واسع لأن قدمك يا ابني تكبر».

إن هذا السلوك شيء عادي بالنسبة لسقف الحيط وإخوته، ولربما جميع أطفال القرية، فدائما الأهالي يشترون لأولادهم الملابس والأحذية الأكبر مقاسا، وهم يبررون ذلك بأنها تخدم مدة زمنية طويلة، دون أن تكون ضيقة، فتترافق مع نموهم الطبيعي، مع أن القدم تكبر، والحذاء يستهلك ويتناقص من أطرافه. أردف الوالد مطمئنا ابنه: «إن شاء الله المرة

الجاية بوخذك معاي، وبشتريلك بنطلون وقميص، وبتقيس هناك».

نزلت هذه العبارات على قلب سقف الحيط كنزول الماء البارد في فم الظمآن من حر الغور، وجعلته يشعر بالارتياح قليلا، وينسى الألم، وأورام يديه.

كان أبونسر حكيما، فأراد أن يعوض سقف الحيط عما مر به نتيجة فعله عندما رفض أخذه معه للمدينة، ففكر أن يخرجه من الحالة التي أدت لكل الأحداث التي مر بها سقف الحيط الذي عاش بعيدًا عن أمه وإخوته، فمشاغله لم تترك له وقتا ليعلّمه، إلا من قص القصص عليه، التي كان هو نفسه يجد متعة في قصها، لكنه غفل عن تعليم سقف الحيط ما يرغب فيه أو يحتاجه في مثل هذا العمر.

فكر أبونسر أن يظهر له بعض الاهتمام عن طريق تعليمه الوضوء والصلاة، وقال موجها كلامه إلى سقف الحيط: «صرت تعرف تتوضأ وتصلي، عاوز تروح معي المسجد أو نصلي معا بالبيت»، واستدرك الوالد قائلا: «خليك تصلي في البيت، الدنيا صقعة عليك، وشكلك تعبان، ولما أرجع ذكرني أعطيك الهدية التي ستفرحك كثيرا».

خرج أبونسر إلى المسجد وهو يتنفس تنفس الصباح، مهللا أثناء سيره تحت جنح الظلام الذي بدأ يتلاشى حتى أدرك صلاة الفجر. في هذه الأثناء كانت قد استيقظت نصرة، ويبدو أن أولوياتها، لا تحتم عليها أن تستعد للصلاة وتصلي، فسارعت إلى البكرج لحلب البقرة وإطعامها، وخبز الخبز في الطابون، وتسخين بكرج الحليب على البابور، فكل ذلك، لبعض النساء القرويات، مُقدَّم على الصلاة عندها.

إن النساء في القرى والغور، مسؤولات عن إعداد وتوفير الطعام، فهن

متعددات الوظائف في القرى والأغوار.

كانت نصرة تشعر بشيء من اللوم لنفسها على ما أوقعته من عقاب عليه، فأرادت أن تكفر عن فعلتها بأن تخصه بطعام صنعته خصيصا له قبل أن يستيقظ إخوته، فخصته بنصف رغيف طابون مفقوس بداخله بيضتان ولفته له، وكان الهبال يطلع منه، وقالت له: «كل يا ابني عبين ما أشوف واجبي مع ربي، بس كل قبل ما يصحوا إخوتك»، تردد سقف الحيط بإمساك نصف الرغيف وهو ينظر لوالدته التي عاقبته على ما سبب لها من إزعاج وكلَّفها زوج زغاليل للبنّاء أبوخشبة الذي نزل البئر، فكانت عيناه ترمقان والدته بسؤال: «هل لأنك أمي حملتني ببطنك وهنا على وهن أردت معاقبتي وربطي بالتخت؟». كانت نصرة تحس كأم بأنها أفرطت بعقابه، وتكاد تحس بنظرات العتب المنبعثة من عينيه المتعبتين، وتريد أن تبرر فعلها بغريزة الأمومة والسلطة المنبثقة منها، إلا أن غريزة الجوع، والحاجة للرغيف عند سقف الحيط أولى من العتاب، فأمسك بيديه المنتفختين نصف الرغيف الملفوف، وكان ساخنا، ولا يكاد يستطيع إمساكه بيده المتورمتين، لكن الجوع وطراوة الرغيف الممزوج بالبيض المفقوس عليه جعلته يتحدى السخونة، ويكاد يسخر من الحرية، ويتحمل ألمها على يديه، فألم الجوع أشد من ألم الحبل على اليدين، وأخذ يلتهمها بسرعة ليخلص من حرارتها المؤذية ليديه المنتفختين، وشرب بعدها كاس الحليب الساخنة المحلاة بالسكر، فدارت الدورة الدموية في عروقه وانشغلت معدته بهضم الطعام.

المقام

استقبل سقف الحيط فجر يوم جديد في قرية مَصْطَبة، وكان هذا اليوم باردا، بخلاف الأمس الذي كان نسبيا غير بارد ومشمسا، لكنه كان يومًا ثقيلا عليه، ومن ورائه ليلة ذات قيد مقيد لحركته تحت التخت.

تحسنت حالته في الضحى بعد أن حضنه والده، وبعد أن خصته والدته نصرة بنصف الرغيف مع بيضتين، وشرب الحليب وتحرك وسال الدم في الوريد، بدا الثقل والكسل عنه غير بعيد، وأخذ يميل إلى نومة الضحى، فما كان من والدته التي أنهت صلاة الضحى، إلا أن دثرته مرة أخرى بفروة والده، فأحست أن جبهته ساخنة، بعد أن مررت نفس اليد التي ربطته بالتخت على جبينه، فوجدت حرارته مرتفعة، وجسده النحيل يرتعش، وباقي جسمه يفرفر من الحمى، فدثرته بغطاء خفيف.

جعلت الحمى سقف الحيط ينام قليلا ويصحو كثيرا، ويهذي بآخر الأحداث التي عاشها، أحيانا بكلام بعضه مفهوم، كالمحفظة والصورة، والبئر، والتخت، والمدينة، وعبارات متقطعة تعود به إلى أيام الحرية في الغور، وأيام تفتح زهرة الذاكرة الطفولية لديه، كان يقول بصوت متقطع: بدي أرجع عالغور، وأطلع على القرن!

وكان كثير مما قال غير مفهوم، إذ يشتد عليه فوح جهنم، فيبدأ العرق يتصبب على جبينه بالرغم من تدخل من حوله. وقد خاف عليه والداه، فقال أبونسر لأهل بيته: «اعملوا له كمادات ماء بارد، وإذا ما خف شوية خلي أخته الكبيرة عايشة تدقه إبرة بنسلين أو تاخذه إلى المستوصف،

وبنفس الوقت بتزور خوالها وخالاتها وجدها».

بدأت نصرة تمسح على جبينه بخرقة بيضاء مبلولة بالماء البارد، وتمررها على وجهه ويديه ورقبته ورأسه، وهي تتمتم بعبارات الرقية، وتقرأ المعوذات عليه، وما إن تنتهي حتى تاخذ قليلا من زيت الزيتون، وتدهن به صدره، مستعينة هذه المرة بالشيخ أحمد، وعبد النَّوَر، وذي الكفل، وجميع الأولياء المعروفة مقاماتهم بالقرية. وكانت نصرة، وقد أخذها الخوف على ابنها، تشعر بتأنيب الضمير، لأنها هي من عاقبته، وكانت تعد بزيارة مقامات الأولياء قريبا، وتسرج السراج لهم، بالزيت المبارك، وتضيء تلك المقامات!

كانت تلوم نفسها على إساءة استعمال سلطة الأمومة لديها لتعاقبه لكونه طفلها وابنها الذي حرق قلبها عليه عندما تخيلت أنه وقع في البئر. لقد كانت تشعر به، وكانت حركة وقسمات وجهها تنبسط وتنقبض كمؤشر على تحسن أو سوء حالته، تفرح حين يتحسن قليلا، فيمدد الفرح وجهها، وتتحرك أسارير البسمة على شفتيها، واذا انتكس كشت أسارير وجهها، وانقبضت، واخذت ترسم معالم الحزن على وجهها.

جلس سقف الحيط خافت القوة، وكان يشعر بضعف ووهن، وينظر مرة إلى والدته وأخرى إلى والده الذي لم يكن مؤشر حالة الألم عنده قد حرك ساكنا فيه.

كانت نظرات سقف الحيط تتراوح بين العتب والتساؤل والاستنكار! لكن لم تكن تلك النظرات بالنسبة لوالده بذات بال أو أهمية، بخلاف والدته، فما دام قد تجاوز حافة الحمى وفوح النار، فلا بأس عليه، ولا بد

من الوفاء بالنذر والمرور على المقامات، وبينما هو على هذه الحال، كان والداه يتجاذبان أطراف الحديث في مواضيع شتى، وأصبح موضوع سقف الحيط ومرضه، ليس بالامر المهم لهم!

ما إن تحسنت حالته وصحته وخفت الحمى، حتى عاد سقف الحيط إلى عادته الغورانية، فيصغي لما يسمعه وأحيانا يسترق السمع، فسمع قول والده لوالدته أنه شاهد في المدينة أبوالغنم من بلدتها علية عند أبوالعبد التاجر في المدينة، فقال له: «إن والدها أبوجابر عيان شوي»، وأردف قائلا إنه بعد صلاة العصر، سينزل إلى الغور. وقد نهض وشد حزامه على خصره، وبنفس الوقت أعطى أوامره لأولاده والكناين أن يجهزن الاغراض، ويحمّلوا الحمير، وما إن انهى شد الحزام حتى لبس الجاكيت على الجِبِر، وطلب حطته وعقاله، وبدأ بإعطاء الأوامر والتعليمات وإصدار الفرمانات، فكان الفرمان الأول إبعاد سقف الحيط عن الغور لأجل غير مسمى، وأن يعيش في القرية، ويتفاعل مع الأولاد، ومع إخوته، وهو حكم بالنفي لسقف الحيط عن الغور. وكانت الأسباب، أن عمه والد نصرة، يبدو أنه مريض، وأوصى أبونسر نصرة أن تراقبه وقال لها: «وأنت يا أم باسل، ما تخليه يلحقني خلي عينك عليه! وخذيه معك بكرة أو بعده، لما تروحي تزوري والدك في بلدة علية، واقعديلك يومين عندهم، بس وصي الكناين على البيت، وعلى الأولاد، وقسمي ووزعي الشغل على كل واحدة، وبشكل خاص زبل الطابون والعجين والخبز، كل يوم واحدة تزبله وتخبز فيه، قولي لهن: هذه أوامر عمكم، أثناء غيابك عند أهلك».

لقد كان سقف الحيط يسمع بعض ما يقوله الوالد لوالدته، فعرف أن سلطة الأبوة والأحداث جميعها، تقف صفا واحدا، وسدا منيعا أمامه دون العودة إلى الغور وإلى الحرية، وأن حكم الإبعاد والنفي قد دخل حيز التنفيذ، وما حكم الحبس والقيد عنه ببعيد!

كانت وجهة نظر أبونسر أنه لا بد أن يتم إشغاله بشيء أو أمر جديد ومعين، لينسى العودة للغور، ويبعدها عن ذهنه، بملاهاته بأشياء أخرى، كزيارة المستوصف، وبعد ذلك يأتي البديل ليستمتع به، وهو الذهاب مع أمه لزيارة أخواله في قرية العِلِّيَّة. وما كان لسقف الحيط أن يقاوم، فهو لم يشفَ من مرضه شفاء تاما، وهو ملقى على الفراش، ممدود كخروف مولود للتو! لا حيلة ولا قوة في مواجهة السلطة التي تصدر القرارات والأحكام، ويداه داميتان ومنتفختان، وفوق كل ذلك كانت حركته بطيئة، ومثقلة بسبب الحمى من جهة.

ومن جهة أخرى، هناك بدائل ومغريات: أن يذهب مع شقيقته إلى المستوصف، وبعد ذلك مع والدته إلى جده أبوجابر الذي يذكره جيدا، فتكون فرصة له ليستمتع بمرتفعات العِلِّيَّة وزهر شجر اللوز.

إن كل شيء يكون له مقابل فالعلاقات تبادلية، ومسالة الدَّين والدِّين لا يميز بينهما شيء إلا الفتحة.

إن أبونسر يعلم أن الحياة خذ وهات، ويفهم إلى حد ما أن الدين دين يقوم به العابد بشعائر ومناسك مقابل الخلق والتكريم، لكن ماذا ينتظر الخالق من العابد، فلا مقابل لذلك، لا مادي ولا معنوي، لأن الخالق باق وحي، وكل شيء هالك، فوالده قُتل وأمه ماتت وزوجته الأولى ماتت،

وكثير من أغنامه نفق. وباستثناء علاقة الخالق بالناس، فإن كل شيء يكون مقابله شيء، فحتى الأمم المنتصرة بالحروب، هي من تفرض الشروط، فأبونسر يتذكر أن كل الجيوش العربية في النكبة هزمتها إسرائيل، وهي من فرضت الشروط عليهم، وأن الدول المنتصرة في الحرب العالمية الثانية، هي أعطت لنفسها أن تحكم وتنظم العالم.

كان سقف الحيط بنظر والده أبونسر، حالة لا تختلف عن معظم سقوف الحيطان في فلسطين، فحين صدر لهم قرار حق العودة، صدر في اليوم التالي قرار تأسيس وكالة الغوث لاستئجار الأراضي، وإقامة المخيمات عليها لهم، ومدهم بالطحين والزيت وكرت المؤن، فذاقت تلك السقوف طعم زهرة الحياة المقدمة من العالم ممثلا بوكالة الغوث، فنسوا عهد وحق العودة، وما زالوا يمضغون زهرة اللوتس، فأصبحت وكالة الغوث لهم مخدرا خدرهم عقودا كثيرة عن العودة، وأصبحت حركتهم بطيئة بعد تعاقب الأجيال، وغياب من يقطع المخدر عنهم. وهكذا كانت خطة أبونسر لإبعاد سقف الحيط عن الغور لينفى إلى حضن جده أبوجابر، فهذا الجد كان يلاعبه ويحبه، ويفتح يده ليأخذ الشلن، ومن يدري فلربما يأخذه الجد إلى المدينة كما أخذت وكالة الغوث بعض سقوف فلسطين إلى شتى بقاع الأرض حيث يكثر اللوتس والمخدر، ويصبح من المستحيل العودة إلى الغور.

كان يعلم أبونسر أن سقف الحيط يتمتع بموهبة الإنصات للخراريف والحكايات ويستمتع بها، ولا شك أنه سيستمع بقصص جده أبوجابر، بدءا من عهد الأتراك مرورا بالإنجليز وصولا للحاضر، وقد يحظى بشلن

آخر، فهو لم ينسَ الشلن والمحفظة والصورة.

ما إن سمع سقف الحيط تلك الأنباء حتى خالجته نزعة بالحصول على شلن آخر من جده أبوجابر. وكان يقول لنفسه: حتى لو حصلت كمان على شلن آخر، وين بدي أحطه بعدما انسرقت المحفظة؟

أحس سقف الخيط أنه أصبح بعيدا عن الغور، وأخذ يفكر بما سمع من والده أثناء فك الحبل عن يديه، «أنا جبتلك هدية»! فهل هذه الهدية هي الكندرة الواسعة؟

أجاب سقف الخيط بدون تردد: لا لقد قال ذلك بعد أن قاس الكندرة فوجدها واسعة، فعاد السؤال شو ممكن يكون جاب؟ أجاب في نفسه؛ يمكن محفظة!

حاول سقف الحيط، أن يتوقف عن التفكير بالهدية ونوعها، وأخذته العزة بالغورانية، فلم يكسر نفسه لوالده ويسأله عن ماهية الهدية! وقال في صمت: «بس أنا مش راح أذكره إنه قال لي إنه جاب لي هدية». وأثناء تفكيره بالهدية قال الوالد لوالدته: احضري لي الصندوق والدفتر إللي تحته.

أحضرت نصرة الصندوق، وهو أحد صناديق الدخان التي أحضرها حافظ من الكويت. صندوق حديدي وعليه رسومات وصور تعطي النشوة بالدخان المتصاعد من فم الفارس الذي عشق البوادي بغبار سيجارته، وكان الوالد يحتفظ بداخله بالحجج، والأوراق المهمة والرسائل والليرات. فتح أبونسر الصندوق، وأخرج ظروف مكاتيب بيضاء بإطار أزرق، وعليها طوابع، وفتح الدفتر، وقلَّب أحد الظروف

ليرى ما كتب على ظهره، فظهرت عبارات بأحرف لاتينية مكتوبة عليها، فكان ينقلها على الدفتر كما هي، وانشغل بالكتابة في الدفتر أكثر من ساعة. بعد ذلك قص الأوراق التي كتبها وطواها في ظرفي المكتوبين، ووضعها بجيبه، وقال: «يا أم باسل -وهذا لقب نصرة، باسم ابنها البكر- أنا نازل على البلد بصلي الظهر وبشوف الناس، وبرسل هالرسالتين للأولاد، واحدة على الكويت، والثانية على العراق، واعمليلنا على الغدا فرخين دجاج على مفتول». فردت وهي ترفع صينية الفطور: «بس ما في عنا مفتول»، فأجابها وهو مسرع: «طيب اعملي مقلوبة، بس من الرز الجديد الذي أحضرته معي من المدينة». في هذه الأثناء جاءت ابنته عايشة التي تعيش لوحدها أثناء غياب زوجها الذي هاجر إلى أمريكا ولم يعد، وبقيت وفية له، ومنتظره مع المنتظرات من نسوة البلد اللواتي يعشن نفس الحالة. وكانت تلبس شالتها السوداء التي هي عبارة عن قطعة واحدة تلف المرأة من رأسها إلى أخمص قدميها، ولا يظهر منها إلا جزء من عينيها وأنفها وفمها. وكانت حنونة على سقف الحيط وتحبه بشكل جنوني، ربما لأنها محرومة من الأولاد، وما إن شاهدته مستندا إلى الوسادة حتى حملته وضمته إلى صدرها، وقالت وهي مسرعة لخالتها: «أنا بأخذه للمستوصف، وبرجعه عندي على البيت ما تقلقي عليه»، وقالت لها خالتها: «خذي نص قصية الجبن، ذوقي جدك وخالك وخالتك من خير السنة، وخذي كمان شوية عجوة من إللي أحضرها والدك من نابلس». حملت قصية الجبن وقليلا من العجوة، وأمسكت بيد سقف الحيط، وسارت به إلى المستوصف الذي كان يقع في حمولة أخرى، وكان

المستوصف قريبا جدا من منزل مليح، خال عايشة، فهي بالنسبة لها فرصة لتزور خالها وخالاتها وجدها أبومليح. سمعت إحدى الكناين الخبر، فكانت فرصه لها أن تذهب معها، فقد كانت زوجه شقيقها الموجود في العراق وابنة خالها، فجاءتها الفرصة من حيث لم تدرِ، فهي تفكر منذ فترة أن تستأذن لزيارة والدتها، وها هي الفرصة قد حانت لأن تزور أمها وإخوتها، لم يعجب ذلك الخالة نصرة، لانها فقدت واحدة من مساعداتها، فالكنة يجب أن تخدم وتعمل في منزل حماها، فذاك تقليد في بلدة مَصْطَبة. والسبب الوحيد في اختيار الكنة أنها شغيلة كالنحلة. وكان معروفا عند أهل القرى عند خطبة امرأة من الأغوار ومَصْطَبة، أنه «خذ وأنت مغمض»، فمعظم نسائهم لبؤات بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

تقبلت خالتها الموضوع على مضض، ولكن الكنة حلفتها ألا تقول لعمها عن هذه الزيارة، على أمل أنها ستحضر لها لوزا أخضر من حقل جدها أبومليح، بالناطوفة المطلة على الغور، من أجل أن تذوق خالتها نصرة اللوز الأخضر، فهي وإن كانت ذاهبة إلى بلدتها العِلِّيَّة المشهورة باللوز، إلا أن لوزها ما زال زهرا، ولم يستوِ، على عكس الناطوفة المنخفضة والمطلة على الغور، التي برعم زهرها، وأصبح لوزها أخضر وحامضا.

جرس النَّوَر

سارت شقيقته عايشة وابنة خالها، زوجة شقيقها حفظي الغائب عنها، بسبب تركه الكويت، والالتحاق بالثورة في جيش التحرير الموجود في العراق، وكان يتوسطهن سقف الحيط الذي يسير ببطء، نتيجة الحرارة والإعياء، وقد عرجت عايشة على منزلها الذي كان قريبا من مدرسة الذكور، لتأخذ بعض الحاجيات إلى جدها وخالتها، وتضع الجبنة والعجوة في خريطة خيش صغيرة، ليسهل حملها من تحت الشالة.

ما إن خرجوا من المنزل حتى دق جرس المدرسة، فقد لفت سمع سقف الحيط صوت الجرس، فلاحقه بنظره فوجده عبارة عن قطعة حديد دائرية يحيط بها الصدأ من أطرافها، متدلية من شاخص خشبي طويل، وشاقوش يقوم آذن (ناظر) المدرسة بضرب قطعة الحديد به بقوة من وسطها الذي لم يعلق به الصدأ. ونتيجة الضرب المتواصل، يخرج الصوت الذي يصل إلى أطراف بلدة مَصْطَبة، وهو صوت مميز يقطع هدوء القرية المطبق إلا من صياح الديكة، ونباح الكلاب المتقطع.

كان التلاميذ يترقبون دقه الجرس، فإذا كانوا داخل الصف، خرجوا وهم يركضون وفرحين، وإن كانوا خارج الصف دخلوا إليه ببطء وهم مكشرون، فالأستاذ ينتظرهم بباب الصف وهو يهز بعصا، ويلامس بها ظهر كل تلميذ يدخل الصف، تماما كما يتم صف الأغنام بالرِّبْك للحلب، وبمجرد أن يدق الجرس، يخرج الطلاب للتنفس بأصواتهم وصيحاتهم الفرحة بالخروج من سجن الصفوف، وتحكم المدرسين بهم.

كان سقف الحيط وهو يمشي من الجانب الفوقي للمدرسة ببطء يقول لشقيقته عايشة: أنا السنة الجاية بدخل المدرسة، وبكون مع الطلاب ومع إخوتي.

ردت عليه عايشة قائلة: مزبوط وبرتاح الغور منك، وبنرتاح منك، بتضبك المدرسة.

وحين سارتا في الطريق النازل من جانب المدرسة، تأمل سقف الحيط المدرسة بقببها، المبنية بطريقة العقد، وكانت أبواب الحجرات متقابلة وقِبلة لبعضها البعض، فأربعة حجرات متلاصقة تقابلها أربعة اخرى، وبينهما ساحة كبيرة، وحديقة وملعب.

كانت المدرسة تواجه البلدة القديمة في الجبل القبلي، وتقع بين أكبر حمولتين في بلدة مَصْطَبة، وكان يحيط بالمدرسة أشجار السرو الطويلة والباسقة، وسياج من الأسلاك الشائكة التي يسهل رفعها وتخطيها.

وكان سقف الحيط يسير ويلوي رأسه نحو المدرسة، ويشاهد التلاميذ وهم فرادى أو أزواج أو مجموعات، يخرج بعضهم من الباب الرئيسي، والبعض الآخر يخرج من السياج، وكان يترقب بأي لحظة أنه سيرى إخوانه وأبناء عمومته الذين يكبرونه وسبقوه للمدرسة، لكن لسوء حظه لم يشاهد أحدا منهم، وفي تلك اللحظة شاهد أحد الطلاب الكبار من الحمولة الغربية، وأثناء خروجه من تحت الشيك بجانب الطريق، كان طالب آخر من الحمولة الشرقية يرفع السلك المشبك له، وفجأة وأثناء حني ذلك التلميذ جسمه، لإدخاله من فتحة الشيك المرفوعة من الأعلى بواسطة الطالب من الحمولة الشرقية، الذي لسبب ما بنفسه أو بنفس

يعقوب، ترك شيك الأسلاك لتطبق باشواكها المعدنية على مؤخرة الطالب الذي علق داخل الشيك، ونخزته شوكة من الخلف، فانشرط بنطلونه من المؤخرة، فانكشفت مؤخرته أمام التلاميذ الآخرين، فأخذوا يضحكون ويسخرون منه ويتناقلون خبر مزع بنطلونه، فأصبح صاحب البنطلون المشروط مسخرة لهم، حتى إن سقف الحيط ضحك من هذا الحدث، وأشار بيده لشقيقته عايشة لتنظر إليه. وفي تلك اللحظة تفاقمت المشكلة، واجتمع التلاميذ حول ذلك الطالب الذي أصبح محط سخرية وضحك، فما كان من ذلك التلميذ، إلا أن قام بردة فعل بضرب التلميذ الذي تسبب بكل ذلك، فتشابكت الأيدي، وبدأ الضرب، وفزع الإخوان والأقارب وأبناء العمومة لكل واحد منهما. وأخيرا حمولة لحمولة، وتباعدت الأجساد عن بعضها البعض بسبب تدخل تلاميذ الحمايل الأخرى، واتسعت دائرة المشاجرة لتكون بالتراشق بالحجارة بين الفئتين من الحمولتين، وحاول سقف الحيط وشقيقته عائشة وزوجة شقيقه أن يتجنبوا المكان، بعد أن شاهدوا الجمع ينقسم إلى فئتين من الطلاب، وهم يزلفون من السياج المحيط بالمدرسة، وكل مجموعة تأخذ جزءا من الطريق بعضهم من فوق، وبعضهم من تحت، ويبدؤون بالمسبات والشتائم لبعضهم البعض، وبالتراشق بالحجارة، وتعلو الصيحات، وتتطاير الحجارة فوق الرؤوس، وتسقط على باب المدرسة وعلى التلاميذ الآخرين. وقد حاول آذن المدرسة أن يتدخل متأخرًا، وهو رجل في متوسط العمر يلبس البنطلون والقميص الكاكي وفوق رأسه الحطة والعقال، وتصادف خروجه من المطبخ المنفصل عن مباني المدرسة،

وكان يحمل صينية شاي، فوضعها على حافة سور إسمنتي قصير، وتدخل لإيقافهم، إلا أنه يئس منهم، وقد سقطت كوفيته عن رأسه، فبان رأسه الأصلع، وأقفل بوابة المدرسة، وعاد فحمل صينية كاسات الشاي، ودخل غرفة المدرسين حتى خرج المدير، وهو يحمل العصا بعد أن تركهم آذن المدرسة يتشاجرون ويتقاتلون، وما إن شاهدوا المدير وهو يزمجر ملوحا بالعصا ومتوعدا لهم بالفلقة، حتى تفرقوا كل صوب وجهة، ومنهم من ذهب إلى منزله، ولم يعد إلى المدرسة، وهو يتوعد الآخر بالويل والثبور.

قررت عايشة أن تغير الطريق، لتتجنب هذه المقاتلة أو المشاجرة، وحتى لا يصيبهم حجر طائش. وأثناء ذلك سألها سقف الحيط: «ما شفت إخوتي في المشاجرة»، فأجابته وهي مسرعة: «إخوتك بطلعوا في التنفس من الجهة الغربية لإنهم من الحمولة الغربية، وبروحوا يأكلوا في البيت، وبيرجعوا إلى المدرسة، لإنه البيت مش بعيد عن المدرسة»، ما إن أنهت كلامها حتى انحرفت عن الطريق الذى خلف الدكان الذي يقع على باب المدرسة، وسارت بحقل الزيتون، لتأخذ بعد ذلك الطريق العام إلى الحمولة الشمالية، حيث كان يقع المستوصف ومنازل أهل أمها.

ملهاة الفزعة

لا تزال حيطان السقف متماسكة، وغير متصدعة، رغم ما أصابه من انتكاسات، وهزات خفيفة ناتجة عن سوء استعمال سلطة الوالدين، لكن لا بأس فتأثير هذه الهزات بسيط وخارجي، ولم تمس أساسات الحيط نفسه، ويمكن معالجتها بالمستوصف الذي تم أخذه اليه من قبل شقيقته عايشة. شاهد في الطريق المشاجرة بين التلاميذ، فكانت تجربة حية له، وأعطته معلومة وعلما مسبقا عن السلوك العدواني للطلاب في مدرسة القرية. سأل سقف الحيط شقيقته لماذا امتدت المشاجرة بين الآخرين من الحمولتين، مع أنها كانت بين اثنين فقط؟ فقالت له: «إن شباب كل حارة يفزعون للتلميذ الذي من حارتهم، فتكون المشكلة بين اثنين، وتمتد إلى الحمايل!». وتدخلت زوجة شقيقه حفظي قائلة: «على شان ولد من إحدى الحارات سخر وتهكم على ولد من الحارة الثانية، لما انمزع بنطلونه، وبعدين هاي مش أول مرة، كل شهر في مشاجرات ومقاتلات في المدرسة، سواء مدرسة الطلاب أو البنات». وتحدثت عن نفسها قائلة: «أنا لما كنت في المدرسة قبل ما أتزوج، كانت البنات يمزعن شعر بعضهن البعض»، وتوقفت عن الحديث، ولم تكمل واستطردت قائلة: «ما شفت ذلك، أنت أول من شاف؟ ففزع كل شباب الحارة لمناصرة حارتهم لأن الحارة الواحدة، يكون بينهم قرابة ونسب!».

تذكر سقف الحيط مشاجرة الرعاة في الغور بين رعيان بلدة مَصْطَبة مع رعيان التعامرة، الذين جاؤوا من أطراف الخليل إلى غور مَصْطَبة، فوردوا

على ماء فصايل الذي يعتبر من أرض مَصْطَبة الرعوية، وتفاجأ أهل البلد بهم، واعتقدوا أنهم إذا تركوهم أصبح حقا مكتسبا لهم، فاستقبلوهم غير مرحبين بهم، وأمطروهم بالحجارة من رؤوس التلال حتى أبعدوهم عن منطقة فصايل، ولم تنتهِ معركة الرعاة والثأر إلا بتدخل شيوخ الطرفين، وموافقة التعامرة على التوقف عن الرعي عند حدود فصايل، وعدم الورود إلى مائها!

ما إن وصل الرهط إلى المستوصف حتى طلب منهم الموظف الانتظار، لأن التمرجي مشغول بحالة طارئة، ولدى السؤال عن الحالة الطارئة؟ قيل لهم: إنه تلميذ من المدرسة مفشوخ برأسه نتيجة المشاجرة في المدرسة، فقد أصابه حجر طائش، وأحضروه بسرعة إلى المستوصف، وهو ليس من الحمولتين المتقاتلتين، بل من حمولة أخرى، ولا أحد يعرف من الفاعل؟

خرج ذلك التلميذ، وراسه ملفوف بالشاش الأبيض مع انتفاخ على جبهته، وبرز لون اليود الأحمر من خلال الشاش الأبيض المربوط على رأسه. وفي نفس الوقت وصل والد المفشوخ متاخرا إلى المستوصف وهو يتوعد ويهدد، ويزبد ويرغي، ويبدو أنه حضر من أرضه التي كان يحرثها ويسويها لزراعة الصيفي، فكان ذلك ظاهرًا لسقف الحيط من منظره وأطراف كبره التي كانت مثنية ومطوية على شدادة، ومن لفته للكوفية على رأسه، فكانت بدون عقال، وسرواله الأسود الواسع من فوق والضيق عند الساقين. وكان تهديده بصوت عال: بس لو أعرف ابن مين إللي فشخه؟

كان الزبد يخرج من فمه وهو يتكلم، وقد قام التمرجي بتهدئته مبادرا بالقول: «احمد الله أنها جاءت سليمة، ومجرد خدش من حجر طائش»،

وقال له: «جيبوه بعد يومين لأغير له على الجرح، ولا تنسَ تشتكي عند المدير، لازم يعرف الفاعل».

بعد ذلك أدخل سقف الحيط إلى غرفة التمرجي الذي لم يكن من البلدة، بل كان من المدينة، وكان يسكن في نفس المستوصف، فبادر بالقول لعايشة: «إن الحَزايز التي في يديه بسيطة كِنّه حد رابطة بالحبل»، فأجابت شقيقته: «لا هو كان ماسك الحبل المربوط فيه البقرة! وكان لافف الحبل على يديه، وجرته البقرة، وما عرف يفك الحبل عن ايديه»، أجاب التمرجي: «هذه بسيطة»، وقام بوضع مرهم على رسغيه، ولفهما بقطعة شاش أبيض، وأردف قائلا: «بس الحرارة تخوف لازم نعطيه إبرة»، وقام بدقه إبرة، فنزلت حرارته بعد ذلك بقليل، وقام بإعطاء عايشة عبوتين زجاجيتين صغيرتين من أجل دقها له عند ارتفاع الحرارة فقط!

وقال لها: «إذا ما في حد يدقه يجب إحضاره إلى المستوصف»، خرجوا من العيادة، وخلال دقائق معدودة دخلوا إلى التسوية أو الدار التَّحْتَى، حيث منزل جدها أبوموليح وخالها ملاصقين للعيادة، وكانت خالتها موجودة، فأخذتها بالأحضان، وهي تقول لها: «من ريحة المرحومة أختي»، في حين تسللت الكِنّة إلى أمها، وأخذت خالة عايشة بالسؤال عن الولد، فقالت لها: «هذا أخوي الصغير، سقف الحيط، جاي من الغور ومريض، وجبناه للمستوصف». فرشت له عائشة في غرفة جدها وغطته بشالتها.

كانت الحجرة الخاصة بالجد أبوموليح تعتبر جزءا من منزل خالتها حيث حلت ضيفة عليهم هي وأخوها سقف الحيط الذي عاد إلى النوم بعد الإبرة، لينام بدون قيود أو سلطة أبوية تهدده ويتقلب بحرية.

صحا من نومته قبيل العصر، وقد تحسنت حالته وانخفضت الحرارة، وشعر بالجوع قليلا، فقال لشقيقته إنه جائع.

فأحضرت الأكل له المتكون من زبدية لبن مع الزيت، ونصف رغيف، وبصل أخضر قطفته للتو من جنينة خالها! فأكل ودار الدم في عروقه، وشعر باستقرار وارتياح، وأراد أن يخرج ليستكشف المكان، فأمسكته عايشة قائلة: «وين رايح؟». فأجابها أنه يريد أن يخرج إلى الطريق العام، فقالت له: لا تبعد عن باب العيادة، ولا تروح ع الشارع، يمكن الباص يمر ويدهسك.

وقف سقف الحيط على باب العيادة التي كانت قد أصبحت شبه فارغة، وكان يتمنى أن يمر الباص الذي لم يركبه ليراه عن قرب، فقد سمع عنه الكثير وعن كبر حجمه وعن هدير صوته وزاموره الذي ينذر بقدومه، فقد كان حلمه أن يركبه ليذهب به إلى المدينة، إلا أن الباص لم يمر، كان هناك بعض المارة من الرجال والنساء في الطريق العام، يمشون وراء حميرهم بالشارع المسفلت، ولم يكن هناك من صوت سوى صوت جرس يرن، ويرافقه صوت رجالي عال، يجلس بمقعد أمام الصهريج الذي تجره البغلة، وينادي، كاز، كاز... كان بائع الكاز ذا حنجرة قوية وحادة، ينادي وهو يقود البغلة السوداء، وعندما يتوقف عن النداء، يقرع الجرس الذي بيده.

كانت البغلة السوداء، ببردعتها حول عنقها، وأغطية حول عيونها، تجر صهريجا صغيرا (طنبور) بعجلتين، ويجلس الرجل في مقدمة الصهريج، على كرسي حديدي من فوقه قطعة قماش سميكة، ويمسك كرباجا بيده، والجرس يرن باليد الاخرى، ويصيح منبها الناس بأن بغلة الكاز وصلت،

ويصيح بأعلى صوته «كاز»، ويؤشر له بعض الرجال والنساء الحاملين لجراكن، وبعضهم جلن حديدي فيتوقف، فينزل ويعبئ الجركن بالكاز من حنفية في مؤخرة الصهريج لمن يشتري ويقبض الثمن. أثناء توقفه اقترب سقف الحيط من البغلة، فلاحظ أنه قد وضع لها رسنا مع قطع جلدية أمامية على أطراف عينيها لتحجب الرؤية من الجوانب، وتركز نظرها إلى الطريق أمامها، فالتركيز مطلوب للحيوان كما هو مطلوب للإنسان، حتى لا يكون هناك تشتت وانشغال بأمور أخرى. وفي هذه اللحظة شعر ببرودة في جسده فعاد إلى شقيقته عايشة، حيث كانت تشرب الشاي مع خالتها، فصبت له كاس شاي، وأعطته عجوة، وقالت له: «حلي أسنانك، وقوي بدنك»، أخذ سقف الحيط يشرب الشاي الساخن، ويأكل العجوة التي كانت حلوة ولذيذة، وتزداد لذتها مع كاسة الشاي السخنة، وهو يفكر في ما شاهده من مشاجرة ومقاتلة بين تلاميذ الحمولتين، متسائلا هل تؤدي السخرية والتهكم والضحك على الغير إلى كل هذا القتال والعنف؟

قطع عليه تفكيره سؤال خالتها له: «كيف أمك يا خالتي؟». وأضافت: «أنا بعرف إنه أمك نصرة قوية!». لم يجب سقف الحيط، لكنه قال بصمت: «نعم، إن قوتها هي التي أحضرتني إليكم، عندما ربطتني بالتخت»، وما هي إلا ثوان حتى فتح الباب، ودخل خال عايشة مليح، وجدها أبومليح، وهو رجل مسن كبير بالعمر تجاوز ثمانية عقود، بلحية طويلة وبيضاء، دخل متكئا على عصا من خشب اللوز، فأخذته شقيقته بالأحضان، وقبلت يده قائلة: كيفك يا سيدي؟

عمق الغورانية

كان جد عايشة رجلًا طاعنا بالسن يدعى أبوملیح، وقد انحنى ظهره قليلا، ويحمل بيمينه العصا التي يتوكأ عليها، وكانت لحيته البيضاء الطويلة، تكاد تصل إلى الشداد المحزوق على بطنه وظهره، وتتدلى من فوقه سلسلة فضية، ما تلبث أن تنتهي في الجيب المسمى جيب الساعة في منتصف كبره الملون والمقلم بالأبيض والأسود، وهي نفس ألوان كوفيته التي تغطي رأسه، وترقد تحت عقاله.

كان أبوملیح في شبابه قد عاصر الأتراك، وهرب منهم مختفيا بالغور مع جد سقف الحيط أبوالعبد، فتكونت بينهم صداقة عندما كانوا ينامون بكهوف الغور تارة، وتارة فى في القرى المجاورة، ومنها بلده العِلِّيَّة، مع جد سقف الحيط الآخر أبوجابر، حتى لا يأخذهم الأتراك إلى الجهادية.

كان أبوالعبد وحيدًا لأبيه عقاب شاهين، بعد أن أخذ الأتراك عقاب إلى حرب اليمن، فلم يعد بالرغم من عودة بعض ممن أخذوا معه، واعتبر بحكم المفقود، فكانت عماته السبع قد خفن أن يحدث له ما حدث مع والده، فأصررن وعقدن العزم على تهريبه، وإخفائه عن عيون الأتراك، حتى لا ينقطع نسل عائلة شاهين. ولأن واحدة من عماته متزوجة فى الحمولة الشمالية من بلده مَصْطَبة، فقد كان أبوالعبد يختبئ عندها، فتعرَّف على أبوملیح الذي كان بدوره مطاردا من الأتراك، وتم إخفاؤهم في الغور وفي القرى المجاورة.

إن الصداقة الحقيقة تعرف عند الشدائد والعيش المشترك بسبب هم

مشترك يجمع الشخصين فيصبحان صديقين، فإذا تشاركا المأوى والطعام والشراب والتنقل والتجوال في الأغوار والتخفي عن أعين الأتراك، وحفظ الأسرار، نشأت بينهما صداقة قوية.

أخذ أبومليح، وهو رجل يحب الحديث يروي لحفيدته عايشة، بينما سقف الخيط نائم، فقال لها: «كنت أنا وجدك أبوالعبد مثل الإخوة، واستمرت صداقتنا حتى المشاركة في المظاهرات ضد الإنجليز، وحضرنا معا مؤتمر ثوار الريف والقرويين في قصرة في عام 1924، وشاركنا في ثورة 1936، وذهبنا للحج معا في قافلة حجاج فلسطين، وزوجت أباك من أمك الله يرحمها، تتويجا لعلاقة الصداقة ورحلة الهروب معا.

استمرت رحلتنا معا حتى وفاة جدك برصاصة طائشة أصابته أثناء نومه على ظهر سقف الحيط بجوار حزوم السمسم، التي كانت تجفف على ظهر سقف الحيط، ولم يعرف من أطلقها، وكان ذلك فى عام 1938».

وتوقف أبومليح عن سرد قصته مع جدها أبوالعبد، وقال متسائلا: «إنت حكيتِ شو اسمه أخوك إللي نايم جوه؟».

أجابت عائشة: بنادوه سقف الحيط يا سيدي.

في هذه اللحظة، استيقظ سقف الحيط، ودخل على أبومليح وعايشة التي بادرته بالقول: «أنت صحيت؟ تعال سلم هذا سيدي»، فسلم وقبل رأس أبومليح الذي قال له: «إنت سموك سقف الحيط لإنه جدك قُتل وهو نايم على ظهر سقف الحيط».

أتت هذه معلومة جديدة لسقف الحيط، فأخذ يصغي لأبومليح، فقد أحس لا شعوريا بأنه قريب منه، فأكمل أبومليح حديثه لحفيدته عايشة

ولسقف الحيط: «ممكن سموك سقف الحيط لأنه جدك انقتل وهو نايم على سقف الحيط، الله يرحمه عشت أنا وإياه مثل الإخوة».

وأضاف أبومليح: «بس القاتل ما بيّن وراح دمه هدر، انغدر غدر، أولاده وأبوك وحتى أنا شاركتهم بالبحث، فقعدنا مدة طويلة نبحث، ونتقصى عن القاتل، وآخر ما آخر، كنت موافق على رأي الشيخ في البلد، بعد ما صارت طوشات وفتنة، وترصد لبعض المشكوك فيهم، وما كان في دليل ضد أحد، والإنجليز سكروا القضية ضد مجهول، فقلنا لأبوك وإخوانه، لا تسرفوا بالبحث والشك فتقتلوا بريئا، وبتصير فتنة وثارات في البلد».

واستطرد أبومليح: «لقد حاول أولاده الثمانية معرفة من قتله، حتى من كان على عداوة ليس معه بل مع أحد قطاريز أبوالعبد الذي اعتدت اغنامه على زرع إحدى العائلات، فوقعت عدواة ومشاجرات بينهم، وقد اعتقدوا أن أحدا من تلك العائلة هو من أطلق الرصاص على جدك، ولم يكن هناك أي دليل، فتوقف أبوك وإخوانه عن الملاحقة، وتركوا ذلك لله، فكان أولاده كأولياء دم أبوالعبد، منصورين من ناحية الذرية والبركة وعمل الخير والمعروف بين أهل بلدة مَصْطَبة، وأصبح يضرب بهم المثل».

كان سقف الحيط وهو ينصت لأبومليح يشعر بعمق الغورانية داخل أبومليح، فهذا الرجل العجوز يملك ذاكرة عميقة تشبه ذاكرته الغوارنية، فأحبه وأحب حديثه وقصصه، خصوصًا أن أبومليح شهد أواخر عهد تركيا، وانتداب الإنجليز والثورات، وهجرة اليهود إلى فلسطين، وأخيرا

شهد النكبة وقيام الكيان الصهيوني في فلسطين، وعندما تقدم به العمر استقر في بلده مَصْطَبة، وأخذ يفلح الأرض، ويزرع اللوز والزيتون في جبل الناطوفة المطل على الغور.

كان سقف الحيط يسأل نفسه: إذا كان أبوموليح جد شقيقته عايشة فلماذا لا يكون جده؟ مع أنه لأول مرة يراه، فلقد أحس سقف الحيط نحوه بارتياح، لاسيما أن الطاعنين في السن يعودون أطفالا، فتلك دورة الحياة!

كان الشعور متبادلا بين أبوموليح وسقف الحيط، فلقد مسح أبوموليح على رأسه، مخاطبا ومازحا حفيدته: قلت لي إنه اسم أخوك هاظا البطل الصغير سقف الحيط!

أجابته عائشة: «ما قلت لك يا سيدي إنه يدعى سقف الحيط»، وأضافت: «ولسه جاي من الغور، وأحضرته إلى المستوصف، وكانت فرصة لي ولابنة خالي إنا نزوركم ونطمن عليكم». فأجاب جدها أبوموليح: «دائما لما بطلعوا أهل الغور من الغور بمرضوا، ولكن طالما هم في الغور، فالمرض ما بشوفهم!». وأردف قائلا على مسمع سقف الحيط: «يشبه صديقي المرحوم جده»!

ما إن سمع سقف الحيط الكلام عن الغور وأهله وعن جده الحقيقي ومعرفته به، حتى أحس أن أبوموليح كان من أهل الغور، وأراد أن يقول له: يا جدي أنت بتعرف الغور؟ فتراجع عن ذلك وترك أبوموليح مقعده على كرسي القش، وجلس مستلقيا على جنبه على فرشة في وسطها مخدتين، وسحب معه يد سقف الحيط، فأجلسه في النصف الثاني من الفرشة،

وتمدد هو في النصف الاخر، والمخدات تفصل بينهما، فأحس سقف الحيط، أن الجد يعامله كرجل، وليس كطفل، وحتى عندما قدَّمت خالة شقيقته الشاي، وضعت له كأس شاي فهو محسوب عليهم ضيفا، فشربوا الشاي، وأثناء شرب الشاي قال الجد أبومليح لحفيدته: «ما تروحي، اقعدي عندنا، بروح أنا وخالك والأولاد نشقر على جبل اللوز في الناطوفة، وبخليه يلقط لكم شوية لوز أخضر، حتى تذوقوا خير السنة من أرض شفا الغور».

أجابت وهي تضع كأس الشاي أمامها: «لا يا سيدي، ما تغلب حالك»، رد عليها: «أيش هالكلام، والدك ما نسانا من خير الغور، وأرسل لنا نصف قصية جبنة، واحنا ما في شيء عندنا إلا اللوز الأخضر، والآن هو أول تقطيس، وعز أكله، وهو طيب وطعمه حامض قليلا، بس ممكن تغمسوه بالملح»، وقال مداعبا حفيدته: «ما في عندكم ملح؟!».

نهض الجد أبومليح طالبا من ابنه وضع الحلس على الحمارة، لغايات ركوبها والنزول على الناطوفة. كانت تقع شرقي البلد، وتطل على الغور الذي ينتهي في قاعها، ومن على قمتها المرتفعة تنحدر أرضها بشكل حاد إلى جهة الغور الشرقية.

كانت الناطوفة تعلوها صخرة عالية، من يقف عليها يشعر بأنه يمتلك الغور بنظره.

فرح سقف الحيط لهذا النبأ، فذاك شيء يقرّبه من الغور، ويتيح له الفرصة ليراه عن بعد، ونهض بنهوض الجد ليذهب معهم، فتدخلت شقيقته عايشة قائلة: «وين رايح أنت مريض»، أصر سقف الخيط على

الذهاب، وهو متأكد أنه لن يحصل له ما حصل عندما أصر على الذهاب مع والده إلى المدينة، فاختلاف وخصوصية الحالة والموقف سيشفع له ويقوي مركزه، فهناك مسائل مشتركة مع الجد أبومليح الذي كان صديق جده، والسلطات تختلف، فسلطة الشقيقة عايشة، ليست كسلطة والده أبونسر أو والدته نصرة!

نهض أبومليح، وقد سمع إصرار سقف الحيط على الذهاب فقال لحفيدته: اتركيه، بركبه خلفي على الحمارة، وبدير بالي عليه، وبخليه معاي، وقبل صلاة المغرب بنكون في البيت.

شفا الغورانية

ركب سقف الحيط خلف أبومليح على الحمارة، وكان ولده مليح يقودها، ولم يشأ أن يأتي الطريق العادي المؤدي إلى الناطوفة، لكنه جاء من طريق مختصرة. وكما يقولون في القرية «مقاطعة»، ونزل مع الوادي الذي يتكون ماؤه في الشتاء من سهل مَصْطَبة والبلاعة، فالأمطار التي تنزل من السماء في تلك المنطقة تتوزع من البلاعة بحكم الجغرافيا والطبيعة، وتنقسم إلى قسمين: قسم يتجمع ليشكل مجرى ينزل مع الوادي إلى الناطوفة، ومن ثم تجري بجريانها الوديان الصغيرة المغذية إلى واد الفجيم الذي يأخذ طريقه إلى الشْريعَة فتتغذى الوديان في الشتاء من الجبال المطلة على الغور، وتصب أخيرا في البحر الميت. وقسم آخر من البلاعة، يتجمع فيه الماء ليشكل شريانا للوديان التي تأخذه باتجاه الغرب، وإلى وادي الحاج عيسى وبلدة القِبْلة، وأخيرا تتجمع في واد رئيسي وتصب في البحر المتوسط. وهكذا هي بلدة سقف الحيط، بلدة دائما عطشى، لا تمسك الماء أبدا، وعيونها دائما جافة منذ قديم الزمان، فجبالها تغذي غيرها من الماء، وسكانها يردون إلى العيون المجاورة: عين فانون شمالا، والجهيرة والدواء شرقا، وغربا إلى بئر البعاد وعين المليانين، وجنوبا إلى عين أم الذهب وعين العِلِّيَّة.

إن عشوائية اختيار الأجداد للمكان، والنظم الربانية المودعة في تلك البقعة وما حولها، وما يربطها من علاقات أمامية أو خلفية أو تحتية أو فوقية أو عن اليمين أو الشمال، وبكل ما تحمل تلك البقعة من نظم

متشابكة بين كل المخلوقات، فإن سكان بلدة مَصْطَبة، قد تكيفوا مع التضاريس فتشكلت البلدة واخذت اسمها من على شاكلة تضاريس ذاك المكان، فتتجلى عبقرية المكان التي تصبح متحكمة بمصير الآباء والأحفاد الذين يعيشون فيه، فإذا كان الهواء ياتي قبل الماء والغذاء كمقومات الحياة، فإن الهواء قادر على الانتشار بسرعة أكثر من الماء، وقادر على حمل الماء، فإذا زاد الحمل وثقل سقط الماء كما يشاء الرب عز وجل، فيصيب به من يشاء. ومن نعم الله أن الجميع يتساوون بمصدر الهواء (الأوكسجين) الذي لا يمكن للإنسان أن يعيش بدونه أكثر من خمسة دقائق، بينما الماء، لا يمكن العيش بدونه أكثر من ثلاثة أيام، فالماء أهم من الغذاء الذى يمكن أن يعيش بدونه الإنسان أسبوعين أو ثلاثة، فالمهم هو الماء كمورد يوفره المكان، وبعد ذلك يأتي منه كل شيء حي، فدائما الحضارات والمدن والقرى، تقوم بجانب الماء سواء كانت أنهارا أو سيولا، تنتهي بسدود أو دلتا أو طمي أو عيون، فيكون الهواء والماء وما تنبته الأرض هي الحد الأدنى من مقومات الحياة، ولم يشذ عن هذه القاعدة، إلا بلدة مَصْطَبة، بلدة سقف الحيط التي تطل على الغور.

لقد آثر سكانها الأوائل باختيارهم العشوائي أن يسكنوها منذ القدم، أو منذ العصر النطوفي أو في العصور اللاحقة، وأن يتوارث أبناؤهم تلك المساكن حتى الوقت الحاضر، فعاشوا متمردين على الطبيعة، وفرارين منها إلى ما يجاورها وهو الغور، وما إن يبتعدوا عنها حتى يثوبوا إليها كاسرين الحد الأدنى الذي توفره الطبيعة لضمان العيش، فيكونوا إلى حد ما يشبهون تضاريس وأيكولوجية بلدة مَصْطَبة ذات الطبيعة الوعرة التي لا تمسك الماء

ودائما عطشى، فهي تعاند الطبيعة، وكذلك سكانها يعاندون طبيعة وسجية البشر، فأهل مَصْطَبة عنيدون، أقوياء وذوو عصبية وعجولون، وقلوبهم قاسية ولا يرضخون لأحد، ويعتقدون أنهم مختلفون عن غيرهم، وأفضل ممن بجوارهم، قد يكون الشعور بهذا التفضيل والاختلاف ناتجا عن اختلاف طبيعة بلدهم عن غيرها مما يحيط بها، فكان أهلها متميزين وقادرين أن يعيشوا تحت الأرض في الغور، فهم أقدر على التكيف مع أي بيئة، حتى مع الصحراء القاحلة، وقد تشكل ذلك تدريجيا في أدمغتهم، فإذا سأل سائل عنهم قالوا له: إن اهل مَصْطَبة رؤوسهم قاسية كالصخر.

كانت تلك القسوة وليدة عبقرية المكان الذي يعيشون به، والذي يخالف الطبيعة والتضاريس والجغرافيا، فلا تجد تجمعا سكانيا يجمع بلدا تفتقد إلى مورد الماء من معين أو نبع. وتسكن مساكنها على مر العصور والأطوار أقوام كثيرة، فكان في البدء الكنعانيون، ومن ثم الرومان الذين كما يقال أقاموا البركة الكبيرة لجمع ماء المطر بها، وحفروا الآبار العميقة لجمع مياه الأمطار، ونقلوا الماء بقنوات إلى الجبال حتى إنهم نقلوه إلى جبل قرن صِرْطِبّة، فقد حرصوا على ألا تذهب المياه من وسط البلد من البلاعة شرقا إلى البحر الميت، وغربا إلى البحر المتوسط، وآثروا رغما عن الطبيعة أن يمسكوا بالماء ويغيروا مجراه الطبيعي، فاذا كانت عبقرية وطبيعة المكان قد غيرتهم، فلماذا لا يغيرون الطبيعة نفسها ليكون الماء مخزنا بالبركة أو الآبار؟ فتستمر الحياة بها ولا يهجرونها بحثا عن منطقة أخرى يتوفر بها الماء، وحتى عندما تجف البركة وتنفد مياه جمع الآبار، يبدؤون بالورود إلى العيون المحيطة بالبلدة كلٌّ من جهته.

سما الغورانية

وصل أبومليح وسقف الحيط ومن معهم إلى الناطوفة التي تنطف شتاء وربيعا بقطرات الماء من بين صخورها، وتدمع ربيعا بقطرات دمع الماء من مجاري شقوقها الصغيرة، وإذا ما حل الصيف فلا دموع ولا نطوف. ومع انعدام ذلك، إلا أنها ترطب المكان في الصيف بالرغم من جفاف الصفوان والعروق والعراك بشيء من العرق، لقد أخذت اسمها من التنطيف لقطرات الماء، فكانت الناطوفة تماما كما أخذ «عراق أبوالبقر» اسمه من التعريق من بين الصخور، تلك أسماء أطلقها وسماها الآباء من مطابقتها لطبيعة الموقع والمكان، فكان ذلك من التوافق والانسجام الهرموني بين اسم المكان وصفته وطبيعته، فالاسم يصف الشيء بصفاته وميزاته، ولربما قال قائل إن اسم الناطوفة هو لكونها من بقايا العصر الناطوفي، فاذا تركنا اسم المكان جانبا، فحتى اسم سقف الحيط في البدء كان سقف المغارة، وعُدل بناءً على اقتراح إحدى النساء في المغارة بعد أن آووا إليها بعد أن هدمت العاصفة بيوتهم، وتركوه وراءهم اعتقادًا منهم بأن الرضيع مات.

إن كثيرا من المغر في الأغوار لا سقف لها، وأحيانا لا حيط، ولا للمخيمات أو لأهل الغور، وأهل فلسطين، فحيطان البيت لا تحمي أهلها من الأخطار، ما لم يكن لها سقف، فمن يسكن بين الحيطان وبدون سقف، كأنه ساكن بالعراء أو بالصحراء، ومعرض للنوازل، والبرد والمطر، والريح والحر الشديد.

نزل أبومليح وسقف الحيط عن الحمارة، وتم ربطها بإحدى أشجار اللوز التي نبت تحتها الحشيش، وقد تم تطويل ربطة الحبل لها، لكي تأكل في دائرة قطرها لا يقل عن خمسة أمتار.

لقد فرح سقف الحيط عندما تأمل المكان الذي وصلوا إليه عصرا، لقد كان الطقس ربيعيا وصافيا، وتهب الرياح الغربية عليه مصطدمة بعلو المكان، لكن بصدمات وبنسمات هادئة، مع أنها باردة نسبيا، فذلك ما يسمّى بنسيم الربيع الذي تزداد برودته كلما أقبل الليل، وقد بدا لسقف الحيط هذا النسيم أنه يمازح ويداعب الزرع وسنابل القمح التي لم تفتح بعد في أوائل نيسان، من أجل إجبارها على التفتح ومقابلة الشمس. كانت الشمس تميل إلى الغروب، ترسل أشعتها الذهبية الصفراء، فتسقط على الغور وجباله ووديانه، وعلى القمم والقيعان التي بدأت تتزين في أوائل نيسان، فازدانت أطراف الجبال بالربيع النابت، واكتست الهضاب والسهول بخضرة الحنطة والشعير.

كان جو السماء صافيا، ولا يوجد فيها غيوم ولا ضباب، وبرغم بعد القرن وتلال الغور عن الناطوفة، إلا أن الواقف بالناطوفة، كأنه واقف فوق الأرض المرتفعة، ومن أسفلهما الغور.

إن البعد الفضائي الذي يتشبك بشبكية عين الناظر فيدخل إلى بصره وبصيرته ويصبح مخلدا بفؤاده، وخصوصا للجالس فوق صخرة الناطوفة، فسقف الحيط الذي عاش في الغور، لا يكاد يخلص نفسه من سحر جمال الغور عن بعد، فقد تربع هدا الجمال في فؤاده، فيخيل إليه كناظر، بأنه يملك بنظره مسافة لبعد واسع وعميق وبعمق عشرات الأميال.

إن هذا البعد الفضائي، لا يتأتى إلا للشخص، يكون واقفا بأعلى قمة في الناطوفة.

كانت الناطوفة عبارة عن جبلين سياميين ففُتقا عن بعضهما البعض نتيجة الاهتزاز الذي رافق الانهدام الكبير في خط طولي، يمتد آلاف الأميال، فحفر تلك الأرض، فتشكل الأخدود الأحفوري بعد الانهدام، فولد الغور كأخفض مكان في الكرة الأرضية، ورافق ذلك المولود، انفصال الجبلين السياميين، فتشكلت الناطوفة على شكل رأسين وكتف، ومن بينهما واد عميق وحاد وصخرة تقف شامخة في القمة.

إن شدة الانحدار لكل جبل منهما تجعل من الشخص المتسلق أو السائر على طرف أحدهما، خائفا من السقوط إلى مكان سحيق، فهو أشبه ما يكون بالجرف الذي يتصل بكتفي رأسي الجبلين المنفصلين، لتبرز من صدورهما الصخور الناطفة لقطرات الماء، لتستقر في دلتا الجرف. وهذه العملية تحدث في الشتاء، وفي الربيع تدمع من أعينها المشققة في الصخور، فتسقط العبرات على تلك الخدود، ومن ثم على الحلمات البارزة من الصخر. وفي الصيف تتصبب الصخور عرقا نتيجة الحر، فيخرج من مساماتها الصخرية ما يشبه عرق جلد الإنسان، وقد صدق من قال: إن الإنسان ابن الطبيعة، وإنه مخلوق من طين لازب.

يعلو الجبل الشمالي صخورا متفرقة، ومجموعة من الصفوات المغمورة بالتراب، في حين أن الجبل الجنوبي مسلسل، ومُكتَّف ومُقطَّن بقطاين صنعتها يدا أبومليح عندما كان شابا وكهلا، وأصبح عجوزًا الآن يرافق سقف الحيط وابنه، فيأتي ويلقي نظرة عليها وعلى الغور، وينقل

خبرته، وقصصه، وأسراره لجيل جديد، فقد وجد ضآلته في سقف الحيط.

لقد زرع أبومليح الجبلين والواد باللوز والزيتون وشيء من السدر والتين، وفي الكتف الذي تشكل حتى أصبح وهادا تم ربط الحمارة من قبل الابن، وهذا الوهاد يصل كجسر ما بين الجبلين الجنوبي والشمالي.

لقد ذهب مليح، وكان كهلا متزوجا، وتعدى عمره العقد الخامس، وقد اكتسب من والده أبومليح حب الكلام وسرد القصص، لكنه زاد على ذلك حبه للتضخيم والتهويل والمبالغة بأي حدث وخبر أو نبأ. انشغل مليح بتلقيط اللوز الأخضر من الجبل الجنوبي، في حين تسلق سقف الحيط كعادته إلى أعلى قمة في الجبل الشمالي، فقد قادته بصيرته إلى الصخرة، ولحق به العجوز أبومليح، وهو يتوكأ على عصاه اللوزية، ويسير ببطء متتبعا مسالك وممرات متدرجة ولولبية، فهو يعرفها جيدا في حين صعد سقف الحيط بمسلك عامودي، معتمدا على خبرته في الغور، وصغر وخفة جسمه، حتى وصل القمة وتسلق أعلى صخرة التي تسمى صخرة المغرفة، وجلس عليها، وقد جعل وجهه باتجاه الغور شرقا، وظهره غربا باتجاه الشمس التي مالت إليه نحو الغروب، وأرسلت أشعتها وخيوطها الذهبية لتودع الغور وتحتضنه حضن الوداع اليومي، تماما كما يودع نظر سقف الحيط الغور، فقد خيل لسقف الحيط أنه يرى الغور لأول مرة، بهذه النظرة المركزة، فيبدو له من منظار واسع، وكم كانت جميلة تلك التلال والوديان والقمم والقيعان والسهول!

وما يزيد جمالها جمالا تلك الجبال البعيدة التي تظهر خلفها كسلسلة جبال أعلى منها، حيث يتوقف النظر من الشرق فلا يرى شيئا من بعدها

إلا أول شروق الشمس منها في فجر كل يوم جديد.

قد تكون عشوائية الحركة في الحياة اليومية، وما تخلل أيام سقف الحيط الماضية من أحداث وما رافقها من قيود، ومن نكسات ونكبات قد قادته إلى البئر، والتوتة والمحفظة، والقيد، والربط بالتخت، ومن ثم الحضور إلى المستوصف، ومقابلة أبومليح صديق جده أبوالعبد، وأخيرا الناطوفة، فصخرة المغرفة. يسير الإنسان والحيوان في الأرض، وفق ما تراه وتشاهده عيونه، وما يقلمه بحواسه، الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يصنع قدره بعقله وبيديه، وفي أوقات معينة، تسيره أقداره وحظوظه، ليلتقي بأشخاص لم يلتق بهم من قبل، وتأخذه العشوائية في متاهات وأماكن يجهلها ولا علم لديه بها، فينتج عن ذلك أفعال وأحداث لم يخطط لها، أو لم يتوقعها، فتكون المخاطر بها عالية، تعرض سلامته الجسدية للأذى، أو حياته للخطر، ومع ذلك يقدم على ذلك، ولا يعترض، بل يكمل السير، ليكون هناك تفاعل بين الاختيار العشوائي والغير، وهو تفاعل مرئي وأحيانا مخفي، فيصطدم مع تلك العشوائية الفيزيائية التي شكلت جبالا ووديانا في أي مكان كان أو في الغور.

إن الغور مكان منخفض، وإذا غارت الماء به أصبحت مستحلية الطلب، فهي غائرة تحت الأرض لمستويات يصعب الوصول إليها، إلا ما سلك منها بقوانين الرحمن من بطون الجبال من ينابيع، وهي تماثل المقولة التي تقال لشخص لا ترغب في رؤيته: «غور عن وجهي»، تلك هي النزعة الغورانية، وكذلك هي التلال الغورانية، تبدو لسقف الحيط الجالس فوق صخرة الناطوفة كمجموعة من المتناقضات والخيال

الصبياني، فتخيل الصخرة كرسيا أو عرشا حجريا، وإن كان يرى بعينه يقينا المغرفة المنقوشة على الصخرة، فتلك حقيقة، وليست تخيلا ووهما في ذهنه كالعرش الحجري.

نظر سقف الحيط متأملًا نقش المغرفة، ولم يخطر بباله أن نقش المغرفة، قد يكون صولجان الملك، أو بداية المعرفة.

كانت قدما سقف الحيط الصغيرتان متدليتين على طرف الصخرة من ناحية الشرق، وظهره مسنودا إلى حافة الصخرة من الغرب، والشمس تدغدغ أشعتها شعر رأسه الأشقر، وتمر من جوانب رأسه لتودع تلال الغور على بعد عشرين كيلومترا من جهة القرن. كان نظر سقف الحيط سارحا وقد بدأ مشوار النظر من نقطة سادَّة المُبَشِّر، في حين أنه كان يرى على بعد مترين فقط ظلًّا لرأس وجسد ممدود وملقى أمامه، فيرفع بصره فيخيل اليه أن جسدا قد تم إلقاؤه أمامه، فيثوب بعد ذلك ليعرف أنه مجرد ظل جسد ممدود أمامه.

لقد اختلطت كل تلك الخيالات الغورانية في ذهن سقف الحيط، في ما بدا من سلسلة التلال التي ترعى بها الأغنام والأبقار، التي تشبه إلى حد كبير جسد والده أبونسر القوي، الذي ما إن يبدأ بعمل حتى ينهيه قبل الجميع. حتى في الأكل، فعندما يأكل لوحده أو مع الجماعة، يأكل بسرعة، ويكون أول المنتهين من الطعام. وهكذا هي حياة أكثر من في الغور، فهم قوم مستعجلون دائما، يسوقون أغنامهم بسرعة وحتى أبقارهم دائما مُقَيْكبّة، باحثة عن المغر والكهوف، وأحصنتهم دائما شاردة لا يتوقفون إلا عند عيون الماء والموارد، حتى ليلهم قصير فهم

ينامون ويهجعون قليلا، وأعينهم دائما مفتوحة ويقظة، وآذانهم تحسف خطوات الذئب عن بعد، وإذا ما جاء الصيف وبدأت الحصيدة والتحميل والدرس والتذرية والصليبة، لا يبقى لهم منها إلا قليل، بعد أن يسترد الدائنون دينهم من الصليبة، فيأكلون ما تبقى على عجل وأثناء العمل، فيأكل الواحد وهو يحرث أو يحصد فلا يشبع أبدا.

لا وقت عند الغوارنيين للجلوس أو الراحة، فهذا الجسد لا يتعب ولا يتوقف إلا بالموت، لهذا تخيل سقف الحيط هذا الجسد الطويل والعملاق النائم والمتشكل من التلال والكَتَايِر والدِّبَب والسَّادات في الغور، فتبدو تضاريس الغور من بعد من صخرة الناطوفة، في خيال سقف الحيط كأنها جسد والده.

الحبل السري

كان جسد الغور الملقى أمام سقف الحيط يشبه جسد والده أبونسر، يتلوى كالحية، ويتحزم بحزام طويل بعرض مترين من العشب الأخضر الداكن المتميز عما في جنبيه.

كان يرى سقف الحيط وأبومليح الغور بالعين المجردة من الناطوفة التي تبعد نصف يوم مشيا على الأقدام.

كان نظرهما ماسحا الغور بنظرة كلية فوقية من أعلى صخرة الناطوفة، في حين كان متركزا وملاحقا الحزام الاخضر الذي يلف تلال الغور من خاصرتها، وهما بتلك مشتركان، وكل لديه وجهة نظر، وهو ليس أكثر من مسرب أو طريق متعرج بتعرج التضاريس التي يقطعها، قد تكون حفرتها أقدام وحوافر الأغنام أو أيدي عبيد وأسرى الرومان.

يظهر الحزام الأخضر للمشاهد عن بعد كمقطع سينمائي يتنقل بمشاهده بين المشاهد المختلفة والمتقطعة، متتبعا ذلك الحزام، ومنطلقا من مركز رؤية سقف الحيط عن بعد، وبالتحديد من الناطوفة، ومتنقلا بين التلال ومتخفيا في الوديان، وظاهرًا بوجهه على حواف التلال، حتى يصل لآخر نقطة يستطيع الناظر قنصها بنظره لتلال الغور الشمالية، فقد كان الحزام الأخضر الحبل السري للغور، يمده بالماء، وبدونه لا حياة لأجنة وفتيان الغور.

إن هذا الحزام العشبي ذا اللون الاخضر الداكن، يأتي من خلف التلة، ويسير قريبا من القمم، وبعيدا عن القيعان. إنه يتوسط التلال والجبال

قاطعا سادَّة المُبَشِّر، وسائرا بحركة لولبية إلى الجنوب لمسافة سير لمدة نصف يوم، منتهيا إلى الجسر والملعب بالجانب الغربي من قرن صِرْطِبّة، حيث يتوقف الحزام أو الحبل السري أو الصرة للمولود!

كان سقف الحيط يتساءل ويسأل غيره، لماذا تشكل الحزام ذو اللون الخضري الداكن للعشب الذي ينبت عليه عما سواه؟

هل هو طريق قديم أم نفق، ولماذا ينبت العشب بكثافة في هذا الطريق أو الحزام متميزا عن غيره؟

كان المشهد قد أثّر في مخيلة وذاكرة سقف الحيط، فحاول أن يربط بين هذا الخط وما سبق أن سمعه من والده عندما توقفا عند الجسر أثناء مرورهما بالقرن، وقد نزل سقف الحيط وعاين القناة أو النفق داخل الجسر!

قطع على سقف الحيط تفكير رؤيته لظل جسد وعصا تمران من أمامه وهو ينظر متأملًا الغور، سكن الظل وانقبض وتقلص بامتداد أشعة الشمس من خلفه، فكانت تميل الشمس إلى الغرب، فيكون الظل أمامه، فرأى أمامه ظلا اخر يختلف عن ظله، ويقف بجانبه.

لقد وصل أبوملیح، وهو يلهث، ولا يكاد يلتقط أنفاسه، والعصا تتأرجح بتأرجح جسده الناحل بين يديه اللتين كانتا تمسكان بها بكل ما أوتي من قوة، فأصبحت العصا رجلا ثالثة له!

كان سقف الحيط يسمع أنفاسه المتسارعة، ويرى حركة ظله المترنحة، وكان العجوز أبوملیح ما صدق أن وصل، وألقى بمقعدته بسرعة على صفاة صغيرة، ملساء في الجانب السفلي من الصخرة التي

كان يجلس عليها سقف الحيط، وهو لا يستطيع أن يأخذ نَفَسه، وبكلام متقطع، ولا يكاد يخرج من حنجرته قال له: «الجو صاف والشمس خلفنا ترمي بنظرنا على جسد الغور، وتظهر يا ابني الحزام الأخضر، ولكن باطنها هو القناة، كما قلت أنت، وأنا سمعتك تحدث نفسك بصوت مرتفع!». واستطرد أبوموليح: «شوف ما أطولها!»، ورفع عصاه، وثبتها بشكل مستقيم باتجاه الشرق، وأردف مؤكدا كلامه: «لا تستطيع أن ترى القناة إلا في هذا الزمان، وما قبل الغروب، وفي أواخر فصل الربيع، ومن هذا المكان من الناطوفة. وأضاف:

ليس ظاهرا الحزام كطريق ولا باطنه كقناة إلا في فصل الربيع عندما ينمو العشب بالغور، ويكون الخط متساويا بشكله ولونه وحجمه، إلا ما تناقص منه بسبب الرعي وما تأكله وتدوسه الأنعام».

واستطرد أبومليح لسقف الحيط: «لا شك يا ابني أن الربيع الذي ينمو على طول هذا الحزام الذي تنام تحته القناة، متميز عن غيره بأنه طويل، وكثيف وداكن اللون، فتستطيع أن تشاهده عن بعد، حتى من هذا المكان، فهي واضحة للعيان، وكأنها حية تتلوى، بطول مسافة سير نصف يوم». وأردف العجوز أبومليح متحسرا: «أنا من عشر سنين ما نزلت على الغور! وكل ما بدي أشوف الغور، بقول لابني يحضرني إلى الناطوفة إلى هذا المكان، فأمتع نظري به، وأستعيد ذكرياتي وشبابي، فلقد عشت عمرا من قبلك فيه».

قاطعه فى هذا الأثناء سقف الحيط قائلا: «بس أنا يا جدي من ثلاث أيام جيت من الغور». وأضاف: «أنا انخلقت فيه، وصحيت على نفسي،

ووعيت على الحياة فيه، وأول ما أتذكر أتذكر الغور، بس أول مرة بشوفه من بعيد»!

سأله أبومليح: ليش بتحب الغور.

أجاب: «أنا بحب الغور، لإنه ما في حد يقول لي لا تروح ولا تمشي ولا تيجي، وأستطيع أن أصعد على تلاله وأهبط في وديانه مع سرحان في أي وقت». واستطرد ذاكرا: «وكنت بدي أطلع على القرن، بس والدي ما خلاني وقال لي: إنني ما زلت صغيرا، وإن الوقت غير مناسب، وحالتنا أيضا غير مهيأة للصعود عليه». رد الجد أبومليح عليه مذكرا له بأنه صغير: «يمكن عشان أنت ازغير»، واستطرد: «يعني أنت في الغور حر، وين ما بدك بتروح. إنها كلمة الحرية التي سبقت من الله للإنسان، ورفعته من البهائمية إلى الإنسانية، وجعلت الملائكة تسجد له، فتلك ميزة لم تتمتع بها، فأظهرت استغرابها من هذه المنحة الربانية لبني آدم، فتذكرت ما فعله البشر قبل ذلك، وهم أقرب إلى البهائمية منهم إلى البشر، فقد عاثوا في الأرض فسادا وخربوها، ولم يتناهوا عن منكر أو خبيث أو شر إلا فعلوه، حتى إنهم سفكوا دماء بعضهم البعض، ودماء الحيوان، وقضوا على النبات، حتى إنه لم يعد هناك أوكسجين ليتنفسوا، فأُهلكوا بما كسبوا، وها هو الإنسان يعود مسلحا بحرية الاختيار، وبكلمة الله التي سبقت، وبدماغ لا يزن أكثر من كيلو ونصف، وبسمع وبصر يغذيانه بالمشخصات والصور، فيحدث تطابق بينها وبين وظيفتها فيطلق عليها الأسماء التي تدل على منفعتها له، فيتذكرها بذاكرته التي تمتص الأحداث الجديدة، فيعقد دماغه المقارنات، ويربط بعضها ببعض، فينسى فيمارس حريته في

معصية من وهبها له، فيتذكر ويعلمه الرب اللغة ليتوب، ويعبر عن توبته بكلمات فيغفر له ويهديه إلى الصراط المستقيم، فيحاول إبليس الذي رفض السجود لآدم عندما سجدت الملائكة أن يحرفه عن الصراط المستقيم ليدخل معه في اللعنة والرجم من الرحمة».

لم يكن سقف الحيط، يعي الحرية بهذا المفهوم الذي تميز الانسان عن غيره، فحريته الغورانية تشكلت تلقائيا، وفطريا، وعاشها وهو يشعر بها، ولا يعرفها أو يدرك معناها.

ليتمتع بنظر أفقي في الغور، فهو لأول مرة يرى فيها الغور عن بعد، وليمتع عيونه بهذا البعد الجمالي، والإحساس بالغور، وكأنه كائن حي بتمدد أمامه كجسد والده أبونسر، فالغور بالنسبة له، يسمع ويرى ويشم ويتذوق، ويتلوى أمامه كافعى!

لا شك أن الأشياء ومحاسنها تتبدى للناظر بحسب المكان الذي يشاهدها منه، فذلك إحساس تولد لدى سقف الحيط، عندما تفتحت ذاكرته في الغور، فهو كمكان عاش فيه كان يذوق طعم الانطلاق والانعتاق والحرية، فالمكان الذي تعيش به قد تحس وتحيا به، ولا تشاهد جماله لأنه أصبح فيك، وقطعة من جسدك، وهو ما يتعذر معه رؤية ذلك عن بعد، فهيهات أن ترى نفسك، قد ترى كل شيء إلا نفسك!

ولكن الشيء عندما تراقبه وتشاهده عن بعد يبدو لك جماله، لأنك انفصلت عنه، وانفصل جسدك عن جسده، فيصبح بمقدورك أن تراه، وهو لا يراك، وهو مجرد فيك ومنك، فتشعر بحنين وشوق إليه، فطفولته في الغور كانت كما الجنين في بطن أمه، وذاكرته بالغور هي ذاكرة جنين

يلعب ويلهو، ويحرك يديه في بطن أمه، ويسقط ببحر السائل الذي يحيط به، وقد يمسك حبله السري الذي يغذيه أو يتحسس بيديه كل أعضاء جسمه، بما فيه عضوه التناسلي، وحتى فتحات جسمه، وأنفه وقد يمص إصبعه. وكل ذلك يتم نسخه في عرقوبه أو عصعوصه، أو ما يطلق عليه علم الأجنة اليوم (قرن آمون) فذلك القرن يسجل كل حركاته، ويحفظها لتكون ذاكرة جنينية لسقف الحيط قد لا يتذكرها وعيه، ولكن اللاوعي عنده في المنام، سيعيد إخراجها بحلم يسقط فيه سقف الحيط في البحر أو يسقط عن جبل أو يطير بالهواء أو يلحق ظله وصورته التي يراها في ماء البئر فيصحو من الكابوس ويحمد الله أنه حلم من ذاكرته الجنينية، وهو بطن أمه التي تحس به بحركته، وإن كانت أمه قد أخفت عنه وهي تحمله في الشهر الرابع، عندما أصيب هذا الجنين بضربه من قدم والده، كانت بلحظة غضب قد توجهت إلى خاصرتها، فتحمَّل سقف الحيط الجنين تلك الضربة، وقاوم الخروج مجهضا من بطن أمه، وكان ممن وصفهم الرحمن بأنه ذو حظ عظيم.

لقد انعكست ذاكرة سقف الحيط الجنينية، على ذاكرته الغورانية، فقد عاش في بطن الغور كما عاش في بطن ورحم أمه، لقد كان الغور يحس بصعوده وهبوطه في وديانه. لقد كان جزءا من الغور، وانفصل عنه حالما وصل إلى القرية، كما انفصل عن رحم أمه، وخرج للحياة في يوم غوراني عاصف وماطر اقتلع بيوتهم وأغرق متاعهم وحلالهم، فكان الغور الصاخب والصامت الجامع لجميع المتناقضات، هو البيت لسقف الحيط الذي أبعد عنه إلى القرية، وحتى لا يعود إليه، ولا إلى الوطن.

إن هذه الحالة اللاشعورية للعشق اللامتناهي للمكان، تنتج عن السيكولوجيا المرتبطة بعبقرية المكان المتناهية التي بانت وظهرت بالمتناهي، وترسخت في حواس سقف الحيط، فقد عاش في الغور وتخيل باللاوعي أنه هو الغور، في بطن ورحم الأرض، فنبتت ذاكرته الغورانية بأيام الغور، مما جعل ذاكرته بها زوايا وحفر غورانية لا يستطيع أحد أن ينبشها أو يصل إليها، ويستخرج الوعي منها إلا بالحلم الذي لا أحد يسيطر عليه فيه، فقد يتخيل نفسه يسقط من صخرة على حافة جبل، ويهوي إلى سحيق الوادي، ولا أحد يسيطر عليه لا أبوه ولا أمه، فتلك لحظة الحرية الوحيدة التي يعيشها سقف الحيط، إنها بالحلم والحلم!

لقد كانت ذاكرته الجنينية قد تشربت الغورانية التي انعكست عليه، من المكان الذي يرقد تحت الأرض، فخُزنت في مخزن الذاكرة، ولكن الإحساس بالحلم أو ذاكرة الغور هي من أكثر الأماكن التي تمكنه من الهروب والتنقل بها، فكان إحساس سقف الحيط بأنه الجسر الوحيد بين سقف الحيط والغور، لكنه لم يشعر بجمال الغور ولا بقيمته إلا بعد أن أبعد عنه، وفقد ما فقد من الانطلاق، والحرية، والحلم الذي أصبح عزيزا!

يقف سقف الحيط وبجواره أبومليح على صخرة الناطوفة، فيشاهد الغور كالفضاء الممدود أمامه، فيتخيل قمم الجبال والتلال في الغور على أنها نهايات الجدران والحيطان المنحدرة، وهذه الجدران والحيطان، تلتقي في فضاء الغور الممدود مع الجبال الغربية، حيث يجلس سقف الحيط مع الجبال الشرقية، لتشكل كلها معا سقفا غورانية غير مرئية،

فبدت السقف غير المرئية تتوحد مع سقف الحيط من خلال جلوسه على عرش الغور في الناطوفة.

لقد ذكر أبومليح سقف الحيط بوالده قائلا: «والدك طول عمره عايش بالغور، كنت أروح أزوره، لما كان يعزب هو والمرحومة بنتي، وكان أحفادي ومنهم عايشة التي جئت معها صغيرة، عمرها مثل عمرك، وقبل ذلك كنت، أنا وجدك أبوالعبد، واحنا صغار متخبيين في مغر الغور من الأتراك حتى لا يأخذونا لحرب اليمن أو البلقان!».

إن الذكرى تؤلم كبار السن أكثر من الصغار، فعندما تذكَّر ابنته أم نسر، وتذكر شبابه وأصدقاءه، وهو قد بلغ ثمانين حولا، شعر بالنهاية تقترب، فذرف أبومليح الدموع، وعاد ومسح بطرف كوفيته دموع عيونه، فتناثر رذاذها الذي لا يكاد يرى على لحيته! وقال بعد جهد: «لما كنت بروح أزور ابنتي المرحومة...» -ولم يتماسك نفسه الجد أبومليح-، فأمسك مرة أخرى بطرف الكوفية، ووضعها فوق عيونه، وبدا وكأنه يخفي دمعا أو يمسح الرذاذ أو القذى العالق في محاجر عيونه.

قال سقف الحيط وهو ينظر إلى تجاعيد وجهه أبومليح الذي كانت تشبه تضاريس وجهه الغور: «دائما والدي يترحم عليها، ويقول: إن أم نسر كانت جميلة، وكريمة تكرم الضيف، وتطعم كل أولاد الحارة، ومن يمر في الطريق حتى لو كان غريبا أو عابر سبيل من الباعة المتجولين أو قريبا تنادي عليه وتعطيه قبل أن يسأل». ضرب العجوز بعصاه على الصخر، وقال: «هكذا هو الموت والحياة، والليل والنهار، واليقظة والنوم! فالموت قد يأخذ أولادك قبلك، والحياة تأتي بك قبلهم، فلا

تدري أتبكي على نفسك أم تبكي عليهم!».

شعر سقف الحيط أن التذكر يحزن أبومليح، وأراد أن يغير الموضوع فسأل الجد أبومليح: «طلعت يا جدي على القرن؟» أجاب: «نعم»، رد سقف الحيط: «بيقولوا إنه فيه قلعة كانت على ظهره، وتهدمت لما صار في زلزال في فلسطين».

تنهد العجوز أبومليح، وأراد أن يكشف سرا لهذا الولد الصغير القادم من الغور قائلا: «شوف يا ابني، أنا سمعت خريفية أو قصة من جدي، سمعها أيضا من جده، وجدي أوصاني ما أحكيها لأحد، وبالفعل ما حكيتها حتى الآن لأي إنسان»، وأضاف: «قديش كنت أنا وجدك أصحاب وما بينا إلا المحرمات، ولكني لم أحكها له»، واستطرد: «كنت بخاف الناس يضحكوا علي، وما يصدقوها، مع أنني أنا نفسي مش مصدقها، لكن كما ترى فإنني بلغت من العمر عتيا، اشتعلت اللحية والرأس شيبا، وكتَّ معظم شعر الرأس. فلم يعد به إلا قليل من شعر الأبيض، ومثل ما بقولوا في مَصْطَبة «أبومليح مياته على النار»، وتنهَّد وقال: «بس أنا بدي أحكيلك الحكاية أو الخرفية إللي حكاها جدي لي، ولا أعرف ليش أنت بالذات، بس ربنا يعلم، أنني رأيت فيك شيئا لم أره بغيرك، ويمكن موضوع الخرفية يهمك». توقف أبومليح عن الكلام وأثنى صدره ولف رأسه نحو الغرب، قائلا: «الشمس لم تغب بعد»، وأعاد رأسه ونظره نحو الغور شرقًا، وأخذ يستجمع ويستحث ذاكرته، فيلملم أطراف الحكاية، بينما كان سقف الحيط يعدّل من جلسته ليكون نظره على شفتي أبومليح وآذانه صاغية لكل كلمة، فقد أحس في تلك

اللحظة أن غورانيته استيقظت، وأن الحكاية أو الخرفية سوف تشبع فضوله، وأخذ يترقب الحكاية التي سيحكيها أبومليح الذي لاحظ اهتمام وإنصات سقف الحيط، فحدث أبومليح قائلا:

«إن أصل الحكاية يا ابني، أنها قد بدأت أول ما بدأت ببدء الحياة على الأرض، فقد بدأت بهبوط أبينا آدم وأمنا حوا من الجنة إلى الغور، وبعدين انتشر أبناؤهم وأحفاده بباقي الأرض».

أسطورة الغوارنية

سهّل وعدّل جلسته أبومليح على الصخرة وقال: «أنا بدي أحكيلك هالحكاية، واعتبرها واحدة من سقوف هذا الغور الذي ليس له قرار أو أساس، فالماء الذي يصل إليه يغور، ومن ينتزعه من أهله يغور أيضا، وهاك سقف الحكاية:

اسمع يا ابني! كان يا ما كان في قديم الزمان، وقبل أن يرسل الله الرسل والانبياء -عليهم السلام- مبشرين ومنذرين، في فلسطين الأرض المباركة وما حولها، كانت قد اجتمعت معظم الحيوانات المعروفة وغير المعروفة من الغيلان والعنقاوات والديناصورات والمخلوقات الأخرى غير المرئية، كالخيالات والمردة من الجن، وبعض من ملائكة الارض.

كان الغور ملاذًا لهؤلاء الملائكة الذين نزلوا إلى الأرض بأمر الله وإذنه، وتفاعل هؤلاء الملائكة مع من بقي من بني آدم من البشر، وعلموهم السحر، وأشياء أخرى في هذا المكان المنخفض الذي يسقط عليه نظرك وتراه أمامك!

كان ذلك في قديم وغابر العصور والأزمان، عندما كانت الأرض غير مستقرة، وكان الدخان، فاهتزت ومادت، فأُلقيت الجبال بها، وانحفرت الأخاديد، فكانت الأغوار والتضاريس، وتغيرت الأرض غير الأرض، وبدت جبال الجليد والثلج تتحرك وتنصهر على مرور ملايين السنين بفعل الدخان وتتحول إلى ماء جارٍ في البحر والأنهار والبحيرات، ووجدت المياه طريقها إلى المحيطات والبحار والمناطق المنخفضة

كالوديان المؤدية إلى الأغوار، ومنها منطقة الغور الذي تراه ليغور به الماء إلى ما دون القرار، وكانت جميع الأودية ومنها وادي الناطوفة الذي هو تحتنا.

كان الدفق المائي بالسيول والوديان التي وجدت لها مصبًّا في الأغوار، وما إن تصل إليها حتى تغور بها، ولا تتجمع ولا تستقر، فلا ممسك لها إلا الرحمن الذى يمسك السماء وما بها، فلما تمت كلمة ربك وسبقت بهذا الشأن، بلعت الأغوار الماء، وخلفت السيول والوديان التربة الرسوبية والدلتا، فأصبحت على مر الأحقاب والأزمان، البيئة الحاضنة الوحيدة في ذلك الوقت والزمان لمقومات الحياة، وأصبحت الرطوبة والتربة الدافئة الحاضنة الصالحة لصغير النبت والأشجار، فحملت الرياح اللواقح بذورها من رواسي الارض، فهبطت بالغور كملاذ لها بدفء طبيعي، لتنبت وتكون غذاء لبعض لحيوانات التي لاذت بالفرار إلى الغور كسائر المخلوقات في ذلك الوقت.

كانت الأغوار الملاذ الآمن والحديقة الخلفية للعالم، فهبط إليها من هبط من بني آدم من البشر من كهوف الجبال، ويرافقهم من أصابتهم اللعنة والطرد من رحمة الرحمن إلى يوم الدين، ليقعد لهم في كل طريق مستقيم، وليتخذ منهم نصيبا مفروضا.

لقد تلاقت هذه الخلائق وخلائف الارض في هذا المكان البدائي الحاضن للمخلوقات»..

وأشار أبومليح، بعصاه التي كانت بيده إلى الغور نحو سقف الحيط، الذي كان يصغي مع شيء من التعجب لاختلاف ما يسمعه، عما سمعه

من قبل من قصص وسير، واستطرد في حكايته قائلا:

«كان يا بني من العجائب والخلائق الديناصورات التي كانت تأكل الشجر، وكان الغور حدائق ذات بهجة وأصبحت غابات، فكانت مأوى لكثير من الحيوانات والمخلوقات الأخرى، التي كانت تأكل بعضها البعض.

كان الماء ينزل بقدر، وكل مخلوق يأخذ بقدر حاجته، ويتعامل مع غيره بقدر بفعل الدفاع الموزون بما أُودع فيه من خصائص ومقومات، وإن كان أكثرهم لا يستطع الدفاع فيركض ويهرب، ومن لم يستطع الركض موَّهَ لونه ليكون بلون الأرض، فلم يعد يُبصَر».

واصل أبومليح أسطورته التي احتفظ بها، ولم يحكها لأحد، وسقف الحيط يصغي بإعجاب: «تقوم حياة النبات والشجر على عناصر الأرض المعدنية، والماء والطاقة التي يستمدها من الشمس، فينمو بعملية التمثيل الكلوروفيلي، فيكون أخضر، ويعيد تكرير ثاني أوكسيد الكربون فيخرجه أوكسجينًا، فاذا تكور الليل يقوم النبات بالنتح، فإذا تكور النهار، عكس ما كان يقوم به بالليل، فكان اختلاف الليل والنهار، ولولا الحدائق ذات البهجة التي أنبتها الله تعالى، لما كانت هناك حياة في الأرض.

إن الحيوان والإنسان يتغذيان على النبات والشجر، وما في البحر من طحالب، ومستعلقات على الصخور، وكل ذلك تسخير للإنسان الذي يتمتع بمتاع الحياة الدنيا التي هو من ترابها، انتشر في بقاعها، ومن تلك البقاع كانت الأغوار.

إن البشر الذين انتشروا من الأغوار، كانوا أشبه ما يكونون بالبهائم

من حيث المشي والعيش بنفس أسلوب وطريقة البهائم، لكنْ منَّ عليهم الله فعدلهم وسوَّاهم، فتوقفوا عند تقليد البهائم، وأدركوا أن لديهم سمعا وبصرا وإدراكا يمكّنهم من التحكم بالبهائم، وبما حولهم.

ضاقت عليهم الأغوار بسبب أنهم كانوا ما زالوا يتكاثرون بنفس طريقة البهائم، فزاد عددهم، وأصبحوا جماعات تساند بعضها بعضا أو تقاتل بعضها على موارد الغور، ومن يخسر المعركة، يهرب حفاظا على حياته وحياة أزواجه وذريته، فمنهم من خرج من الغور وتوجه شرقا حتى وصل إلى حوضي دجلة والفرات شرقا، ومنهم من خرج منه وتوجهه غربا حتى وصل إلى حوض النيل جنوبا وغربا، فكل مجموعة استقرت حيث الماء المتدفق. كانت الشمس تضيء لهم وتمنحهم الدفء، فعبدوها، وسرعان ما تحول بعضهم من عبادة الشمس إلى عبادة الجبال المرتفعة التي لا يستطيعون الوصول إليها، وبعضهم عبد النار، وآخرون عبدوا الأنهار، وكانوا من خوفهم منها، غذوها بالقربان من أجمل نسائهم.

كانت الأغوار، هي المركز والرأس، والنيل والفرات، هما الأطراف واليدان لبني البشر الذين سواهم وعدلهم الخالق، وأخرجهم من البهيمية إلى الإنسانية.

عجت الأغوار بأزواج من المخلوقات الكثيرة والكبيرة والنادرة التي يبصرها البشر عن بعد بسبب ضخامتها وطول بنيتها، وكانت تأكل الأشجار وهي واقفة، وكذلك مخلوقات أدنى منها حجما تأكل العشب والشجيرات، والمخلوقات التي تأكل بعضها، والمخلوقات التي لا يبصرها البشر، وما سمعوا عنها، ويعتقدون بوجودها لتستغفر لهم،

وتحفظهم من أمر الله. ومنها المخلوقات التي تواصل سجودها وتسبيحها الذي لا يفتر، ومخلوقات تخرج من الأرض، حاملة أخبارا وسجلات أعمال أهل الأرض، فتعرج إلى السماء، ومنها من ينزل من السماء إلى الأرض بالأرزاق وبالرسالات على من اصطفى الله من الرسل والأنبياء.

وبين هؤلاء وهؤلاء هناك مخلوقات نارية لم تسجد لآدم لكونها خيرًا منه، فتلعب لعبة الأغواء لبني آدم، فتسترق السمع من الملأ الأعلى لتخبر بها بعض أوليائها من البشر في الأرض، فتقع الفتن مما يُزعَم أنه خبر من السماء، فإذا تمكن من خطف الخطفة، ولم يتبعه شهاب أو نيزك، فيهلكه قبل أن يصل إلى الأرض، يغوي كثيرا من الناس.

لقد بدا للمخلوقات غير المرئية أن السماء مليئة بالحرس الشديد، فكانوا يعودون إلى الأرض خائبين، فيختلقون الكذب، ليصلوا به لبعض من بني البشر، ليضلوهم أو يزيدوهم ضلالا.

ارتكس البشر، ثم عادوا إلى بداياتهم البهيمية، وممن ارتكس أيضا سكان الأغوار ومن حولهم، فزاد الظلم والفساد، فتدخلت السماء بعد نذر من الرسل، وحقب من الزمن، وأمطرتها وكسفتها بالشهب والنيازك الحديدية، فأُنزل الحديد وأودع وأقر في باطن الأرض بكميات كبيرة، ليكون فيه البأس الشديد على الحيوان وعلى بني البشر، وكان ذلك كذلك، فهو شديد على الناس أنفسهم أكثر من غيرهم.

لقد بدأ بنو البشر باستخراجه بما لديهم خبرات ومهارات وصلت إليهم من العصر الحجري، فكانت أدواتهم من الحجارة، والخشب، فطوروها مما التقطوه من أحجار حديدية متناثرة، ففتتوها بالنار، وشكلوا

أدوات القطع، ورؤوسا للعصي لتحدث خرقا بجسد الحيوان، أو حتى بأجسادهم عند القتال على امرأة أو فريسة أو كهف كمأوى.

لقد تطور ذلك الرأس المعدني، وأصبح أدوات أخرى كالسكين، والمطرقة، والسيف، والرمح وغيرها.

لقد كانت الأدوات المكونة من الحديد، وما ينزل من السماء من نيازك وشهب، وما يخرج من بطن الأرض من البراكين، والحمم، طورا أدوات تدمير وقطع وإجرام وقتل، فمات من مات من المخلوقات الكبيرة التي لم تستطع الاختباء، وانقرض كثير من المخلوقات، ثم سكتت السماء وصمتت، فكثر البشر، وكثر سفكهم للدماء بعد الحديد الذي أنزل وفيه بأس شديد.

بعد قرون كثيرة، أمطرت السماء شهبا ونيازك تغشى البصر، وتشع أجرامها كإشعاع الشمس، فيكاد يعمى البصر، وتنير نورا أبيض، كنور وضياء القمر، فكانت نيازك حاملة معها غبار معدن أصفر ذي بريق، فسمي ذهبا، وغبارا أبيض رماديا سمي فضة، فنزل ما نزل على الأرض منها بقدر محدود، ولم ينزل بعدها شيء من المعدن الأصفر إلا ما نزل فأصبح نادرا بذات القدر الذي نزل، فظلت كميته محدودة ونادرة، فأصبحت بسبب قانون الندرة لها قيمة عالية وغير عادلة، لأنه قليل ونادر، ويصلح لفتنة النساء وزينتهن، إنه الذهب الذي بالنار يفتن، والنساء به تُفتن، وكذلك الرجال من البشر.

إن النار ليست فقط لفتنة الذهب وباقي المعادن والطهي والدفء، بل لعذاب البشر الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد وسفك الدماء،

وقد يكون العذاب في الدنيا بحرق الغابات والحدائق، فيكون العذاب الأدنى إنذارًا لبني البشر، ليتوقفوا عن الفساد في الأرض.

إن النار التي يراها بنو البشر في الدنيا، ويذوقون ما يطهونه عليها، ويذوقون حريقها بإهمالهم أو بخطئهم، هي مثلها أو تشبه النار التي سيعذب الله البشر بها بعد يوم البعث والحساب، هي ليست كالنار التي عبدها البشر بعد أن سقطت شهبا، فاحترق بها بعض الشجر على الأرض، فانتشرت أو تكون أخرجت من الأرض حممًا بركانية، فتشكلت منها الجبال كجبل قرن صِرْطِبّة الذي ننظر إليه الآن من طرف مَصْطَبة من فوق صخرة الناطوفة.. كان أبومليح يقص أسطورة الغور، فيسمع سقف الحيط قصة الخلق، وتطور البشر، وتفاعلهم بالبيئة التي تحضنهم، وصراعهم في الوجود الواعي وطغيانهم وقتالهم.

أدرك أبومليح أنه يقص على طفل عمره سبع سنوات لا يعرف شيئًا إلا عن الغور، فقال: أما الأغوار التي تعرفها، فقد حصل لسكانها ولها ما حصل لباقي المناطق، على أثر شهاب سقط ولم يحترق كله في السماء، فبقي شيء قليل منه على أرض الغور فاحترق، فأوقدت شرارته النار في الهشيم والعصف والشجر الأخضر الذي كان وقودا لها، فاحترق ما احترق من الحيوانات، ففاحت رائحة الشواء، واستكشف أهل الغور البشر ذلك، فذاقوا لحم الحيوانات المحترق والمشوي، فعرفت وقلَّمت حاسة الذوق عندهم طعمه اللذيذ، وعرفت أنوفهم وحاسة الشم عندهم رائحته المميزة، وكان ذلك يختلف عما اعتادوا عليه من لحم نيء ودماء مسفوحة، فواروا ما بقي من جمر في التراب».

وقاطع سقف الحيط أبومليح لأول مرة قائلا: «أبي فعل ذلك عند باب المغارة، لما كان بحرث في فصايل ونمنا في المغارة، فطمر الجمر بالتراب والرماد، وعند الصباح فتح النار مرة أخرى وعمل شايا عليها».

رد عليه أبومليح: «معناته أبوك حرث فصائل عشان يكون أول واحد يحصد ويدرس، ويطحن ويخبز»، وقال موجهًا كلامه لسقف الحيط: «والله شهيتنا لكاسة شاي على النار».

إلا أنه عاد، وواصل قص الأسطورة على سقف الحيط قائلا:

«مات كثير من الحيوانات، ومن لم يمت من الغيلان الديناصورات، ومن لم يمت من النيازك والشهب، مات من النار التي أحرقت الهشيم بسبب سرعة الريح فأحرقت النار العشب والهشيم والشجر، وبسبب بطء حركة الحيوانات لكبر حجمها لم تستطع الهرب، فكانت غثاء أحوى رقد في بطن الأرض مع الشجر، وغير ذلك، فتفاعلت بما في بطن الأرض، ثم إذا تحللت وتأكسدت، كانت مادة جديدة لإشعال النار التي منها بدأت، ثم إذا ما ثقل حمل باطن الأرض منه، فأخرجت الأرض بعض أثقالها زيتا أسود سموه البترول والنفط، ليكون بديلا للحطب وزيت الزيتون ودهن الحوت.

فرح البشر، فأذابوا بالنفط الحديد والقطر والذهب والفضة وغيرها من المعادن، لكن كان تركيزهم على الحديد الذي فيه بأس شديد لقتل بعضهم البعض.

كان يشعر أبومليح أن اسطورته ثقيلة على سمع سقف الحيط، ومع أن الأخير لم يبدِ أي تذمر أو شكوى ليقول لأبومليح: «أين القصة أو

الخريفية التي بها إثارة وتشويق؟». كان سقف الحيط ينوي أن يقول ذلك، لكنه آثر أن ينتظر ويسمع القصة التي قالها جد أبومليح، وأخفاها الأخير، وكان سقف الحيط أول من سمعها!

تابع أبومليح القصة وهو يثني صدره ورأسه غربا نحو الشمس التي كانت تميل للغروب فقال: «لم يبقَ إلا أقل القليل من البشر، وما رحم الرحمن من الحيوان، ولاجئون في الأغوار منتظرون مرة أخرى أمرًا من السماء ليهدي البشر، ويقضي أمرًا كان مفعولا».

بطل الأغوار

لقد تركت سيرة البطل الغوراني الذي رفعه أتباعه إلى مرتبة التقديس أثرا في ذاكرة سقف الحيط الطفولية، فرأى مكانا مرتفعا تبرز منه صخرة عالية، فتذكر صخرة الناطوفة. وتذكر أسطورة بطل الغور وسيرته.

إن الأغوار ليست فقط مناطق منخفضة، ومن يعش فيها يعش تحت مستوى البحر، فهي ليست فقط تلالا وجبالا عارية من الأشجار، إنما هي قاع الأرض الذي غارت مياهه، فمن يعش فيه يعطش ويكن هاجسه البحث عن الماء والعشب الذي يكسو الغور في الربيع، فإذا ما جاء الشتاء قاموا برحلة الشتاء للغور، تمهيدًا لاستقبال الربيع، ومن لم يقم برحلة الشتاء تهافت عليه في الربيع، بل يحدث القتال على مراعيه.

لقد مرت السنوات والأحقاب على الأغوار وما شهدته من اقتتال وصراع بين البشر بعضهم بعضا، وبينهم وبين الحيوات الأخرى، وغير الحيوات، فنجم كل ما نراه عن تفاعل جغرافيته الناتج عن ما تخرجه الأرض من بطنها، وما تحدثه قوانين الرحمن الصامتة المنظمة الطبيعية، فعندما يغضب الرحمن من أفعال بني آدم في الغور، يذيقهم بعض الذي عملوا، فتكون الأحداث والكوارث، إنذارا مبكرا لهم، ليعودوا إلى فطرتهم وغورانيتهم.

عاد أبومليح يكمل أسطورة بطل الغوارنية لسقف الحيط من فوق صخرة الناطوفة، وتوقع سقف الحيط أن لا تكون القصة مملة كبدايتها،

فأنصت وأصغى بكل جوارحه، ليعرف حكاية أبوموليح التي أخفاها ولم يُحدث بها أحدا، وكان هو محظوظا ليسمعها منه.

فقال أبوموليح الذي بدا عليه التعب: «شهدت الأغوار زيادة بأعداد البشر على حساب عدد الحيوان والشجر فيها، وبدا هناك شيء من الاستقرار أدى إلى ارتقاء البشر من مرحلة الصيد إلى الجمع والزراعة، والتفكير بوسائل العيش والخروج من الكهوف إلى بيوت يحفرونها بالصخر أو يشيدونها من الطين، فكانت المنافسة والمدافعة بين أسر كبرت وانتشرت في الأغوار، وأقامت حيزًا على بعض مناطقة، ورفع أسواره حولها، ولم يكن ليجمعهم بعد أن تفرقوا واختلفوا واقتتلوا إلا بطل الغور، فالناس لا تستطيع أن تخمد اقتتالها وصراعها إلا بوجود بطل كبير لهم. وإن لم يكن موجودا أوجده لهم كهنة وسدنة يخدمون الآلهة بالمعابد. والكهنة أقدر من غيرهم على صياغة وتأليف الأساطير حول فتى بأوصاف غير موجودة عند غيره، فيحطيونه بهالة من القوى الخفية والنبوءات الزائفة، وينسبون الأقوال المشهورة والحكمة له والأعمال الخارقة، ليكون هذا البطل المنقذ للبشر، ورمزا يقدسونه ويحتذون به ويقلدونه، حتى يصبح مضرب الأمثال، فقام الكهنة بتعظيمه وإجلاله وأسبغوا عليه هالة قدسية». قال أبوموليح، وقد تطلع إلى سقف الحيط وهو يصغي له: «فأوصل الأمر الكهنة إلى ذلك الملك الشاب الذي اعتاد أن يجلس في المساء على هذه الصخرة التي نجلس عليها».

وتوقف أبوموليح برهة، وشعر سقف الحيط أن الحكاية الحقيقة والسر

الذي أخفاه أبومليح قد بدأ، فأظهر اهتماما أكثر، فقال: اكمل يا جدي.

تنهد أبومليح، وقال:

«كان ينظر الملك من هذه الصخرة متأملا مملكته التي كانت تشمل كل الأغوار وأطرافها، وما وراءها من صحارى شرقية وجنوبية، وكانت هذه البلدة التي خلفك هي عاصمة مملكته».

تعجب سقف الحيط، وقال بصوت عالٍ مستغربا: بلدتنا مَصْطَبة المقابلة لصِرْطِبّة؟!

لم يكترث أبومليح بتعجبه وسؤاله وأكمل قائلا: «وكان الغور يعج بالغابات والأنهار والحيوانات المفترسة، باستثناء هذه التلال الغورية التي تراها ويتوسطها القرن الذي كان عش طائر الرخ على قمته، وكانت مغطاة بالأعشاب التي ترعى بها الأنعام بعد أن قرضت أشجارها الديناصورات المنقرضة، ولا يوجد بها إلا قليل من أشجار السدر والزعرور.

أدى هذا الاستقرار إلى استيطان بعض البشر في الأغوار، فنزعوا عنهم صفة التجوال وملاحقة الحيوان وأكل اللحمة النيئة، بعد أن جربوا طعم ومذاق بقايا اللحم المشوي على نار وحرارة شهب نيران النيازك، فتذوقوا طعم الشواء وانتقلوا من طور جمع ما يأكلونه مما يسقط من الشجر، إلى طور مراقبة الزرع أمام كهوفهم، فقلدوا الحيوانات بأكل النبات والأعشاب حتى تعلموا كيف ينبتونها مرة أخرى، كما تعلموا كيف يوقدون النار مرة أخرى بدون انتظار شهب النيران الساقطة من السماء، بعد أن واروا جمر النار تحت الرماد والتراب.

تعلم الغورانيون كيف يقلّدون وينافسون صغار الحيوانات بشرب حليب أمهات صغار الحيوانات.

وتعلموا من الطير وبيضه ومن أكل الحيوانات لبيض الطيور، فقسوة الطبيعة الغورانية جعلتهم يتعلمون من الطبيعة نفسها ومن الحيوان.

فأصبحوا يأكلون البيض الذي يجدونه في الأعشاش وتحت الأشجار وفي الصخور وفوقها.

انتهى عصر الصيد والتجوال، وبدأ عصر الاستيطان والزراعة والاستقرار، إلى أن جاء عصر التدجين والترويض للحيوان، فتحولوا إلى رعاة».

توقف أبومليح عن سرد مقدمته لأسطورة بطل الغور، وقال لسقف الحيط: وما زلنا يا بني، نعيش في عصر الرعاة!

وتنهد العجوز قائلا: «فلا تستغرب إذا كنا ما زلنا نعمل ما كان يعمل أجدادنا الأوائل في منطقة الأغوار، ونقوم بكل ما كانوا يقومون به على مر ملايين السنين. هذا المكان الدافئ الذي ينبت وينمو به العشب والشجر قبل غيره من المناطق الأخرى، والذي لجأ إليه الحيوان عندما عز عليه في الشتاء الطعام، لم يجده إلا في الأغوار ومن ثم قلده الإنسان، وبعد ذلك في العالم انتشر الإنسان، فاختار الملك هذه الصخرة في الناطوفة التي تجلس على صخرتها، فكان يجلس عليها ليراقب ملكه وشعبه الذي يعيش تحت الارض، وأوحى الكهنة للملك أن الشمس شيء عظيم، وأشعتها وحرارتها هي التي تنبت الزرع والعشب في الغور، فأعجب الملك الأمر،

وشعر بعظمتها فخضع لها وأصبح يقدس الشمس باعتبارها مصدر الدفء والحرارة بالأغوار، ولم يكن يستطيع أن يواجه آلهته الحارقة الجبارة، بالرغم من البقع السوداء المنتشرة في بشرته والتي كانت تعينه على امتصاص أشعة الشمس عندما كان يجري بسرعة خلف الوحوش، فأمر شعبه فحفر له طريقا تحت الارض».. ومد العجوز عصاه فأشار إلى ما كان يعتقد سقف الحيط أنها قناة، فقال أبو مليح له: «فحفروا له نفقا يسير به بعد أن يستريح في كهف في قرن صِرْطِبّة الذي يقابل عاصمته مَصْطَبَة، وبعد أن كُسر بيض الرخ على قرن صِرْطِبّة نتيجة ضربة نيزك فحرقه فانقرض الرخ كغيره وأصبح من المستحيلات. ولأن الملك يعبد الشمس، ولا يستطيع أن ينظر إليها، عملوا له نفقا ليمشي تحت الأرض حتى يصل إلى الناطوفة فيجلس جلسته المتأملة على هذا العرش، وبسبب أن الدفء والنَّوَر والحرارة لا تأتي إلا من الشمس، فلقد قدسها ولحق به قومه».

استرسل العجوز برواية الأسطورة أو الخريفية مكررا ما قال: «ولأن الدفء في ذلك العصر لا يأتي إلا من الشمس، فإن الملك اتخذ من الشمس آلهة من دون الرحمن يعبدها ويسجد لها، وزين له سدنة الشمس ذلك العمل ولم يرشده نبي مرسل إلى توحيد الخالق الذي خلق السماوات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار وغيرها، وكان من شدة ورعه وتواضعه أن يسجد وقومه للشمس في المساء عند هذه الصخرة دون أن يقابلها، وإمعانا في التقديس والإجلال كان يعتقد أن

الشمس الآلهة تستطيع أن تبصره وتنظر إليه وتمده بالدفء، وترشده إلى عين الحمة التي إن شرب منها أصبح خالدا.

كان لا يستطيع أن ينظر إليها أو يدركها، فاعتاد أن يجلس على هذه الصخرة قبيل المساء، فتكون الشمس مُغَرِّبة في حين وجهه وقبلته إلى جهة الشرق، فتكون آلهته قد ألقت بأشعتها ودفئها على الغور وعلى ظهره وهو يجلس على صخرة الناطوفة أو ما كان يسميه عرش الغور، وفي الصباح كان يجلس على صخرة في تلك الجبال». وأشار بعصاه أبو مليح لسقف الحيط إلى الجبال الشرقية، شرق نهر الأردن، وقال أسماء بصوت منخفض لم يسمعها بشكل واضح، فسمعه يقول جبال مادبا، وجبل شيحان.

أراد أن يستوضح سقف الحيط، لكن أبو مليح استطرد وأسرع في السرد وهو ملتفت إلى غروب الشمس وقال: «لقد كان هذا الملك شابا طويلا، وبشرته بيضاء وسمراء في نفس الوقت». فتعجب سقف الحيط من ذلك، فهو يشاهد الناس إما سمرا أو بيضا أو بين ذلك، فسأله: كيف يكون أسمر وأبيض في نفس الوقت؟

أجاب أبو مليح: «الله خلقه هيك بشرة جسمه بيضاء مرقطة برقط وبقع سوداء من جبهته حتى أصابع قدميه، فكانت هناك آلاف النقط السوداء، ربما فوق عشرة آلاف نقطة سوداء».

واستطرد أبو مليح: «وكانت سيقانه طويلة وشعره أجعد، وفتحتا أنفه كبيرتين وعريضتين، تتصلان بقصبة هوائية عريضة وسميكة، ورئتين كبيرتين، وقلب كبير وضخم، وعيون واسعة ومدورة، ذات حدود

ونظرات مزدوجة. أما أذناه فكانتا كبيرتين، مما أعطاه مهارة الجري السريع، والعدو بسرعة أكبر من سرعة الحيوانات وأسرعها، وهي الفهود التي كان يحبها لأنها مرقطة ببقع سوداء مثل بشرته.

كان يعدو بسرعة، يشعر من خلالها أنه يسابق الريح، فكانت تحميه البقع السوداء الكثيرة في جلده من إشعاعات الشمس، فتمتص تلك البقع السوداء أشعة الشمس وهو يجري كجري الفهود، فتبقى عيونه مفتوحة وغير متأثرة بأشعة الشمس، فيرى أمامه بالرغم من سرعته الهائلة. لقد نمت هذه المهارة عنده بما أوتي من بسطة في الجسم تميز في اللون البشرة، وسرعة عدو وراء الحيوانات، فكان إن شاهد أسدًا أو فهدًا يركض وراء غزال، فسبق الفهد بالعدو، وأمسك الغزال قبل أن يمسكه ويفترسه الفهد.

لقد أحب الفهود، لإنها كانت تشبهه في البقع السوداء في أجسامها، وتشبهه في مهارة السرعة بالجري والركض.

كان للفهود ملك ينافس ملك الأسود في الصيد، فيطارد فريسة الأسد، ويسبق الأسد فيأخذها منه ليصعد بها على شجرة في الغور في صخرة الناطوفة، فلا يستطيع ملك الأسود أن يسترجعها منه.

تصادف أن كان ذلك الفهد الملك والمرقط بالبقع السوداء في جسمه رابضا تحت شجرة، وكان بطل الغور قريبا منه ويتأمل البقع السوداء التي في جسمه ويقارنها بالبقع السوداء في جسم الفهد، فوجد أنها تشبهها باستثناء الشعر والعدد، فلاحظ أن البقع السوداء في جسمه أضعاف مضاعفة عما في جسم الفهد، وبينما هو يتأمل ويعد البقع السوداء، قفز

الفهد قفزة طويلة عندما شاهد الأسد الملك يجري وراء غزال، فجرى خلفهما بسرعة عظيمة، وجرى خلفهم بطل الغور، فعمي الأسد الملك من أشعة الشمس لعدم وجود البقع في جسمه فتوقف، في حين واصل الفهد الجري وراء الغزال وواصل بطل الغور الجري خلفهما، حتى سبق الفهد الملك، وأمسك بطل الغور الغزال، فما كان من الفهد إلا أن بسط ذراعيه وجلس على رجليه ونكس رأسه أمامه، فمسح هذا الشاب على رأسه فأصبح الفهد يرافقه كظله، فاعتبر الناس ذلك عملا من الأعمال الخارقة التي لا يقدر عليها إلا من له علاقة بالإلهة الشمس، فقدسوه لترضى عنهم الشمس، فإذا جلس على عرش الغور وبجانبه الفهد، وكلاهما مرقط ببقع سوداء، جلسوا تحت قدميه بنفس الطريقة التي يجلس بها، وإذا قام لحقوا به، باستثناء المسخ الذي كان وُلد نتيجة تزاوج بين أجناس مختلفة، فوُلد وهو يجمع صفات هذه الأجناس، فكان رأسه كرأس قرد، ولكن فمه كان كفم الخنزير، وأذناه كأذني الحمار، وجسده كجسد بشر، وكان يتفوّه بعبارات ولغة يصعب على البشر فهمها، فكان ثلة من البشر اتبعوه بادئ الامر، وبالشر أخذوا يسايرونه، فكثر أتباعه، ونصروه فتولى الملك حتى أهلك الحرث والنسل، وأشاع الفساد وسفك الدماء، وأصبح حديث القرى والبلدان، ووصل خبره إلى الملك بطل الغور وكان جالسًا على هذه الصخرة، بعدما كانت أخباره يتم تناقلها بين الناس، فأجمع الملك أمره وجهز جيشه، وأخذ يلاحق المسخ وأتباعه، فقتل من قتل منهم وشرد من شرد، لكن المسخ استطاع أن يهرب مع

بعض أتباعه، ويختبئوا وهم متخفون، وكانوا مشتتين في الأرض وبين البشر».

أشار العجوز بعصاه قائلا لسقف الحيط: «شايف الجبال العالية التي تظهر من خلف جبل القرن؟». أجاب سقف الحيط: شايفها جدي أنت شو حكيت اسمها.

تجاهل أبومليح سؤاله وقال: لقد كانت تلك الجبال حدود عاصمته من الشرق، وكان يجلس عليها في الصباح عند صخرة في أحد جبالها.

قاطعه سقف الحيط: قلت أنت إنها تسمى مادبا.

تظاهر أبومليح أنه لم يسمعه وقال: «ويجعل ظهره للشمس، ووجهه وقبلته نحو الغور، حتى إذا ما أوشكت الشمس على التعامد، عدا من جبل شيحان بعدوه السريع في الغور مع الفهد، فوصل إلى قرن صِرْطِبّة قبل أن تتعامد الشمس بالسماء، فاستراح في الكهف الموجود بالقرن من الجهة الشمالية، وذلك حتى لا يتواجه ويتعامد مع إلهته الشمس حتى تبقى قوته الخارقة خفية، فإذا كشفت الشمس وجهه، أمدته بقوة عظيمة، يستطيع بها أن يجعل كل من في محيطه كأنهم نصب خشب مسندة لا يتحركون، كل واحد ثابت على الهيئة والشكل الذي كان فيه لحظة استعماله لهذه القوة التي أمدته بها الشمس».

تعجب سقف الحيط كطفل من هذه الخوارق والقوى، لكنه لم يعقب فلقد كان لا يتحرك، ويضبط أنفاسه حتى يسمع باقي الأسطورة.

تابع أبومليح الكلام قائلا: «وبعد الاستراحة يأخذ طريقه تحت

الأرض والفهد معه، ويسير فى النفق حتى يصل إلى الناطوفة، فيرقد بين هذين الجبلين، فلا يتواجه أيضا مع إلهته الشمس. حتى إذا بدأت بالغروب صعد إلى هذه الصخرة التي تجلس عليها، والتي كانت تظلها شجرة كبيرة تظل أوراقها خضراء صيفا وشتاء ولا تتأثر بالفصول، فلا يسقط ورقها، وكان يتساقط عليه ثمرها وهو تحت الشجرة، فيمسكه بيد، فتخرج زيتا يترك أثرًا على يديه، فتجعلهما طريتين ويحس بإحساس مريح، فجرب في إحدى المرات أن يمسح بثمار الشجرة المتساقطة عليه وجهه، فظهر على وجهه بريق ونور أفزع وأخاف الجالسين تحت قدميه، وهو لا يدري لماذا ازدادوا له تقديسا وتعظيما.

كان كلما استعمل الثمر أحس بحركتهم وصوتهم وتراتيلهم التي فهم منها أنهم يسبحون باسم النَّوَر الذي يشع من وجهه، فكلما فرك ثمار الشجرة على وجهه ازداد النَّوَر، فاهتم بالشجرة وطلب منهم أخذ أجزاء من أسفلها وزرعها في تلال الأغوار، بدأ من الناطوفة حتى يبوس، وأصبحت تلك الشجرة سلاحا استراتيجيا له، ليخضع بنوره المشع من زيت تلك الشجرة، أي إذا ما لمسه شعاع إلهته المقدسة الشمس».

استرسل أبومليح في القصة وسأل سقف الحيط: هل غابت الشمس؟

وأضاف مازحا: «أقصد شمسنا، وليس الشمس آلهة الملك المتأمل بجمال ملكه في مملكة الغور من عرشه من هذه الصخرة»، وقال: «جمع الملك كل ثروته وكنوزه ووضعها في قلب الناطوفة، وقام برصدها وطلسمتها بهذه المغرفة».

وأشار أبومليح بعصاه إلى نقش على الصخرة التي يجلس عليها سقف الحيط، يأخذ شكل المغرفة التي كانت تظلها الشجرة التي أصبحت تنافس الشمس..

واستطرد العجوز أبومليح بالحديث قائلا: «انظر هذه المغرفة أو الصولجان، هذه علامة كنوزه المرصودة، ولا أحد يستطيع فكها لأن الرصد المرصود، ليس قائما على السحر بل على شيء آخر أكبر من السحر».

سأل سقف الحيط العجوز: شو اسمه الملك يا جدي؟

تجاهل أبومليح السؤال وقال: «هذه يا ابني خريفية، كان الأجداد يخرفوننا بها لننام، ولما نسألهم شو اسمه؟ ومن أين أتى؟ يقولون إنه أتى من أطراف الصحراء بعد أن كان...»، ولم يكمل بل غير الحديث قائلا: «قوم ننزل، لقد أوشكت الشمس على المغيب، وأنا سألتك إذا الشمس غابت وأنت لم تجبني، وهاي الشمس غابت، وابني مليح قاعد بفك رباط الحمارة، بعد ما لقط لنا شوية لوز أخضر، خليك تتذوقه وتقرطه بأسنانك، راح تحبه وهو شوية حامض».

كان سقف الحيط لا يحب أن تبقى أسئلته بدون جواب، لكنه لم يلح على الجواب لأن الحكاية أعجبته وكان يريد أن يسمع المزيد، وأن يسترسل أبومليح بها، فهناك أسئلة عند سقف الحيط بقيت بدون أجوبة مثل: ماذا كان مصير المسخ؟ هل بقي مشردا أم عاد ليقاتل الملك؟ وماذا حدث للملك هل مات أم قتل أم اختفى؟ هل استعمل قوته الخارقة

والخفية من الشمس؟ كل تلك الأسئلة جعلت سقف الحيط لا ينزل عن الصخرة حتى يكمل العجوز، ويشبع عند سقف الحيط نزعة معرفة المجهول.

قال أبوموليح، وهو ينزل عن الصخرة، فالشمس غابت، ونظره في الظلام ضعيفا، وكان يبدو هذه المرة متضايقا، ومسرعا ومختصرًا بروايته للحكاية: يا ابني هاظا المسخ استطاع أن يقنع حكام الظلام الآخرين في الأرض بأنه هو صاحب الأغوار، وأن هذا الملك هو من الأشرار وقد غزا الأغوار وطرده منها. وكان المسخ صاحب منطق كذاب، وقادرا على أن يحرك مصالح حكام الظلام، فيجعلهم يصدقونه، خصوصا أن لديه قليلا من مقومات التصديق بسبب ضربه على وتر المصالح، فهو مسخ قادر على الحركة اللولبية. كان يتحرك كالزئبق ويأتي بأشياء تجعلهم يصدقونه. فحشد ملوك الظلام الحشود من معظم الأرض، حتى إن ملوك وحكام النَّوَر كانوا على الحياد، ولم يتفق أهل الظلام في الأرض، كما اتفقوا على مساعدة هذا المسخ، فكانت الجيوش التي لا تغيب عنها الشمس، وكان الملك الشاب بطل الغور قد قاتلهم وأثخن فيهم، لكن الكثرة غلبت القوة، ولحسن الحظ أنهم لم يقتلوه، لكنه دخل هو وفهده تحت الأرض في النفق، ومن شدة تقديسه للشمس لم يستعمل قوته الخارقة فينظر إليها عندما تتعامد فيصبح ذا قوة خارقة، لكنه آثر أن يختفي في النفق، ولم يخرج حتى الآن!».

واستطرد قائلا: «وكان آخر كلامه الذي سمعه منه أنصاره وهو يدخل

النفق أن لعنة الاغوار على المسخ ومن يساعده ستستمر».

وسأل سقف الحيط العجوز: «وأيش هي لعنة الأغوار؟». فأجاب العجوز أبومليح وقد وصلوا إلى الجسر عند مربط الحمارة، وكان مليح يساعده بالركوب عليها، فقال: إن من ينتزع الأغوار من أصحابها فسوف تلاحقه اللعنة حتى يغور في الأرض.

وسأل سقف الحيط العجوز مرة أخرى:

طيب الملك شو صار فيه؟ هل مات في النفق؟

قال مليح وهو يسوق الحمارة: «قله يا حج شو صار في الملك»، وأضاف وهو يضحك: «أنا امبارح التقيت فيه وسلمت عليه وقال: جيب لي شوية لوز أخضر من الناطوفة».

أجاب أبومليح: لا تصدقه، وقال: لا أعرف بقولوا إنه راح يرجع ويحرر الأغوار، ويحرق بلعنته كل من استولى على الأغوار ونزعها من أصحابها.

فرخ البط عوام

إن الحرية لا سقف لها إلا سقف حرية والديه والغير.

وما إن التف الجد أبوملیح وابنه وسقف الحيط من جانب الكتف المطل على واد الناطوفة، حتى قال مليح لهم: «أنا أمس قبل ما أشوف بطل الغور، شفت رجل بتسلق بشجيرات الخبيزة في سادَّة المُبَشِّر، وانتو بتعرفوا قديش بعيدة، بدها نصف يوم مشي ليصلها الواحد».

كان أبوملیح يتنحنح وهو راكب على الحمارة ويقول بصوت منخفض: شوف هالخريط، وشايف واحد بتسلق عليها!

وحتى يضفي مليح المصداقية على ما رأى، قال إنه نادي بصوته الجهوري أمس الرجل قائلًا: يا زلمة لا توقع انزل عن شجرة الخبيزة!

قال أبوملیح: «الله يستر من كذبك»، لكن مليح أردف قائلا ليزيد من مبالغته في الحديث، وهو ما اكتسبه من والده وجده: «والزلمة سمع، ونزل عن شجرة الخبيزة!».

لقد كان معروفا عن الجد أبوملیح قصصه الخرافية، وابنه مليح يتطرف بالمبالغة بالكلام بما يراه ويسمعه من الخيال اللامتناهي عنده، فسادَّة المُبَشِّر تبعد عن مكانه في الناطوفة مشيًا على الأقدام نصف يوم أو أكثر قليلا.

لقد أدرك سقف الحيط أن الابن قد ورث عن الأب حب المبالغة والخيال والخرافات والأساطير.

طلب أبوملیح من ابنه أن يُركب سقف الحيط من خلفه على الحمارة،

بعد أن غذى هذا العجوز خيال سقف الحيط بالحكايات والأساطير التي أربكت تفكيره كطفل، فعاش أجلا قصيرا من عمره في شك وتردد وقلبه غير مطمئن، هل يؤمن بهذه الأساطير أم لا يؤمن بها. إن سقف الحيط كطفل معارفه محدودة، وتعتمد على ما يسمعه ويراه من حوله، وأكثر ما كان يتعلمه من الأغنام والكلاب، فكان يقلدها، وكان المصدر الآخر للتعلم هو ما دربه عليه والداه، وما علماه له من صح وخطأ بحسب معتقداتهم، لكن الأهم بالنسبة لسقف الحيط كان مصدره الخاص، وهو ما يستكشفه من خلال تجاربه وتجواله، ومن خلال ما تعرض له، ومن تعاملاته مع الناس، وبشكل خاص حادثة دفعه من والده عندما رفض أخذه إلى المدينة، فتعلم سقف الحيط أن الحرية لا سقف لها إلا سقف حرية الغير ووالده، وتعلم من حادثة سرقة المحفظة وما بداخلها من شلن وصورة اليهودي أن الناس تحب التملك للأشياء، لكنها لا ترغب في بذل الجهد لحيازتها، فالاستيلاء على ملك الغير أسهل طريقة للتملك، كما فعل معه الأبرص، بالرغم من عدم رضا الغير، مما يجعله عملا إجراميا، لكن مدى قبول الغير بذلك ورضاه يختلف بحسب المعتقدات، وهل الغير يقلده أم يقاومه، والأولى أن يقاوم لأن ذلك ليس من طبيعة وفطرة البشر.

إن سقف الحيط متوافق ومتصالح مع ما حدث له ولديه بعض الرضا والقبول، لكنه مختلف حول المصدر، هو يواجه مصدر معلومات يستند إلى حكايات أسطورية وخرافات، فهي ما تزال مصدر شك عنده، مع أنها احتلت حيزا كبيرا من ذاكرته ومن اللاوعي عنده، فكان يحلم بأنه بطل، وتماهى مع دور الملك الغوراني في المنام، فكان يتخيل نفسه أنه ملك

الغور وينزلق في النفق، وحالما ينزلق فيه يغمره الماء أثناء الحلم، فكان يخاف أن يدخل النفق ولا يخرج منه. ومع أنه أثناء الحلم كان يهوي أحيانا في مكان سحيق أو يقع عن حائط ليس له سقف، فيسقط على الفراش الذي ينام عليه، والذي أصبح مبللا من العرق والبول اللإرادي. لقد سمع والده مرة يقول له: لا تؤمن بأي خريفة حول الغولة والخيالة أو المارد والعنقاء أو طائر الرخ.

كان قد سمع أيضا والده أبونسر يقول: إذا طلعلك مارد أو مسخ اجلس ولا تخاف، وسوف يختفي.

بعد أن سمع سقف ما سمع من خريفة الجد أبومليح، اهتزت مقولة والده أمام هذه الأسطورة، وبقي الشك يوازي اليقين، والعلم يوازي الخرافة والأسطورة، وكلاهما في سباق، فأحيانا يسبق العلم، فيقولون إن الأرض مركز الكون والشمس تدور حولها، ويصدق العالم ذلك لمدة طويلة، على أنها حقيقة علمية، وبعد ذلك يُكتشف أن هذا العلم كان خرافة، فيطير العلم، وتطير الحقائق العلمية لتحل محلها الخرافات والأساطير.

سار الرهط نحو البلدة متوجهين غربا، وقد غابت الشمس تماما وحل الظلام، وأبومليح يقول لابنه: «سوق الحمارة بسرعة بدنا نلحق صلاة المغرب قبل ما يأذن العشاء»، وسقف الحيط يقول بصمت: إن آلهة ملك الغور اختفت وراء جبل بلدة قبلة؟

وأمسى سقف الحيط مترددا أمام نفسه بصمت حول إذا ما كان بطل الغور وملكه حقيقة، أم فيها شيء من الحقيقة، أم أنها أسطورة خيالية ورمزية، وأن المسخ كان شيطانا أو إنسانا تشيطن!

التنمر والسقطة

عاد سقف الحيط للبيت بعد رحلة في الناطوفة، وسماع أسطورة بطل الغور، عاد لينام بحضن والدته وينافس شقيقه الرضيع، فوالده نزل إلى الغور، فشعر لأول مرة بآنه طفل وليس غورانيا، ولم يفكر بما سمعه من أبومليح بالأمس من خراريف، بل نام وهو يترقب الصباح ليذهب مع والدته نصرة إلى بلدة جديدة، العِلِّيَّة، وهي بلدة صغيرة أخذت اسمها من علوها، وكانت فرصة لسقف الحيط ليستكشف قمة جديدة، وناسا وأطفالا لأول مرة يراهم، ويرى جده أبوجابر وأبناء أخواله.

إن سقف الحيط لا يعرف أحدا بها، إلا جده أبوجابر، فهو يتذكره بتذكر لعبة فتح القبضة، ليفوز بأول شلن.

رغم أنه ينام بحضن والدته، إلا انها أمرته بالنوم، ولم تحكِ له أي حكاية، ولم تسأله عما حصل معه في المستوصف وما بعد المستوصف، بل طلبت منه النوم لأنها ستسري في الصباح الباكر، وسيمشون ربع يوم ليصلوا إلى بلده العِلِّيَّة، ومسقط رأسها.

كان آخر شيء يقع عليه نظر سقف الحيط قبل أن تنفخ والدته على اللمبة لإطفائها، الصور المُعَلَّقَة على الحيط، فصورة الرجل العسكري ونظراته الثاقبة، وصورة الفتاة الفانتة والجميلة والبريئة، وما تحتضنه بحضنها من طفل صغير بأجنحة طير، تجعل من الناظر إليها يشعر بالسلام، والراحة، والمحبة والبشرى.

انطفأ الضوء وخيم الظلام، وأغمض عينيه لكنه لم يغلق خيال ذاكرته،

فانشغل خياله قليلا بملك الغور وسجوده للشمس. وما لبث أن أخلد للنوم.

كانت والدته نصرة قبل طلوع الشمس قد وضعت في الجونة العجوة العراقية، والجبنة، والقهوة العربية التي يحبها والدها، وكيس هيشي، ودفتر أوتمان لورق لف سجائر، فلما أفاقت مبكرة، أيقظت سقف الحيط، وأعطته رغيف خبز ممسوحا بالزيت واللبنة ليأكله على الطريق، وأحضرت له الحذاء الواسع الذي أحضره والده له من المدينة، وكان واسعا على قدميه الصغيرتين، وقالت له: «البس هذا حتى لا تدمى قدماك من الشوك والنتش والحجارة، فالطريق وعرة ومعظمها طلوع». وساعدته في وضع شرايط داخل الحذاء حتى لا يخرج من قدميه، وأضافت: «والبس بنطلون وقميص أخوك باسل، فهما نظيفان، وجرزاية الصوف، لأن الجو أبرد من عندنا، وراح نقعد لنا يومين أو أكثر عند دار سيدك، ولازم يشوفوك لابس ونظيف مش غوراني مقمل».

ألبسته والدته تلك الملابس فبدا كبيرا بها، فلقد كانت واسعة قليلا، فحزقت البنطلون بشريطة طويلة، ولبس حذاءه الواسع المحشو بالشرائط، فبدا أنه تلميذ في المدرسة، وليس طفلا لم يدخلها، ولم تحمل معها والدته الماء، وقالت له: سنشرب بعد ثلاث ساعات من العين التي في أسفل جبل العِلِّيَّة، وأضافت: لما نوصل العين، بنكون وصلنا العِلِّيَّة، وفيها ولدت وترعرعت، ولي فيها ذكريات وصاحبات.

خرجا من مَصْطَبة باتجاه العِلِّيَّة، وسارا بطرق مقاطعة مليئة بالنَتّاش والأحجار المخرمة. كانت نصرة تحمل على رأسها جونة، وقمطت

رضيعها بشماغ على ظهرها بعد أن أرضعته، وكان سقف الحيط يسير بجانبها وأحيانا يتبع خطواتها، ولم يكن مرتاحا بالحذاء، فكان أحيانا يخلعه ويسير حافيا، وعند وجود أشواك وأحجار يلبسه. وظل على هذه الحال حتى وصلا إلى العين تحت جبل العلبة، كان التعب ظاهرا على نصرة أكثر من سقف الحيط، فهي من حمل الجونة على رأسها، والرضيع على ظهرها، بينما سقف الحيط لم يتعب، بل كان يشعر بالعطش، وقدماه تسلختا من الاحتكاك بالحذاء الواسع، بالرغم من حشوه بقطعة قماش لم تكن كافية لإمساك القدم داخل الحذاء.

كان في بعض الأحيان يفضل أن يمشي حافيا على أن يلبسه، لكن أمه كانت تخوفه من لدغ الأفاعي والعقارب، أو جرح قدميه بحواف شحف الحجارة، خصوصا الصوان منها. كان يداري نفسه بالأكل في الطريق، فيخشم من رغيف خبز الطابون واللبنة التي بدت تجف عليه.

توقفا عند عين العِلِّيَّة لشرب الماء والراحة، بينما انشغلت نصرة بالحديث مع الملايات على العين وهي تعرفهن جيدًا، ولم تلتقِ بهن منذ مدة طويلة، فلقد كانت مثلهن تأتي إلى العين، وتملأ الماء، وتحمل السعن على ظهرها. وتفاجأت أثناء غيابها عن العِلِّيَّة أن النساء لم يعدن يحملن الماء، بل معهن براميل تُحمل على الحمير.

بينما كانت تتجاذب نصرة الحديث مع نساء قريتها، غرف سقف الحيط بيديه الماء الساقط من طرف صخرة، وشرب حتى ارتوى، وكعادته يصعد إلى الأماكن العالية، فصعد على ظهر صخرة عين الماء، وكانت مرتفعة، فبدا له الغور أسفل منه واضحا وقد اكتسى بكسوة الربيع

كسجادة خضراء في شهر أيار، وبدت قريته مَصْطَبة، أسفل بلدة العِلِّيَّة، وشاهد الناطوفة، وكأنها في الغور، وتساءل كيف قال لي أبو مليح إن صخرة الناطوفة هي عرش الغور، العِلِّيَّة والعين أعلى منها، ويجب أن تكون العِلِّيَّة هي العرش، وملك الغور لازم كان قعد هان عند العين، فالماء بجانبه، بينما هناك نطف ماء، ولا يوجد عين ماء في الناطوفة.

قطعت عليه والدته أوهامه الطفولية، وقالت بعد أن حملت الجونة على راسها: قوم قربنا نوصل دار سيدك.

كان آخر صعود وطلوع لهذه التلال والجبال مع والدته بهذا الحذاء الواسع المؤذي للقدمين، لتبلغ مسقط رأسها. وما إن وصلت، وأنزلت الجونة عن رأسها وقبّلت يدي ورأس والدها، أبوجابر، الذي كان جالسًا على فراشه، ومتوسدا الوسائد، خلعت نصرة شالتها السوداء الثقيلة، وأخذت بتنظيف الغرفة وترتيبها، وسقف الحيط يقف مع أولاد أخواله، ولأول مرة يراهم، وقد كانوا يلعبون تحت اللوزة الكبيرة بجانب الطرف الشرقي لحوش بيت جده أبوجابر.

ساعدت نصرة والدها، بالنهوض والارتكاز على عصاه، وأجلسته تحت المشمشة المقابلة للشمس بعد أن فرشت له جنبية وضعتها تحته فوق صخرة ملساء بجانب المشمشة، ورجعت توقد الموقد وتسخّن الماء لتحمّم والدها وتنظف البيت، وتجمع الصحون والملابس لغسلها.

ترك سقف الحيط الأولاد، واقترب من جده الذي تغير وكبر، وطالت لحيته، فشد أبوجابر على يده مذكرًا له بلعبة القبضة، وقال له: تعال جنبي يا ابن الحنونة، أنا سيدك، مذكرني.

جلس سقف الحيط قابضا على يد الجد لعله يلعب معه نفس اللعبة القديمة ويفتح يده فيأخذ ما يجده بها، إلا أنه تفاجأ بأن الجد يقول له: العب مع أولاد أخوالك، أو اجلس بجانبي. ونادى الجد على أكبر الأولاد باسمه قائلا: يا نمر، جيب دلة القهوة وسلم، وحيي الضيف.

كان نمر قد تنمر على أولاد العِلِّيَّة، ليس لقوته أو بنيته، بل لأن أباه كان يعمل في الكويت، وقد حضر مرة وأحضر الهدايا والملابس والسكاكر، فكان نمر يلبس ملابس غريبة لم يلبسها أحد من قبله، ويأكل حلويات لم يذق طعمها أحد من قبله، ويشرب مشروبا بلون خروبي وحلو بطعم غريب ومدهش، وكان هدا المشروب في زجاجة.

لقد كان أبونمر أصغر من أخته نصرة، وقد درس حتى الصف السادس في بلدة العِلِّيَّة، وهو آخر صف فيها، وعمل في النافعة، وتزوج وخلف نمر وأخته. وترك البلد وسافر للكويت مع من سافر من شباب القرى، وعمل بشركة مشروبات غازية عتالا يحمل الصناديق، وكان مجتهدا ومخلصا. وقد رقي ليكون إداريا لمتابعة الإقامات والتأشيرات للعمال الأجانب، وأمضى سنتين واشترى سيارة صغيرة، وسافر برًّا من الكويت بسيارته الخنفساء السوداء، وكانت أول سيارة تدخل بلدة العِلِّيَّة، فالناس متعودة على باص الشخشير الذي يأتي مرة في الأسبوع إلى بلدتهم.

لقد وصل أبونمر وقضى الإجازة مع زوجته والأولاد ووالده وإخوته، وعاد منذ شهرين.

كانت سيارته وزيارته هي حديث القرية حتى وقت وصول سقف الحيط، بالرغم من أنه رجع للكويت ليجهز بيتا لأهله ويسحبهم للكويت،

لقد أحضر لهم معه بالسيارة هدايا وعبوات من المشروب الذي كانت تنتجه وتوزعه الشركة التي يعمل بها، ونتيجة تمتع نمر بالهدايا وعبوات المشروب عن سواه من أولاد القرية، وتجمع الأولاد حول سيارة والده، وكان الوحيد الذي ركب فيها، أخذوا بالتقرب منه، فأدت كل هذه الامتيازات إلى تنمره على باقي أولاد جيله حتى إنهم أصبحوا ينادونه «ابن الكويتي».

ترك نمر على مضض اللعب والتنمر على الأولاد وأحضر الدلة. طلب الجد منه أن يصب القهوة له بعد أن عرفه به قائلا له: إنه من أبناء عمتك أم باسل واسمه سقف الحيط، سلم عليه يا سيدي وصب له القهوة.

اغتاظ نمر من ذلك، فهو أكبر من سقف الحيط، ويصب القهوة له.

صب القهوة على مضض وقال في نفسه: «سأنتقم منه، هذا جاي أنا أصب له قهوة!». وغافل نمر جده والجميع، وتسلق على شجرة اللوز، وحل عقدة من حبل المرجيحة، وبقيت مربوطة بجذع اللوزة على عقدة واحدة دون أن تحكم بعقدة ثانية، ونزل عن اللوزة دون أن يلحظه أو يراه أحد، وتقدم بكل ثقة نحو جده وسقف الحيط مادًّا يده لسقف الحيط قائلا له: «تعال يا ابن عمتي العب معنا»، وتفاجأ سقف الحيط بقول الجد له: قوم يا سيدي العب مع أولاد خالك في المرجيحة. وخلِّ نمر يعلمك عليها.

كانت اللوزة ضخمة، وهي شجرة كبيرة جدا وأغصانها فاردة على زواية الجنينية وعاملة ظل كبير لها، وتأخذ حيزًا كبيرًا من طرف الجنينة ويحيط من جهتين منها سنسلة حجارة بعلو مترين.

كان نمر المتنمر والمتمكر أكبر من سقف الحيط، وأكبر الأولاد المجتمعين تحت اللوزة، وكان نمر قائدهم. وقد أحس بأن سقف الحيط خطر عليه وعلى زعامته، خصوصا أنه سمع أنه قادم من الغور، وأن جدهما قد قربه منه وأنه معجب بغوارنيته، فشعر بأن الغورانية يمكن أن تكون خطرا عليه، وأن الأولاد ممكن أن يعجبوا به فيتركوا نمر، فأراد أن يزيحه عن طريقه.

مد نمر يده لسقف الحيط بشيء من المكر ليدعوه ليلعب معهم، وسحبه من يده حتى وصل تحت اللوزة قائلا: أمسك حبال المرجيحة بيدك من الأعلى، وأصعد على السنسلة، وضع قدميك في أسفل حبل المرجيحة.

صعد سقف الحيط السنسلة التي كانت بعلو مترين، فشد حبال المرجيحة بيده من الأعلى في حين كانت قدماه في أسفل الحبل، حتى إذا شد الحبل وأصبح بعيدا عن مركز الجذع المربوط به الحبل، دفع جسمه الصغير عن علو ليعطي جسده قوة دفع ذاتية ليرتفع عن الأرض ويطير في الهواء ذهابًا وإيابًا. كان سقف الحيط في هذه اللحظة يريد أن يثبت لنمر والأولاد المتفرجين كم مرة المرجيحة راح تطير به في الهواء، فهو قادم من الغور، ولم يكن يعرف بمكر وانتقام ابن خاله نمر.

ما إن دفع سقف الحيط جسده ليطير في الهواء بفعل المرجيحة وقوة الدفع الناتجة من علو السنسلة، وقوة الدفع الذاتي والجاذبية، حتى هوى وسقط على الأرض من علو ما يقارب ثلاثة أمتار، وارتطم جسده بالأرض المحيطة باللوزة التي كانت تشبه مَصْطَبَة البيت من شدة صلابتها من كثرة اللعب

والدوس المتكرر عليها.

لقد سقط سقف الحيط على مؤخرته وظهره. ونتيجة عنصر المفاجأة والعلو انقطع نفسه وأغمي عليه وتفرق الأولاد عندما شاهدوا الموقف وظنوا أنه مات، ففروا من المكان وهم يصرخون سقف الحيط وقع ومات، ولما شاهد نمر الوقعة وحمها فرح في البداية، لكن حين سمع الأولاد يقولون ما يقولون ويفرون من المكان، هرب مسرعا ليختبئ.

سمع الجد أبوجابر صوت الوقعة، فالتفت فشاهد سقف الحيط على الأرض ممددا دون حراك، وسمع الأولاد، فنادى بصوته الجهوري من تحت المشمشة، فحضرت ابنته نصرة، وما إن شاهدت ابنها ملقى على الأرض دون حراك أو نفس حتى دبت الصوت وولولت، فنهرها والدها وقال لها: «احمليه وسمي عليه الرحمن، ودخليه جوى البيت»، فحملته وهي تقول لأبيها: هاظ قاطم النفس.

لحق الجد بصعوبة بهما ودخل الغرفة بعد أن وضعته أمه على فرشة ممدودة بجانب فراش أبيها وهي تصيح وتصرخ، وتضرب بيديها على خدوده قائلة: «اسم الله عليك شو صار معك، اصحى يا ريت أبوك ما جابك من الغور، أول مرة قالوا إنك وقعت في البئر وثاني مرة شو صار معك؟».

كان قد وصل الجد، فجلس بجانبه وقال لابنته: انزعي عنه ملابسه، فكشف على ظهره وتفقد زردات وعظام الحوضين والأكتاف، ووضع يده على صدره، وبعد ذلك وضع أذنه على قلبه لبرهة من الزمن ونصرة تحبس أنفاسها، فقال وقد تفتحت أسارير وجهه: «مغمى عليه نتيجة

الوقعة، وقلبه كان متوقف شوي عن النبض وهسه بلش ينبض، جيبوا لي الماء». ورش الماء على وجهه، وضغط بكلتا يديه على صدره، وأعاد رش الماء، فاستعاد سقف الحيط نفسه ببطء، وهو لا يستطيع أن يتحرك، ويتنفس بصعوبة.

سقاه جده جرعات قليلة من الماء، فلم يشرب لكن رطب ريقه وطلب من ابنته آن تحضر ثلاث إلى أربع بيضات، وشوية طحين وملح، وتفتر شوية ماء، وتحضر ماعونا وخرقة أو حطة قديمة.

ذهبت مسرعة إلى نسوان إخوتها وأحضرتها لوالدها، وهي تعرف أن والدها يجبّر الدواب والناس عندما يتكسر شي من عظامهم.

خفق الجد البيض بالماء والملح والطحين، وشيء من زيت الزيتون حتى أصبح لزجا، وزاد كمية الملح، وفرد الخليط المعجون على حطة رأس قديمة، وقال لنصرة: انزعي عنه قميصه، وامسحي ظهره وخواصره بزيت الزيتون الدافئ، وحالما انتهت من المسح، قام بلف الحطة على ظهر سقف الحيط وبطنه، لتكون لصقة البيض على ظهره، وقام بربطها. وقال: اتركوه ينام ويرتاح، واللصقة راح تمتص كل الأوجاع، ووجه حديثه لأبنته: «أنا ما حسيت إنه عنده كسر، ولكن شوية رضوض، وممكن ملعة وخلجات، نتيجة السقوط، واللصقة راح تريحه، واتركوه ينام، وما حدا يوقظه حتى يستقيظ لوحده»، وقام بتغطيته بفروته وقال مرة أخرى: «اتركوه ينام، وبعد ما يصحى خبروني».

قالت نصرة لوالدها بعد أن اطمأنت قليلا: «يعني يا بوي ما في شيء، ما فيه كسر الحمد لله؟ بالك يا حج اللزقة بتكفي لوحدها؟».

وأضافت: ما دامه نايم، طيب أنا بروح أزور أختي مليحة، وممكن أنزل على العين معها، من مرة بعبيلك البرميل مية، وبنحمم سقف الحيط بعد ما يصحى من النوم، ونفك اللزكة حتى تروح زنخة البيض منه».

طلب أبوجابر من ابنته قبل ما تروح أن يبقى أحد من الأولاد بعد ما تسخن دلة القهوة يقربها له مع الفناجين. وتقرب كانون النار والعصا، وكيس الهيشي، فقالت: أنا بقربهم ما في حدا منهم، قال الجد: ولا حتى نمر

قالت: «ولا نمر»، وتذكر الجد عندما طلب من نمر أن يصب القهوة لسقف الخيط، كيف كانت نظرات نمر له؟ ثم تذكر أن نمر عندما وضع دلة القهوة تسلق شجرة اللوز، وقال محدثا نفسه: هل يمكن أن يكون نمر عملها وفك عقدة المرجيحة، أو أن الحبل اهترأ وانقطع؟

قربت نصرة كانون النار، وصينية قش فوقها الدلة، وفناجين القهوة، وكيس الهيشي.

وقال لها: «قبل ما تروحي جيبي لي حبل المرجيحة أفحصه وأشوف»، لم تكن اللوزة بعيدة، فما هي إلا دقائق حتى عادت قائلة: ما في حبل يا حج كأنه حد من الأولاد سحبه وأخذه.

بعد أن سمع ذلك أبوجابر أدرك أن نمر عملها في سقف الحيط، لأنه شعر أن سقف الحيط كضيف كان مقربا منه أكثر، وأن نمر كان متضايقا عندما طلب منه صب القهوة لسقف الحيط.

طلب الجد من نصرة إذا ما رأت نمر أن تقول له: جدك بده إياك.

بعد 24 ساعة

أفاق سقف الحيط من نومه في الأسبوع الأول من شهر أبريل لعام ١٩٦٧، بعد أن قضى يوما كاملا بنهاره وليله في النوم، ولما أفاق كان فمه جافا، وصوته لا يكاد يخرج من الحشرجة والجفاف، وكانت ملابسه مبتلة من شدة التعرق، وفوق كل ذلك، أحس أن ظهره ملتصق بالأرض، ولا يستطيع أن يفك جسده من الأرض، وكأن رابوصا ربصه في فراشه، فشلت حركته.

كان جسده متخشبا ولكنَّ عقله واعٍ، ولم يكن يدري أهو في كابوس أم لا، فاحتال على جسده بتركيز تفكيره على دماغه ليقوم بفتح عينيه، ففتحتا بصعوبة، ووقعت عيناه على عيني جده، وكأنه لأول مرة يرى عيون وجفون الجد أبوجابر.

لقد كان أبوجابر هذه المرة، جاحظ العينين والجفون التي سقطت منها الرموش، كانت جفونه مقلوبة ومحمرة ومتضخمة، حتى ظهر الاحمرار إلى خارج جحر وزجاج العينين، وماؤهما، مع أنه يجب أن يكون موجها داخل العين.

كانت قد غشي عيون أبوجابر غشاوة، وسحابات صغيرة من الدخان، فيزيدها احمرارا وتدمعا، فيمسك أبوجابر بطرف شورته، ويمسح جفون ومقل عينيه من الدمع والقذى، وفي نفس الوقت يواصل المص والسحب والنفث، بشفتيه الراكدتين تحت شوارب بيضاء معقوفة وملتوية، لتعطي بطولها حجما لوجهه، فيظهر وجهه أولًا طول لحيته البيضاء المصبوغة

بصبغة صفراء نتيجة دخان لفافته التي كان يمسكها بيد، واليد الأخرى التي تبعد دخان هيشته عن عينيه.

كان سقف الحيط بعد أن فتح عيونه وتأكد من وجود جده قد حاول رفع يديه أو تحريك رجليه أو أن ينقلب على جنبه، فلم يستطع، وكان يترقب ويرغب في مساعدة جده، وما إن فكر بذلك حتى تحسس أبوجابر أصابع قدم سقف الحيط وضغط عليها، فأحس بها سقف الحيط وسحب قدميه. لقد كانت أطراف أصابعه العصبية قادرة على نقل قوة الجد إلى حفيده عن طريق فرك وقرص أصابع قدمي سقف الحيط، فتثير النهايات العصبية في أصابع قدميه، فكانت أول حركة له بعد فتح عينيه، اللقاء العصبي بين جسدي الجد وحفيده، فضحك أبوجابر، وقال له: الحمد لله، اجلس يا سيدي.

لم يستطع سقف الحيط أن يسند ظهره ويجلس، فطلب الجد من والدته مساعدته، فعدلته الوالدة، وأخيرا استطاع بمعاونة جده وأمه أن يتحرر من الفسيولوجية التي جعلت جسده متخشبا، وجعلته مشلول الحركة، وهو لا يستطيع أن يرفع يديه، وبالكاد فتح عينيه بعد أن تلقى جرعة عصبية من أصابع يد جده عن طريق أصابع قدميه.

اعتدل سقف الحيط بصعوبة، فجلس ساندا ظهره على الحيط، وبعد برهة أسند يديه على الحيط، فوقف على رجليه بمساعدة أمه، وهو يحس بحمل ثقيل أو حمل حمار على ظهره.

قال أبوجابر لابنته: «الحمد لله من برة ما في فيه كسر، يمكن يكون رض، خلينا نشوف من جوه»، وطلب منها إحضار بكرج حليب دافئ،

وأن تكثر من السكر فيه، ونبهها: «إذا ما لقيتي سكر حطي فيه عجوة من اللي أحضرتيها معك».

شرب الحليب سقف الحيط المحلى بالسكر والدافئ، وترقبه الجد أبوجابر مدة قصيرة فلم يتقيأ.

فقال لابنته: «طعميه وغذيه وبعدين فكي له اللزكة عنه، وحممية، وخليه بعدها يبرطع مع الأولاد، بس ما يلعب مع نمر حتى تروحي فيه سالم إلى بلدكم»، وكان الجد بهذا اللفظ، يذكر ابنته بلهجة أهل العِلِّيَّة، الذين يقلبون الكاف جيم.

كان سقف الحيط، يعلم أنه قد أبعد عن الغور، وهو يقضي أيامًا وأسابيعَ وشهورًا بين قريتين، بلدة أبيه، وبلدة أمه، ومن قبل ذلك في المستوصف وصخرة الناطوفة ومع جد آخر، يروي له حكايات وأساطير وهما فوق صخرة الناطوفة.

لقد وجد سقف الحيط أن بلدة العِلِّيَّة أعلى من الناطوفة، فاستغرب من غباء ملك الغور الذي لم يجعل عرشه على أعلى صخرة في بلدة جده أبوجابر العِلِّيَّة، فهي أعلى من الناطوفة، ومن المفروض، أنه هو الأعلى، ولا يجب أن يكون هناك آخرون في مكان أكثر علوًّا من عرشه الأسطوري.

أخذته أمه إلى زاوية حجرة جده، وهي حجرة كبيرة من بيت عقد، تشبه بيت والد سقف الحيط، وكان لا يوجد أي أحد بالغرفة سوى جده الذي استلقى على جنبه الأيمن على فرشته وتوسد وسادتين، وما لبث أن أخذ قيلولة نوم، فلما تأكدت والدته نصرة من نوم والدها، استغلت الماء

الساخن المجهز لوالدها، وأخذت منه مقدار طاسة، لتحمم سقف الحيط بسرعة أثناء قيام الجد لصلاة العصر، فلا أحد يأتي لزيارة أبوجابر عند صلاة العصر إلا من عابر سبيل أو للتجبير أو الزيارة أو التغيير عن الجبائر.

كان ظاهرا انحناء مَصْطَبة البيت في زاوية البيت المعتمة التي تنتهي إلى المصرف، كانت أمه قد أحضرت الماء الساخن والصابون، ونزعت عنه ملابسه ثم قالت له: كيف وقعت عن اللوزة؟

ما لحق أن يرد عليها ليقول: انقطع الحبل فيا، حتى نزعت أمه عن ظهره اللزقة بشدة، فأحس بألم شديد، وأراد أن يصرخ، فتفاجأ بالماء الساخن يُصَب على رأسه وظهره، ليزيد شعطات نزع اللزقة شعطا، ونضحت أمه الماء على كامل جسمه بدون فرك بالليفة، ونشفته بسرعة، ومسحت على ظهره بيديها بسرعة، بعد أن رطبت يديها ببقايا تلحيسة زيت زيتون المتبقية في الصحن، منذ أن أفطروا مع والدها.

بينما هي تلبسه إذا بصوت رجل غير مألوف لسمعها يأتي من جهة الحوش قائلا: دستور يا أهل دار، أبوجابر.

أنهت الأم تلبيس سقف الحيط الذي جلس بجانب فراش جده، وتوجهت تلقاء بوابة الحوش لتعرف من الضيف؟

سمعت صوتا يقول مرة أخرى: دستور يا أهل البيت، أنا مختار بلدة المزراب، وين الحج؟ بدنا إياه يجي معنا لنجبر رجل هالبنت المكسورة.

أيقظ سقف الحيط جده قائلا: جدي في ضيوف على البوابة.

اعتدل الجد على الفراش، وأعطى الفروة لسقف الحيط ليضعها على

النملية، ويقرب العصا له، ويتفقد القهوة والنار لتكون القهوة ساخنة وبجانبها العجوة. نبه أبوجابر حفيده أن يمسك دلة القهوة باليمين والفنجان بالشمال، وأن يصب أولا للضيف، فاذا هز الضيف الفنجان، فليقدم العجوة وإذا لم يهز فيواصل صب القهوة للضيف.

ما إن اعتدل أبوجابر على فراشه حتى دخل أبوصبيح مختار بلدة المزراب الذي انحنى وسلم على أبوجابر الذي بادره بالقول: اعذرني يا أبوصبيح، فمن يعش فوق التسعين لا تقوى ركبه على حمله، وأضاف موجها كلامه لحفيده: صب القهوة يا ابني لعمك المختار.

صب القهوة سقف الحيط كما علمه جده، وقدم العجوة وأعاد وجلس بجانب كانون النار بعد أن وضع الدلة بجانب الجمر.

تناول العجوة وشرب القهوة وقال: «يا عمي أبوجابر، واحدة من البنات رفستها البقرة، وهي بتحلب بها برجلها وكأنها تزحلقت، وانفلخت رجلها من عند الفخذ».

أجاب أبوجابر: يعني الفلخ من الزحلقة مش من الرفسة، واستطرد أبوجابر: «يا خوي أبوصبيح، أنا ما بجبر هيك حالات، ودوها على السبيطار، لكن ما تحركوها، ولا حد يلعب في رجلها، لأنه إذا جبر الكسر غلط بتعيش عطيلة».

كان أبوصبيح رجلا قويا في الستينيات، وملابسه نظيفة، وسأل أبوجابر هذا الولد من أحفادك؟

رد الجد: نعم هذا سقف الحيط ابن ابن خالي من بلدة مَصْطَبة، وابن بنتي بنفس الوقت، وجاي من الغور.

كان سقف الحيط رغم ما مر به من الوقعة يمارس غورانيته بالإصغاء لحديثهم بقوة فهم يتحدثون عنه.

أجاب المختار: ونعم الرجال رجال مَصْطَبة، وأضاف: يعني حفيد أبوالعبد الله يرحمه.

استغرب أبوجابر واستفسر منه: أنت لحقته وبتعرفه يا مختار!

أجاب المختار: نعم وكيف أنساه في اللقاء والتجمع القروي الذي حصل في بلدنا عام ١٩٢٧ لمناهضة الاحتلال الإنجليزي، ويوم ما أجا البشوات وأكرم زعيتر، وكان جده يومها ممثلا عن قرية مَصْطَبة، وذبح الذبايح لإطعام جميع الحاضرين.

أجاب أبوجابر: الله يرحمه بعدها بست سنوات أخذته رصاصة الغدر وهو نايم على سقف الحيط بجانب غمور السمسم، ولم يُعرَف حتى الآن من قتله، رغم قيام شكوك لبعض أبناء العشيرة ببعض الناس، لكنهم لم يقتلوا أحدا ظلما وحصنوا الدم، ولم ياخذوا بثأرهم لعدم معرفة القاتل. وأشار أبوجابر لسقف الحيط قائلا: وهذا الولد حفيده أيضًا، وكنيته سقف الحيط، وكان عايش بالغور وجاي جديد، وبدي أغير له كنيته ليكون فتى الغور.

انتصب واقفا سقف الحيط عندما سمع جده يقول: فتى الغور!

وقال: «أدور بالقهوة يا سيدي». وتقدم حاملا الدلة والفناجين، وهو فرح بهذا الخبر، وبنفس الوقت يصغي لهم.

فقال المختار وهو يأخذ فنجان القهوة من يده ويتأمله: «ما شاء الله وكأنني أرى أبوالعبد»، ووجه كلامه لأبوجابر قائلا: بس يا حج سبحان

الله بشبه جده أبوالعبد، الله يرحمه.

قال أبوجابر: نعم جاي على جده أبوالعبد، مش على جده أبوجابر!! الله يرحمنا ويحسن آخرتنا.

نهض المختار قائلا: «بسلم عليكم، وبروح أشوف متى بيجي الباص حتى ناخذها على المدينة». واستطرد وهو واقف: «وإذا ما للباص من جية اليوم بطلع فيها على المدينة على ظهر الحصان، وإن شاء الله وكان لي مشوار عندكم، بخبرك شو بصير معها».

أجاب أبوجابر: «وين يا مختار؟ أخذنا الحديث، وما سألناك إذا تغديت أو لا». أجاب المختار: «بارك الله فيك والله ما تقصر».

استدرك أبوجابر: «طيب إذا مش متغدي خليك على العشاء، هسه تروح شوية هالغنم، وبخلي ابني يذبح جدي، وبنتعلل الليلة بمعيتكم، وهو تأخر لأني قلت له يحصد شوية فريكة، من خلة الغصن على شفا الغور.. مونة السنة».

نهض المختار مسرعا وقائلا: والله يا حج ما أنت عارف، بدي أخذ البنت على السبيطار، وبعدين أنت بعت الغنم، وظايل عندك ثلاث عنزات منوحة، فاعفيني، بارك الله فيكم والسلام عليكم.

رد أبوجابر وعليكم السلام، وسأله أبوجابر قبل أن يخرج المختار، هي البنت كم عمرها؟

رد المختار: ١٥ سنة.

هاي صغيرة؟ بتجبر بسرعة، لكن دير بالك، وأنت بتنقلها، ثبت جسدها ورجلها على لوح خشب، حتى ما يتحرك الكسر أو الفلخ أكثر،

وبعد التجبير بدها راحة تامة لمدة ثلاثة أسابيع، وتأكل جبنة، وبيض، وتشرب حليب، وتأكل لحمة.

أجاب المختار، وقد خرج من حوش البيت: «الله يطمنك يا حج»، وانصرف المختار ليترقب قدوم الباص، فإذا لم يأتِ سيضطر إلى أن يركب عربة الحصان مع بنته، ويقطعا مسافة نهار على مشي الحصان، ليصلا إلى السبيطار في المدينة.

رجعت نصرة في المساء من العين، بعد أن ملأت براميل وسعن الماء لوالدها، ووقفت على جميع أخبار القرية من البنات الواردات على ماء العين وقامت بعمل عشاء سريع لوالدها ولها ولسقف الحيط من اللبن والبصل الأخضر الذي قطفته من جانب جنينة التين، وطلبت رغيف خبز من إحدى زوجات إخوانها، فأعطت لها واحدة رغيفين من خبز الطابون، وصحن طبيخ خبيزة بالأرز لحماها الحج، وصحن أوراق لسان الثور محشوة بالبرغل، وكم حبة زيتون أسود.

تناولوا العشاء، وقلم سقف الحيط طعم اللسينة أو ورق لسان الثور المحشو بالبرغل بحاسة التذوق عنده، فهذه أول مرة يتذوقها، فكانت لذيذة وأحبها ولم يطب بالخبيزة التي اعتاد عليها في السابق، وصلى الجد المغرب، وفرشت لنفسها ولسقف الحيط بالجهة المقابلة لفرشة والدها التي كان أمامها منقل النار ودلة القهوة وكيس الهيشي، وقامت على الشباك وأشعلت القنديل. وسألت والدها إذا ما كان يرغب في كاسة شاي أو حليب، فقال لها إنه يرغب في الحليب، وطلب منها أن تعمل أيضا شاي لها ولابنها، الذي قال له: تعال يا ابن الغور، أو أقولك يا ابن ابن

خالي، يا فتى الغور، قرب مني. وسأله: كيف ظهرك، في وجع يا سيدي؟

لم يجب واقترب من جده، ومسك يد جده ليتبادلا القوة من بعضهما عن طريق أعصاب اليدين، وكان أبوجابر ينتظر هذه اللحظة، حتى يأخذ من حفيده جرعات من الدفء ومن حيوية الطفولة، فيتذكر طفولته وينسى أنه الآن شبه مقعد وفي أرذل العمر، فقبض يده الجد، وترك فتى الغور محاولًا فتحها، وكلما طالت المحاولات استمتع الجد وتحسن مزاجه، بينما فتى الغور يتذكر اللعبة والشلن الذي ربحه والمحفظة وصورة اليهودي.

لم يكن الجد يريد أن يجعل فتى الغور يفتح يده حتى لا يتفاجأ بأنه لا يوجد شيء بداخلها، وظل سقف الحيط يحاول ويحاول، وكان يرفعها وينزلها ويصغط بكل ثقله عليها، إلا أنه كان يتراجع أمام الألم الناتج عن شد الظهر على أثر الوقعة من مرجيحة اللوزة.

قال الجد في نفسه: «حتى لو فتحتها لن تجد شيئا فيها». ووجهه كلامه إلى ابنته، وقد انتهت من تعديل فراشها ورفع أواني العشاء:

«يا ابنتي أنا بطلعك على سر، أنت عارفة بعد ما ماتت أمك بعت الغنم مقابل ثلاث آلاف وخمسمائة ليرة، حق الغنمات، وحطيتهم تحت فرشتي من جهة رأسي، وكانوا بزرف جدش، لكن من مدة تفقدتهم لقيت الزرف فيه بس ألف، والنص مش عارف مين طالهم».

أجابت: لو كان من برة كان أخذهم جميعهم، وما ترك لك شيء، بس بده يكون مين؟

يمكن حد من أولادك، وأنت عارف واحد في الشرطة بعمان، وواحد

في الكويت، والثالث في أمريكا، وما في إلا أخونا الكبير هان، وهو الوحيد من يدخل عليك، وينظف فراشك وغرفتك.

قال الوالد: لا بعض مرات بتيجي أختك الكبيرة، أو زوجة أخوك، ونمر والأولاد طالعين وداخلين، وأضاف: هو جابر قليل ما بيجي، ويمكن يوم الجمعة، حتى يساعدني على الحمام، واللبس ويخففلي اللحية، حتى يوخذني على الجامع أصلي الجمعة.

لاحظت ابنته أن الاب صفن وسرح، ولم تدرِ ما يجول في عقله!

لقد كان والدها يحدث نفسه قائلا: «يمكن يكون عملها جابر. إذا كان عملها الله لا يجبره. بتذكر إنه جابر، أكثر من من مرة اشتكى من أنه هو من رعى الغنم وتعب معي، ولم يسافر ويهاجر مثل إخوته، وظل قايم يعتني بي، وكان يقول إنه لولاه ما كبر القطيع، وشلية الغنم، والله عشان هيك أخذ نصيبه من حقهن!».

استعاذ أبوجابر من الشيطان بصوت مسموع قائلا: «الله يلعن الشيطان»، قطعت عليه ابنته حديث النفس، قائلة: «مبلغ كبير الله لا يبارك له الذي أخذه».

التفت الجد بعد فتح يده لسقف الحيط، ليشعره أنه انتصر فلم يجد سقف الحيط شيئا فيها، لا شلن ولا قرش.

عرف سقف الحيط أن ما حصل معه بسرقة المحفظة قد حصل مع جده، فطار ثمن شقاء العمر وحق الغنم التي قضوا عمرهم في الشقاء والرعي، فلما أصبح ثمنها باليد، وقد بلغ من العمر عتيا، فإذا ابنه الكبير جابر يأخذ نصيبا كبيرا منها، معتقدا أنها لقاء تعبه وعنايته بوالده.

ظن أبوجابر بابنه جابر ظن السوء، ولم يكن عنده دليل، ولهذا لم يشارك نصرة بالحديث وكتم شكوكه.

كانت ابنته نصرة تشعر بوالدها الذي تعب وجمع المال، ولم يستفد من هذه الثروة ما دامت صحته قد استهلكها العمر والهرم، وهي لا تعوضها الثروة، في حين كان سقف الحيط يشعر أنه يشبه جده بكونهم ضحية للسرقة.

قال الجد لابنته: شو أخبار أختنا الكبيرة عندكم في البلد، أنا من زمان ما زرتها.

قالت: عمتي منيحة، آخر مرة شفتها وهي تعشب القَرّطة التي في السهل قبل أسبوعين.

قال أبوجابر: مع أنها أكبر مني، وصار عمرها فوق المئة عام، ما زالت تمشي على قدميها.

قالت نصرة: «ما أنت يابا عارف لا ولد ولا قلد، وزوجها هاجرها من عشرين سنة، وراح عمان وتزوج وخلف، وتركها في البيت القديم إللي عمره أكبر من عمرها»، وأضافت محذرة أباها: «أنا خايف عليها، ينهد البيت فوق رأسها في الشتاء القادم، هاي السنة، كان يسيل عليها ماء المطر».

انتبه لتحذير ابنته نصرة، وقال: «شو تقولي، هذا عار علينا، إحنا اهلها، لازم نجيبها تعيش عنا»، وأضاف: «أنا من زمان ما زرتها، بكرة جهزوا لي الحمارة حتى أركبها وأروح معكم إلى مَصْطَبة، بزورها، وبشوف بيتها، وممكن أنقلها عنا على العِلِّيَّة».

بينما كان سقف الحيط يصغي لحديث الأب وابنته بشأن عمة أمه التي سبق أن زارها برفقة أمه، وقد لاحظ عليه الجد فقال له:

روح يا سيدي نام عند أمك، على ظهرك، وطفوا الضو، وخلينا بكرة نمشي مصبحين على بلدكم.

اقترب سقف الحيط من أمه بعد أن أرضعت الرضيع ونام ووضعته في الجونة، وقد خلى حضن أمه له، وهذه ثاني مرة ينام بحضنها، ويشعر بالدفء والحنان، وقالت له: بتعرف خريفية نص نصيص.

قال: «مين نص نصيص. هل هو مثل سقف الحيط»، وتذكر حديث المختار مع جده عن جده الذي قتل، وهو نائم على سقف الحيط، وأراد أن يستوثق من أمه قائلا: ليش سميتوني سقف الحيط؟

لم ترغب الأم في قص قصته سنة العاصفة التي دمرت بيوتهم، وأذهلتها عنه واعتقدت أنه مات، فتركته بخزق في أحد جبال الغور، معتقدين أنه مات. وعاد والده، وبعد أن عرف بذلك، ذهب لإحضار الجثة والصلاة عليها، وعند غسله في المغارة، بجانب سقف المغارة تحت الصخرة التي أُوقدت النار تحتها، وبقدرة الله عادت الحياة له.. خطر ذلك في ذهن نصرة، فتهربت من قص قصة ولادته ولقبه بسقف الحيط، فتركته لسقف الحيط وهو في حضنها ينعم بالدفء تحت انطباع أن كلام المختار عن جده أبوالعبد الذي قتل غدرا وهو نايم على سقف الحيط كان سببا لتلقيبه سقف الحيط.

قالت: «نام حتى أحكي لك قصة نص نصيص، وبعدين أحكيلك، كيف انقتل جدك، وهو نائم على سقف الحيط!!».

وبدأت الوالدة، تخرف بخريفية نص نصيص:

«كان يا ماكان في قديم الزمان ولا يحلو الكلام إلا بالصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام.

كان هناك ثلاثة إخوة حسن وحسين من أم، وأخوهم نص نصيص من أم ثانية، وكانت مسكينة وحزينة وكبيرة بالسن مرت الأيام عليها بدون أن تنجب».

وتوقفت الوالدة عن قص القصة وقالت: نمت؟

رد بشكل متقطع بعد أن فتح عينيه: «لا»، وقال بعدين: «ليش سموه نص نصيص، وليش سميتموني سقف الحيط»، وأضاف: «إن أولاد خوالي وأولاد الحارة لما لعبت معهم ضحكوا من اسمي»، قال ذلك، وأغمض عينيه، وأخلد إلى النوم، فأرادت أمه أن تتأكد من أنه نائم، فقالت مختصرة للقصة: «لإنه العنزة أكلت نص التفاحة، وبعدين أكلت أمه النص الثاني، وبعدين حبلت وجابت ولد مثلك، وسمت الولد نص نصيص، وتوقفت بعد ذلك».

وقالت: «نمت. يبدو إنك نمت، أحسن بكرة ورانا مشوار مع جدك حتى نروح عند عمتي، ونرجع على بلدة مَصْطَبة مصبحين.

فتى الغور

كانت نصرة قد أسرت لوالدها عن عمتها العايشة في مَصْطَبة لوحدها، وأنها هرمت وهرم بيتها، وأصبح آيلا للسقوط، فعقد العزم أبوجابر بعد أن شفي سقف الحيط من السقطة أن يزور مَصْطَبة برفقة ابنته نصرة وسقف الحيط، فيزور أخته الكبيرة ويعيدها إلى بلدته العِلِّيَّة.

وصل الجد وحفيده وابنته إلى وسط بلدة مَصْطَبة، ودخلوا البلدة القديمة التي كانت الطرق بها ضيقة والبيوت متلاصقة، وكلما سار الشخص بطرقها الضيقة أصبحت كزقاق وأكثر ضيقا بين البيوت الطينية القديمة التي تشكل أحواشا، وبيوت أخرى أكثر حداثة من الطينية، وهي بيوت العقد.

كان ذلك حال وشكل كل البيوت المحيطة بالجامع، وكلما ابتعدت عنها رأيت بيوتا أحدث وأكبر.

كان بيت شقيقة أبوجابر التي تلقب بالمُعَمِرة من البيوت القديمة المعقودة عقدا من الطين والحجارة والآجر، وكان من البيوت المحيطة بالجامع، وليس ببعيد عنه.

ما وصلوا حتى عرف سقف الحيط المكان. إنه من البيوت التي تقع غربي الجامع، وتذكر يوم سرقت محفظته، فقد مر بزقاق هذه البيت أكثر من مرة وهو يركض وراء الولد الأبرص الذي سرق محفظته.

كان الزقاق متعرجا وضيقا وفيه منعطفات كثيرة، ويفصل بين البيوت

القديمة، ومن هذه البيوت كان بيت العمة المعمرة، ويبدو أنها أكبر من عمر البيت نفسه، ومع ذلك أصبح البيت آيلًا للسقوط.

كان أبوجابر يقول: «إما أن تسقط قبل البيت وإما أن يسقط عليها، فلكل أجل كتاب، وهذا البيت لم يعمل له ترميم ولا صيانة منذ أن هجرها زوجها قبل عقدين من الزمان، وسافر إلى عمان وتزوج أخرى، واستقر هناك ولم يعد حتى لزيارتها، فلبثت بعده تعيش بدون ولد ولا قلد، إلا من ابنه اخيها المتزوجة في نفس البلد، نصرة، التي تزروها في فترات متقطعة».

نزل أبوجابر عن الحمارة، وقالت نصرة لسقف الحيط: اربط حمارة سيدك في الجنينة، في ساق الرمانة.

فتحت الحجة المعمرة الباب الخشبي، فعرفت أخاها، وقالت له قبل أن تسلم عليه: «صرت تمشي على عكازة! بعد ما كنت تمشي الغور كله، وإنت تصيد الضباع».

فرد عليها مازحا: كنت أصطاد السباع مش الضباع يا خية.

دخلت نصرة قاع البيت ورواقه وكان متسخا والمواعين مبعثرة فيه. وحتى تصعد على غرفة المعيشة والنوم يجب أن تذهب إلى طرف الرواق، وتطلع خمس درجات معمولة من الطين المطعم بالقصل، وهو ما لا يستطيع أخوها أبوجابر أن يفعله، فطلعت نصرة ووضعت رضيعها بجونة فاضية، وغطته بالشماغ وكان نائما، فقالت: «ما دام الولد نائما خليني أنظف الرواق، وقاع البيت، وأنزل فرشة ومخدات، حتى تجلس يا حج في الرواق وبلاش تطلع عالدرجات».

بينما كانت نصرة تنظف الرواق وتكنسه بمكنسة قش من ذرة المكانس القديمة والمهترئة، أحضرت العمة قلَّة الماء لأخيها ليشرب، وسألته كيف أخوك من زمان ما طل علي مثلك.

فأجابها: «فكرت إنك بتعرفي إنه ما عاد يقدر يمشي، ولا بقدر يثبت شخته.

ويمكن أنا مش بعيد ألحقه، لكن أتمنى ألّا يأتي هذا اليوم وأن أموت وأنا أمشي، ولو على عكازة»، واستطرد: «بس إنتي ما شاء الله عليكي بتمشي، وبتطلعي الدرجات الطينية على العِلِّيَّة».

تنهدت وقالت: «بحبي حبي يا خوي، مثلي مثل الأولاد الصغار».

لقد بدت أخته أكثر صحة منه مع أن عمرها زاد على المائة عام، وتنكس جسدها وانحنى ظهرها، ولولا أن ظهرها مربوط بالشداد التركي لما استطاعت أن تمشي حتى وهي منحنية الظهر. كان شعرها الأبيض شبه منفوش، ومن الصعب أن يمشط، لكن كانت تضغطه وتربطه بعصابة حمراء تنزل إلى جبينها.

كان وجهها مجعدا، تظهر فيه التجاعيد والقسمات، وكانت لحيتها قد نبت عليها شعر متباعد عن بعضه، ما لبث أن أصبح بعضه أبيض. وأما عيناها فقد غارتا بوجهها بعد أن سقطت الحواجب، ولم يبقَ إلا بعض الرموش، وكانت تشعر بالغباش بهما، وفي العين اليمنى لا ترى إلا بقعا صفراء وذبابا يتطاير ويدور في ماء العين، ما يلبث أن يختفي فيعود بعد حين.

قالت لأخيها: «بقضي الوقت حتى أذان الظهر وأنا بنزل هالعتبات وبصلي العصر، وبحبي على الدرجات وبصل قبل أذان المغرب».

لاحظ أخوها أنها وهي تحكي لم يبقَ في فمها إلا سن واحد وهو ناب في الفك العلوي وطويل، وعندما تتكلم يتخلخل، وأضافت: بنتك بتمر علي في الأسبوع مرة، وجيراني دار أبوجهيمان الراعي.

قال أبوجابر: «لسه عايش أبوجهيمان»، ووجه كلامه للجميع متنهدا وقائلا: «آه على تلك الايام، بذكر عندما أحضره المرحوم معه، كقطروز من البلقاء، ولما كبر زوجه واحدة من بناته».

أجابت أخته المعمرة: «توفى من زمان بس مرته وأولاده موجودين، ما شاء الله عليهم، زبطوا البيت، وصار عندهم حلال، وبطلوا يشتغلوا رعيان وقطاريز».

قال أبوجابر: «الله يرحمه»، ووجه الحديث لأخته: «لازم نرجعك إلى البلد معنا، أنا مش مروح حتى تيجي معي»، وأضاف: «زوجك هجرك من عشرين سنة، واستقر في عمان، وتزوج وخلف، وأنت ربنا ما أعطاك خلف».

بينما هو يتجادل معها ليأخذها إلى بلدته العِلِّيَّة ولبيت أهلها، نزلت نصرة عن الدرجات، بعد أن كنست قاع البيت، وصعدت وأحضرت الفرشة والمخدات، ونادت: وين سقف الحيط؟ ما خلص ربط الحمارة؟ كنت عاوز أرسله على البيت عنا، يجيب شوية أغراض لعمتي حتى نسوي غدا للحج.

كان سقف الحيط في هذا الأثناء قد ربط الحمارة بشجرة الرمان، وأحس بأنه يريد أن يقضي حاجته بعد مشوار المشي الطويل بين قريتين، وحادثة السقوط من اللوزة، فهو من يومين لم يتغوط.

التفت يمينًا ويسارًا باحثا عن مكان لا يراه فيه أحد، فوجد بزاوية الجنينة، وبالقرب من الطابون مزبلة بها مكان مخصص لقضاء الحاجة، وهو بظهر السنسلة التي تفصل بين الزقاق والجنينة.

أخذ ينبش أرض المزبلة التي كانت مكونة من سجن الطابون وروث البقر والقش والتراب الأسود، وأثناء نبشه أرض المزبلة بمطرق الرمان ظهرت أشياء كثيرة من بطن الأرض: حبة رمان مخمجة وخرقة وطرف محفظته التي ما لبث أن عرفها. أخذ ينبش الأرض هذه المرة بيديه وليس بمطرق الرمان، فلما أمسك المحفظة وحملها وقربها من عينيه رغم رائحتها العفنة، تأكد أنها محفظته، وفتحها ولم يجد الشلن بها.

نظف المحفظة بيده ونفخ عليها ليطير الرماد عنها، ووضعها في جيبه وهو يفكر كيف وجدها؟ وكيف وصلت إلى المزبلة؟

قال محدثا نفسه: ربما وأنا ألاحقه بالزقاق أخذ الشلن، ورمى المحفظة من فوق السنسلة.

أخرجها مره أخرى من جيبه ليتأكد أنها هي هي، ربما تكون محفظة أخرى، هو يتذكر كيف طوى صورة اليهودي، وكيف دسها أسفل ثنية وجيب المحفظة، فكانت في آخر جيب لها.

فتح المحفظة مرة أخرى وأدخل أصابعه الصغيرة داخل الثنية، فوجد

قصاصة الورقة، وفتحها فكانت نفس الصورة.

إن سقف الحيط لا ينسى الصور، ولا صورته المعكوسة بماء البئر، ولا الصور المُعَلَّقَة على الحيط في بيتهم، ولا نقش والده لنصف اسمه على الصخرة، ولا نقش المغرفة فوق صخرة الناطوفة، ولا ينسى الوجوه وإن كان ينسى الأسماء والالقاب، فهو حتى الآن لم يعط اسما له، سوى لقب سقف الحيط، وهو غير سعيد به.

فرح سقف الحيط كثيرًا بالعثور على محفظته. تذكر الغور، والشق، وتلك الليلة الباردة الماطرة وهو وإخوته في نزل المَداحِل في الغور، وتذكر الغور، وقد أصابته في تلك اللحظة نفحة غورانية ما لبث أن نسيها، وتذكر نفسه تحت التوتة عندما عرف من حديث الرجال أن اليهود احتلوا جزءا كبيرا من فلسطين.

لقد سرقت محفظته وها هي تعود بدون الشلن، وتعود الصورة محبوسة بالمحفظة. الولد الأبرص أخذ الشلن، ورمى المحفظة وما بها.

إن وجود صورة في المحفظة هو شيء لا يفهمه سقف الحيط بقدر ما يفهم أنه يحب الصور. إنها صورة رجل يحمل سلاحا، وعلى رأسه خوذة، وهي مطبوعة على ورقة، وقطعها من كتاب أخيه المدرسي.

تمنى سقف الحيط لو يلاعبه جده لعبة فتح اليد، ويجد شلنا أو قرشا داخلها فيأخذه ويضعه في المحفظة، وقد اقترب من جده وجلس بجانبه على فرشته.

قطع عليه خطته بالتقرب من جده وفرحه بالعثور على محفظته صوت

والدته وهي تنادي عليه ليذهب إلى البيت، بينما يقول جده ويخبر إحدى زوجات أشقائه أن يخبزن، وأن يذبحن أحد الديوك الكبيرة، ويعملن عليه شوربة فريكة، ويحضرن لبنا وبيضا لغداء الجد أبوجابر.

قالت العمة: بلاش بيض. أنا عندي جاجات ببيضن، ومحوشة أكثر من عشرين بيضة، ومحفوظات في التبن.

فهم الجد من تقرب سقف الحيط منه -بحكم خبرته وحكمته- ما يدور بخلده، وحتى يحفزه للذهاب بسرعة وليستمتع بلمسات أصابع يدي حفيده فينتقل إليه شعور يعيده إلى أيام طفولته، قال له:

«تعال قبل ما تروح أشوف قوتك يا فتى الغور»، وبنفس الوقت مد يده إلى جيب الساعة، فقد كان يضع بعض النقود بها، وقبض على تعريفتين، ومد قبضة يده إلى من سماه فتى الغور، بدلا من سقف الحيط.

هجم الحفيد على قبضة جده بكل قوة، وبكلتا يديه، كان فرحا بأن سمع لأول مرة اسما يطلق عليه، ويحبه ويقع على قلبه قبل أذنه، فلم تعد المحفظة فقط، بل عادت الحياة والهوية له بهذا الاسم الجديد، فقال لنفسه: يا فتى الغور لازم تفتح قبضة الجد، وتعمّر المحفظة بالنقود.

حاول بيديه الصغيرتين فتح قبضة جدة ودفع برأسه وبثقل نصف جسده على الكف المقبوضة، وهو يلهث ويلتقط أنفاسه، وجده يمسك قبضته ويرخيها قليلا حتى إذا ما كاد يفتحها، شد قبضته فيعيد الكرّة، حتى إذا فتحها نصف فتحة ورأى سقف الحيط النقود، زاد من الشدة على كف جده، ووضع نصف إحدى كفيه بها، حتى لو أطبق الجد الكف، فإن كف

سقف الحيط تكون قد لامست وشدت الأصابع على إحدى التعريفتين.

كان الجد أبوجابر يشعر كلما لامست أصابع حفيده أطراف أصابعه وحزقت وشدت على نهايات الأعصاب بأطراف أصابعه الخشنة، بقوة خفية وخفقان قلب يعيده إلى أيام طفولته. كان يحس أن شدات وضغطات أصابع سقف الحيط قد أعادته طفلا بكامل حيويته ونشاطه، وأنه قادر على أن يترك الرواق ويطلع العتبات إلى الغرفة، فهل نقلت يدا سقف الحيط الطفل ذلك الإحساس إلى أبوجابر العجوز، قد تكون هناك علاقة قوية وخفية بين الجد وحفيده تجعل من تلامس الأصابع وقبضات اليد، قادرة على إعادة البعث أو الشفاء.

حاول الحفيد بيديه وقاوم الجد بيديه، فلما شعر الجد بذلك الشعور الطفولي وأراد أن يكافئه ارخى له أعصاب يديه، فحدث ما حدث بعد جهد جهيد، فتحت الكف، وقبض سقف الحيط على التعريفتين، فأصبحت فرحته فرحتين، الأولى عندما عثر على المحفظة، والثانية عندما وضع التعريفتين بها بجانب صورة اليهودي، وها هو يعوض الشلن الذي سرقه الأبرص بتعريفتين.

وضع المحفظة بجيبه وهو مبتسم، وفرح بنصره وبما حاز عليه وانطلق يركض.

كانت المعمرة في هذا الوقت قد أشعلت الموقد، وبدأت غلي القهوة، بينما أبوجابر كان مبسوطا على لعبته مع حفيده، والإحساس والشعور الذي انتقل إليه من حفيده، وأخذ يتفقد بنظره سقف البيت وجدرانه

ويتتبع الشقوق التي بدأت تتسع به وتتشعب، وينطر أيضا إلى بقع الرطوبة، ويهز رأسه ويقول: «إذا نفدتِ هذه السنة يا أختي وما انهدش عليك البيت، مش راح تنفدي السنة الجاية، البيت خربان وقديم»، وقال على مسمعها: «إن البيت يا أختي أكبر منك. ومن عشرين سنة، من ما تركك زوجك ما حدا ملَّسه ورممه».

انطلقت قدما سقف الحيط تسابقان الريح، وكعبا قدميه يضربان بمؤخرته من سرعة الركض وشدة الفرح، وهو لا يدري لماذا يركض بهذه السرعة بعد أن تحسس المحفظة في جيبه؟ وصل إلى بيت والده ليخبر زوجات إخوانه بالمطلوب ليحضّرن الطعام للجد.

لقد وجد نفسه يأخذ الزقاق المؤدي للجامع، لينزل منه إلى البلاعة والمدرسة، وكان يركض نازلا، فإذا به يتفاجأ ببيوت شعر وكلاب تنبح وأصوات طرق على الحديد، وضرب وضجيج وغناء ومزامير، وأطفال يلهون ويلعبون شبه عراة بشعر طويل منقوش، وكل ما أدركه أنهم يشبهون الغورانيين ببيوتهم وبأطفالهم، وتذكر نفسه وهو يعيش بالغور، فلقد كان مثلهم نصف عارٍ بثياب ممزقة وشعر طويل.

بدا له أن الفارق الوحيد بينهم وبين الغورانيين أنهم لا يوجد عندهم أغنام وأبقار، بل حمير وكلاب وبعض الأواني الحديدية، والنار المشتعلة تحت تلك الاواني، والمطارق والمناجل والفؤوس وسكك الحراثة، والمغارف والخواشيك والسكاكين.

قال سقف الخيط لنفسه: بعد ما أرجع بشوفهم عن قرب، بسأل جدي

عنهم، وأضاف: يمكن حضروا من الغور.

واصل ركضه مسرعا إلى البيت، وطلع عَقَبة القلع وهو يلهث، حتى وصل وأخبر نساء إخوته بالمطلوب، وتجول بالحارة كطفل، محاولا أن يعيش الطفولة، ويخرج قليلا من غورانيته، ليرى أحدا من أولاد عمومته في الحارة، فلقد عادت إليه ثقته بنفسه بعدما عثر على المحفظة، وبعدما فاز بالتعريفات ووضعها بالمحفظة، مما أعطاه قوة للعب معهم، فلم يجد أحدا منهم، فمعظمهم بالمدرسة، ووجد صديقه الأحدب يمشي خلف جده راجعا من البئر الذي توهمت أمه أنه سقط به بعد أن تأمل وجهه بماء البئر ورأى نفسه لأول مرة وأعجب بها، فهو لم يرَ شكله في أي مرآة بالغور، فكان أن رأى صورته أول مرة، وهي معكوسة بماء البئر. كان كل ما عرفه بالغور هو لقبه سقف الحيط الذي لم يكن يحبه، وإن كان مجرد لقب تحول لاسم، وقد حاول أن ينساه وتمنى أن يصبح اسمه كما ناداه جده أبوجابر اليوم «فتى الغور».

مشى مع صديقه الأحدب خلف أبي قادح الذي لم تغب صورته عن مخيلته وهو يذبح الكر ابن الحمارة التي تحمل سعون الماء، ولا صورته عندما أنهى حفر قبره ونام فيه ليتأكد من مقاس القبر، ولا تزال كلماته ترن بأذن فتى الغور عندما كان يقول لمن حفروا قبره وهو مستلقٍ بالقبر: «بعيش الواحد عمره وهو يعمل علَّه ينجو من الموت. وأنا بكل جبروتي وقوتي وعنادي، وخوفي على الحياة، وعلى الحمارة أنها تضعف، كم كنت قاسيا وغبيا عندما ذبحت أكرارها!».

كانت تلك العبارات لا يزال وقعها بأذن فتى الغور، فقال في نفسه سأسأله عما رأيت في البلاعة من بيوت شعر وناس يشبهون أهل الغور.

فما إن سأله عنهم حتى قال أبوقادح: هم لحقوا يجوا هظول النَّوَر.

واستطرد: عندما يبدأ الحر في الغور يرتحلون إلى البلد، وبيعملوا شواعيب ومناجل للحصيدة، وبزبطوا المحاريث والقدور والسكاكين، وبجلخوا الخوص، وبدقوا الوشم للنساء والصبيان، وبالليل بغنوا على الشبابة لأهل البلد ويرقصوا، وعند اقلاعة القطاني برتحلوا إلى بلد آخر.

واستطرد أبوقادح وهو ينزل سعن الماء عن الحمارة: أبوك ما طلع من الغور، وما طلع الحلال على شفا الغور أو إنه بستنى ليحصد فصايل آخر الشهر، ويجيب المونة؟

وأضاف: حاجم الناس خلصت طحين، ورجعوا يوكلوا جراديش!

التفت فتى الغور إلى صديقه الأحدب قائلا: تروح معي عند النَّوَر في البلاعة.

التفت الأحدب لجده منتظرًا رده، فلما سكت الجد قال الأحدب المسكين: ما بخلوني لا أمي ولا جدي، فأنا ما بقدر أهرب من الكلاب.

في هذا الأثناء، سمعوا صوت البائع المتجول، أبوأيمن البياع، فتركهم فتى الغور وأسرع نحو الصوت ومشاعر الطفولة تتنازعه وهو يقول: «راح اشتري هذه المرة بتعريفة»، وما هي إلا دقائق حتى وجد نفسه أمام البائع الذي توقف أمام بيت ترابي بالعادة تجتمع النساء عند زاويته، حيث نبتت الاعشاب وهناك بقايا منها، ليأكل حماره الأبيض المحمل من الحشائش.

لقد عرف أبوأيمن البياع سقف الحيط وتذكر الوقعة والبيضات التي انكسرت وقال له: «مش أنت سقف»، ولم يتركه يكمل فرد عليه بسرعة: «آه بس أنا صرت فتى الغور».

وفي نفس الوقت تقدم، وفتح محفظته وأخرج تعريفة وقال له: أعطيني كسيبة.

ناوله أبوأيمن البياع الكسيبة في قطعة ورق، وأخذ فتى الغور يلتهمها، فهي معجونة من قشور السمسم المتبقية بعد إخراج زيت السيرج منها، فتخلط بالطحين والسكر، وهي حلوة المذاق وشهية، ولا تحتاج أن يمضغها كثيرًا، بل تبلع بسلاسة في الحلق والبلعوم والمعدة التي تمتصها بسرعة، فتحولها إلى طاقة مكتسبة، تكسب الجسم القوة على الحرث والحصاد، فهي ذات سعرات حرارية مرتفعة.

قال له أبوأيمن البياع مداعبا: كأنه الجاجات اليوم مش بايضات؟ هل تتذكر عندما انكسرت البيضات اللاتي سرقتهن؟ وأضاف: هل هذه التعريفة كمان سرقتها!

أجاب: فتى الغور لا يسرق هاظ كان زمان. أنا اليوم ربحتها من جدي أبوجابر لما فتحت ايده المقبوضة.

أحس البائع بأنه صادق ويتكلم ويتصرف ببراءة الاطفال، فأراد أن يذكي هذه الحاسة لديه، فيعيد له تعريفته بنفس طريقة جده، بينما فتى الغور يريد أن يذهب مسرعا من المنعطف لينزل نزلة العَقَبة الحادة، فناداه أبوأيمن البياع قائلا: تعال أشوف قوتك بعد ما غيرت اسمك؟

وقبض يده على التعريفة، وقال له: افتح اليد يا فتى الغور وخذ ما فيها.

شعر باحترام عندما ينادونه بفتى الغور، وهجم على يد أبوأيمن البياع، وكرر المحاولة، وبعد تعب وجهد، أرخى البائع قبضة يده، فأخذ فتى الغور التعريفة وهو فرح مسرور ووضعها بالمحفظة، ونهض راكضا نحو المنعطف لينزل من هناك مسرعا، فيمر من جانب المدرسة، ويتجول حول بيوت وخرابيش النَّوَر. فأولادهم يشبهونه ويشبهون الغورانيين.

أسرع راكضا وانشغل رأسه الصغير بمفاجآت اليوم، ولعبة الجد والبائع، وتمنى أن تستمر هذه اللعبة مع كل شخص يقابله، وكانت أنفاسه تتسارع وكعبا قدميه تضربان بظهره، حتى إذا وصل بسرعته وأحلامه والأدرينالين المرتفع إلى زاوية بيت طيني بمنعطف حاد، تفاجأ بكلب يصعد من العَقَبة، فكان أن تصادم معه وجها لوجه.

كان الكلب يلهث، وكان لسانه ممدودا أمامه وفمه مفتوحا كاشفا عن أنيابه، والزبد يتطاير من فمه ورشقات من الرذاذ تتطاير من حواف لسانه الذي يهتز باهتزاز أنفاس الكلب، وبأقل من لمح البصر كان وجه الكلب بوجه فتى الغور الذي كان يتصبب عرقًا ومحمرًّا نتيجة الركض وأكل الكسيبة، وبنفس الوقت أساريره فرحة بعد أكلة الكسيبة وأصبحت أكثر سعادة عندما أكسبته الكسيبة ليس فقط طاقة، بل أيضا تعريفة.

فكانت هرمونات السعادة عنده نشطة، والأدرينالين مرتفعا نتيجة الركض، فاختلطت تلك الهرمونات ببعضها بعضا فرفعت أيضا نسبة الكورتيزون، وزاد عنصر المفاجاة ولقاء الكلب من ذلك فحوَّل الدماغ -

بيولوجيًّا وعصبيًّا- فتى الغور إلى حالة متوحشة جدا..

لقد كان صوت نباح الكلب قد انطلق بشكل متواصل وفم فاغر، ولا يفصل بينه وبين وجه فتى الغور شيء!

ازداد ارتفاع الأدرينالين في عروقه وأحس بلمح البصر بأن غورانيته عادت إليه وتخلى عن طفولته. كان الكلب يمد رأسه وأنيابه نحوه وفتى الغور يمد يديه ويتخيلهما مخالب حديدية تطبق على فم الكلب ورقبته ورأسه، فيخفت صوت نباح الكلب وتزداد شراسة فتى الغور، فيلقي الكلب وهو يتفعفعل بالأرض، وفتى الغور يتفعفل معه، فينزلقان على صخرة في العَقَبة ليكونا أسفل الصخرة، وبجانب قرمية شجرة مشمش تظلل الصخرة، فوقع الكلب على وجهه وبطنه ما بين ساق الشجرة والصخرة وفتى الغور فوقه وهو ممسك بخناقه، وكأن السقف قد خر على الكلب الذي لم يعد يقدر على النباح أو حتى أن يحرك لسانه ليأخذ نَفَس هواء.

لقد كان سقف الحيط يشد على خناق الكلب، واستمر بالضغط بثقل جسده على يديه على خناق الكلب، فتوقفت أنفاس الكلب، لكن فتى الغور لم يتوقف عن الضغط والشد على رقبته، ولم يكن يحس بمخالب الكلب التي تخرق ثيابه وتلمس جسده، ولا يشعر بعضات أنيابه في وجهه ويديه، ولا حتى شم رائحة لعاب الكلب المتناثر على ووجهه.

لقد تأكد له موت الكلب من حركة لسانه عندما توقف عن اللهاث.

بالرغم من توقف حركة لسان الكلب عن اللهاث، إلا أن فتى الغور

بقي ممسكا بخناقه، وفي هذه الأثناء كان البائع المتجول أبوأيمن يمسك برسن الحمار، ويحاول إنزاله بحذر حتى لا تسقط البضاعة أثناء نزلة العَقَبة في الممر الذي بجانب الصخرة المعترضة والواقعة تحت شجرة المشمش.

إن الدواب ترفض أن تنزل تلك العَقَبة إلا برفقة سائقها، وإن كانت تطلعها بصعوبة وبشق الأنفس فإن النزول أصعب من الصعود، وحتى لا تفحط فتتكسر أرجلها، فيكون النزول مأواها لتكون طعاما للكلاب السائبة، والعقبان المرتقبة على أغصان الزيتون.

الدواب بحاجة لمساعدة صاحبها، وهذا ما كان يفعله أبوأيمن البياع الذي تفاجأ بالموقف. وعندما رأى فتى الغور ترك الحمار من فوق الصخرة كمتفرج وشاهد لا يستطيع أن ينطق إذا استنطق بالشهادة! ونزل تحت الشجرة قائلا وهو يمد يديه له: عضك الكلب يا فتى الغور؟

عندما سمع فتى الغور صوت البائع في هذه اللحظة برد جسمه ونزل الأدرينالين، فتخيل أنه يخرج من جسد الغوراني ليعود إلى جسده البشري الطفولي، وخبت غورانية فتى الغور رويدا رويدا وبشكل خاص عندما لامسته نفس الكف التي فتح قبضتها وأخذ التعريفة منها، وقال بعد أن انخفض الأدرينالين وعادت إليه رحمانيته: لا ما عضني أنا قتلته!

رفع البائع فتى الغور عن جسد الكلب الذي كان ملقى تحت بطنه وتفقدهما فوجد الكلب جثة، وفتى الغور يتصبب عرقا، وبعض الجروح والخدوش، والدماء على يديه، وفي وجهه.

أسقى البائع فتى الغور قليلا من الماء، فهدأ من روعه وقال له: اذهب إلى أمك يا ولد وخليها تعمل لك طاسة الرعبة، وليأخذوك إلى المستوصف فلربما كان الكلب مسعورا.

ذهب مسرعا إلى بيت عمة أمه ليخبر أمه وجده ما حصل معه وقصته مع الكلب.

لقد وصل فتى الغور إلى بيت العمة وهو منهك وفي حالة يرثى لها، وقد فاجأته أمه بالسؤال والتوبيخ، ومع ذلك تفقدت يديه وجسده المهشمين، ومسحت الدم عنهما. وسألت والدها فقال لها هذه آثار أنياب ومخالب كلب، وطلب من أخته المعمرة التي كانت تغلي القهوة أن تمزج القهوة بشيء من زيت الزيتون وتحضرها له، فقام بملء مكان الأنياب على يديه بالقهوة وقال: ستشفى، وأضاف: إن شاء الله ما يكون الكلب مسعورا؟ وقالت أمه: باخذه بعد الغداء إلى المستوصف حتى يضربوه إبرة حتى لا يمرض بمرض الكلاب، وبعدين يموت لا سمح الله، مثل ما صار في دار أبوالكلبات.

قالت عمتها: سمعت أن هناك إبرة وإن شاء الله تكون موجودة بالمستوصف، لإنه أنا بذكر لما جابوه أبوالكلبات على المستوصف ما كان في إبرة، وحملوه للمدينة على الحمار وتوفي بالطريق، وكان عدى أهله وتوفوا كلهم من مرض الكلب، وانقطع نسلهم وارتاحت الكلاب منه، وصار اسمه أبوالكلبات.

خافت والدته وأردفت عمتها: وبعدين جابوا للمستوصف إبر لعضات

الكلاب ولقرصات الأفاعي.

بعد ما سمعت أمه ما سمعت لم تصبر حتى يأتي الغداء وقالت لأبيها وعمتها: إذا جاء الغداء تغدوا وخلولنا، ولما برجع بظبظب أغراضك يا عمتي حتى تروحي مع أخوك، أحسن البيت يوقع عليك.

عارضت العمة، لكن أخاها أقنعها وبدأت بجمع أغراضها، في حين أمسكت والدته بيده وقالت قوم معاي.

لم يعارض فتى الغور الذي كان منهكا ومتعبا ونازفا ويتمنى أن تحمله أمه. وإنها فرصة له أن يلتقي ويستمع لصديق جده فيكمل له أسطورة فتى الغور الذي رافقه لصخرة الناطوفة، ويسأله لماذا لم يختر البطل مكانا أعلى من الناطوفة كبلدة العِلِّيَّة بلدة جده التي زارها؟

بعد 25 يوم والوشم

تركت أنياب الكلب ندبا على كفي وذراعي ووجه فتى الغور، بعد أن أخذته أمه إلى المستوصف وطمأنها التمرجي، وقال له: عدت يا سقف الحيط مرة أخرى عندنا، أنت اليوم محظوظ، فآخر إبرة من إبر الكزاز سنضربك إياها حتى ما تصير كلب مسعور. أضاف التمرجي مداعبا: ما بكفي إنك سقف الحيط، كمان بتصير تنبح مثل الكلاب وبتنوص، وبعدين بتموت.

رد على التمرجي بينما التمرجي يغز الإبرة في فخذه ودون أن يُشعر التمرجي أنه يخاف من الإبرة، قال: أنا ما عدت سقف الحيط، أنا فتى الغور.

لقد سمع كثيرًا، فتى الغور من القدح والتندر على اسمه، فالأسماء يجب أن تدل على المسمى، وهو ليس بسقف ولا حيط، فلماذ هذا التركيب والتصعيب حتى أصبح يكره اسمه في القرية كلما سأله أو نادى عليه أحد؟ مع أنه عندما كان في الغور لم يكن يكره هذا اللقب، فلم يكن أحد يناديه في الغور إلا والده أبونسر والرعاة، وأكثر كلمه سمعها، هي كلمة، يا ولد تعال، يا ولد روح.

لم تكن رحمانية الغور تضايقه بلقبه، فلا أحد ينابزه كالقرى، كانت رحمانية الغور صامتة لا تتكلم، تعمل بصمت، وعلمته فن الإصغاء والإنصات. كانت لا تعكس إلا الصواب والرضا، وعندما تأذن الرحمانية بصمتها للطبيعة، فإن قوانين الطبيعة تتكلم، فيسمع أصوات الطيور ونباح

الكلاب وعواء الذئاب وصوت الريح والمطر وجريان الماء وتغريد الطيور، ونداء الخراف على أمهاتها في المساء، ووداعها في الصباح.

لقد بدأ يكره لقبه عندما قرر والداه أن يبعداه عن الغور ويعيش في القرية ليشعر بالطفولة بها، فما أن استقر فيها وتفاعل مع أهلها، بدأ والده يغير سلوكه، وحد من حريته وغورانيته فدفعه فأوقعه أرضا، فانتقم بسرقة البيضات وتعثره وانكسار البيضات، ووهم البئر وافتتانه بصورته وظهور واكتشافه نرجسيته، والمحفظة وصورة اليهودي، والأبرص، ومكر وتنمر نمر، والسقوط من مرجيحة اللوز في بلد أمه، وأخيرا تحوله البيولوجي، حين أردى الكلب قتيلا.

كان جوابه للتمرجي رسالة له ولغيره لوقف التهكم على لقبه، ليقول لهم إنه الآن فتى الغور، مع أنه بحاجة اليوم للتمرجي لينقذه بحقنة كزاز، ليوقف تحوله إلى كلب مسعور.

لقد غاظه تندر التمرجي المدني على اسمه الفلاحي، وزاد على ذلك بأن أخبره بأن الجروح سوف تشفى، ولكن ستبقى الندب وستكبر معة كلما كبر ونما جسمه.

لقد أشفقت نصرة على ابنها الذي أوشكت في يوم من الأيام أن تجهضه، بعد أن ضربها أبونسر بقدمه على خاصرتها، وتذكرت يوم تركته بعد ميلاده بأسبوع واهمة أنه ميت، فسدت عليه في الغور الخزق الذي اعتبرته قبرا له، وقررت من اليوم ألا تدعوه إلا فتى الغور، كما يحب وكما سماه والدها أبوجابر.

كانت تعتقد أن اللقب الجديد يعكس حالته، فهو يربطه بمكان نشأته

وهو الغور، فهو مطابق للمسمى، وعمره لا يتجاوز سبعة أعوام، وعلى وشك أن يدخل المدرسة، وقد فكرت ووالده باسم رسمي يدخل فيه المدرسة، ولكن لا حرج في دعوته بفتى الغور بدلا من سقف الغور.

لقد لاحظت نصرة أن ابنها أحب هذا اللقب عندما ناداه جده به، وذكره بخريفية جد أخواته، وصخرة الناطوفة، وبطل الغور المقدس، فذلك حلمه الذي كان يرجو أن يكون عليه.

بدت بلدة مَصْطَبة في الثلث الأخير من مايو عام ١٩٦٧ هادئة، وقد قطف وخلع أهلها القطاني، وطلع بعض سكان الغور إلى البلدة بعد أن أصبح الجو حارا وجافا واصفرَّ ربيعه وزرعه، في حين أن الربيع والزرع في القرية لا يزال أخضر ولم يصفر، ولم يستطع فتى الغور، أن يتكيف مع أولاد القرية، وإن كان يعجبه حديث النسوان عند الطوابين، واللعب مع أولاد النَّوَر على البيادر. وعندما ذهبت أمه لجلخ الخوص والسكاكين وتزبيط المناجل والدواكير عند النَّوَر، التقت بإحدى النَّوَريات التي اعتادت على لقائها في كل موسم، وتدق الوشم للنساء، فأرادت نصرة أن تحدث تغييرًا في وجهها، فطلبت من النَّوَرية أن تدق لها الوشم.

لقد رأى فتى الغور عندما دقت لوالدته ثلاث نقاط، واحدة على أسفل فكها، واثنتين على ثغرها، وكانت تدق بالإبر والكحل الأسود ومادة أخرى، وما لبث مكان الدقة أن أصبح أسود، وشاهد أمه وهي تفتح كف يدها للنورية لتقرأ لها الكف، بينما فتى الغور يتطلع خلسة عن بعد فلا يسمع شيئا فيحاول أن يتكلم مع أولاد النَّوَر فلا يفهم شيئا منهم، إلا أن إحدى الفتيات ذات الشعر المنقوش أمسكت بيده وأخذته لتريه جروها

المربوط بوتد الخربوش، وكانت تحاول بلغة الجسد أن تسأله عن آثار الندب بوجهه. كان الجرو صغيرًا، ولونه أسود، وذكره بكلبه سرحان، لكنه سرعان ما تركها وركض نحو أمه عندما تذكر حادثة الكلب، فبادرته أمه بالقول: أنا خلصت، خلينا نروح، وأعطت النَّوَرية عشرين قرشا، وقامت، وقد بدا وجهها مختلفا.

بعدما أخذت النَّوَرية النقود، وسلمت الخوص والمناجل لنصرة، اقتربت من فتى الغور قائلة لها: «اسم الله عليه هاظ ابنك»، ولم تنتظر الجواب، بل أمسكت بكفه وفتحته وتبصرت فيه، وأمه تقول: «بلاش تقرأي كف الولد».. سألته شو اسمك؟

أجاب دون تردد: فتى الغور.

أرخت النَّوَرية كفه وهي صامتة ولم تقل شيئا، وهزت رأسها قائلة: «الله يحفظه، طريقه طويلة وصعبة، كلها تشرد وصعود جبال، بس الطريق مفتوحة أمامه، ومنصور بإذن الله وممكن يصل للقمة.. بس في شيء في طريقه مثل الصخر بشبه البغل أو الجمل، وبحمل سلاح، ومستخفي بجانب بئر ماء عميق جدا، واقف على خرزته»، عادت وقالت النَّوَرية: «بس اطمأن راح توقعه على الأرض مثل ما وقعت الكلب، وبتمرغ وجهه بالتراب، وستعضه عضة مثل عضة الكلب، وهذا ليس ببعيد، بل هو قريب وقريب كثيرا».

نهضت والدته وهي تسأل ابنها: «بوجعك مكان الإبر؟».. فتجاهل سؤالها بهزه رأسه للأعلى، ففهمت ولكنها خافت من كلام هذه النَّوَرية، فما تقوله لها وللنساء على سبيل التندر والتسلية، كان بعضه يقع بعد

حين، وسألت النَّوَرية والدته: «لماذا هذا الندب بوجهه خليني أدق له وشما يغطيها»، رفضت والدته وقالت. «ما زال صغيرا وستختفي».

قالت النَّوَرية: لا أريد أجرة عن ذلك، لقد دفعت، سأعمل له على ذراعه نسرا صغيرا، يخفي الندب عنها.

وبدأت تحمّي الإبرة على النار، وتسيح إحدى المغيطات التي كانت تربط بها جدائلها.. فتضع الإبرة التي احمرَّ راسها على المغيطة فيذوب المطاط الأسود، وبسرعة تضعها في المكحلة وتنخز جلد ذراعه بها حتى أدخلت المطاط والكحل بالثقب مكان الإبرة. نفخت عليه وقالت: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء».. وبنفس الوقت سألت والدته عن سبب الندب.

وحين غرست الإبرة بذراعه أحس بالألم.. وأمه تقول: عضات كلب..

لقد أحس بألم الوخزة الأولى وحاول تذكر مخالب وأنياب الكلب التي لم يحس بها عندما كان يتعارك معه.

ولم يعد يحس بالوخزات المتتالية، ولا بحرارة رأس الابرة، وإن كان يشاهد الدم وهو ينزف ببطء، وتظهر نقط صغيرة من ذراعة، والنَّوَرية تضع الكحل مكان نخزات الإبرة، وأنهت ذاك بعد أن مسحت بيدها ذراعه بالزيت، وحملت نصرة كيس الخوص، وأخفته تحت الشالة وأمسكت بيد ابنها بعد أن تغمغمت فلا يظهر منها شيء ولا تعرف من هي، كحال جميع نساء مَصْطَبة.

أقفلت والدته راجعة للبيت، لكنها دون أن تدري وجدت نفسها تسير

إلى الطريق المؤدي إلى بيت عمتها الذي أصبح مهجورا بعد أن قام والدها بترحيل عمتها، فغيرت مسلك الطريق، فقد كانت معتادة كلما حضرت إلى هذه المنطقة، أن تمر على عمتها.

لقد توشم أو توسم فتى الغور مقلدا أمه، وإن هذا الوشم سيبقى معه وسيكبر معه، وسيكون كوسم والده لآذان النعاج، مع فارق اللون الأسود، الذي يلون وشمه.

لقد كان يشاهد والده أبونسر وهو يحمي قضيب الحديد الذي ينتهي بقاعدة حديدية صغيرة تمثل وسمه الخاص لأغنامه، فإذا ما أصبح الحديد نارا، كوى أذن النعجة به فتصدر ثغاء وتصرخ، وتذهب مسرعة لتحك رأسها وأذنها بأقرب نعجة أخرى أو صخرة، من شدة الألم.

وقال لأمه: أنا سألت أبوي في الغور لما كان يوسم الغنم، ليش بعمل وسم الها؟

ردت عليه والدته: ليش؟

قال: حتى إذا ضاعت الغنمة أو اختلطت مع غنم الغير، يعرفوا انها لأبوي.

فهمت والدته ما يريد أن يعرفه فقالت: اطمن مش راح تضيع..

فرد عليها: بس النَّوَرية، قالت إني راح أتشرد وأضيع، عشان هيك عملت وشم النسر على ذراعي حتى يعرفوا مين أبوي.

وأخذ يحدث والدته التي كانت مستعجلة قبل أن يصحو أخوه الرضيع لترضعه، فقال لها: أنت تعرفي إنه جدي نادني فتى الغور، بدل اسمي. إذا حد سألك عن اسمي، قولي إنه ابن الغور أو فتى الغور.

قالت وهي غاضبة: «أنت ابني مش ابن الغور».. وحملته بين ذراعيها فشعر بسعادة، فهذه أول مرة يتذكر أن أمه تحمله، فشعر بالنعاس ونام وهي تمشي به، ورغم ثقله فهو ابن سبعة اعوام، ورغم طلوع العَقَبة، إلا إنها لم توقظه، وحتى عندما وصلت إلى البيت، وضعته برفق على فرشة، ورغم أنها مددته إلا أنه عاد، وأخذ وضع الجنين في بطن أمه بعد أن وضع أصابعه في فمه وهو نائم.. وتخيل نفسه أنه ما زال في بطن أمه أو على الأقل في حضنها، في حين هي تركته وانتقلت لترضع ابنها الرضيع، وترضع ابن الجارة التي كان «منشف حليبها».

نصير، وسوق الجمعة

واصل نوم ما بعد العصر إلى الليل فتى الغور، ولم يوقظه أحد، حتى الأصوات والحركة في البيت ولا الجوع أيقظه، وكانت أمه نصرة قد سحبت فرشته وهو نائم نومة الجنين في بطنها، سحبتها إلى أبعد زاوية عن باب البيت، وغطته وتركته ينام كما كان نائما في حضنها لأول مرة.

حضَّرت والدته العشاء لإخوته فأكلوا وناموا جميعا على فرشة أخرى بجانب فتى الغور، وقامت وأدت صلاة العشاء، وأرادت النوم، فسمعت طرقا على الباب، فعرفت من طريقة ووقع الطرق أنه زوجها، فنهضت وهي غير متوقعة لحضوره من الغور.

قالت: «إنت جيت يا حج»، وفتحت بوابة الحوش، فسمعت صوته هو يقول: «سلام يا أهل البيت»، وعانقها سريعا، فشمت رائحة الأغنام بثيابه وأخذ يساعدها بتنزيل تنكات الجبنة والخرج والحلس عن ظهر البغلة، وهو يقول: «طلعنا الغنم على شفا الغور، وبعرضها للبيع، أنا تعبت من القيام بالفلاحة ورعي وتربية الأغنام»، وقال لها وهو منهك: «في مثل عمري يا إما فلاحة أو تربية الغنم»، واستطرد وهو ينفس عن همومه لزوجته نصرة، قائلا:

«أصبح الغور حاميا، والربيع والزرع جافا، وصار أصفر، وبدنا نحصد القمح من غور فصايل هذا الشهر، ونغمره وندرسه في أول خمس أيام من حزيران». وأضاف: «وتنكات الجبنة الخمسة هذول، وكيس الجميد وخريطة اللبنة، هذول مونة لكم، والجبنة اغليها مليح، وملحيها، وحطي

مستكة وكزحة»، وأضاف: «واللبنة كوريها، وحطوها بالزيت، فإذا بعنا الغنم فهي آخر منوحة لكم»، وأكمل حديثه وهو يتطلع في وجهها لكن لم يرَ الدقات السوداء الثلاث على وجهها لأن الظلام كان قد حل، فأكمل حديثه وهو ينزع كبره:

«اسقي البغلة الله يرضى عليك، واربطيها، واعليفها، وأنا رايح أتوضى وأصلي المغرب والعشاء قصرا وجمعا، لاني بكرة ذاهب إلى فصايل أحصد، وأدرس، وأجيب لكم من أول الخير قمح حتى الناس تطحن وتعجن وتخبز». وأضاف وهو يأخذ إبريق الماء الحديدي، ويسير إلى زاوية جنينة التتن، وتحت ظل التينة، ليأخذ على يده الماء من أجل إكمال الوضوء: «اوعي تكوني خلصتي المونة من آخر طحنة، ونصير نأكل جراديش الذرة».

أجابت نصرة وهي تقود البغلة للبئر: «احنا ظايل عنا شوي، بس اطمن أخذت شوي من عمتي، مش خالك أبوي الحج أجا معاي، وأخذها معه عندهم على العِلِّيَّة».

قال وقد ابتعد قليلا: أحسن شيء عمله الحج في حياته جزاه الله خيرا.

استيقظ فتى الغور من النوم في الثلث الأخير من الليل على صوت والده ووالدته وهو يشعر بالجوع، وكان والده قد أنهى صلاة الفجر، ووالدته قد أنهت اغتسالها بزاوية البيت التي غطيت بستارة، وقد لبست ثيابها وأزاحت الستارة، وجلست أمام مرآة صغيرة، وعلى ضوء القنديل الخافت أخذت تمشط شعرها، وفتى الغور فتح عينيه وأزاح عن نصف رأسه الغطاء فوجد إخوته نائمين، ووالده ينهي الصلاة ويسلم، ووالدته

أيضا تنهي تمشيط شعرها المبلول، وعليها ثياب أخرى غير الثياب التي اعتاد أن يراها بها.

نهضت نصرة وقالت: يا حج بعملك فطور. بدي أعمل لك بيض بجبنة، ما دامك جبت لنا جبنة من خير السنة، وعنا بيض كثير من عند عمتي، ما بتزمه معها، أحسن ما يتكسر.

وقالت له وهي تثني على قراره ببيع الحلال: والله يا حج هاظ أحسن شيء تعمله، أنت كبرت، والأولاد الكبار هربوا من الغنم إلى الجيش وإلى الكويت، وأنت كبرت وأبنائي في المدرسة، وصغار، بس ما قلتلي شو بدك تعمل بحقهم يا حج؟

كان قد توجه إلى الراديو وعلبة الهيشي التي وضعها فوق صندوق الراديو، فأخذ العلبة، وبدأ اللف بالهيشي، ولف زر الراديو ليشغله ويسمع القرآن والأخبار، وهو يقول لها: «بشتري أراضي، وإذا ما حد ببيع بنقرضها لأصحاب الأراضي مقابل رهن، وحيازة الأرض وزرعها».

لقد سمع أبونسر في الأخبار ومن وجهاء أهل البلد أن صاحب الصورة المُعَلَّقَة على الحائط في بيته سيعيد ما أخذه اليهود من فلسطين بالقوة، فقال لنصرة: «اغليلنا شوية شاي وحليب، حتى أدخن سيجارة، وبعد الفطور صحي الكناين خليهن يساعدنك في تجيهز عدة الحصاد»، فتذكرت أن النهار سيطلع ويرى ووجها، فقالت: «مش رحت عند النَّوَرية التي بتيجي كل سنة على البلد، وجلخت الخوص والفؤوس والمناجل، وزبطت عصاة الشاعوب والمذراة، بس بدي أدور على الغربال، والصاع والكياس والقادم»، واقتربت منه وقربت وجهها له، وأضافت وهي

تبتسم: «وكمان دقت لي الثلاث نقط على وجهي، شوف محلاهم، كل واحدة قد الشامة، وصار عندي ثلاث شامات».

ضحك أبونسر مع أنه لا يحب الوشم للنساء وإن كان يقوم به لآذان الأغنام وقال: «كويس إنهن صغار، مثل الخال على الخد. وبزيدوه جمالا، والله بزينوا خدك»، واقترب منها أكثر وقرص خدها.

قالت بعد أن ارتاحت وانفرجت أساريرها: «بس يا حج هسه الأولاد بصحوا»، ولم تكن تعلم أن فتى الغور صاح، ويسمع كل شيء فأضافت: «ارتاح يا حج، خليني أحلب البقرة وأعمل الشاي»، وأكملت حديثها قائلة: «بلا زغرة، أنت متى نازل على فصائل للحصيدة، ما تقعد لك يومين؟».

أجاب أبونسر وهو يمد أسلاك البطارية للراديو: «إن شاء الله بعد العصر، وجهزي المونة لمدة عشرة أيام، وزيديها لأني بطعم الحصادين، فأكثري من الخبز، ومن الأقراص المعجونة بالزيت والسمسم، وأكثري من الشاي والسكر. ولا تنسي التتن».. وأضاف قبل أن تخرج للياخور وهي تحمل البكرج: «وكيف الولد سقف الحيط. إن شاء الله صار مثل أولاد البلد، وغير اطباعه، وكيف إخوته ومدارسهم؟».

قالت وهي مسرعة: «اسكت مش سماه جده فتى الغور، وهو مبسوط على اللقب»، وأضافت: «مش كمان عضه الكلب، وهاي قصة طويلة، واللي صار معه ما صار مع حد وبعدين بحكيها لك».

واستطردت: «وبعدين، اليوم الجمعة يا حج ما في مدارس، راح تشوفهم وتسألهم، ما أنت بتعرف، أنا ما بعرف شو بعملوا، ويا ريت كان

أبوى علمني»، رد عليها: «بس ما شاء الله عليك، أنت شاطرة بالحساب، أكثر ممن في المدرسة».

لم تسمع ذلك المديح والثناء نظرًا لانشغالها بتشغيل البابور الذي يُخرج أصواتا، لكن سمعه فتى الغور، وهو يعرف أنها تعرف كم كيلو في قصة الجبنة؟ وتحسب سعرها قبل ما يخلصوا حسابها على الورقة والقلم.

لقد خرجت نصرة مسرعة بعد أن أشعلت بالبابور ووضعت إبريق الشاي عليه، وكانت منتشية بسبب الثناء وذهبت لتحلب البقرة، بينما كان أبونسر يلف سيجارته وهو يفكر بما سمعه من أخبار عن ابنه الذي أحب لقب فتى الغور، وقال في نفسه: «يعني هالولد ما زال متعلقًا بالغور، هاظ الولد لم يعش حياته كطفل، وعشان هذا السبب أنا تركته في القرية ليعيش مع الأطفال وينسى الغور، وإن شاء الله بصح لي بيعة كويسة للغنم، راح ببيع وبخلص من الغور والعزب». وأضاف: «كنت اليوم بدي أكلم المختار حتى يطلع له شهادة ميلاد، وأسميه غير لقبه، وأسجله في المدرسة باسم رسمي، ما هو كمل سبع سنوات، وبدا في الثامنة». واستطرد محدثا نفسه: «وحرام هذا الولد عاش بدون اسم، ولم يعش طفولة، وعاش بالغور مثل أهل الغور، وهسه جده أبوجابر يسميه اسم مركب، ومش عارف هو صار يعني هو ابن الغور، ومش ابننا»، وأضاف مؤكدا لنفسه: «وأنا قررت أخلص من الأغنام التي تربطني بالغور، وكمان راح سمّاه «فتى الغور» حتى يظل يذكر الغور، ويرجع إليه! أنا ما بدي أولادي يرجعوا على الغور ويعيشوا مثلي».

في هذه الأثناء، وبعد أن أوصل سلك الراديو، وحرك المفتاح، وفتح

قلبه وسمعه للاستماع لآيات من الذكر الحكيم بصوت عبد الباسط، وتصادف أن كان يتلو من أواخر سورة الواقعة {أفرايتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون}.

قال بنفسه الحمد لله إنه ربنا قدرنا نحرث ونبذر، وربنا نزل علينا من السماء الماء رزقا لنا ولغيرنا، فأصاب به أرض الغور الميتة الجرداء فأحياها، والله يعينا على حصاده وتغميره ودرسته وتذرايته. وسرح بخياله، التبن راح أحطه بالمغارة، وأجيب القمح فقط، خلي التبن للغنم لشتاء السنة القادمة إذا ما بعتها، وبعدين مش عارف هل آخذ الأولاد على فصايل يساعدوني، مهمه خلصوا مدارس، وراح أسألهم إذا خلصوا أم لا؟

سمع فتى الغور كل الذي دار بين والده ووالدته من حديث؟ وهو عامل نفسه نائم، وقد مضى على نومه أكثر من نصف يوم، وهو ينتظر الوقت الذي تضع أمه لوالده الفطور قبل أن يصحو الجميع، ليشارك أباه بالأكل، فهو يشعر بالجوع والعطش، ويريد أن يسمع أحاديث والده عن الغور، فهو يتوق ليعود مع والده إلى حضن الغور، ويحزنه أن أباه قرر بيع الأغنام.

سمع فتى الغور كلام الله وهو يتوارى باللحاف حتى لا يراه أبوه مستيقظا، وأحس بوقع خطوات أمه وهي تصب الشاي والحليب، وتضعه أمام والده الذي أنهى لف الهيشية وتناول الكوب وسمى بالله وشكر نعمته عليه، وأخذ يشرب الشاي والحليب، ويولع السيجارة التي أشغلت رائحتها حاسة الشم عند فتى الغور على حساب حاسة السمع التي كانت منشغلة بالاستماع إلى آيات الذكر الحكيم التي جعلته خاشعا، وإن كان لم يفهم شيئا إلا {النار التي تورون} فهو موارٍ وجهه بالغطاء، وتذكر

كيف كان والده بالغور في الليل يواري الجمر بالتراب والحصى ليقوم بالصباح ويفتحها ويغذيها بالحطب حتى تبقى مشتعلة.

نهض فتى الغور في هذه اللحظة، بسبب رائحة الهيشي المحترق بلفافات والده، وأيضا بسبب العطش والجوع. ثم قبَّل اليد التي سبق أن دفعته وألقته أرضا.

تلقاه والده ساحبا يده وواضعا إياها على راسه، وشاهد وجهه مع طلوع الفجر، فسأله: «ليش وجهك هيك يا ولد؟». قربه إليه، ولم يلح بالسؤال، فهو يعرف من نصرة أنه عضه الكلب.

فقال له: أعرف أن صاحبك سرحان مات. ولاحظ أبونسر أن عيون فتى الغور على بكرج الحليب الممزوج بالشاي، فعرف ما يريد، فقال له: «أحضر كاسا». فرح فتى الغور، وأحضر الكاس وصب له والده، فشرب كما يشرب الماء، فلُذعت شفتاه وتشردق، فقال له والده: «سخن لا يحرق ثمك ولسانك»، فوضع الكأس وأخذ فتى الغور رشفة بحذر فهو لذيذ، وحلو المذاق.

وقال لأبيه: أنا بكره الكلاب، وما كنت بدي أشوف سرحان، أنا قتلت الكلب الذي عضني.

مد الوالد يده إلى أذنه وقال: «برنجي يا بطل الغور». استرسل فتى الغور قائلا: جدي سماني فتى الغور، فهو أحسن من سقف الحيط الذي كرهته كما كرهت الكلاب والأولاد والقرية.

حضرت نصرة بصينية الفطور وهي تقول: أنت صحيت؟ كان ظليتك نايم وبتفطر مع إخوتك.

رد والده: خليه يفطر معاي مثل ما كنا نوكل بالغور مع بعض.

فرح فتى الغور وانتظر والده ليبدأ بالأكل، فهو جائع، ولما رأى والده يسمي بالله ويأكل، قطع لقمة من الرغيف وغمسها باللبن والزيت والتهمها بنهم، حتى إنه لم يسمع والده وهو يقول: «اليوم بعد صلاة الجمعة بشوف المختار وبنسمّيك، شو رأيك باسم نضال؟».

ردت والدته أنا بدي أسميه صقر، وأخوه الكبير اسمه نسر!

سمع فتى الغور ذاك وتذكر وشم النَّوَرية له على ذراعه، وقال لوالده وهو يهوي على إحدى البيضات المسلوقات: أنا بدي اسمي مثل ما قالت أمي.

قال الأب: لكني اخترت لك اسم نصير.

وأضاف الوالد مبررا اختيار الاسم قائلا: بعد ما تعرفت وقعدت مع شيخ العوجا، وكان في فصايل وكان اسمه نصير، ويحب نصر كل مظلوم وهو حكيم وشيخ، وكان ذلك لما رحت لأشقر على القمح في فصايل اللي بدي أنزله اليوم وأبلش بحصيدته.

ردت نصرة: وليش نصير يا حج؟

سألت السؤال مع أنه مشتق من اسمها؟

رد أبونسر: «تيمنا بالنصر على اليهود إللي شردوا الناس وقتلوهم، بلكي على الله وعلى إيد ناصر اللي بهدد بده يرجع فلسطين». وتطلع أبونسر أثناء حديثه إلى الصورة المُعَلَّقَة على الحيط، فعرف فتى الغور أن صاحب هذه الصورة هو ناصر.

ففتح محفظته وأخرج صورة اليهودي وقال لوالديه ببراءة: يعني

صاحب الصورة التي على الحيط بده يقاتل صاحب هاي الصورة؟!

تأمل الوالد تلك الصورة وقال له: من أين هذه الصورة؟ وقرأ الوالد ما كُتب تحت الصورة: «جندي يهودي يحمل السلاح وشارك بحرب العصابات على الفلسطينين وآخرها في كفر قاسم».

أراد أن يمزق الورقة، لكن فتى الغور اختطفها، ووضعها في محفظته.

لقد استيقظ إخوته، واصطفوا حول ما تبقى من الإفطار حول الصنية، وقالت والدته: روح يا صقر إن شاء الله ينصركم عليهم. وتداركت رغبة زوجها باسم نصير، فقالت: قوم يا نصير روح صحي نسوان إخوتك، ورانا شغل كثير.

ذهب نصير مع والده إلى صلاة الجمعة. وبعد أن انفضت الصلاة كان يقام بساحة بجانب الجامع ما يسمى «سوق الجمعة»، وهو سوق تعرض فيه المواشي من أبقار وأغنام وحمير وخيول، وتتم المفاوضات والمساومات ويحضره ناس من القرى المجاورة لبيع أو شراء المواشي والحلال، وهناك بعض الدلالين والوسطاء، منهم القصابون بالقرية، وهناك الجلابين؟ وهم من يتحكم بالسوق والأسعار، فالقول قولهم عند الاختلاف حول أسعار الأبقار أو الأغنام.

انفرد أبونسر بأحد الجلابين على جنب بعد أن هدأ السوق وباع من باع واشترى من اشترى، وترك نصير في السوق يستمع لعبارات المساومة وحلف الأيمان، وأكثر عبارة كان يسمعها: الله يبارك لك، البائع دائما خسران.

كانت عيون نصير تلاحق والده الذي يبحث عن المختار، لكنه قبل ذلك رآه يتهامس مع أحد الجلابين من قرية أخرى، وهو يودعه ويقول له: عدد

الحلابات ٧٠، والعوابير ٤٠، والسمار ٣٠، وكبش، وتيس، ومرياع، والبيعة ما بتشمل الخرفان، والسعر قلم قايم، والغنم موجودة حتى أسبوع مع الرعيان في شفا الغور، وبعدين بسوقوها الرعيان على منطقة في عمق جبال الغربية.

ترك أبونسر الجلاب، وهو سمسار يشتري لنفسه من قرية ويبيع في قرية أخرى.

ودع أبونسر الجلاب، بعد أن اتفق معه ووعده الأخير بمن يشتري الشلية جميعها، وراح أبونسر يبحث عن المختار، فوجده وقال له: هاظ الولد بدنا ندخله المدرسة هذه السنة ونطلع له شهادة ميلاد.

كان المختار، قد شرى عنزة بيضاء شامية، فطلب من أبونسر: شوف هالعنزة كم حبة في فمها، منيحة أخذتها بخمس ليرات ونصف!

فتح أبونسر فمها، وقال: «لم تسقط ولا حبة ولا سن، عنزة منيحة كمنوحة، وممكن تجيب توم ومبروكة عليك». سحب المختار العنزة من قرونها، ونصير ووالده يرافقونه إلى بيته، والمختار يقول لأبونسر: «مش هاظ الولد اللي كان بالغور؟ شو بدك تسميه؟». رد أبونسر: «نصير يا مختار بلكي الله ينصرنا».

قال المختار: والله أنا كنت في المدينة عند المحافظ، وسمعت كلام إنه في حرب على الطريق، والعرب وناصر بدهم يرجعوا فلسطبن!

وأضاف المختار: «وسمعت كمان إنه ما في إجازات للجيش». توقف المختار عن الكلام ولم يكمل آخر كلمة قالها له المحافظ، وقد وصل البيت وربط العنزة وجلسوا تحت اللوزة التي في قاع البيت، وذهب وأحضر دفتره وفتحه، وسأل عن الاسم، ومكان وتاريخ الولادة، واسم

الوالدة وأبونسر يملي عليه اسمه: «نصير مواليد الغور يوم العاصفة التي استمرت أسبوع، وخلعت بيوت الشعر في ربيع عام ١٩٦٠، واسم والدته نصرة». وقال المختار: «باقي البيانات معروفة عندي، لكني سأكتب مكان الولادة بلدة مَصْطَبَة بدل الغور، وأكتب تاريخ الولادة ١٥/ ٣/ ١٩٦٠». أخرج أبونسر ليرة ونصف، وسلمها للمختار الذي قال: «سأذهب للمدينة للأحوال المدنية، وأحضر الشهادة بعد أسبوع أو أسبوعين». ودع أبونسر المختار، وقال له: أنا نازل اليوم على فصايل لحصاد القمح، ويمكن بعد أسبوع أو اثنين أكون رجعت.

فقال المختار له: اقعد واشرب شاي، فصايل آخر الدنيا، يا الله بتتونس في معسكر الجيش بكون بجانبك، وأنت تحصد.

رد عليه أبونسر: «شكرا يا مختار، أنا مستعجل، وأنت عارف محنا بنمر من جنب المعسكر، بس أرضي بعيدة عنه». وأسرع عائدا لبيته، ونصير يقول لوالده: خذني معك.

ولما وصلوا إلى البيت، نادى أبونسر نصير باسمه الجديد أمام أهل بيته معلنا لهم أن اسمه الرسمي هو نصير، وقال موجها الكلام لنصير: الصيف قد بدأ، والغور حر لا تستطيع تحمله؟ والصبر معي، فأنا دائما مستعجل.

بدأ جميع أهل البيت بتجهيز حمل البغلة والحمارة لعدة الحصاد وتجهيز المونة لينزل على فصايل على الغور لحصاد القمح، وهو يقول: وأنت يا نصير خليك في البلد، وما تحاول تلحق بي، وإذا خلصوا إخوتك هل اليومين المدرسة، تعال معهم بنكون بندرس أو انتقلنا من حصيدة فصايل إلى المَداحِل والفْجِم.

أواخر أيار ومسيرة الليل

جهز أبونسر جميع عدة الحصيدة والدراسة والتذرية، وحملها على البغلة، وحمل المونة وبعض الأواني الصغيرة اللازمة له، ليترك مكانًا له على ظهره الحمارة ليركبها.

شد الأحمال بالحبال، وشد الخرج على الحمارة، وتأكد من وجود الصاع الخليلي في الخرج، وحزك بطوق من الحبال القوية ذات الخطفات من فوق الأمتعة المحملة إلى أسفل بطن وصدر كل من البغلة والحمارة، فالطريق طويل ووعر، وبه كثير من الصخور والمسالك والنزول والطلوع.

أذن المؤذن لصلاة العصر، فصلى أبونسر صلاة العصر، وكان نصير ينتظر بجانب الحمارة والبغلة، وهو يفكر بمرافقة والده، فقد سبق له أن رافق والده فصل الشتاء للحراثة، فلماذا لا يرافقه في الحصاد في بداية الصيف.

إن الغور يعطي قبل كل الأماكن الأخرى، فسنابل القمح بالقرية ما زالت بطور الفريكة، بينما في الغور نتيجة الحرارة وانخفاض المكان قد أصبحت جاهزة للحصاد، والناس يزرعونه رغم بعده ووعورته، لأنه سابق في الخير والعطاء المبكر قبل غيره من المناطق الأخرى.

فك أبونسر رباط الدواب، وخاف أن يطلب نصير الذهاب معه فيتم رفض طلبه، ويمكن يحصل له ما حصل عندما أصر على الذهاب برفقته إلى المدينة فاكتفى الوالد بمراقبة لغة جسد ولده وعيونه، فما إن تطلع

والده إليه حتى فهم ما يجول بخاطر فتى الغور.

تبسم والده وقال له: «بس يخلصوا إخوتك المدرسة تعال معهم، بنكون يا بندرس أو بنذري»، وطلب منه أن يفتح البوابة قائلا: «افتح البوابة يا ابني».. وودع أهل بيته وتوكل على الله متوجها تلقاء فصايل، وهو يقول في نفسه: إذا سلكت هذا السبيل أو ذاك الطريق من جانب معسكر الجيش، يمكن يكون أسهل على البغلة والحمارة، ولكنه أطول شوي.

دعا دعاء السفر: «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون». وتمتم وهو يقود الدواب قائلا: وتوكلنا على الله.

وخرج من القرية متوكلا على الله، حاثا الخطى، وناهرا البغلة والحمارة ليحصد زرعه، ويطلع حقه يوم حصاده بإخراج صاع الخليلي للمحتاجين.

لقد ترقب نصير خروج والده من الجانب الشرقي للقرية، فلقد كانت غورانيته تدفعه للحاق بركب أبيه، فماذا يفعل بقرية أولادها يسرقونه وينادونه بلقبه سقف الحيط، ويسخرون منه ويمكرون به فيرخون حبل المرجيحة عن اللوزة فيسقط ويكاد ظهره ينكسر. حتى كلاب القرية عضته وشوهت وجهه، وتعارك مع الكلب حتى أرداه صريعًا.

كان يسير بحذر وبطء شديدين من وراء أبيه تاركا مسافة الرؤية التي تجعل من والده حتى لو أدار ظهره وأبصره عن بعد لا يعرفه، فيواصل السير دون أن يعيده والده إلى البيت، فتربطه أمه مرة أخرى برجل التخت.

غابت الشمس من خلفه عندما وصلوا رأس العَقَبة التي يجب نزولها

بحذر، فهي حادة وكثيرة المنعطفات، وكان نصير يسير، وما إن يبصر والده داخلا منعطف يدخل وراءه ويحث الخطى، فلقد بدأ الظلام يخيم، ويضيق أفق البصر بينهما، فاذا ما أنهى والده نزول العَقَبة وسار متوجها تلقاء الغور، وقد قطع عدة أميال مبتعدا عن السقائف في الطويل والدكان الصغير الذي كان مغلقا، وأصبحت الطريق منبسطة، اقترب منه نصير، فلقد علم أن والده المستعجل دائما لن يصعد العَقَبة مره ثانية ليعيده للبيت، ولا ليعود ويضعه عند سكان السقائف، وهو إن كان يعرفهم بحكم الجوار في إحدى قطع الأراضي، فإنه، وإن كان ممكنا الرجوع إلى الوراء عده أميال إلى السقائف، إلا أن ذلك سوف يؤخره لأنهم لن يتركوه دون ضيافة، وذلك سيضيع منه مزيدا من الوقت، وهو يعرف والده، دائما يتقدم بعجل ولا يرجع للوراء، ويسبق كل من جاوره في حراث أو حصيد. لهذا كان يسمع حديث النسوة عند الطوابين وهن يفضفضن لبعضهن، عن تلكؤ أزواجهن، فيعايرنهم بأبونسر.

ما إن ابتعد والده عن السقائف، وكان الليل قد حل والدنيا ظلام، حتى فاجأ والده الذي صرخ به قائلا: شو جابك يا ولد، ما حكيت لك تبقى في البلد، وبس يخلصوا إخوتك المدرسة، بتيجي معهم.

لم يرد نصير، لكنه قال مترجيا: «أنا بكره البلد، وبدي أرجع إلى الغور». وأردف قائلا: «بدي أشوف ما حرثنا من زرع، كيف صار، وكيف بتحصده.. وبتعلم منك».

هدأ والده وقال في نفسه: «إذا صادفت أحدًا من أهل القرية في الطريق مروح على البلد بوديه معه». وقال له: «يعني عاوز تشوف ما حرثت،

وتحصد معي.. تعال قرب مني». وحمله وركبه على الحمارة، وقال له: ضع رجليك في فردات الخرج، وشد برجليك على ظهرها حتى لا تقع.

سار أبونسر بالليل، بعد أن توقف على راس عَقَبة جمونية، وأنزل نصير عن الحمارة، وأرخى قليلا الحبال المشدودة ليريح الدواب قليلا، وأشعل النار، وصلى المغرب جمعا وقصرا مع العشاء، ووضع إبريق الشاي على النار، وكان الليل ساكنا وهادئا، ولا يقطع سكونه إلا أصوات صرصرة ذكور «أبوشويخ» الصرصور.

شرب الشاي، وصب لنصير بكاسة الضيف التي يحملها معه لأي عابر سبيل يصادفه أو أحد الرعاة.

ونهض وشد الحبال بسرعة، وقال له: سننزل المُعَلَّقَة، وهي عَقَبة تطل على جمونية، وهي وعرة، وساقود البغلة أولا، وأنت سِرْ ورانا مع الحمارة.

نظر إلى أسفل المُعَلَّقَة حيث يستلقي سهل الفْجِم بحقول الحنطة غير المتجانسة هندسيا، والذي يداعب سنابله ضوء القمر، فبان وظهر، وكلما نزلوا واقتربوا منه بدأت سنابل القمح تظهر وتميل إلى الاصفرار. وقال أبونسر: يمكن بعد عشرة أيام تكون جاهزة للحصاد، ونكون هان نحصد المارِس والقرطة، وبندرسهم على بيدر جنيفيش.

بعد نزول العَقَبة الثانية قام بحمل نصير ووضعه على ظهر الحمارة، فخطر الطريق زال واستوى السبيل، وكان أبونسر مرة يسير على قدميه وأخرى يركب على الحمارة مع ولده، وفي أغلب الأحيان يمشي على رجليه في المسالك الوعرة والضيقة، متقدما الركب، وممسكا برسن البغلة

التي تسير وراءها الحمارة.

لقد مضى على وجود الحمارة عند أبونسر أكثر من خمسة عشر عاما، فقد أصبحت من أهل البيت، فهي تعرف الغور، وعيون الماء، والأماكن التي ينزلون بها، والأراضي التي حرثتها، حتى إنه في كثير من الأحيان كانت تذهب إلى البيت لوحدها، وهي تحمل حملها. كانت كبيرة الحجم وبيضاء اللون وعقيما، فما زالت بقوتها وبحجمها القبرصي متميزة عن غيرها، فهي تعرف أن فوق حملها فتى الغور، فتمشي الهوينا، وهي حريصة على ألّا يسقط عنها.

فاذا استوت الطريق ركب أبونسر مع ابنه، ليريح قدميه ويحتفظ بطاقته للحصاد، فيجعل الحمارة تتقدم الطريق، ويقود البغلة من خلفها، فالليل طويل والطريق طويلة، ولا صاحب له إلا نصير وأصوات ذكور الصراصير، حتى إذا قطعا الوادي عرجا إلى الحَفيرَة، فهي أول عين ماء تصادفهم، ليشربوا وليسقي دوابه، ويتزود بالماء العذب منها، ووجد كثيرا من السوائب واردة عليها، وبعض الأبقار والخيول والحمير المتخلفة بعد رحلة الشتاء والربيع فلم يخرجها أصحابها حتى الآن.

كانت قد جثت حول جوابي وأحواض العين للسقيا، وكانت تلك الجوابي فارغة من مدة قدَّرها أبونسر بثلاثة أيام، فلم يسقها أحد بعد أن هجر الغور الرعاة، وارتحلوا منه إلى الشفا الأكثر ارتفاعا وخضرة، وبعدما جف واصفر العشب، وارتفعت الحرارة.

خلع أبونسر نعلية وكوفيته وكبره، وبقي في الفنيلة واللباس الفضفاض، فانعكس ضوء القمر على شعره، فبان لنصير شعر والده الأبيض

والكثيف، وهو لأول مرة يرى شعره بهذه الحالة، فهو لا يرى من شعره والده إلا شاربه الأبيض الملون بالأصفر من أثر دخان الهيشي.

شمر أبونسر عن ساقيه، ورفع لباسه الأبيض فوق ركبتيه، ونزل على درج العين ليصل بدلوه إلى حفرة الماء التي تنطف، وترشح فيها الماء من بين الصخور، فيجتمع بها الماء.

إن عين الحَفيرَة تشبه البئر والمغارة بنفس الوقت، فهي محفورة وغائرة قليلا، فأخذ ينزل على الدرجات، ويرمي دلوه المربوط بحبل ليأخذ وضعه في الماء بحفرة المغارة بجانب الصخرة التي تدلف من تحتها قطرات الماء، لتجتمع مكونة بحرة صغيرة من الماء، فاذا امتلأ الدلو رفعه ونشله وحمله وصعد الدرج، وصبه في جابية الحوض، وكرر ذلك عشرات المرات، وقام بملء جميع جواب الأحواض لسقيا هذه الأنعام المتروكة.

كلما صب أبونسر دلوا شربته البهائم وهي تتدافع كل واحدة بصوتها المميز، حتى إذا ارتوت هجعت في مكان قريب، فحمد الله أبونسر أنه يسره لها فسقى دابتيه، وسقى نصير ونفسه، وملأ سعنيه من ماء العين، فهي للشرب أنظف من ماء قناة فصايل التي تلعب بها الضفادع والبعوض، وتشرب منها البهائم والسوائب. واستراح قليلا ولف هيشية واستلقى متأملًا النجوم، وقال بصوت مرتفع لنصير: «الحمد لله الذي ساقنا لنسقي هذه الحيوانات التي كاد أن يقتلها الغب، فلقد تركها أصحابها ولم يأخذوها، وكانت ترد على الماء عندما يرد الرعاة لكن الرعاة ارتحلوا، فبقيت تتنظر حتى هدانا الله لنعرج على العين في منتصف الليل»، وأردف:

«اللهم اسقنا من حوض نبيك يوم الحشر». وفجأة وجه كلامه لنصير والظلام يخيم عليهم، فقال: «أنا ظلمتك ما خليتك تعيش كطفل، وتركتك بدون اسم، ونقلتك إلى القرية ليكون لك اسم وأصدقاء، وتدخل المدرسة، ولكنك عدت اليوم للغور والتعب». وفجأة نهض ولم يلبس كبره ولا كوفيته بل حمل العصا وقال: «خليك مع الدواب وإذا حسيت بخطر شوف الخزق الذي فوق العين تسلق وادخله، وانتظر هناك نصف ساعة بشوف الزرع في المَداحِل على ضوء القمر، إذا كان بستاهل ينحصد أو يترك للأغنام والبهايم».

شعر نصير بالخوف عندما تركة والده وجلس بجانب الحمارة التي يشعر بالأمان عندها، وتخيل الضبع ياتي ليبحث عن الماء، فيجد فريسة له ولدا صغيرا. وقال محدثا نفسه: «إذا جاء بترك الماء له ليشرب واتسلق إلى الخزق، وباخذ معي المنجل، إذا لحقني ببعز عينه بالمنجل أو بغرسه في فمه». واقترب من البغلة وأخذ يبحث عن المنجل، فوجد منجلين أحدهما كبير، والآخر حاشوشة صغيرة، فأخرج الحاشوشة من أسفل الخرج، بعد أن وسع الثقب الموجود بالخرج الذي يطل منه رأس المنجل نتيجة السير وحملها، وأراد أن يتسلق الصخور إلى الخزق، فاذا بصوت والده يقول: «وين رايح؟ أنا أبوك لا تخاف انزل»، وذكره صوت والده بصوت أبوأيمن البياع عندما صرع الكلب في عَقَبة القلع في البلد.

لبس أبونسر كبرة، ولف كوفيته على رأسه وجمع الأغراض والدلو وقال: «مليح إني طليت على ذراع الشعير. ما بستاهل ينحصد، سبله لم يعقد، وأكلت بعضه البهايم». ولم يترك وقتا لنصير ليتكلم الذي كان يريد

أن يقول لوالده حول كيف قضى الوقت أثناء غيابه، ونهر الحمارة والبغلة وأخذ الحاشوشة من يده ووضعها مكانها، وقال: شاطر إنك فكرت تحمل الحاشوشة، فلو هجم عليك وحش أو ضبع، بتعرف تضربه بها؟

«آه بعرف».. رد نصير.

«وإذا الوحش مسك الحاشوشة بأنيابه من ايدك شو تعمل؟».

رد نصير بعد أن تذكر الكلب: بصير ضبع مثله وبقتله مثل ما قتلت الكلب.

هز والده رأسه وقال: ما في أقوى من فك الضبع.

وأضاف: «إن قصص وخرايف عمي أبومليح يبدو أنها مؤثرة عليك». ولم يرغب أن يستمر بهذا الحديث فقال مغيرا السالفة: «بس نوصل بعلمك الحصيدة بالحاشوشة». وأضاف: «سنعود قليلا ونسلك طريق الوادي الذي يلتقي بوادي الزكازكة، وهو وادٍ وعر وموحش، وبه حيوانات مفترسة وبعض الهاربين من الفرارين، وآخرين ممن يروننا ولا نراهم»، وواصل السير بحذر ويقظة شديدين، ماشيا في الواد نفسه وأحيانا على أطرافه ليتجاوز بعض الصخور ومساقط الماء التي كانت جافة كحال الوادي كله.

بعد ساعة من السير المتعب، قال أبونسر: الحمد لله الذي نجانا من ساكني هذا الوادي، فهو وعر ومنحدر، والواد موحش، وبه ضباع وسباع، وأفاعٍ وذئاب.

سأل نصير والده وقد خرجوا من باب الوادي، وكانت مخيلته ما زالت تحت تاثير قصص أبومليح: وبطل الغور والمارد، كمان هان ساكنين يابا.

الحلم بالحصاد

تجاهل والده سؤاله فأراد أن يريح جسمه، وربما يأخذ غفوة على ظهر الحمارة، فلقد استوت الطريق، وركب مع ابنه على الحمارة، وأحس نصير بقرب والده منه. حرك فتى الغور ساعديه إلى خصر والده وأمسك بكفيه رسغي والده، فشعر بنفس الشعور الذي كان يشعر به عندما كان يفتح قبضة جده أبوجابر، في حين كان والده ثاني مرة يستمد طاقة من نهايات أصابع فتى الغور، بعد أن أمسك يده ونقش جزءا من اسمه، وكان في هذه المرة يشعر أبونسر أنه قد عاد طفلا بنفس عمر ابنه، وتذكر نفسه عندما أمسك بقرون البقرة، فرمته أرضًا، وانقطع نفسه، فاستغرب من استدعاء ذاكرته لهذا الحدث في الوقت الذي أمسك فتى الغور رسغيه، فقال له: أمسك بيديك على خاصرتي وشد بكفيك على رسغي.

فشدد نصير يديه على خاصرة والده وهما يسيران بالليل، وهو لا يزال تحت تاثير أسطورة فتى أو بطل الغور التي سمعها من أبومليح، فقال لوالده وهو يحني رأسه إلى اليمين من خلفه: أعرف خرفية بطل الغور، حكالي القصة الجد أبومليح.

أجاب والدة، وهو يشد حبل رسن البغلة على رسغ يده اليمنى، وهي تسير خلفه: عمي أكيد أخذك على الناطوفة، وحكالك خراريف.

وتذكر والده زوجته الأولى أم نسر، وأراد أن يسكت نصير عن أي سؤال، إلا أن نصير سارع بالقول: مزبوط كيف عرفت إنه أخذني على جبل الناطوفة، وجلسنا على صخرتها وقص علي قصص كثيرة وغريبة

مش مثل قصصك.

تجاهل والده ما قال ولم يعقب، وأراد أن يبعده عن خراريف عمه ويبعد نفسه عن ذكريات شبابه، فقال له بنبرة مختلفة: «اسمع بدي أحكيلك سيرة أبوزيد وخاله يونس لمًا وردوا على بئر أبوالدَرَج، عندما حطت مضارب قبيلة بني هلال أثناء تغريبتهم لتونس في الغور.

لأن ماء الغور قليل وغائر في عيون قليلة مخفية في بطون الجبال، راح أبو زيد وخاله يونس يبحثون للقوم عن الماء، وجلس أبو زيد فوق صخرة عالية فوق سادَّة المُبَشِّر، وقد أخذ منهما التعب والعطش، كثيرا من طاقتهما.

أخذ أبو زيد ينظر حوله في الأفق ليرى أي شجرة فيذهب اليها، ويستكشف إذا ما كان هناك ماء، فمن خبرته كفارس يعلم أنه أينما كانت هناك أشجار مرتفعة يكون هناك ماء، لكنه لم يرَ أي أشجار فى مدى أفق رؤيته في الغور.

فأشار إليه يونس أن ينظر إلى السماء، فاذا شاهد الطيور فيتابعها بنظره، فهي ترى ما لا يراه من على الأرض، ولا شك أنها تحط بجانب الماء.

استحسن أبو زيد الفكرة وأخذوا يراقبون الطيور والاتجاهات التي تطير وتهبط فيها، وبينما هما يرقبان الطير الصافات في السماء، ذكّر يونس أبا زيد بقصة أمه والطير الأسود الذي شاهدته يهجم على الطيور الأخرى فيفتك فيها، وتمنت أن يرزقها الله بولد حتى لو كان لونه أسود مثل هذا الطير، ويكون له نفس القوة على الهجوم على الغير مثل هذا الطائر.

لم يتركه أبو زيد يكمل القصة حتى رأى طائرا أسود يهبط ببطن أحد الجبال غير البعيدة، فساروا بنفس الاتجاه الذي سار فيه الطير، وعثروا على نبع مياهه غائرة في الأرض، ووجدوا حوله السباع والضباع التي لا

تستطيع الوصول إلى الماء، فسحبا سيفيهما ليفرقا القطعان عن الماء».

لم يسمع أبونسر أي تفاعل أو سؤال من فتى الغور وهو يسرد سيرة أبي زيد، فاعتقد أنه نام وأنه يحدث نفسه، فأثنى صدره قليلا تجاه نصير، فشاهده يتثاءب فتوقف عن سرد السيرة، وترك أبا زيد ويونس يفرقان الوحوش من حول البئر، ليستطيعوا أن ينزلوا درجات البئر ليصلوا إلى الماء في قاع البئر.

نزل أبونسر عن الحمارة وقام بربط نصير وهو نائم بظهر الحمارة، فلقد غالبه هو أيضا النعاس ويريد أن يكون بقوته عندما يصل فصايل ويبدأ في الحصاد. فكر قائلا: «الطريق سهل والحمارة متعودة عليها وتسير فيها دون سائق، فخليني أنام شوية مع نصير فأكون ريحان عندما أصل ومش تعبان، بس ممكن وأنا نايم نصير يسقط إذا ما تقلب أثناء نومه فأخاف أن يقع»، فتأكد أن وثاقه مشدود، فلا يخاف عليه لأنه مربوط منيح بالحمل من خلفه.

سار الركب في الليل ونصير نائم على ظهر الحمارة، وقام أبونسر بمد ذراعيه على رقبة الحمارة وقابضا بكفيه بشدة على الرسن للأعلى حتى تبقي رأسها مرفوعا، ورأسه فوق رأسها، مركّزا ثقله على إسته وظهرها وما قبل ذلك أكتاف يديها، ورسن البغلة مربوط برسغه الأيمن، فنام الأب، وكان الابن سبقه بالنوم وهو مستند على ظهر والده والحمارة تمشي الهوينا، فلا أحد ينهرها، وهي تعرف مسلك الطريق وكلاهما نائم في ثلث الليل الأخير على ظهر الحمارة بعد أن أخذ منهما التعب والسهر طوال الليل.

كان التعب يسيطر عليهما، وقد غلبهما سلطان النوم. وأثناء سير الدواب واهتزاز جسديهما المتوافق مع حركات جسد الحمارة بعد إرهاصات التعب،

وتأثر دماغه بآخر ما حدث من سيرة أبي زيد، رأى أبا زيد في المنام.

كان يرى أبونسر نفسه في المنام، وهو ينصب أكياس الخيش على المدارة والشاعوب، ليصنع خيمة صغيرة من الخيش، لتظلل نصير والماء والطعام.

حفز الاهتزاز دماغ أبونسر فارخى جفنيه، فدخل في سنة النوم، فلما غاب المحفز وصمت، فإذا به قد غادر النوم عيونه، واستمر في حلمه فاستيقظ نشطا، ونزل عن الحمارة وتقدم راجلا. وهذه المرة آتيا من الشرق حتى لا تكون شمس الغور الحارقة في وجهه، فتبطئ حصاده. بدأ أبونسر ملحمته مع منجله حصدا بيمنه، وتشميلا لسنابل القمح المحصود، فما يحصد ويجمع يكون بشماله، حتى إذا امتلأت كفه ولم يعد يقدر أن يضع فيها سنابل أخرى، لفها وألقاها بجانبه لتشكل في ما يلقي من بعد غمرا. فاذا أنهى الحصاد توقفت اليمين عن الضرب بالمنجل وبدأت كلتا يداه بلم الغمور ليصفّها على القادم كحمالة خشبية، عبارة عن مثلث، يتكون من سلمين من الخشب، يوضع على ظهر الحمار لحمل الغمور أو الرجادة، فينقلها إلى البيدر لتبدا البغلة والحمارة باللف والدوران بحوافرهما على سنابل القمح، وهو من خلف البغلة، يقف على لوح الدرس الخشبي، وينظم عملية اللف والدوران على الطرحة، وفي بعض الأحيان بتقليبها، ليتأكد أن السنابل هرست ودرست، وأصبحت جاهزة للتذرية، فيجمعها منتظرا هبات الهواء في الليل، فنهار الغور هواؤه قليل الحركة، بسبب ركود التيارات.

كان حلم أبونسر يتقاطع مع حركة الحمارة، فيتقطع بذلك التقاطع. فمنذ تركه البلدة وتوجهه تلقاء زرعه في فصايل، وهو بحاجة للنيكوتين،

فكل ساعة يوقف البغلة والحمارة ويجلس فيلف هيشية فتريحه قليلا من المشي وتريح مرافقيه، ولا تريح رئتيه اللتين تشتكيان ببحة أو قحة مع بلغم، فإذا أحس أنه ما زال تعبا لف هشية أخرى ببطء ودخنها ببطء، ثم يواصل السير، وبنفس الوقت يواصل حلمه المتقطع بالتفكير في الحصاد وما بعد الحصاد. وكان حلمه مجموعة من الهلوسات، فكان يترك الحصاد ويفكر بالحرب والقتال، فيسأل اللاوعي عنده وعيه إن كان صحيحا أن ناصر سيقاتل، فالنصر قريب. وتذكر ابنه نصير، وقال: «لو أحضرته معي فقد كان معي وقت الحراث، وكان مسليني لما كان سقف الحيط، طيب أنا ليش ما أبقيت على لقبه وجعلته اسمه. أو الاسم الذي اختاره جده فتى الغور. هو بحب الغور، وما بعرف شيء إلا الغور».. كان بحلمه بجاوب على أسئلته، لا ما أنا تركته في البلد حتى يعيش طفولته، فلازم أقطع صلته بالغور، وكويس إني سميته نصير، وما جبته معاي. خليه يستعد ويدخل المدرسة، ويتعلم ويهجر الغور حتى يبلغ، وخليه حتى يهاجر من البلد، بس مش عالجيش، خليه يروح على الكويت.

كان أبونسر في حلمه، يجمع التناقضات، فاللاوعي عنده يأخذه إلى الأحداث الماضية، فيتخيل أن نصير متروك في القرية، في حين أن وعيه الوجودي أنه نائم خلفه.

كان أبونسر نفسه يعتقد أنه يشبه الغور بقسوته وعجلته، فالغور بالنسبة له مستقر مؤقت، وممر وليس مستودع، فدائما يجب أن يكون فيه مستعجلا، وسابقا لجميع إخوته وأهل الحارة، وحتى أهل البلد، فهو دائما سار ومبكر حارث وزارع وحاصد، وغائد وعائد من حرثه قبل

الجميع، لقد عوده الغور نفسه على السبق والاستعجال، فالغور يطرح إنتاجه وحصاده قبل كل المناطق الأخرى، جبلًا وسهلًا وساحلًا.

يسير أبونسر ليالي في الغور بدون أي قرى ظاهرة، والطريق صامت لا تسمع بها إلا حوافر بغلته وحمارته، وصوت ذكور الصراصير المعروفة «أبوشويخ» التي تحذر بحركة أجنحتها الغير من خطر، أو أنها تريد جذب الإناث لها. كان «أبوشويخ» يؤنس أبونسر في ليل الغور الصامت، وكانت بحة أو كحة أبونسر تقطع موسيقى «أبوشويخ».

كان أبونسر يود لو يقف ويشعل النار فيعمل إبريق شاي، فيجرد زوره وحنجرته من بعد ما بحَّ صوته قطران هيشيته.

اذا كان أبونسر هو كالغور، فإنه يريد لولده الذي سماه جده ابن الغور أو فتى الغور أن يبتعد عن الغور، وأن يهجر الغور، بعدما يبلغ أشده ويصبح شابا..

تخيل أبونسر، بعدما قطع الطريق من جانب المعسكر الذي كانت تخرج منه ناقلات الجند وتتجه غربا، أنه قد وصل وفك الحمل وعمل الشاي، وأكل بعض أجزاء من فطيرة الزيت والزعتر، وأنه ماسك المارِس حاصد له وجهة واحدة، وماخذه كشمل واحد، ليهوي بمنجله ويمينه على سيقان القمح الأسترالي التي يبست ومالت، وبالكاد تحمل السنابل، فتسهل عملية الحصاد. فلقد بدأ قبل طلوع الشمس، وها هو مع غيابها قد وقف في رأس المارِس، لياخذ راحة ويصلي ويأكل ما تيسر، وليقوم بعمل الرجادة فيجمع الغمور، وينقلها بدون حلة وقادم على ظهر حماره، فشاعوبه هو القادم، وذراعاه هما تحملان الشاعوب الحامل للغمور إلى البيدر القريب بجانب المغارة.

ليقوم باليوم التالي بالدرس، ويأتي دور الدواب التي أخذت راحة ليوم على ضفاف القناة، حيث العشب ما زال لم يصفر لكونه بجانب الماء، وفي ظل الشجر، وخصوصا بعد حمل أثقال حصاده لأكثر من نصف يوم، لتأكل وتشرب من قناة فصايل، فتقوم بعد الراحة بالدوران بحوافرها على طرحة القمح على البيدر ليتم درسه وهرسه، حتى إذا ما استوى أصبح تبنا مختلطا به سنابل القمح المهروسة والمكسرة، فاذا أصبحت ناعمة مع غروب الشمس، فك اللوح وأطلق حرية الدواب ليعديها لجانب القناة، لتأكل وتشرب وترتاح، ليقوم هو بجمع وتكويم تبن القمح المدروس الناعم على شكل تلة مستطيلة، بطول خمسة أمتار وبعرض مترين، ليقوم عندما تستيقظ وتهب رياح الغور، فيقف على رأس تلك التلة من التبن، منتظرا هبوبها، حتى إذا ما زارته ريح الليل الطيبة، أمسك شاعوبه بكلتا يديه، وبدأ يذري ذاهبا، حتى إذا وصل نهاية تلة القمح المدروس، عاد ماشيا للخلف وهو يذري إلى نفس النقطة التي بدأ منها، فاذا طلع الفجر وجد التلة وقد أصبحت كومة صغيرة من حبوب القمح المخلوط بالقصل والعقير وعقد السيقان، فيبدل الشاعوب بالمدراة التي تحمل القمح وما اختلط به لتصغر الصليبة، فما إن تطلع الشمس حتى تنعكس بأشعتها على حبوب القمح الذهبية التي تصلبت في الصليبة، ليحضر الغربال ويبدأ بالغربلة، ليفصل بين حبوب القمح والقصل والعقد، وبعض الحجارة وجَدَرات التراب، فإذا ما أنهى ذلك صغرت الصليبة أكثر فأكثر، وقد أصبحت جاهزة للكيل، فيذهب فرحا ليحضر أكياس الخيش والخلال وصاع الخليلي، ليعبئ تسعة أصعية بكيس، والعاشر في خريطة

متميزة لوحدها، وهو حق حصاده للمحتاجين والفقراء.

استيقظ أبونسر من منامه وحلمه عندما سكتت حوافز دوابه واهتزازات جسده، وكان ذلك في الثلث الأخير من الليل، فتفقد نصير فوجده نائما، فنزل عن ظهر الحمارة وقال: «اللهم اجعله خيرا»، وتفل عن يمينه وشماله. في هذه اللحظة استيقظ نصير منتفضا ومترنحا عن ظهر الحمارة، وكاد أن يسقط لولا الرباط الذي سبق أن شده به والده الذي قال محذرا: «اوعَ»، وأسرع إليه ممسكا به، فتفاجأ الأخير بنصير، وهو يقول له: كنت بحلم إنه السماء مليانة طيور كبيرة، وبترمي على الأرض نار، وإنه النار حرقت كل بيادر القمح.

قال له والده: «خير يا ابني هذي أضغاث احلام يا بني، وهلوسة من التعب»، وأضاف أبونسر متكلما بصيغة الجمع: لأنه غيّرنا مكان نومنا، فالنوم على ظهر الدواب غير مريح ووقع حركات الحوافر يؤثر علينا.

قد لا يعلم أبونسر أن الرحمن الذي يجعل الأنفس تتوفى أثناء النوم.. تكون هذه الأنفس غير ساكنة وقلقة، فتتخيل مناظر وقصصا أو أشياء تتمنى أن تتخلص منها الذاكرة، فيشغل اللاوعي الوعي بما يريد أن يتخلص منه من الذاكرة، وقد تكون عملية احتيال ومكر ذهني لأحداث لم تحصل، بل توهمها الدماغ، فأخرجها على شكل حلم.

عاد أبونسر فقال لولده: «فأنا يا ابني قلق على الحصاد، ونمت وأنا أفكر فيه فحلمت أنني وصلت، وحصدت ودرست وذريت، وخلصت كل شيء وأنا نايم».. واستطرد قائلا:

«اللهم اجعله خيرا، وما أيقظني من هذا الحلم الجميل إلا توقف

الاهتزازات للجسد الملقى على ظهر الحمارة، والناتج عن ضرب ووقع حوافر الحمارة والبغلة وصوت «أبو شويخ». فكل ذلك ساعده وخفزه على النوم، والحلم أثناء النوم، فاذا اختفى صوت ذكور الصراصير وتوقف وقع حوافز الدواب، فيتوقف الاهتزاز، وهو المحفز الذي لم يعد موجودا.

قام أبونسر بتبديل مراكز الدواب، فقدم البغلة على الحمارة، ممسكا برسن البغلة، ومشى على ضوء القمر الذي لم يصبح بدرا بعد وقد أوشك، وأحيانا ينظر في النجوم، وأحيانا ينظر خلفه وإلى ما على ظهر الحمارة التي أبطأت السير، فاستغرب ذلك وازداد استغرابا عندما توقفت، فقال في نفسه هل سمعت الحمارة صوتا لم نسمعه. توقف قليلا ولف هيشية، ولفت نظره أن أذني الحمارة تتجهان شرقا، فعرف من خبرته الطويلة معها أن مصدر الصوت قادم من الشرق، أي في طريقها، وأنها سمعت صوتا غريبا، وتأكد من رباط نصير، ونهر الحمارة فسارت كما يريد، وما هي إلا أقل من نصف ساعة حتى غاب القمر، فرأى أضواء بعيدة تظهر وتختفي من ثنايا الوادي وأصوات مركبات، فعرف سبب توقف الحمارة. وقال بصوت مرتفع ليعرف أن نصير نائم أم صاحٍ: «لعله المعسكر، لا تخف سنغير مسار سيرنا لنمشي في الوادي، فعلى جنباته بعض أشجار السدر والزعرور فلا يرانا أحد». وتوقف على دبة صغيرة كاشفة للأفق الشرقي، فرأى رتلا من الدبابات وناقلات الجنود تخرج من المعسكر وتأخذ الجانب الغربي من المعسكر صعودا في طريق ترابي وعر، لكنه معمول للمركبات، وهو يتصل بالطريق الذي يؤدي إلى مقام

النبي موسى، ومنه إلى القدس، وأخذ يفكر بنفسه، وهو الذي يعرف الغور وكل طرقه ومسالكه، ويسأل نفسه ويربط بعقله ما سمعه من قبل فتساءل عن ماذا يحصل؟

هل ما قاله له المختار صحيح من أن الحرب على الأبواب؟ ولماذا تتحرك المركبات من المعسكر، فلم يرَ ذلك من قبل!

تمنى أن يقترب أكثر فأكثر من المعسكر، فيسأل العسكر، وتمنى أن يرى ولده الكبير وهو عسكري شفير لقائد الجيش، فيسأله، فأكيد لأنه يعرف أو سمع شيئا، وتذكر أنه قال له آخر مرة رآه، وهو يلمع بسطاره، أنه لن يستطيع أن يأخذ إجازة، ويساعدهم في الحصاد كالعادة!

كانت مصلحة أبونسر الشخصية تطغى على التساؤل بشأن تحرك مركبات العسكر، فمضى في سبيله، فيجب أن يصل مع أذان الفجر، فيصلي فيبدأ الحصاد، وما بعد الحصاد.

قضى أبونسر وولده أجل الحصاد والتغمير والتحميل إلى البيدر القريب من مغارة شقيقه بنفس الطريقة والشاكلة التي حلم بها، وقام بالدرس، وكان إذا ما تعب من اللف وراء البغلة والحمارة المقرونين معا، أجلس نصير على لوح الدرس ذي الأحجار النارية، ليزيد من الوزن، فتدرس أسنان وأحجار وشفرات اللوح سنابل القمح وسيقانه وأوراقه درسا وهرسا، فإذا ما أنهى تقليب الطرحة، واستوت مهروسة، وأصبحت تبنا ناعما جمعها، وبدأت التذراية بريح الليل الطيبة ونصير نايم، فاذا ما انفلق الصبح صحى نصير، فرأى صليبة القمح تعانق أشعة شمس الصباح، ووالده ينقل التبن إلى مغارة شقيقه وقد أنهى ذلك، فيكسر

السفرة، ويأكلوا من القراص بعد غمسها بالزيت، وفركها بكرات اللبنة المحفوظة بالزيت، ويشرب الشاي الذي عُمل على نار بقايا القصل والعقير، وعقد سيقان القمح.

لقد كان طعم الشاي منكها بطعم حبات القمح التي تخمرت وانفجرت بعد أن احترقت، فنشرت رائحة زكية أحبها نصير، حتى إنه لملم بعض حبات القمح المحمصة، وكرشها بين أسنانه، وشرب الشاي ليزيل بقاياها من بين أسنانه المفروقة.

قضوا أجل الحصاد وتوابع الحصاد في خمسة أيام، واكتمل القمر بدرا، فحمل الوالد فردات خرايط القمح على الحمارة وعدة الحصاد وما تبقى من أغراض على البغلة، وسارا في نفس الطريق لحصاد القمح في الفْجِم، بعد أن تجاوز عن زرع المَداحِل الذي يبس قبل أن ينضج فتأكله الأنعام السائبة.

أنهى حصاده وتوابعه كما توقع، فقبل خمسة أيام مروا على زرع جمونيا والفْجِم، ولم يكن قد نضج، وها هو قد نضج وسيكون أبونسر أول الواصلين والحاصدين.

وصل أبونسر الفْجِم مع أذان الفجر، وقد اعتمر بسكانه الذين قدم بعضهم في الليل، فأوقد النار ونصب الخربوش واستراح، ليبدأ الحصاد في أول يوم من أيام حزيران، فسمع أذان الفجر بجانب بئر اجنيفيش، فعرف الصوت، إنه صوت أخيه الجهوري يؤذن لمن وصل من الحصادين، ليقوموا لصلاة الفجر.

لقد عادت الحياة لسهل الفْجِم في الغور، فقبل خمسة أيام عندما

وصلوا لعَقَبة جمونيا كان الصمت والسكون عنوان المكان، أما اليوم فهو يعمر بالحياة.

لاحظ نصير أن والده فك حمل البغلة ولم يفك أو ينزل فردات القمح المحملة على الحمارة، وقام أبونسر بنضح الماء من البئر، وسقى الدواب وتوضأ وصلى الفجر، ونصب خربوشه وأشعل النار وعمل الشاي وسخن أقراص الخبز على ما تبقى من جمر، وفرك كرات اللبنة بالزيت وقال لنصير: «أفطر فمشوارك طويل لتوصل فردات القمح إلى البيت، وتقول لأمك اتغربل فردة قمح وترسلونه إلى المطحنة، وهذي الخريطة وزعوها على الفقراء والأقرباء الذين لا أرض لهم، والباقي ضعوه في الخوابي». وقام أبونسر وساعد نصير على ركوب الحمارة ليسري نصير والحمارة من دون أبونسر صعودا إلى البلدة وعلى ضوء القمر، فلقد أصبح لدى نصير خبرة، فقد سبق له أن سار نفس المسار. وتذكر عندما خدع والده القمر، فغاب وسار بدون القمر وفقد حريته في القرية وحصل معه ما حصل، وتمنى ألا يغيب القمر ويبقى حرا وحابسا صورة اليهودي في المحفظة التي تحسسها، ففتحها وتطلع إليها وإلى التعريفات وأعادها في جيبه، وتطلع إلى القمر قائلا له: «كنت نائما على قصات الجبن، وها أنا اليوم أنام على فردات وخرائط وأكياس القمح»، وتذكر عبارة والده مخاطبا الحمارة: «حا.. حي.. سيري» وهو يغالبه النعاس مع اهتزازات وقع حوافرها واهتزاز جسدها على ظهرها، فقد غاب القمر فقال لنفسه نصير: «عند العصر سأصل إلى البيت وأعود مع إخوتي بعد أن يكونوا أنهوا المدرسة، فأعود معهم للغور».

1 حزيران 67
حلم الطيور السوداء

سار نصير وهو راكب على ظهر الحمارة، وصعدت طلعة وعَقَبة المُعَلَّقَة، تاركين وراءهم سهل جمونية والفْجِم، وهما بموجات بسنابل القمح، والحصادين من أهالي مَصْطَبة، مشمرين عن أذرعهم للحصاد. فلما أصبحت الحمارة في رأس المُعَلَّقَة، بدأ نصير يسمع أصوات النازلين من البلدة، وحسفة حوافر الدواب، وبدأ يشم روائح دخان الهيشي النافذة والمنتشرة مع نسمات الفجر، كان أهالي مَصْطَبة بعضهم نازل وسارٍ إلى الحصاد وهو يدخن الهيشي.

لف نصير رأسه ونظر من خلفه من أعلى المُعَلَّقَة نظرة وداع للغور، في حين كانت الشمس تشرق على رؤوس الجبال، وما تلبث خيوط أشعتها أن تلامس سنابل القمح المنحنية من ثقل حباتها، ومن ضعف سيقانها التي التفت الساق فيها بالساق، ويبست منتظرة ضربة منجل بيمين فلاح انتظر هذا اليوم ليحصد وليطعم أولاده ومن يقدر أن يطعمه، فانحنت السنابل ساجدة لرب السماء الذي سخرها للإنسان الزارع، فشق التراب بمحراثه، وأودع حبات القمح بين يدي الرحمن الذي ساق الماء لهذه الأرض الجرز، وانبتت ما أودعه الزارع، وممن لا سيطرة للزارع عليه، وخلال ستة شهور أنضجها الرحمن بقوانينه المودعة بصمت في الغور، فاستوت ليأتي أهل الغور فيحصدوها.

كان نصير والحمارة المحملة بقمح فصايل هما الوحيدان الطالعان

إلى مَصْطَبة، بينما كان العشرات من أهلها ودوابهم نازلين المُعَلَّقَة، وملاقين نصير وحمارته، وما إن تنتهي بهم نزلة المُعَلَّقَة حتى يتفرقوا بسهل الفْجِم، كل لحصاده صارم، ومنهم من لم يصل بعد، ومنهم من سيلاقونه ويؤنسونه في طريقهم.

ودع نصير هذا المنظر الجميل الذي حُفر بذاكرة فتى الغور ومثل هذا المنظر لا يطمس أو يمحى.

تذكر نصير حلمه وهو يلقي بنظرته الأخيرة بعد أن استوت الطريق من بعد المُعَلَّقَة، فأصبحت الطريق مغربة به للبلد، فكان آخر شيء يراه هم من استيقظوا ممن ناموا على رؤوس قطع أرضهم ووصلوا إلى الغور في الليل، وقد تفرقوا كالنحل وكل منجله بيمينه، وغمر حصاده بشماله، وحاول أن ينسى حلمه الذي قصه لوالده أبونسر عندما كانا نائمين على الحمارة قبل أسبوع، أثناء نزولهم ليحصدوا فصايل (أن سماء الغور مليئة بالطيور الكبيرة السوداء، وأنها ترمي كرات من النار على بيادر قمح أهل الغور، فتشتعل بها النار).

لم ينسَ مرة أخرى ما علمه إياه والده بعد رؤيته لحلم غير جيد أن يتفل عن يمينه وشماله، ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، فهو مجرد أضغاث احلام أو حلم ناتج عن تفاعل بيولوجي في خلايا دماغه، بين ما تخزنه وتحمله ذاكرته من خراريف أبوملیح عند صخرة الناطوفة، فقد خزنت ذاكرته أول مرة طائر الرخ الخرافي أو الفينيق وأفراخه التي نهضت من رماد النار، وكانت قد خزنت الطائر الأسود الذي ترحمت عليه أم أبي زيد، فوُلد أبو زيد أسود كما روى له والده قبل أسبوع.

كان راكبا على الحمارة والظلام دامس، وإن بان القمر هلالًا، فلم يكن ضياؤه ليكفي نصير الذي تذكر حلم الطيور الكبيرة السوداء، فتفل كما علمه والده، مع أنه مجرد تذكر لحلم وليس بحلم جديد، فهو لا يستطيع أن ينسى ما حدث أثناء نومه على ظهر الحمارة ملتصقا بظهر والده، فيفصل ذلك عما هو عليه الآن، فهو ملتصق من الخوف بظهر الحمارة، ووحيد في الطريق، ويهتز جسده الملاصق لظهر الحمارة باهتزاز وحركة جسد الحمارة.

إن اهتزازات ظهر الحمارة المرتبطة بوقع حوافرها تكاد تكون نفس اهتزازات جسده، المتفاعل باهتزاز جسد والده المتوفى بالنوم، فقد جعل اللاوعي عند نصير يخرج هذا الحلم بهذا المنظر السماوي، ممزوجا أو مخصبا مع آخر شيءٍ رآه قبل النوم، وهي النجوم التي تزين السماء، وأحد النيازك الذي داعب احتراقه بصره.

كانت طريقة أبونسر لتحميل أكياس القمح على ظهر الحمارة قد جعلت ظهر الحمارة كالميزان، فيكون العدد والوزن من كل جهة مساويا للجهة الأخرى، ويشدها ويربطها بحيث تصبح جزءا من جسدها، فإذا مالت تميل تلك الأكياس، وإذا سارت مستوية ولم تتعثر ولم تضرب جنباتها الصخور بالطرق والمنعطفات الضيقة، فإن حملها يظل ثابتا، وإن طريقة التحميل تجعل من منتصف ظهرها كأنه مهد أو سرير لنصير الذي تمدد عليه، فيكفي أن يشد الحبل بين صدفين الأكياس، فإذا نام فلا خوف عليه من الوقوع حتى لو عنفصت الحمارة لأي سبب، وهي بالنتيجة ستصل للبيت لوحدها، فذلك ما تعودت عليه خلال خمسة عشر عاما.

فلما كانت الشمس قد طلعت وقد ودع الغور، وخفتت الأصوات حتى لاحقته شمس الضحى، فأخذ يغالبه النوم، بينما كانت نسمات الصباح الغربية تمسح عرق حمارته، وتشعره بالخمول وقد أغمض عينه لبرهة، وفتح عيونه فشد الحبل على ظهره بين أكياس القمح لينام بين يدي الرحيم، فتحرس غورانيته المعقبات وبصمت الرحمن طيلة النهار وعلى وقع حوافر الحمارة. ثم إذا الرحمن أيقظه بعد العصر وقد أنهت الحمارة طريقها، واجتازت العَقَبة الأخيرة والأصعب، وهي عَقَبة «أبو سليم»، بدأت الشمس تغيب وزادت برودة وحدة الريح الغربية الطيبة، فأنعشت جسده وجففت عرق الحمارة، وأيقظه الرحمن مرة أخرى بصمت، بعد أن فتح نصير عينيه فيقول بنفسه: «أنت على مشارف البلد، وإن أول بيت تصادفه وبجانبه الشرقي جرة فخار لماء سبيل، فاغسل وجهك واشرب بالكيلة المربوطة بفم الجرة، واسقِ حمارتك بما يطفئ عطشها وتعوض الماء الذي فقدته بعرقها»، وما إن رآه صاحب البيت أبوصادق حتى قال له: يا ولد هذا الماء سبيل للناس، وليس للحيوان!

كان أبوصادق قد بلغ السبعين، ولف الكوفية على رأسه بدون عقال، ويتفقد فرسه وهو لابس الشروال الأسود الفضفاض، ومن فوقه قميص، وبدون أن يرتدي الكبر فوقهما، وكان بيته أقصى بيت يقع شرقي القرية، وأقرب بيت للناطوفة التي يعرفها نصير، تطلع نصير إلى أبوصادق، فشاهد لحيته بيضاء، وظهره محنيا قليلا.

لم يكترث نصير لحديث صاحب البيت وواصل سكب الماء بين كفيه وسقى الحمارة، فنصير يعرف أنها فقدت كثيرًا من العرق أثناء رحلتها،

ولا يبالي لما يقوله أبوصادق، فالماء سبيل والحمارة لها نصيب منه، فتقدم أبوصادق منه وقال له: ابن مين أنت يا ولد؟

أنا نصير، جاي من الغور.

اقترب منه أبوصادق وتفحصه، وقال:

«دمك على دار أبونسر»، واستطرد فسأله: «شو محمل؟». واقترب من الحمارة، فعاين حملها فقال: «قمح، أو شعير»، وكانت الحمارة متعرقة، واقترب أكثر من نصير فوجد أن جسده وثيابه الرثة والوسخة تفوح منها رائحة نتنة نفاذة أكثر من رائحة عرق الحمارة، فأنزل العجوز كوفيته من الجنب فغطى على أنفه وفمه.

وقال بعد أن ابتعد خطوتين للوراء: «من وين جيت يا ولد؟». وأضاف وقد أدار وجهه على حمل الحمارة، وضغط بيده على أحد الأكياس، فعرف بخبرته أن ما بداخلها قمح، فقال متعجبا: إن الناس حتى الآن ما حصدوا، كأن أباك حصد ودرس فصايل، فهو الوحيد الذي حرث فيها من أهل البلد هذه السنة.

وأضاف وقد أراد أن يشعره بمعرفته: «إحنا وأبوك جيران في الطويل، فعند السقائف لكم أرض بجنبي»، وقال له: «جيب وقود الحمارة، والحقني على البئر». وقام أبوصادق بنضح الماء بالدلو، وإفراغه بحوض منحوت بالصخر، وشربت الحمارة حتى إنها لم تدع شيئا من الماء بالحوض.

وسأله: حد معك؟ وين أبوك.

أجاب نصير: أبوي ظل يحصد في الفْجِم.

قال أبوصادق: يعني أنت جيت لوحدك، وسأله: جيعان يا ولد، ولم ينتظر الجواب منه ونادي بصوته: يا أم صادق شو في عندك أكل، هذا ابن جارنا في الأرض. ابن أبونسر

أجابت: ما خبزت اليوم، في فتة خبز وزر بندورة، قطعته اليوم كان مستوي.

أحضر أبوصادق الفتة وزر البندورة وأعطاهما له.

وقال له: «والله إنك ولد غوراني. كيف جيت لوحدك من الغور؟ سلم على أبوك، قوله بسلم عليك أبوصادق، وإذا عاوز تبيع قطعة الأرض التي جنب سقيفتنا بالطويل أنا بشفعها منه». وقال واعظا وهو يبتسم للطفل نصير: أول ما توصل خلي أمك تحممك، وتحرق ملابسك قبل ما ينتشر القمل عندكم بالبيت.

أومأ نصير برأسه دون أن يهزه كلامه، وأدار ظهره، وسار نصير خلف الحمارة قاطعا منطقة الأجور، ومارا على البلاعة، وصاعدا من جانب المدرسة.

لقد شرب الماء وشربت حمارته، وهي تعرف طريقها للبيت، فاذا ما ابتعد قليلا ولم يعد يراه أبوصادق العجوز، دق في فتة الخبز القاسية، ودهج زر البندورة، فسكتت معدته وتحرك الدم بشراينيه، فانتعشت حواسه كما انتعشت حمارته التي أوشكت مع غياب الشمس أن تصل إلى البيت، لتضع أثقال حملها، وترتاح في الياخور.

كانت أول تجربه لنصير في صيف الغور الحار والحصاد والتغمير والدرس والتذراية، وحتى النوم على أكياس القمح، فذاكرته ترتبط بشتاء

الغور وربيعه وأيام الحراثة والأغنام والسخول، والنوم على قصات الجبنة، وسوالف والده عن مغامرات جده بسبب زوجته، جدة نصير التي لم تكرم الضيف، فأقسم جده أبوالعبد أن يحضر لها ضرة تكرم الضيف، فكان ما كان من زواجه من شرقي النهر من البلقاء زوجته الثانية، فقد كان جده عنيدا ويبدو أنه ورث عناد جده رغم أنه لا يعرفه، فبحسب رواية أبيه أن يد الغدر أخذته وهو نائم على سقف الحيط بين غمور السمسم، وقد يكون أخذ لقبه سقف الحيط من تلك الواقعة التي لحقت بجده، وإن كان نصير قد كره هذا اللقب، وأحب اللقب الذي أطلقه عليه جده أبوجابر، فلقد لعب معه لعبة فتح قبضه اليد، وأطلق عليه فتى الغور.

اقتربت الحمارة من القلع وأخذت الطريق المؤدي إلى البيت، وتذكر محفظته وتعريفاته، فأخرج المحفظة وتفقد ما بداخلها، فوجد كل شيء فيها، فالتقط الورقة التي عليها صورة اليهودي، فوجد أن الصورة قد بهتت وأصفر لونها، وتفشى حبر الطباعة على الورقة نتيجة عرق جسده الذي تسلل إلى داخل محفظته، فتفشى حبر الطباعة والرسم، فكبرت الصورة وأوشكت معالمها أن تطمس أو تمحى.

2 حزيران 67
النَّوَر واللعبة

كانت البلدة هادئة، فالمدارس عطلت، وأوشكت أن تغلق، وأصحاب الزرع، تواعدوا على أن يغدوا مصبحين على حصاده في الفْجِم في الأغوار، فقد نضج وأصبح جاهزًا للحصاد.

لم يتخلف أو يتبقَّ في بلده مَصْطَبة إلا من ليس له أرض بالأغوار، وكذلك الصغار وكبار السن وبعض النساء ومعلمو ومعلمات المدراس الذين حضروا ليوزعوا النتائج، ويودعوا بعضهم البعض قبل بدء العطلة الصيفية، خصوصا أنهم من مدن وقرى مختلفة.

وصلت الحمارة ونصير إلى البيت وقد غابت الشمس، فأخذته أمه نصرة بحضنها ووضعته بسرعة على الأرض: «ريحتك يا ولد بتقتل!».

فقالت لإخوته وكناينها يفكوا الحمل عن الحمارة ويعلفوها، بينما قامت بخلع ملابسه وتركتها في قاع البيت وليس داخله، وسحبته إلى زاوية البيت، وقامت بإشعال البابور، ولم تصبر على الماء حتى تسخن، فحممته وليفته بالماء، وألبسته أول لباس وقع عليه نظرها، وكان مريول مدرسة أخته فتحية التي تكبره وكان على رأسها، فلقد خلعته فتحية ورمته آخر يوم في المدرسة، بعد أن أصبح لا حاجة لها به، وأصبح ضيقا عليها، وسيكون من بعد ذلك ممسحة المَصْطَبة، بينما أمه نصرة لم تكن تريد أن تبحث له عن ثياب نظيفة في وقت ما قبل النوم، وريثما تدبر له غدا من

فضلات إخوته أو يهديها رشدها للباس آخر. قال لأمه وهو يتضور جوعا ما وصاه والده به، واستطرد قائلا إن إخوته ما يروحوا المَداحِل فأبوه صار في الفْجِم، وقالت له: هذا قمح أسترالي من فصايل، دائما بنزل بدري، وبكرة بخلي الجناين وعجائز الحارة يساعدوني في الغربلة والتنقاية لنرسلها للبابور للطحن. وأضافت: وبخلي إخوتك وأختك الكبيرة ينزلوا يساعدوا أبوك في الحصيدة، وبودي له زوادة معهم.

قال نصير لأمه التي انشغلت عنه في إرضاع أخيه الرضيع الذي كان يبكي: «وكمان صحيني بكرة، سأرجع مع إخوتي إلى الغور».

عملت نصرة نفسها أنها لا تسمعه بعد أن حممته، وكان إخوته مشغولين بفك الحمل، وأخذ الحمارة لحوض البئر، لتشرب وبعد ذلك لأخذها للياخور، ووضع التين لها لتأكل وترتاح.

قامت نصرة بوضع الرضيع في المهد، وبسرعة وضعت غلاية على البابور ووضعت بها شوية سمنه بلدية، فما إن ساحت حتى وضعت فلقات جبنة بيضاء، فإذا تحمرت قليلا طقت عليها بيضتين، وخلال دقائق كانت جاهزة، فناولته نصف رغيف، وقالت له: كل ورم عظمك، وقوم نام بالشباك.

تناول الطعام بشراهة، وكان ما يلحق يمضغ حتى يبلع، فقد أكل بنفس طريقة أهل الغور، وما إن فرغت المقلاة ولحس ما بها حتى قال لها: «عندك يمه زر بندورة»، ردت عليه باستغراب: «شو جاب البندورة على خاطرك، لا ما في، وما زرعنا السنة صيفي، لا بندورة ولا فقوس، ولا بامية، كأنك يا ولد ما شبعت».

قلد نصير عبارات والده قائلا: «الحمد لله»، وهو في نفسه يتذكر زر البندورة الذي أطعمه إياه أبوصادق، فطعم البندورة فريد من نوعه ومذاقه، فقد أكله لأول مرة، فقلمت حاسة الذوق عنده طعم البندورة الحمراء اللذيذ، فجعل منها نصير فاكهته المفضلة في ما بعد، فالإنسان يتأثر بمذاق ما يأكله أول مرة، وبما يراه لأول مرة، وبآخر ما يسمع.

ووضعت له أمه جنبية صغيرة في نافذة البيت، حتى يكون معزولا عن إخوته، وما يزعجهم أثناء النوم أو يصحيهم منه أن وضعته بينهم، وذهبت للتأكد من أن إخوته سقوا وعشوا الحمارة في الياخور، فغدا ستعود الحمارة من حيث أتت إلى الفْجِم، لتقوم بعد ذلك بتجهيز الزاد لوالده، وتعشي باقي أفراد العائلة وتنيمهم، حتى يصحوا غدا من أذان الفجر ليسروا إلى الغور لمساعده والدهم.

استيقظ نصير في اليوم التالي بعد الظهر، ولم يجد إخوته في البيت، فقد يكونون الآن وصلوا الغور، لقد كان البيت يحتله مجموعة من النساء، وقد شكلن دائرة حول غربال وجونة وصاع وسدر، تنثر به أيدي النساء كبشات القمح، وتلاحقها عيونهن، فاذا أبصرت قشة أو عقدة أو صرارة أو جدر تراب، أو حتى حبة قمح مسوسة أو ضعيفة أو حبات شوفان، التقطتها بسرعة أصابع أيديهن المذهبة بالخواتم، وقذفن بما تجمع براحه أيديهن خارج السدر، وعزلن بطرف السدر ما سيذهب إلى المطحنة.

كانت النساء يتحدثن، ويعدن الكرة تلو الكرة، فيكبشن وينثرن وينقين، ويتجاذبن أطراف الحديث وأخبار البلد، ومن ولد أو مات، ومن

تـزوج أو تطلـق، ومـن سـافر أو مـن قعـد، ومـن حضـر مـن العسـكر ولـم يحضر، ومن النادر أن يسكتن، ويتجادلن على أي خبر، ولم يجمعن على خبر إلا أصبح نبأ، وكان النبأ أنه ولا عسكري حضر بإجازة ليساعد أهله على الحصاد كالعادة في مثل هذا الموسم.

كومت نصرة ونساء الحارة أكوام حبوب القمح الذهبية والمنقى، وسمع نصير الذي صادفت يقظته من نومه بعد الظهر وجود نساء الحارة، فوقف غير بعيد خلف فردة الباب الخشبي يرقبهن، ويخشى أن يبصرنه بمريـول أختـه فتحيـة، واكتفـى أن يسـترق السـمع لحـديثهن، منتظـرا انصرافهن، ليسأل أمه لتغير له، مريول أخته.

سمع نصير جارتهم أم محمد، وهي أكبرهن سنا، وأكثرهن مساعدة، وهي تقول لأمه نصرة: بدي عجنة منك طحنة بكرة.

ونصرة تقول وهي تلم ما تبقى وتضعه بالخريطة التي امتلأ ثلثاها بعد الغربلة والتنقاية: «حلت البركة واحنا في هذيك الساعة في حد قدنا لما الحجة أم محمد تدعي لنا وهي تعجن وترق وتخبز». وسمع نصير أمه وهي تقول ممتنة لأم محمد: «وأنت فضلك علينا يا حجة سابق، وكل ما بدنا نعمل شيء نغلي جبنة أو قمح لطحنة أو نطحن عدس أو نعمل دقة زعتر، فأنت من تلمين نسوان الحارة، ونخلص شغل يومين، بساعتين».

قالت الحجة أم الأستاذ: «الجبنات كيّف عليهم الحج أبومحمد!» واستطردت. قائلة:

ما شفتي جارتنا ما جابت سيرة إلنا إنه ابنها رجع من الجيش، ولا

جابت شيء معها تحلينا.

ردت عليها نصرة: ولا حتى أولاد زوجي حضروا، وآخر مرة قال نسر لأبوه إن القائد إللي بسوق فيه قال له: ما في إجازات هذه الأيام.

واستطردت قائلة لأم محمد: نسيت أقولك خلي ابنك الاستاذ محمد يسجل نصير في الصف الأول للسنة الدراسية الجاية، وصيه يا حجة لا ينسَ، وبخلوا واحد من إخوته يجيب شهادة ميلاده من عند المختار، وكررت عليها: ما تنسي يا حجة.

ردت أم محمد: كيف بدي أنسى سقف الحيط، أبو شعر ذهبي وعيون واسعة.

ردت نصرة: يا حجة صار اسمه نصير عشان المدرسة، مع إنه كان نفسي اسميه نصر، لا تنسي.

ردت أم محمد: إن شاء الله وذكرتيني الله يذكرك بالخير، خليه يسجل كمان ابني خضر، ما هما تولدوا في الربيع في شهر واحد.

ردت نصرة قائلة: «بس نصير تولد في الغور، وبعد أسبوع من ولادته هبت العاصفة، واستمرت الريح والمطر أسبوع، وطارت بيوت الشعر، وأوينا للمغر، وتركنا نصير ورانا في الجحر بعد ما ما ذهلت عنه وفكرته إنه مات، وبعدين راح أبوه يجيبه حتى يصلي عليه ويدفنه، وبقدرة الله رجعت له الروح في المغارة، وسمنه سلفاتي سقف المغارة». وقالت وهي تتنهد: «أيام تنذكر وما تنعاد»، وأكملت: «وعاش الولد وكل حياته تعب ومعاناة، وحتى وهو في بطني مرةكان بده ينزل وقربت أطرحه، وعاش ومن هظاك

اليوم هو في الغور وامبارح حضر من الغور وجاب القمح إللي نقيناه. وبعدين صرنا بنقوله سقف الحيط».

كان نصير قد عاد إلى داخل البيت قبل أن يسمع ما قالته أمه لأم محمد عن ولادته أثناء العاصفة وكيف مات ثم طاب، فلم يسمع ذلك.

نهضت النساء بعد التنقاية لتذهب كل واحدة لبيتها، فخاف نصير أن يسخرن من لبسه لمريول أخته، فدخل داخل البيت، وانتظر حتى ينصرفن وتفضى والدته له، لتبدل له ملابسه.

بعد أن خرجت النساء تذكر ملابسه القديمة التي ما زالت ملقاة بجانب حائط البيت القريب من التينة، فأسرع اليها ونبشها، وأخرج المحفظة وكمش عليها بكلتا يديه، وذهب إلى النافذة ووضعها تحت وسادته، وجلس في النافذة مدليا رجليه، فشمر المريول الذي كان قصيرا عن سيقانه التي بدت رفيعة.

دخلت أمه نصرة في هذا الأثناء وقالت: غطي على عساقيلك.

فضربت على رأسها قالت: خليني أحط ما في أيدي، وأدور لك على غيار، كيف بدك تخرج وتلعب مع الأولاد يا نصير.

قال لها: أبوي سجل اسمي نصير حتى أدخل فيه بالمدرسة.

كانت والدته تضع الغربال في زاوية البيت فقالت: تذكرت ما في إلا ألبسك ملابس المدرسة إللي جابهم أبوك آخر مرة.

لقد تذكر أن والده أحضر له من المدينة كندرة كبيرة، ولم يتذكر ملابس المدرسة، فلقد أخفاها عنه حتى لا تستعمل، والآن وقد انتهت

المدرسة، فقد لبس لباس المدرسة قبل أن يلبسها لأول مرة عندما يدخل المدرسة بها عندما تعود وتفتح في نهاية الصيف.

خرج نصير من البيت بثياب كان يتمنى أن يلبسها في أول يوم لدخوله المدرسة، صحيح أنها واسعة عليه وتظهره بأنه أكبر من عمره، وكان مرتاحا بها، لكنه غير مرتاح لحذائه الجديد الواسع الذي يعيق حركة قدميه، لكنه يتحايل على وسعها بوضع شرايط قماش داخلها ليغلق الفراغات بها، فتثبت قدماه بها، فلا تُعاق حركته العجولة التي تعلمها من والده المستعجل دائما بعمله بحراثته وحصاده وأكله، فهو معروف عنه يسبق كل أهل القرية.

خرج نصير إلى الحارة وكان الوقت بعد العصر، فوجد أحد أبناء عمومته المدعو مفتاح، والذي يكبره بسنتين ودخل المدرسة لمدة سنة وتركها بعد أن رسب وجلس بجانب أخيه الأصغر منه مصباح على نفس المقعد. قال مفتاح ساخرا منه: «سمعت إنه عملوا لك شهادة بدك تدخل المدرسة، وتلحق بمصباح. أنا تركتها من كثر الضرب من الأستاذ على قفا يدي بالعصا». واستطرد مفتاح بالكلام قائلا: «صحيح إنه اسمك بالمدرسة بدو يصير نصير؟».

وأضاف: «ليش لابس لبس المدرسة؟ ما خلصت المدرسة، وبعد الصيف بتفتح بس أنا مش راجع». وأطلع على وجهه وسأل: «وليش وجهك هيك؟». لم يرد عليه نصير بل سأله عن مصباح الذي استمر في المدرسة حتى يحكي له عن المدرسة، وقال في نفسه: مفتاح هرب من

المدرسه من كثر الضرب! طيب ليش ما هرب مصباح؟

وأماط نصير ردن القميص عن ذراعه وقال له: شوف الوشم، عندك مثله؟

رد عليه ابن عمه: من عمله لك؟

قال نصير له: النَّوَرية. تروح ننزل عندهم على وسط البلد.

وكرتوا نصير ومفتاح نازلين العَقَبة حتى وصلوا البيادر، فاذا النَّوَر يحملون مضاربهم وقد هموا بالخروج من القرية، وقد اجتمع حولهم بعض رجال القرية وصبيانهم، فقال نصير على مسمع الحاضرين: وين رايحين؟

لم يأته الجواب، لكنه سمع حديث أحد الرجال مع كبير النَّوَر: والله إحنا بعز علينا فراقكم، لكن الحصيدة بلشت بالغور عندنا وحمالات القمح بتبلش تصل بكرة لإفراغها على البيادر.

فردَّ كبير النَّوَر: إحنا عارفين وكل سنة بنرحل وبنغرب على القرى التي لم تحصد بعد لنضرب خيمنا على بيادرهم، فأنتم بجانب الغور والقمح عندكم بنزل قبل قمح كل القرى.

رد عليه الرجل، ويبدو أنه مختار إحدى حمايل البلد التي تبيدر في هذا المكان: وين ناويين إن شاء الله؟

قال كبير النَّوَر: وين بتروح أغنامكم في هذا الوقت بعد ما تطلع من الغور بنروح.

أجاب المختار: «يعني مردا وكيري وقرايا بني حسان وواد قانا».

وأضاف المختار: «يعني انتو النَّوَر، بتلحقوا أصحاب الحلال».

أجاب كبير النَّوَر: «رزقنا في السعي في الأرض، والأرض لملك السماوات والأرض»، وأضاف: «احنا قبائل كثيرة ما لها مستقر ولا وطن، من الهند لإيران للعراق وسورية وحتى فلسطين، وين في حلال نلحق بأصحاب الحلال، وبعدين بنعود نفس الطريق، وين ما في غفر ودرك وبنلحق سقوط المطر، لإنه بكون فيه غنم وحلال، واحنا بنخيم عند أصحاب الحلال، وبنقضي حاجاتهم وأدوات الكي ووسم الغنم وبعض مرات بنوشم البشر».

رأى نصير ابنة النَّوَرية التي دقت له الوشم، وأمسك بيد مفتاح وقال: تعال أوريك النَّوَرية التي دقت لي الوشم، ورسمت لي صقر على ذراعي.

عندما اقتربا من حمار النَّوَرية المحمل نبح الكلب الذي كان بجانبها عليهم، فأعطى نصير رجليه الظبة راكضا قائلا: أنا صرت أكره الكلاب بعد ما عضني كلب وقتلته.

قال مفتاح وهو يلحق به راكضا مثله وكان ركضهما باتجاه الجامع: يعني إللي في وجهك من ندب من عضة الكلب.

«آه» أجاب نصير، واستغرب أنه لم يعقب على ما قال إنه قتل الكلب الذي عضه.

وصل نصير ومفتاح الجامع ركضا، وقد نزلا إلى البئر وشربا الماء، وصعدا ليجلسا تحت التوتة التي بدأت أوراقها تجف وتموت، ولم تعد توفر ظلًّا لمن يجلس تحتها. وقد جلس على أحجارها الأسطوانية

الكبيرة كبار المصلين الذين خرجوا من صلاة العصر، وهم قلة من العجائز والشيوخ الشيب بلحاهم الطويلة، ويتوكؤون على العصي وهم يتجاذبون أطراف الحديث الذي بالكاد يسمعه نصير ومفتاح اللذين جلسا غير بعيدين على سطح حجر واحد.

«خلينا نقعد شوية نرتاح من الركض» قال نصير، وأضاف: إذا بتشوف ولد أبرص خبرني.

سأله مفتاح: ليش، شو بدك منه؟

قال: بدي أمسكه، وأعمل فيه مثل ما عملت بالكلب، كان سرق مني محفظتي.

«هو أنت عندك محفظة؟!». استفسر باستهزاء واستنكار مفتاح.

فأخرج نصير محفظته وتفحصها وما بداخلها.

فقال مفتاح: أنت بتقول إنه سرقها، كيف وهي معك؟

رد نصير:» بعدين لقيتها»، ولم يرغب في أن يقول القصة كاملة، فبادر إلى سؤال مفتاح: شو كنتم بتعملوا في المدرسة؟

رد مفتاح: «هاي مسخرة المدرسة، قاعدين خمسين ولد في غرفة على بنوك خشب، واللي بشخ تحته واللي باللعب، والمدرس أبوعصا حامل العصا، وبرسم على اللوح رؤوس أولاد، والأولاد بقولوا جميعهم لما يأشر بالعصا على الرأس رأس، ولما يأشر على اللوح بالعصا على الرؤوس بقولوا: رؤوس. ولما كان يجي عندي يقول لي عد الرؤوس، وأنا ما بعرف أعد، فيقول لي: يا حمار هظول ثلاثة رؤوس، ويضربني

كف على رأسي من الخلف، وبعدين هربت، وأحضرني والدي قبل ما يبيع الغنم ويسافر إلى أمريكا». وأضاف: والمدير قامني فلقة أمام كل المدرسة، وبعدها ما رجعت على المدرسة من خزوتي من الطلاب.

بينما نصير ومفتاح يجلسان، تحت التوتة، كان يجلس بالقرب منهما ختياران يتحدثان بصوت مرتفع، كان أحدهما وهو يمسك لحيته البيضاء يقول: «يا أبوالسوالف، من هل اللحية إذا رجَّعوا للبلاد، يا زلمة ما اليهود، أخذوا ثلثين البلاد ورايحين يكملوا بكرة على باقي البلاد، وراح بتشوفهم هان جنب الجامع، مش بعيد عن مكان هالأولاد الجالسين راح تشوفهم هناك!». وأشار بعصاه إلى نصير ومفتاح، وطفل آخر أصغر منهما جلس غير بعيد عنهما.

تذكر نصير الختيار الذي كان يجلس بجانب الختيار المتحدث، وعرف أن اسمه أبوالسوالف، بعد أن ذكر اسمه الختيار المتحدث. وأبوالسوالف أكبر عمرا من الذي يتحدث، ولحيته أطول!

تذكر نصير كلامه عندما سرقت محفظته أنه سوف يتزوج بثلاث سبايا يهوديات شقر، وقد رد أبوالسوالف على الختيار المتحدث: «يا زلمة أنت ما بتسمع أخبار، العرب بقولوا للسمك تجوع، وناصر بقول عنده صواريخ ظافر وقاهر، وطائرات راح اتدمر اليهود، واحنا بنوخذ نسوانهم».

ضحك صاحبه، وغيّر الحديث بسؤاله: «هل أولادك نزلوا على الغور ليحصدوا؟». أجاب: من امبارح نزلوا.

سأله: بدكم تبيدروا في الغور أو تنقلوا بحمالات للبلد؟

أجاب: «يا زلمة هو احنا مثل دار أبونسر بحصد وبدرس وبيبدر في المكان نفسه، لا احنا بنجيب القمح على بيادر البلد»، وسأله أبوالسوالف: ما شفت المختار قال للنور يخلوا البيادر، والله كانوا مسليين أهل البلد.

اقتربت الشمس من الغياب، فالرجال يقضون ما بين العصر والمغرب يسولفون تحت التوتة، وسوف يصلّون المغرب، وبعضهم يتسللون إلى بيوتهم، وكذلك نصير ومفتاح، فقبل غياب الشمس توجهوا تلقاء القلع حيث بيوتهم ليأكلوا ويناموا وينتظروا يوما جديدا، ولحسن حظ نصير أنه لم يرَ الولد الأبرص في ذلك اليوم، فهو لا يزال يشعر بنزعة الغوراني الذي أُخذ على حين غفلة.

لقد كان مسار رحلة تأهيل نصير من قبل والديه بإبعاده عن الغور إلى القرية ليعيش كطفل، وإبقائه في القرية ليختلط ويتفاعل مع أولاد جيله، وليمر بتجارب حياتية يقابل بها الجيد والسيئ واللص والشريف والماكر والحسن، والحاسد والغابط، والصادق والكاذب، وهي كلها صفات يتمتع بها الأطفال الذين صادفهم لأول مرة، فلم يكن هناك براءة أطفال كما يزعمون، إنه سلوك آباء الأطفال، تعلموه من الكبار وممن سبقوهم، كابرا عن أكبر، فأهل القرية كغيرهم من أهل القرى يتصرفون تصرف أمة واحدة بدون اختلاف، فينامون بوقت واحد، ويصحون بوقت واحد، ويأكلون نفس الطعام، ويزرعون نفس الزرع، وإذا ذهب شاب للكويت

لحق به معظم الشباب، والمختار هو نفسه سواء كان ابنه أو حفيده، فهم يقلدون آباءهم وبعضهم البعض، حتى لو تنمر بعضهم على آخرين من قرى صغيرة حولهم وتندر أهل المدينة على تصرفهم.

زلف نصير ومفتاح من الجانب الغربي للجامع نحو البيوت القديمة والطرق الضيقة والزقاق وبيت عمة أمه المعمرة التي رحَّلها جده إلى بلدته العِلِّيَّة، التي تعلو بلدة مَصْطَبة.

كان السكون يخيم على القرية، وكانوا يسمعون وقع أقدامهم وهم يهرولون، وما إن خرجوا من آخر زقاق حتى وقع نظرهم على جنوبي التينة السوادية على البيادر الخاصة بحمولتهم، فوجدوا مجموعة من الأولاد يلعبون في كرة شرايط، وقد صفوا الحجارة، وتقدم مفتاح الذي كان يعرف معظمهم، وطلب وقف اللعب ليعيد تشكيل الفريقين قائلا لأكبرهم من الفريق الغربي: أنا مع الفريق الشرقي، وابن عمي نصير مع الفريق الغربي.

أجاب: يعني صار ستة مقابل ستة.

خليه نصير يكون حارس على الجول.

لم يسبق لنصير أن لعب هكذا لعبة، سوى اللعب بكرة طينية على بيدر جارتهم، ولم يحب هذه اللعبة.

تحركت كرة الشرايط تحت أقدامهم، وكان الجميع يلحقون بها حتى إذا قذفها مفتاح نحو نصير بيديه فالتقطها وقذفها برجله، فارتفعت في الهواء لتصيب رأس رجل كان قادما نحو الأولاد، فأمسك الكرة وقال

لهم: ما في لعب هان من يوم طالع، ونظفوا البيادر من الحجار فبكرة بتبلش حمالات القمح تفسخ هان.

هرب الأولاد جميعهم بما فيهم مفتاح، وبقي نصير يقف على الجول بين حجرين، واقترب منه الرجل قائلا: شيل يا عمي هالحجرين، ابن مين انت؟

رد: أنا نصير ابن أبونسر.

قال الرجل: هذه الحجارة على بيدر دار أبونسر.

عرف نصير أن كل حمولة لها بيادر، وأن هذه البيادر لحمولتهم، بما فيهم والده وأعمامه وعائلات أخرى.

لقد أتاحت له جولة اليوم بالبلدة التعرف على لعب كرة القدم، وأن أولاد قريته لم يحظوا بكرة جلد أو مطاط، بل صنعوا كرة شرايط ووضعوا داخلها صرارا حتى يزيد وزنها.

واستطاع نصير أن يمسكها ويقذفها بقدمه حاله كحال أي طفل في البلدة، فتكون تجربة والديه قد نجحت نجاحا نسبيا مع نصير ليعيش حياة الطفولة بالقرية وينسى الغورانية، وإن كانت في عمومها التجربة فاشلة، رغم محاولتهما أن يختارا اسما له، ففي الغور لم يكن ليلعب كرة قدم مع الأولاد، فأكثر من قيامه بالجري مع كلبه سرحان وراء السخول والخرفان لم يكن يلعب، فلم يتعلم شيئا إلا صمت الغور، والاستماع للأنعام، ولم يكن بحاجة لاسم من الأسماء، وممكن أن تقوم مقامها الألقاب، ولكن عندما يتعلق الأمر بخطوة أعلى درجة من التعلم والتفاعل مع الأطفال،

وهي المدرسة التي ما زال موعدها بعيدا، فلا بد من اسم له، إلا أنه لا ضير في أن يلبس لباسها في هذا اليوم الأخير للطلاب، واليوم الذي يليه الذي سيكون آخر يوم بالمدرسة، فلأ بأس أن يأخذ جولة مع أبناء عمه مفتاح بلباسه المدرسي الفضفاض، ويتجول بالطرقات فلا أحد يعرفه، ويتعلم عن طريق استراق السمع لحديث المختار مع كبير النَّوَر، وحديث الختيارية تحت التوتة، ويسمع عن اليهود، ويتأكد من صورة اليهودي المحبوسة بمحفظته، ويعرف من مفتاح أن هناك ضربا بالمدرسة، وأن البيادر هي ملاعب الأولاد، فقد لعب وتعلم من اللعب، وعلم أن هذه بيادرهم، وأنها غدا سيفسخ في كل زاوية منها حمل حصاد قمح قادم من الفْجِم، ليكبر البيدر ويصبح تل قمح. إن هذا ثاني يوم من حزيران تلتقطه ذاكرة فتى الغور ممن كان يعرف بلقب سقف الحيط، وأصبح اسمه نصير.

قبل الحرب
المطحنة

استيقظ نصير من النوم متاخرا، فلم يزعجه أحد من إخوته الكبار، لأنهم غير موجودين في البيت، ويساعدون أباهم في الحصاد بالغور.

وقع نظره على صورة من قالوا عنه إنه ناصر، ومن سمع عنه من ختيارية البلد بالأمس، فهو البطل الذي سيحرر فلسطين.

كان كل من في البيت هم إخوته الصغار، واحد منهم لا يزال يرضع، وأخت صغيرة عمرها ثلاث سنوات تجوب قاع البيت، وهي تلحق بالأم أينما ذهبت، فهي تغار من أخيها الرضيع الذي تهتم به أخته فتحية التي تكبر نصير بسنتين، وأما الأصغر منه بسنتين، فيدعى رضوان، وهو مليء وبشرته أميل إلى السمرة، فهو لا يزال نائما لوحده، ولا يزال يعملها على نفسه أثناء النوم، فتعزله أمه عند النوم لوحده. وكان صوت شخيره طالعا، ولما وضعت أمه الفطور وسمع المضغ والخبط في الصحون، توقف شخيره ونهض فاركا عينيه، ومادًّا يديه للطعام، فهو يحب الطعام والنوم. وإن كان يعملها أثناء النوم، حتى إن أمه لقبته برطان.

كانت الأم نصرة بعد الفطور مشغولة، وهي تصرخ على الكناين، فحضرت واحدة منهن قائلة: «آه خالتي».

قالت لها: أوقدي النار سنطبخ عدس اليوم، وبدنا نرسل الطحنة للبابور. شوفي سلفتك اللي ما تتسمى اتجيب حمار دار أبوها، نحمل الطحنة ونوديها مع نصير.

«حاضر خالتي»، وذهبت إلى غرفة سلفتها لتستغيبا زوجة حماهما، وتفضي وتفرغ لسلفتها عن الوحدة، وأن زوجها لم يحضر من الجيش بسبب أنهم بقولوا في حرب. العرب بدهم يطردوا اليهود. وبعد حديث الاستغابة والنميمة والطحن والعجن قالت: «انسيت أحكيلك، يا سلفتي بدنا نطحن ونعجن، وأنتِ بتعرفي حميرنا بالغور، وما في اللي جحش أبوك، ما أنت عارفة إنه ما عنده ولا قطعة أرض بالغور، وكان ذكي بدَّل مع إخوته كل حصصه بالغور وخلاها بالبلد، ما هو أكبر واحد فيهم، وعارف ومدلل نفسه».

ردت عليها سلفتها، وكانت قوية وتعمل مشاكل حتى يخلوها تلحق زوجها حافظ إلى الكويت: «بتفكري أبوي هو من عمل ذلك، يا مسكينة أبوي مثل إخوته بحب الغور، بس أمي التي لم ترضَ أن تنزل على الغور، وعشان هيك خلته يبدل مع إخوته، الدونم بالبلد بدونمين في الغور، وقالت له: أكثر من الأرض التي في أطراف البلد ما بمشي معك، وإذا ما بتعمل هيك بترك لك البيت، وبروح عند أبوي ما هو من جبارين البلاد، وكلمته كلمة والكل بتجنب شره».

قالت لها سلفتها زوجة نسر: طيب روحي جيبي الجحش من دار أبوك قبل ما يسكر البابور، خلينا نطحن ما أنت عارفة آخر عجنة، عجنتها وخبزتها خالتي، وبعثتها لعمي في الغور مع الأولاد، لما نزلوا امبارح على الغور.

لبست الكنة شالها الأسود واتجهت لبيت أبيها، ونادت على نصير ليذهب معها ليرجع بالجحش لوحده، بينما هي تقضي وقتا مع أمها،

لتسمع أي أخبار لتنقلها، ويكون لها أسبقية في نقل أي خبر جديد عن البلد.

ساق الجحش نصير، وبينما هو في الطريق صادفه مفتاح ومصباح، فقالا له: شو بدك في جحش عمنا.

قال: بدنا نحمل طحنة، وسألهم: تروحوا معي على المطحنة؟

سارا معه، وقامت أمه بمساعدة الكنة ومفتاح ونصير بتحميل الجحش، بكيس أبيض مليء بالقمح، وحزقت الحبل على ظهره، تحسبا لسقوطه أثناء نزوله العَقَبة، وقالت لهم: استعجلوا قبل ما يسكر، هذا المسؤول عن البابور قبل أذان الظهر بطفي، وبسكر وبروح بصلي، وبروح على بيته.

قاد نصير الجحش من رسنه، ومفتاح ومصباح يمشون خلفه، ونزلوا بسلام من العَقَبة، ووصلوا والبابور ما زال يعمل، وصوت المطحنة يدوي، وقد جلس على بابه عدة رجال من بينهم الشيخ الكبير المدعو أبوالسوالف بلحيته البيضاء الطويلة.

كان أبوالسوالف كلما جلس بمجلس أفصح عن أمنيته أنه يريد أن يتزوج اليهوديات كسبايا حرب، وكانوا يجلسون على طرف الطريق، وعلى جانب باب المطحنة.

فك صاحب البابور كيس الحنطة قائلا لنصير: «هذا من خير السنة»، واستطرد في كلامه قائلا: «أكيد من فصايل، وأبوك هو الوحيد من حرث وحصد هناك هذه السنة. هاظ خال أبوي، وأنا عارفة دائما متقدم ومستعجل، وما حدا بسبق أبونسر وعرينه في الغور، مثل النسر عرينه في تلال الغور».

حمل أحد العمال الذي كان يعمل في المطحنة، كعتال كيس القمح على ظهره، وطلع فيه ليضعه في فم المطحنة التي كانت تعمل على الديزل، منتظرا أن تفرغ ما في فمها الذي كان كمحقان كبير.

كان صوت الطاحونة عاليا، وغبار الطحين يتطاير في البابور، والرجل الذي كان يمسك كيس الطحين ويخيطه شخص ضخم البنية، وكان الطحين قد غطى ثيابه الكاكية، ووجهه حتى حواجبه وشواربه أصبحت بيضاء من غبار الدقيق.

جلس نصير في الخارج بجانب من اعتاد على رؤيته وسماع حديثه؛ الشيخ أبوالسوالف، وهو الطاعن بالسن، ويريد أن يتزوج ثلاث يهوديات.

كانت فرصة لنصير ليمارس غورانيته، فيصغي ويسترق السمع لحديث الشيخ أبوالسوالف، فقد كان يتكلم لمن حوله من الرجال الجالسين، عن الفجور، والفسق، والحرام، وقلة البركة التي أحاطت بأرزاق الناس.

وكان يحب الكلام والحديث، حتى إنه إذا لم يجد رجالا يكلمهم، كلم وتحدث مع الأولاد الصغار، فكان يتحدث للجميع، وكان نصير يشعر وهو يصغي له أن كلام أبوالسوالف موجه لنصير ومفتاح ومن حولهما من أولاد ليسمعوا كلامه، فالكبار قد سمعوا كلامه عدة مرات، ويأخذونه على محمل المزح، وهو مجرد كلام قاله، فيئس من تذكير الكبار وأراد أن يعلم الصغار بالتمسك بكتاب الله وسنة نبيه، فتلا على مسمع الأولاد قوله تعالى: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}. قال ذلك وواصل الحديث قائلا: ورسول الله صلى الله عليه وسلم في

الحديث الشريف يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

ما كاد ينهي الحديث ويشرح للأولاد معناه، ضاربا لهم مثلا إذا ما شاهدوا حجرا في الطريق فليرفعوه حتى لا يتعثر به الناس والدواب، وكان يريد أن يكمل شرح الحديث، حتى مرت من أمامهم معلمات مدرسة البنات، وقد أنهين العام الدراسي، وودعن مديرة المدرسة التي تزوجت وسكنت في البلد، وكن قد مررن من أمامهم لينتظرن الباص على البيادر، وكن خمس مدرسات من المدينة وما حولها من المخيمات، ومفرعات عن رؤوسهن، ولباسهن قصير لا يكاد يغطي الركبة وما تحتها من سيقان. وكان هذا منظرا غريبا في قرية مَصْطَبة المحافظة، فالنساء في مَصْطَبة مع أنهن شغيلات كالنحل، ويقمن بكل شيء حتى لقبوهن باللبؤات، إلا أنهن لا يخرجن إلا بالشال الأسود الذي يغطي الواحدة منهن من رأسها إلى أخمص قدميها، ومن ما فتحت مدرسة البنات في بيت المختار، وصارت البنات يلبسن المراييل ومن تحته البنطلون حتى اعترض الرجال، لكن تدخل المختار أقنعهم فهو صاحب مصلحة ومؤجر الدار للتربية كمدرسة.

توقف أبوالسوالف عن الحديث عندما شاهد منظر المدرسات ولباسهن، فصرخ واقفا مترنحا على عصاه وهو يقول: «وهذا هو المنكر الذي مر من أمامنا يجب تغييره»، فأسرع وكأنه يريد أن يطبق الحديث عمليا أمام الكبار والصغار، فكانت فرصة له ليظهر، بأنه مقاوم للتغيير ومغير للمنكر بيده، فنهض ولحق بالمدرسات، فهو يعني ما يقول ويفعل

ما يقول ويدعو إليه كي لا يكون عند الله مؤمنا ممقوتا، نهض ومشى مسرعا، وهو يكاد أن يتعثر في الطريق من قبل أن يمد عصاه على إحداهن، فتلمس بطة أحد ساقيها وهو يقول:

«ما في زلام في البلد، كله من المختار الذي سمح لهذه الاشكال تيجي على البلد وتعلم بناتنا كيف ينزعن عنهن لباسهن، ويلبسن مراييل»، وصرخ قائلا:

«أنا عرفت ليش البركة خفت، وليش اليهود انتصرت علينا، وربنا ما نصرنا، عشان النساء أصبحن كاسيات عاريات!!».

تفاجأت المدرسات بصراخ زميلتهن عندما ضربها بعصاه على بطة ساقها، فتفرقت المعلمات وركضن نحو الباص الذي كان قد وصل، وإحداهن تقول: امسكوا هالمتخلف المجنون.

وصاح صاحب المطحنة الذي كان يعاني من إعاقة برجله ويمشي ببطء، صاح مستغيثا بالأولاد وبنصير أن يلحقوا به، ويمسكوا هذا العجوز ويرجعوه.

ركض نصير ومفتاح، الذي وصل إليه قبل نصير، وأمسك به فوقعت منه العصا، وكان أبوالسوالف يريد أن يمسكها ليضرب بها مفتاح الذي أمسك بتلابيب كبره، فالتقط نصير العصا، وفي هذا الوقت كانت المعلمات قد ركبن الباص، وأغلق السائق الباب، فعاد أبوالسوالف، وهو يتوكأ على جدار المطحنة وهو يكلم نفسه بصوت عال: «مش رايحين ننتصر على اليهود، رايحين تشوفوا اليهود هان، ويوخذوا كل البلاد، استنوا غضب الله عليكم، لإنه سمحتوا للنسوان عنا، يكونن كاسيات

عاريات، وما في زلم عنا، تغير المنكر».

ذهب صاحب المطحنة ورجل آخر إلى الباص، ولحق بهم نصير الذي ما زال يقبض على عصا أبوالسوالف، وسمعهم يقولون لسائق الباص ولهن: يا عمي لا تواخذوه هاظ ختيار مخرفن، ومقرقع البلد.

ردت إحداهن وعلى ما يبدو أنها كانت من ضُربت على بطة ساقها: والله عيب فوق ما بنعلم بناتكم تضربونا، والله بنجيب كل رجال المخيم، وبطبشوا البلد عليكم.

رد عليها صاحب المطحنة: امسحيها بهاللحية، وحقك علينا.

عندما عادوا إلى باب البابور كانت الطحنة جاهزة، وأعاد نصير العصا لأبي السوالف، بينما كان مسؤول البابور، بقطب فم كيس الطحين بالمسلة، ويسجل على دفتر الخربوش «بتاريخ ٣/ ٦/ ١٩٦٧ طحنة لدار أبونسر».

حمل العتال ومساعده نصير ومفتاح كيس الطحين الساخن على ظهر الجحش، وشد الحبل عليه وعلى بطن الحمار حتى لا يمزط عن ظهره أثناء تسلق وصعود العَقَبة، وكان آخر شيء سمعه نصير قبل أن ينهر الحمار ويعود للبيت، هو حديث أبوالسوالف لمن حوله من الرجال مبررًا فعلته بعد أن لاموه، فقال وهو يشوح بعصاه في الهواء: ما لكم يا رجال انسيتوا قبل عشر سنين، كان ممنوع الرجال تفرع في مَصْطَبة عن راسها، نسيتوا لما طخيتوا بالبارود في الليل على بيت الأستاذ الذي سكن البلد، وما رضي يلبس حطة أو كوفية على رأسه.

رد عليه أحد الرجال: هاي كانت شغلة أولاد الصغار، وبعدين، ما أنت

بتعرف إنه أخذهم الدرك وتبهدلوا وانسجنوا، وما طلعوا إلا بعد ما أسقط حقه الأستاذ، ومش بس اعتذروا وصاروا كل يوم يحشوا لحماره الحشيش والربيع أو يحضروا عليق تبن له حتى رضي عنهم الأستاذ.

كان نصير يسترق السمع أكثر فأكثر، فلم يسبق له أن سمع هذه الحكايات، فلقد كانت طفولته بالغور في معزل عما صار في البلد أو يصير، وكل هذه الأحداث جديدة عليه، فهي تترسخ بذاكرته وكأنه يسمعها اليوم من القوم.

قال له صاحب المطحنة: يا ابن خالي؛ انهر حمارك من باب المطحنة خلينا نحمل حمير غيرك، وتحرك وسلم على أبوك.

تحرك نصير، ومعه مفتاح ومصباح، وعادوا ومروا على دكانة فقال مفتاح لنصير: أنت معاك بالمحفظة تعريفة، شو رأيك نشتري رأس العبد.

قال نصير لمفتاح: امسك رسن الجحش، ودخل إلى الدكانة ولحق به مصباح، وأخرج تعريفة من المحفظة وهو متباهٍ بذلك، وقال لصاحب الدكان: بدنا رأس العبد.

نظر إليهم صاحب الدكان فعرف عددهم اثنين، ولم يشاهد مفتاح الذي كان يمسك برسن الحمار، وأعطاهم رأسين ملفوفين بورق السلوفان.

خرجا من الدكان وهما يحملان كل وأحد رأس، فصاح مفتاح مغتاظا: ما جبتوا لي واحد وهجم على ما في يد أخيه مصباح لينزعه منه، وكان ذلك على باب الدكان، وقد شاهدهم الدكنجي وهما يتنازعان، فأسرع إليهم حاملا رأس العبد، وقائلا لمفتاح: «أنت وين كاين متخبي»،

وأضاف محذرا الأولاد: «هيك بنفغش الرأس بين إيديكم، خذ يا ولد واحد ثالث»، وأعطى مفتاح رأسا فتوقف النزاع، ففكوا الورق عنه وأخذوا يلتهمونه وقشرة الشوكولاتة تتكسر تحت أسنانهم، وتذوب في فمهم الحلوى البيضاء المنفوشة، وقد قلم نصير لأول مرة بحاسة ذوقه طعم الشوكولاتة، وأحب قشرة رأس العبد ولم يحب الكريمة فأعطاها لمفتاح فالتهمها.

قادوا الجحش وهم سعداء بعدما تحلوا، ومفتاح يسأل نصير من أين لك هذه القروش. قال له نصير: «من جدي أبوجابر». وأراد أن يقص عليه قصة فتح قبضة اليد، إلا أن نهيق الجحش قطع عليه ذلك، فقد شم الجحش رائحة الحمير التي تحمل حمالات القمح وهي تصل من الغور ويتم فسخ الحمل ووضع قش القمح على البيادر، فالناس بدأت بالحصاد ونقل الحمالات من الفْجِم إلى البلد، فبينما كان هذا الجحش يحمل الطحين ويشم رائحة الحمير التي تحمل القمح في سنابله، نهق بصوته النكير مخبرًا لجمهرة الحمير التعبانة من حمل الأثقال من مسافة عشرة أميال طلوع بوجوده، ووجود حمله الخفيف من الطحين.

قبل أن يصل نصير إلى البيت قال له مفتاح بعد أن تذوق حلاوة رأس العبد على حساب نصير: «تروح بكرة نلقط سبل القمح الساقط في الطريق من حملات الحمير، وفي العَقَبة بقع سبل كثير لأنها وعرة وضيقة، وتسير الحمير بين الصخور، فتحتك الحمالة بالصخور، فيسقط السبل، وبنلقطه ونجمعه وندقه على الصفا ونشتري فيه رأس العبد».

استغرب نصير من هذا الطلب والاقتراح، فهو شيء جديد عليه، ولم

يعهده بالغور. لكنه وافق ما دام أن هناك طريقا تقربه من الغور، فهو يعرفها ويحفظها عن غيب، فهز رأسه بالموافقة وقد وصلوا إلى بوابة البيت، فقال نصير: «وبقول كمان لأولاد عمنا، يجوا معنا؟». قال ذلك وذهب مفتاح ومصباح إلى بيتهم بعد مرافقة نصير في مهمة الطحنة.

وصل نصير إلى البيت، فسخت نصرة وكنتها زوجة نسر الطحنة عن ظهر الجحش وهي تقول لنصير: «عمك العبد، قاعد عند البيدر، هيه بشرب الشاي ويدخن الهيشي، وقاعدة معه ابنته، وهو ينتظر رجوع حماره لياخذه ويطعمه، فهو يقول بده الحمار: فغدا لديه مشوار على عمارة التين التي زرع بين أشجارها الشعير».

ليلة 4 حزيران 67
عودة الحياة

نام نصير على الارض، وليس كما ينام كالعادة في النافذة، وكان ذلك بجانب أمه نصرة التي جعلت أخاه الرضيع نصر، بينها وبين الحائط قريبا من الزاوية، وأخرجت له ثديها فرضع حتى نام، فقلبت جسدها على نصير واحتضنته إلى صدرها، فهذه ثاني مرة يشعر بدفء حضن أمه التي قيدته برجل السرير، وقالت له: مش البلد أحسن لك من الغور.

لم يرد عليها نصير، ونظر نظرة في سقف الحيط على ضوء لمبة الكاز الموضوعة على طرف المد بجانب أمه، وخطر بباله لقبه وهو في الغور أنه كان سقف الحيط، وأنه كره تلك الكنية. وبعد أن أطلق عليه جده أبوجابر لقب «فتى الغور» أحب اللقب، لكن والده وبعد أن اشترى له لباس المدرسة والحذاء الواسع وأخرج له قيد نفوس ليدخله المدرسة سماه «نصير»، بينما أخوه الذي مهط للتو ثديي أمه نصرة سموه منذ ولادته بنصر، وهو الاسم الذي كانت أمه تحب أن تسميه به، وها هو نصير يلبس لباس المدرسة، وينام فيه في حضن أمه، دون أن يدخل المدرسة.

أراد نصير أن يستغل وجوده بحضن أمه، فهو الآن بحضنها خارج بطنها، وراودته نزعته الغورانية بما فيها من فضول محفزة ذاكرته ما بعد الذاكرة الجنينية أن يتذوق حليب أمه الذي يجود بما يفيض عن حاجة نصر لغيره من الأطفال، فلماذا لا يأخذ منه شيئا في هذه اللحظة، كان خده يلامس أثداء والدته نصرة، فيشعر بسخونة ما تبقى فيها من حليب، لكن

ذاكرته الغورانية كانت أقوى من تلك النزعة بتحفيزه ليسأل أمه عمّا قبل الرضاعة، كيف كان وهو في بطنها؟

وكيف خرج للحياة؟

ولماذا بقي في الغور؟

فسألها، ورغم أنها قالت له: شو بدك في هيك أسئلة؟ نام واسكت، إلا أن فضول نصير وحب المعرفة جعله يقترب منها ويقبل ما وصلت إليه شفتاه دون أن يتحرك، وكان ما فوق صدرها ويعيد السؤال.

أحست أمه بفطرتها وأمومتها أن نصير يرغب في سماع إجابات عما سمع من طراطيش كلام بشأن مولده، فآثرت أن تخبره، وأن تسترجع شيئا من ذكرياتها، خصوصا أنها لا ترغب في النوم في تلك اللحظة.

فقالت له وهي تضمه إلى صدرها ضمة قوية: يا ابني هي قصة طويلة، كنت حامل فيك وكنا نعيش جمعينا في بيت العقد، وكان أبوك بعد ما زوج ابنه نسر، ببني بغرفتين حجر، وبحفر في البئر في الصخر، وكان من يبنون ويحفرون البئر من بلدة القِبْلة، بيجوا منها كل يوم، وأهل مَصْطَبة عندهم عادة إنه صاحب العمل يجب أن يطعم من يعملون يوميا فطورا وغداء، وأن يزودهم بالماء والشاي والهيشي، ما لم يتفق عكس ذلك.

كان أبوك قاتل نفسه بالشغل، بالإشراف عليهم وعلى رعيان الغنم وعلى الفلاحة.

وكان إخوتك صغار، وبعدين ابنه نسر التحق بالجيش، وكنت مداورة مع زوجته، فهي تعمل الفطور للشغيلة وأنا بعمل الغداء، وأختك الكبيرة تعمل الشاي، وتمسك إخوتك الصغار.

كنت حامل فيك في الشهر الثالث، وذهبت لعمتي أطل عليها.

فقاطع نصير أمه: هاي إللي أخذها سيدو أبوجابر على بلدكم العِلِّيَّة.

ردت عليه: وكانت هي السبب لأني تاخرت عندها بسبب وجود جارتها وأخذنا الحديث ونسيت إنه عنا عمال ولازم نعمل لهم أكل.

وتوقفت قليلا عن الحديث، وقالت: وزوجة أخوك نسر كانت رايحة عند أمها، ونسيت تعمل فطور، وظلوا الشغيلة بدون أكل وأبوك ما بعرف إنه كنت وزوجة نسر مداورات. وجاء على حين غفلة، وصارت الدنيا الظهر ورجعت أحضر لهم الغداء، فلما عرف إنهم ما زالوا يعملون بدون فطور طار عقله، وغضب علينا وكسر الدار، وما لحقت أقله إنه زوجة ابنك لازم هي تعمل الفطور، حتى خلعني شلوط برجله على خاصرتي، وأنا صحت وصرخت من حم الضربة، وكانت هاي أول مرة يضربني فيها، فقد شعر إنه أهين بعدم إطعام من يعملون لديه، وهم من بلد ثانية.

قاطع نصير حديث أمه مع تشوقه لسماع باقي الحديث فقد كان لا يزال جنينا في بطنها، فقال لأمه: يعني عمل مثل أبوه لما ستي ما أكرمت الضيوف في فصائل، غضب وحلف إنه يجيب لها ضرة في نفس الليلة، فذهب إلى البلقا وأحضر زوجته الثانية البدوية.

استغربت أمه من معرفته بهذه القصة، فقالت من أخبرك بها؟

رد عليها نصر: اللي ضربك على خاصرتك وإنت حامل فيي، لما كان بحرث في فصايل.

قالت نصرة: «أحسن إنه ما عمل مثل أبوه»، ووصلت قص الحكاية: «وبعدين أنا تركت البيت، وقلت له: والله ماني قاعدة في البيت، أنا بروح

على دار أبوي على العِلِّيَّة.

سحبت حالي وحملت شالتي وسرت مسرعة وأنا أبكي متجهه إلى بلدتي، وأثناء السير عندما وصلت نزل الزيتون، شعرت إنه شيء ساخن بنزل من بين رجلي، وخاصرتي وبطني بدهم بتقطعوا، فجلست تحت الزيتونة وتفقدت الشيء الساخن، فوجدته نقاط دم، وحسيت حالي بدي أنزل وأطرح ما في بطني».

قال نصير: يعني حتى وأنا في بطنك انضربت، وكنت بدي أموت.

قالت: مزبوط، وزاد نزف الدم، وقلت إذا ما بقدر أواصل السير لبلدنا العِلِّيَّة فالطريق كلها طلوع، وبنفس الوقت عزتي ما سمحت لي أرجع للبيت الذي انهنت فيه، ففكرت، وقلت حرام أطرح الجنين الذي في بطني، واسترحت قليلا تحت الزيتونة، ونهضت، وقلت بحرد عند عمتي ما هيه عايشة لوحدها.

قال نصير مكررا ما سبق أن قاله: اه هاي اللي أخذها جدي قبل ما ينهدم بيتها، أنت عارفة مريت أنا ومفتاح من جانب بيتها فكان سور الحوش مهدوم.

ردت نصرة: «اعملنا فيها خبر ولّا كان انهدم البيت على راسها»، قالت ذلك وتوقفت عن سرد الحكاية.

كان نصير وهو ينصت لحديث أمه يرغب في المزيد لمعرفة نفسه وهو جنين في رحمها، ونتيجة ضربه كان سيخرج ميتا.

قد لا يسأل المولود عن فترة من عمره لا أحد يعلمها إلا الله، ولا يعاني من حمله ونموه في رحم أمه إلا أمه التي كانت تحمله، وهنًا على وهن،

فكيف إذا كان هناك عامل خارجي كضربة والده في فورة غضب وفقدان السيطرة على الأعصاب.

لقد كانت فرصة لنصير أن يعلم شيئا عن حدث أثر عليه وهو بطن أمه، فليستمع ويسجل بذاكرته يوم أن أراد أن يخرج ميتا مجهضا كطرح ربما لم يتشكل كامل جسمه، ولم تسرِ نفخة الروح به.

قالت والدته: عشان هيك لما ولدتك كنت صغير ومسلول، نتيجة شلوط أبوك، وبعد ما ولدتك في الغور، كمان عانيت، وكنت بدك تموت كمان.

واستطردت نصرة: كانت الدنيا شتاء ومعزبين في الغور، وكانت الرياح شديدة، والأمطار غزيرة، كانت كب من الرب، وخلعت وطيرت الرياح بيوت الشعر، واضطروا ينقلونا إلى الكهوف والمغر حتى نتقي المطر والرياح.

عادت نصرة إلى سرد قصة الحمل ونزف الدم نتيجة الضربة فقالت وهي تتنهد: حملت حالي ورحت عند عمتي، وأخذتني في الباص على المدينة عند الدكتور، فكشف علي وأعطاني إبر تثبيت، وأدوية وحديد وفيتامينات.

وقالت: وحكولي إنه لما رجعت زوجة أخوك كمان صاح فيها أبوك، فحردت وصار البيت بدون مرة، فراح أبوك حرَّد بنته من بيت أخوه عنده مقابل حرد بديلتها حتى تقوم بأعمال البيت.

فكر أبوك إني رحت عند أهلي، وحمل حاله وراح على العِلِّيَّة حتى يرجعني، وتفاجأ إني مش عند أهلي، وقله أبوي إنه بنته ما بتحرد، ممكن راحت عند عمتها.

رجع أبوك، وراضاني وأعطاني بقرة أربيها وأبيع عجولها، ومن هظاك الوقت صار يتفق مع الشغيلة أن يكون عملهم بدون إطعامهم لإنه المرة مريضة والدكتور قال ما تتحرك حتى لا يسقط الجنين.

أراد أن يعرف أكثر نصير من أمه عن وجوده في بطنها، وهو الآن في حضنها، فقال لها: طيب ولدتيني في الغور والدنيا مطر والرياح شديدة وبعدين شو صار؟

أرادت أن تنام أمه فقد شعرت بالنعاس، فقالت له: «هذه كمان قصة أخرى وطويلة». ويبدو أن نصير قد غفت عيناه واستمرت أمه برواية قصة موته، وتركه في الجحر يوم العاصفة.

فقالت بصوت منخفض: لمّا أشتد المطر وتحول إلى برد، وتطايرت بيوت الشعر، وكنت ابن اسبوع وملفع، ونتيجة البرد تجمدت، وتوقف نفسك، واعتقدت إنك مت، ولأني كنت نفاس ومريضة وكانوا الجميع مربوكين، وكان أبوك همه ينجي الغنم من العاصفة والسيول، فراح يسوق الغنم مع الرعيان إلى المغر، فذهلت عنك وفكرت إنك ميت، فوضعتك في جحر صغير، وسديت عليك بابه بالحجارة لإنك ميت، ولم يكن هناك وقت أثناء العاصفة لحملك ولدفنك، وكانت الناس هاربة إلى المغر، وبعد ما جلسنا في المغارة نصف يوم وهديت العاصفة رجع أبوك، ولما خبرته إنك متت وتركناك في جحر قريب من العزب، انجن وركب الفرس، وراح يجيب جثتك حتى يصلي عليك ويدفنك، وكان يقول: لا عشت إذا تركت جثة ابني في جحر لتأكله الذئاب أو الضباع.

عند المساء أحضرك أبوك وهو يحملك في حضنه، ونزل عن الفرس

وقبَّلك وقال: اغسلوه وكفنوه، وبنصلي عليه الجنازة بعد صلاة المغرب.

أخذتك إلى زاوية المغارة التي بها صخرة مرتفعة، فوضعتك فوق الصخرة التي كان سطحها مستويا ولا يفصل بين سطح الصخرة وسقفها إلا شبر ونصف. بجانب حيط المغارة، وكنت أنت قريب من سقف المغارة التي كنا أوقدنا النار من تحت الصخرة فيها، كان المكان دافئا، وحضرت سلفاتي والحجة فضية التي قطعت صرتك قبل أسبوع، ومن لبكة المطر الذي لم ينقطع منذ أسبوع، نسينا نسميك، وقالت الحجة فضية سموه مطر، بعد ما حضرت إلى المغارة عندما سمعت أن أباك أحضرك للدفن، فجاءت حتى تغسلك، وقامت بفك اللفاع وكنا سخنا شوية ماء، وبدأت تمسح بخرقة ساخنة جسدك ومؤخرتك وتسمي عليك، وأنا كنت في حالة صدمة وصدري محزق من الحليب، وبعد أن انتهت من غسيلك كفناك بحطة أبوك الذي أخذ فأسا وذهب يحفر لك قبرا.

وأكملت وقد بدأ صوتها يتقطع: فضممتك إلى صدري كما أضمك الآن، وأنا أبكي ودموعي تنزل على وجهك البريء الساكن، فقبلتك قبلات الوداع وصدري يريد أن يتفجر من الحليب.

حاولت النساء أن ياخذنك مني فصرخت: اتركوه معي هذا الطفل مسكين، كان بده يموت وهو في بطني وربنا حماه، وعاش حتى وضعته، وكان كويس ورضعته، وكان يرضع لكنه لم يصمد أمام العاصفة فمات.

ردت علي الحجة فضية: «هذا طير من طيور الجنة يا أختي». وأضافت: «لله ما وهب ولله ما أخذ، ليش يا أختي زعلانة، هذا والله أعلم، يشفعلك يوم القيامة ويدخلك الجنة».

تـأثرت بكلامهـا وكنـت نـاوي أعطيهـا جثتك، لكنـي وبـدون أن أدري قبلتك القِبْلة الاخيرة، وكانت على عينيك المغمضتين، وأثناء أخذك مني وصدري محجر، فتحت إحدى عينيك فقالت الحجة فضية: الملائكة حافظينه، كأنه شاف الملائكة جايين ياخذوه، فقلت لها أعيده إلي وأخذتك مرة ثانية، ووضعتك على صدري، وأخرجت ثديي وقربت ذلك من فمك، والحجة فضية تصيح في وجهي: يا غبرة ما هو ميت شو بدك ترضعيه، أنا بساعدك بحلب الحليب حتى تخلصي منه حتى لا يحجر.

رفضت وقمت بتقبيل عينك الثانية، فحصل ما حصل بالعين الأولى.

فتحت الحجة فضية الكفن، ووضعت أذنها على قلبك، ونفخت في فمك وأخذت تضغط على صدرك، فإذا القذاف يخرج من فمك، وتعود إليك الحياة. لم أصدق وقعدت أبكي من الفرح، ومسكتك الحجة فضية من رجليك، وخلت راسك لتحت فأخرجت كل ما في بطنك، وبعد ذلك قامت بتلفيعك مرة أخرى وقالت: «الآن أرضعيه.. وخليني ألقبه سقف المغارة»، فقالت إحدى السلفات لا خليه سقف الحيط حتى تردي العين عنه.

رضعت حتى شبعت، وكانت فتحات عينيك مثل عيون الغزلان. وشعرت نصرة في تلك اللحظة أنها تريد أن ترضعه، وهو ملقى في حضنها وعمره سبع سنوات.

واكملت وهي تحبس دموعها وتشكر لله قائلة: لما سمع أبوك الخبر بعد حفر القبر، جاب سبع ذبائح وذبحها عند القبر وخلى الدم يملي حفرة القبر، وبعدين دفن الدم، وقال وزعوا اللحم على كل من في الغور.

كانت نصرة ترغب في تلك اللحظة أن ترضعه فمدت يدها إلى ثديها، ونظرت إلى وجهه وعينيه، فقد كان نصير قد أغمضهما، وكان نائما، ولم يسمع هذا الجزء المأساوي والحزين من قصته، ولا الوفاة أو النوم أو الإغماء وعودة الروح والحياة له، فقالت نصرة لنفسها: وأنا كاين أحكي لنفسي، ما أنا بعرف القصة وعشتها، والله ربنا بحبك اللي خلاك تنام، وما تسمع هذا الجزء من قصة حياتك.

لقد كان نصير في مرحلة السِّنة قبل النوم، وكان يسمع صوت أمه، لكنه لم يفهم شيئا مما قالته من الجزء الأخير من قصته، فيبدو أنه نام وصحا عند نهاية القصة، ففتح عيونه وألقى بصره قبل أن يغلبه النوم على الحيط، فرأى صورة ناصر المُعَلَّقَة، وصورة المرأة الجميلة، وفي هذه اللحظة تحرك جسد أمه ونفخت على اللمبة، فاختفى النَّوَر وحل الظلام، واختفت عن بصره الصور المُعَلَّقَة على الحيط ومن ذاكرته ما حصل له في رحم أمه وهو جنين، وانتقلت مخيلته تلقائيا لجمع السبل من طريق الغور.

نهار 4 حزيران 67
رحلة الصيف

إن تلقيط سبل القمح الساقط من حمالات القمح في الطرق (التسبيل)، كان عملا يمارسه أطفال القرى، كما يمارسون التبعير في جداد الزيتون، فيجمعون ما وقع من سنابل القمح من الحمالات عن ظهور الحمير، نتيجة الاحتكاك بالصخور، في حين كان التبعير يقومون به بجمع حبات الزيتون المنسية أو المتروكة في أعالي أغصان الزيتون لخطورة الوصول إليها، فيصل إليها المتبعرون لخفة أوزانهم، أو بواسطة أدوات مثل العصي أو العباية وفي أحيان برميها بالحجارة فتسقط فيلتقطها الأطفال.

لقد بدأت رحلة الصيف في الغور للحصاد والتحميل ونقل القمح بسنابله على الدواب مسافات طويلة، بطلوع العقبات وممرات ومسالك ضيقة بين الصخور، فيتساقط سبل القمح القادم من الغور، فيلتقطه الأطفال، ليشتروا به ما تيسر.

كان نصير قد اتفق مع أبناء عمومته مفتاح ومصباح وآخرين ليقوموا بذلك بعدما تذوقوا حلوى رأس العبد، وفتى الغور أراد بفضوله أن يعيش هذه التجربة الجديدة من تجارب عيش أطفال بلدة مَصْطَبة، وقد نام ليلة أمس وهو يستمع لحكايته وهو جنين في بطن أمه، ومع ذلك لم يتخيل ذلك قبل نومه، بل تخيل تلقيط السبل في الطريق النازل على الغور، وأهالي البلدة يقومون برحلة الصيف، بعد أن قاموا برحلة الشتاء الأخيرة لهم، فهل ستكون رحلة الصيف لهذه السنة هي الرحلة الأخيرة؟ لم يسأل

فتى الغور هذا السؤال، بل غط في سبات النوم، وأمه تروي له قصة موته وعودة الحياة له، وإن كان نصير لم يسمع أمه وهي تقص هذا الجزء من قصة حياته لأنه نائم، وهي تحسبه مستيقظا، فلما علمت أنه نائم حمدت الله أنه لم يسمعها.

استيقظ نصير وإخوته وتفقد حضن أمه، فلم يجد إلا أخاه نصر الرضيع يفتح عينيه ويبتسم له، فحمله بلفاعه المقموط عليه، وسار فيه وهو يلاعبه ويقول له: «بدي آخذك على الغور، أنت أخذت اسمي»، وهنا دخلت أخته فتحية التي تكبره وصاحت به: حطه لا توقعه، أحسن ما أمي تقتلك.

أخذته منه، وسأل عن أمه فقالت له: «إنها في الطابون تخبز، وأنا كنت رايح أشوف في الخم في بيض حتى نعمل فطور»، وأرجعت نسر مكانه، وذهبت إلى زاوية البيت، وأشعلت البابور منتظرة أمها لتقلي الجبنة وتفقس البيض. ما لبثت الأم أن حضرت حاملة «لكن» الخبز الساخن من طحنة أمس.

كانت تسير خلفها أخته الصغيرة وهي تمسك خبزة بيدها وتأكل منها.

ما إن أنهى نصير فطوره حتى صحا أخوه الأصغر منه ليتناول ما تبقى في صينية الفطور، فسمع طرقا على بوابة البيت فقالت أمه: «مين الطارق على هالصبح»، فأجاب نصير دون أن يخبرها للذهاب لتلقيط السبل فقال لها: مفتاح وأبناء عمي، نريد أن نلعب على البيدر.

نهض نصير مسرعا، وآخر شيء سمعه من أمه ما تبعدوش عن ذيال البيت، وتتعبني وأنا أدور عليك.

كان مفتاح وخمسة من أبناء عمومته وولد آخر من أبناء الجيران الجنب، وقد قال أحدهم: خلينا نروح مقاطعة للعَقَبة، فسبل القمح بسقط في العَقَبة فقط. وركضوا باتجاه المدرسة، ومن جنب الدكانة غيروا الطريق ليسيروا بين الزيتون، ومن جانب الطف ومغارة أبو الريش، وتوقفوا على مكان مرتفع، فأبصروا صف حمالات القمح على الحمير تصعد العَقَبة ببطء، وتنعطف الحمير والبغال في مسار ومسلك؛ واحدًا تلوا واحد، وكل حمار يسوقه شاب أو ولد أو بنت أو امرأة، ممن يقومون برحلة الصيف.

كان منظر قافلة الحمالات صفا واحدا ولا مجال للتجاوز، وكل سائق يحمل عصا، ويضرب مؤخرة وقفا حماره ليصعد ولا يُكَرّك بالعَقَبة، فإن هبط ونام الحمار بالحمل فقد سد الطريق، وأصبح هناك ازدحام وأزمة مرور حمير، وسيضطر الجميع لحمل الحمار والحمالة، ومساعدته على الوقوف مرة ثانية، وإن قرك ولم تحمله قوائمه اضطروا لفسخ الحمل ووضعه جانبا ليفتح الطريق.

نظر مفتاح وقال: «شوفوا هناك في الحبلة، وعلى اللفة في حمار مكرك، خلينا نروح هناك»، وابتسم فرحا وقال: هناك في سبل قمح كثير واقع.

كرتوا نازلين وراكضين، يتهامسون ويضحكون من الجانب الشمالي للطف، لينزلوا على الطريق من غربي جبل بقع اللنجي.

ليبدأ كل واحد منهم ينظر في زوايا الطريق، وبجانب الصخور، فإذا وجد سنبلة وضعها في يده، ليشكل ببعارته ضمة مفرعنة سنابلها، ومقبوضة بقبضة يده.

وصل الأولاد ومعهم نصير إلى رأس العَقَبة، وتفاجؤوا أن كثيرا من مجموعات الأولاد من الحارات الأخرى، سبقوهم ونظفوا الطريق من السبل، فمن سبق لبق.

كانت الطريق نظيفة من السبل إلا القَصَل الذي لا يحمل السنابل، لم يعجب ذلك مفتاح الذي لم يجمع إلا خمس سنابل، فقال: «لنسرع إلى الحبلة الملتوية وين شفنا الحمار المقرك»، وقال: «اتركوا الطريق، وخلينا انقاطع مقاطعة، فلا يوجد سبل، الطريق مكنسة ونظيفة».

ساروا خلفه يركضون، وركض معهم نصير الذي لم يحظَ بأي سنبلة.

وعندما وصلوا وجدوا أن مجموعة من الناس قد فسخوا الحمالة، ووضعوا الغمور على جانب الطريق، كان الحمار المنهك الذي يستطيع أن يواصل الطلوع قد كرَّك، والبنت التي كانت تسوقه كانت بالغة وتلبس على رأسها منديلا أصفر ولم تكن تلبس شالا، وكانت في الثالثة عشرة من عمرها، وقد جلست على صفاة في ظل صخرة كبيرة، وكانت تبكي، والدم ينزف من أنفها، وتحاول أن تغلق مناخير أنفها، لتسد الدم بطرف منديلها الأصفر الذي أصبح أحمر.

كان الطقس حارا، فحرارة الغور هي سبب رحلة الصيف من الغور إلى البلدة بالحصاد أو بالحلال، فأول أسبوع من حزيران تزيد الحرارة لإنضاج سنابل القمح، وفي الغور تكون الحرارة أشد وتزداد حرارة الجسم أثناء طلوع العَقَبة، فيقل الهواء الذي يبرد الأجسام، وتزداد خنقة الدواب والبشر لعدم وجود مجرى هواء أو هبات ريح، فتعاني الدواب من الأثقال المحمولة، ومن قوة الجاذبية في الصعود التي تحتاج إلى مزيد

من الجهد، ناهيك عن العطش الذي يزداد نتيجة التعرق، فتقل نسبة السوائل في الجسم فتجف لعدم تعويضها.

تمشي الدواب المحملة بثقل وبطء وهي معلقة بين يدي الرحمن في العَقَبة وبين المنعطفات والمسالك الحادة فتكون على حافة السقوط في الوادي، فإذا -لا سمح الله- فجزت الدابة حافرها أو هبطت على حجر أو لصمت حمالتها بين صخرتين بسبب إرباكها من سائقها، فإن مصيرها في كثير من الأحيان الهبوط بالحمل، وسد الطريق الضيق. وإن كانت على حافة اللودة؛ أي المنعطف الذي ينحدر منه وادٍ سحيق، ولم تحفظ توازنها، وكانت الحمالة مايلة وغير متوازنة، فإن الحمار وحمالته سيتدحرج، وينقلب في الوادي المسمى «مقبرة الحمير»، والذي تفوح منه رائحة الفطايس، ولا تذهب حتى تأتي الضباع الجائعة فتأكل الجيف، وتسحق العظم، فتأتي الممرات بعدها من الطير والجوارح فتجعل الجيفة مجرد هيكل عظمي.

نظر نصير للبنت، وشاهدها وهي تحاول وقف النزف، فاستغرب ذلك.

ربما كانت حرارة الطقس هي سبب في ارتعاف أنف البنت، أضف لذلك تقريك حمارها الذي ألهبت جنباته ضربا بالعصا، فتقشر جلده ونزف الدم منه، وإذا واصل سائق الحمار بالضرب على نفس المكان. تحول إلى دبره وجرح، وحام حوله الذباب والبعوض.

اقترب نصير منها وسألها: «شو صار ليش تبكي والدم يرتعف من أنفك». فقالت وهي تضغط على فتحات أنفها: «قرك الحمار، من الصبح

وأنا مش نايمة. حمل لي أبي في منتصف الليل»، وتنهدت وهي تمسح دموعها التي اختطلت بالدم: «مش عارف شو بدي أقول له، بذكر بعد ما حمل لي الحمار قال صحيح إن ربي لم يرزقني ولدا، لكنك أنتِ عن عشرة أولاد، فسيري وافسخي الحمل على البيدر، وعودي لننقل النقلة الثانية».

شاهد نصير البنت، وقد اختلط دمع عيونها بدم أنفها، وتمنى لو أن والده علَّمه كيف يحمل حمالة قش القمح، ويشدها بطريقة فنية على ظهر الحمار.

واستطرد قائلا في نفسه: «لكن والدي كان في الغور، ولا زال يحصد ويغمر ويدرس ويذري ويدري ويكيل في نفس المكان، ولا ينقل إلا حبوب القمح على الحمارة، وأنا كنت نايم على الحمارة، لما نقلت القمح الأسترالي، وتساءل في نفسه: لماذا لا يفعلون مثل والدي؟».

في هذا الأثناء كان أولاد عمه يلقطون ما سقط من سبل من حمالة البنت، وهي تجلس على قارعة الطريق، ترقب قدوم رجل بالغ قوي ليعيد لها تحميل الحمل بعد أن استراح حمارها، وأكل أكثر من نصف غمر، فأكثر من يمرون عنها، هم يا نساء أو بنات أو أولاد، فالرجال بالعادة تحصد والنساء والأولاد ينقلون.

كانت بعض النسوة يشفقن عليها ويرغبن في مساعدتها، ونصحتها واحدة أن تترك كل شيء وأن ترافقها للبلد، وأخرى قالت لها: اقعدي في ظل الزيتونة، وتعذرت لها عن الماء لأن مطرتها فارغة.

سار أبناء عمومته وهم يحلقون عيونهم بالطريق باحثين عن أي سنبلة

قمح ليتنافسوا عليها، فهي لمن يلتقطها أولا، والأسرع في الالتقاط هو الأول، و«من سبق لبق» تلك قواعد يتعارف عليها الكبار والصغار، وإن كانت غير مكتوبة، ومع ذلك فإن التنافس قد يؤدي إلى التدافع، فيدفع المنافس أو المتسابق الآخر، ليتقدم قدمه أو ليمد يده قبله.

لم يعجب نصير ذلك، ولم يجد أن تلقيط وجمع السنابل من الطرق ممتعا له، فكان نظره متجها إلى الشرق نحو الغور، يقيس طول الطريق المؤدي إلى الغور، وقد استفزته غورانيته ليمارس حريته، ويتخذ قرارًا لا يتخذه أي طفل آخر بعمره، فالأطفال بالعادة تحت ولاية آبائهم وأمهاتهم والآخر الأكبر.

إن قرارات نصير سببت له ندبا في وجهه، وسببت مشاكل لغيره، وهو الآن يفكر ويقرر ألّا يعود للبلدة مع أبناء عمه، وأن يأخذ طريقه مشرقا للغور. فسأل نفسه: «ماذا لو تركت أولاد عمي، وأكملت سيرا في الطريق إلى الغور لوحدي؟». تطلع إلى حذائه فكان سليما، مع أنه واسع، لكنه مليء بقطع القماش التي تحشر قدميه به، فلا يعود يلقلق.

كان الوقت ظهرا وتعامدت الشمس في وسط السماء والحرارة مرتفعة، وأصوات سائقي الحمير المحملة وهي طالعة في العَقَبة تتهادى إلى أذنيه: «حا.. حي.. هيش..»، وبعد ذلك يسمع طرقا بالعصا على قفا الحمار الذي يئن بصمت، تحت حمل ثقيل ليصعد عَقَبة ما مثلها من طريق.

لم يعد نصير يرى مفتاح الذي اختفى فجأة، وفي هذا الأثناء جاء البنت الفرج، فتصادف أن أحدا من أقرباء والدها كان قد فسخ حمله على البيدر

في البلد، ونزل مسرعا على حماره حتى يلحق نقلة ثانية من الفْجِم، فأكثر من نقلتين، لا أحد يستطيع أن ينجز في هذا الجو الحار.

عندما شاهد قريبته وحمارها أوقف حماره ليس بعيدا فوق القطان، وربطه بخرامة ونزل عند المنعطف وعلى الحافة، فشاهد دمها يرتعف من أنفها، فعاد إلى حماره وأحضر مطرته التي كانت معلقة على الحمالة الخشبية.

رمى لها بالمطارة وقال: اشربي وغسلي وجهك، وسدي مناخيرك بيدك وارفعي وجهك للسماء..

وسحب حمارها وبدأ يحمّل لها بالحمل، فما كان من مفتاح إلا أن غافله وحمل نصف الغمر الذي تركه الحمار، وركض مسرعا ليلحق بنصير وأبناء عمومته الذين أصبحوا في قاع العَقَبة، فلم رأوه قالوا: وين لقيت نص غمر؟

فانحرف مفتاح بهم إلى مكان بجانب الطريق، نحو صخرة ملساء قائلا: هان بدنا ندق ونفرز القمح، ونروح الدكانة في الطويل، ونبيع ونشتري حلوى رأس العبد وقضامة، ونشرب مية من البير.

طرح نص الغمر من بين يديه على الصخرة، وبدأ يدق سنابل القمح وباقي الأولاد يدقون ما جمعوه من ظمم، وكانت بيد نصر أربع سبلات فأعطاها لمصباح، وجلس غير بعيد تحت زيتونة صغيرة، وهو يفكر، من أين أحضر مفتاح الغمر؟

وسأل نفسه: وين اختفى؟ وهل لحق يجمع نصف غمر؟!

كان متعجبا من ذلك، وخطر على باله الولد الأبرص، وكيف سرق محفظته، وكيف هو أراد أن ينتقم من دزة والده له، يوم ما خش على

نابلس، فسرق البيضات!

فقال نصير في نفسه: معقول إنه سرقه من حمالة البنت المرتعفة، فغمور قش القمح كانت منتشرة وموزعة على الصخور، وكان حمارها، قد نتش نصف غمر من أقرب صخرة له، وبقي نصف غمر.

اقترب من مفتاح وقال له: «أنت مثل الولد الأبرص الذي حكيت لك عنه، أنت سرقت قمحات البنت، وأنا ما بدي أمشي معك». قام مفتاح، وهو يحلف إنه انتظر حتى حمل لها الرجل الحمل، وسارت وبعد أن سارت وجد نصف الغمر متروكا أسفل الصخر، وأنه لم يسرقه سرقة.

وقال مفتاح له: تعال ساعدني بالدق والفرك والنفخ حتى أشتري لك رأس العبد مثل ما شريت لي أمس.

وبدأ هو نصير يقطعون رؤوس السبل من سيقانها، ويفرزونها ويتخيرون الحجارة المسطحة للدق برفق حتى لا يطحن الحب ويرفضه صاحب الدكانة.

كانت نتيجة هذا العمل، أن ملؤوا جيوبهم بالقمح، ومشوا باتجاه السقائف وقد بدأت الشمس تميل نحو الغرب، وما هي إلا مسيرة نصف ساعة حتى كانوا أمام السقيفة المفتوحة كدكانة، فيها بعض المرطبانات للملبس والقضامة وحلوى بيض الحمام، فأفرغوا جيوبهم في كفة الميزان، فكان ما جمعوه كيلو ونصف من القمح.

قام صاحب الدكان بقبض قبضات القضامة، وأعطاها لكل واحد منهم، ليضعها في أحد جيوبه، وقبضة أصغر من بيض الحمام فوضعوها بالجيب الثانية.

سأل مفتاح عن رأس العبد، فأجاب الرجل الذي كان في السبعين من عمره أنها خلصت.

وأخذوا يلتهمون ويقرطون المالح مع الحلو. وأحسوا بالعطش، وكان بقرب الدكانة بئر لجمع المطر وعليه دلو.

فأدلى نصير الدلو وشربوا، وأجمعوا على الرجوع وأن يلتقطوا السبل وهم عائدون من العَقَبة مرة أخرى، ليفركوا ما يجمعون ويشتروا من دكاكين البلد رأس العبد.

قفلوا راجعين إلا نصير، فنظر إلى الشرق فقرر أن يواصل سيره إلى الفْجِم إلى الغور حيث أبوه يحصد. لقد استيقظت غورانيته بداخله، ولم يعجبه تصرف مفتاح واختفاؤه وحصوله على نصف غمر، فقال لهم: إني ذاهب إلى أبي وإخوتي، وبلغوا أمي أني سأنام بالغور عند أبي.

حاولوا إقناعه بالعدول إلا أنه شرَّق وهم غرَّبوا وهم فرحون بما لديهم.

كانت الطريق عامرة بالحمالات القادمة من الشرق، وبعض من أفرغوا حملهم يمتطون حميرهم، ويسيرون بنفس اتجاه نصير، وكان الزرع بالطويل قد تمايل وانحنت سنابله من الحمل، وضعفت سيقانه وشطآنه، لكنه لم يبلغ أجل حصاده، فقد يحتاج أسبوعا ليستقبل مناجل القوم بعد أن يخلصوا من الفْجِم الأكثر انخفاضا من الطويل، والذي نضج وأصبح جاهزا للحصاد.

أكل نصير شيئا من القضامة المالحة، ووضع بعدها بيضة حمام في فمه، وأخذ يمصها ويستمتع بطعهما الحلو، وهو يحث الخطى سيرا على

قدميه، ويقول ربما أصل إلى سهل الفْجِم وبئر اجنيفش، عند والدي في الليل.

بينما هو يفكر، كيف سيكون رد فعل والده عندما يراه، وماذا ستقول والدته عندما يخبرونها بأنه واصل السير إلى الغور؟ لحق به رجل في الخمسين من عمره راجلا وغير راكب، ويلبس كبرا بني اللون وعلى رأسه حطة بيضاء فوقها عقال، وعلى كتفه الأيمن عصاه علق بجهة خطفتها صرة، وفي نهايتها في الجهة الأخرى مطرة ماء ملفوفة بقطعة خيش ومربوطة بإحكام، وقد استوت العصا على كتفه كميزان بكفتين، كان الرجل يمسك بطرف العصا من الأمام بيمينه، وهي ثابتة ومتوازنة مع حركة قدميه وجسده وسأله: وين يا ولد رايح؟

أجاب نصير وقد تفاجأ به، فنظر في وجهه الرجل وقد توقف عن مص حلوى بيضة الحمام التي ذاب معظمها في فمه، وبقيت حبة الحمص التي كانت بداخلها، وقد قرطها، فأجاب متلعثما: ع الغور عند أبوي. وما إن أنهى ذلك حتى بلع حبة الحمص التي طحنها بطواحين أسنانه.

أحنى الرجل رأسه قليلا، وتفحص نصير، وكانت فرصة أيضا لنصير ليتفحص وجه الرجل، فقد كان وجهه أسمر فاتحا، وهو ذو شوارب سوداء مبرومة، لكنها ليست طويلة، وكان حليق اللحية. خيل لنصير أنه يشبه شخصا أو امرأة يعرفها، وقد قطع عليه الرجل تفكيره بعد أن دقق في ملامح نصير، قائلا: بتشبه حد من نسايبنا دار أبونسر.

عندما سمع ذلك منه طافت به ذاكرته الغوارنية، فتذكر زوجة أحد أعمامه وتدعى مفيدة، فكانت دائما تتحدث مع أمه من خلف السنسلة،

ومن تحت التينة الموجودة على الحد، فكان ساق التينة بين أحجار السنسلة التي تفصل بين بيوتهن، فقال نصير في نفسه: إن هذا الرجل يشبه مفيدة، فكلاهما ذو بشرة سمراء فاتحة، ولهما نفس فتحة العينين.

سارا جنبا إلى جنب في الطريق النازل على الغور، وأصبح لنصير رفيق طريق يمضي معه في رحلة الصيف للغور، وقطع عليه تفكيره قول الرجل له: إنتَ أكيد ابن الزوجة الثانية لأبونسر.

اطمأن نصير عندما سمع ذلك، فالرجل عرف هو ابن مين، لكنه لم يعرف اسم الرجل، ولم يتأكد إذا ما كان من أقارب مفيدة زوجة عمه، ولم يترك له الرجل مجالًا للشك، فقال الرجل وهو يمد يده على رأس نصير ليشعره بالأمان: «أنا أبوعلي من بني هلال، ونسبنا بوصل لعند أبوزيد الهلالي، وأكيد أبوك صار مخلص حصيدة من جمونيا، وقاعد بدرس أو بدو يذري الليلة».

أحس نصير أن هذا الهلالي يعرفهم، وتأكد له أنه من النسايب، وقال أبوعلي الهلالي في الكلام: إحنا نسايب، فأختي مفيدة زوجة عمك، وكان جدنا دائما يعزب مع جدك، فكانوا أصدقاء العزب، وشركاء في جلب البقر من العراق، وازدادت القرابة بالنسب عندما تزوج واحد من أعمامك أختي جارتكم.

أحس نصير بالأمان وبأنه قريب من هذا الرجل الذي يسير معه باتجاه الغور، وقد قطعا منطقة الساقية التي كان زرعها أكثر طولا من غيره، وسنابلها أكثر ضخامة من غيرها، وكان ينظر إليها نصير وهو يتعجب. فلاحظ أبوعلي نظراته، وفهم السؤال دون أن يسأله نصير، فقال: «شوف

هذه ما شاء الله المِعْناة لواحد من أعمامك، وهي غالة ومتميزة، بسبب أنها كانت مكان هجوع الغنم فاغتنت التربة بزبل الغنم. انتوا النسور مثلنا دار بني هلال، بدو وبتحبوا الغنم، بس أبوك صار يحب الأرض ويفلح وباع جزء من شلية الغنم». واستطرد: «آه.. من هذيك الايام لمَّا كنا نرد على الحَفيرَة، وعلى بئر أبوالدَرَج»، وسكت بعد ذلك أبوعلي، وسار نصير بجانبه، وعندما تصادفهما حمالة قمح يتأخر نصير، فيصبح خلفه لتمر حمالة القمح دون أن تطب بهما، فالطريق ما زالت عامرة بالنقالين لأحمال قش القمح على الحمير والبغال.

وما إن خلت الطريق من الحمالات، حتى تذكر نصير آخر كلمة سمعها من أبي علي، وهي بئر أبوالدَرَج، وسمع أن نسبهم يعود لأبي زيد الهلالي، والطريق طويل، فاستحثه فضولي الغوراني أن يسأل أبا علي، فهو يعرف الغور ويعرف حكاياته، وأبوعلي يحب الحديث، ولدى نصير رغبة في أن يسمع باقي قصة أبي زيد مع ابن اخته ذياب على بير أبوالدَرَج، فقد سمع جزءا منها من والده وهما متوجهان إلى فصايل، فقال نصير لأبي علي: «أبوي حكالي حكاية أبوزيد مع ذياب على البئر، ونمت وما سمعت شو صار في ذياب».

نظر أبوعلي إلى نصير قائلا: احنا من بقايا بني هلال، لما قاموا بتغريبتهم من ألف سنة، وكانت الرحلة من نجد إلى تونس، ولما وصلوا الغور قعدوا فيه، وواصل أكثرهم التغريبة لتونس، وبقينا احنا بني هلال في بلدة مَصْطَبَة. وأضاف وهو يبتسم: ما بتشوف إنه احنا سمر مثل بركات.

فقاطعه نصير: «أبو زيد اسمه بركات!». فقال: «لقبه هو أبو زيد».

كانت هذه أول مرة يعرف نصير أن أبا زيد له اسم آخر، وليس هو وحده الذي له اسمان أو عدة أسماء: سقف الحيط، وفتى الغور، وأخيرا نصير.

إن تعدد الأسماء من سمات الأبطال، وهو يعطي أهمية للمسمى وخيارات تطابق الاسم مع المسمى، وكان أول مرة يعلم نصير أن أبا زيد لون بشرته سوداء، فأحب أن يعرف المزيد. ويبدو أن أبا علي متمكن من سيرة أبي زيد، وأنه يحب الخرايف ورواية القصص، فتلك موهبة من الله آتاها لبعض عبيده، ومنهم أبوعلي، وهو رجل ما تفرق معه أن يروي القصة أو السيرة لمجموعة من الرجال أو لطفل صادفه بالطريق، وأصبح صاحبه بالطريق، فبعض الناس إن لم يجد أحدا ليحدثه، يحدث نفسه.

قام أبوعلي وقد نزع عقاله ووضعه في جيب كبره تخفيفا على رأسه، ولف كوفيته لفة الحصادين، وقد لاحظ نصير عندما دس أبوعلي العقال داخل الكبر، أن منجله تحت سبكه المشدود على خاصرته اليسرى، وأن من جانبها يطل رأس شبريته، فآثر نصير بفضوله المعروف أن يسأله فقال: «أنت ذاهب للحصيدة في الفْجِم؟». فقال: «نعم ولكن مش في الفْجِم، إنما قبل المُعَلَّقَة، جانب طرف منطقة ظهر حمار». استأنس نصير بذلك، فلا يزال هناك وقت للطريق، وقد قطعا الساقية، ومرا من جانب زواتا، وبدأت سنابل القمح على جانبي الطريق تتمايل وترقص مع هبات نسيم ما بعد العصر، فالمنطقة مستوية ومفتوحة على وديان كثيرة تجري بها تيارات الهواء بالصيف، كما تجري وديانها بالماء في الشتاء.

أصبحت الطريق خالية تماما ممن يقومون برحلة الصيف إلا منهما،

فحثا الخطى، فلقد بدأت رجل الناس تخف في الطريق، ومن النادر أن تلاقيهما حمالة قمح متأخرة، وقال الهلالي لنصير ضاربا مثلا له في القوي الصابر الذي يصبر على حر الغور وطرقه الوعرة: «أبوزيد خاله من ينقل نقلتين باليوم من الفْجِم البلد».

فرح نصير لسماعه ذلك، وهو يضرب مثل لمن هو قوي، وينقل حمالتين باليوم.

وقال في نفسه: «يا ريته يكمل سيرة أبوزيد»، وما إن أنهى التمني لهذه الأمنية، حتى قال أبوعلي الهلالي وهما يسيران مشرقين، والشمس من خلفهما تضيء لهما الطريق: «بنرجع لقصة أبوزيد وذياب.

كان يا مكان في قديم الزمان، كان أمير من قبيلة بني هلال اسمه رزق بن نائل، وكان عمه سرحان ملك وشيخ الهلالية».

تذكر نصير كلبه سرحان الذي نفق كما أخبره والده، وسرح قليلا، فنظر أبوعلي لوجهه عندما أدار نصير وجهه نحو قرص الشمس مغمضا عينيه، فسأله مستفسرا عن سرحانه، وعدم تجاوبه مع روايته للسيرة، فرأى أبوعلي ندبا بوجه نصير فسأله: «ليش هيك وجهك يا ولد، يبدو إنك غوراني وشقي!».

أجاب نصير: هاي عضات كلب، بس أنا قتلته!

فضحك أبوعلي ساخرا قائلا: كما قتل أبو زيد ابن اخته ذياب، على بئر أبوالدَرَج.

قال نصير: اسمه يونس ومش ذياب، هيك حكى أبوي.

أجاب أبوعلي بامتعاض:

«أنا سامعها من الشاعر أبوعيسى عدة مرات وهو يقصها على الربابة، وهو يروض بعض أبيات شعرها»، وواصل قص سيرة أبي زيد:

«لقد كان للأمير ابنتان شيحة وعتيمة، ولم يخلف أولادا وتزوج الأميرة خضرة، وكانت تتنزه مع الأميرة شمة ابنة الملك، فرأت طائرا أسود يغزو سربا من الحمام ويقتنصها ويقتلها، فتمنت ودعت ربها أن يكون لها ولد مثل هذا الطائر الأسود وبقوته ويهوي على الجموع في الوغى مثل هذا الطائر، فاستجاب لها ربها، فحملت به وولدته أسود، ورفض أبوه أن ينسبه اليه، وكان وائل وقبل مولد بركات، قد تزوج من عشرة نساء على أمل أن ينجب ولدًا يخلفه، ويكون ملكا للقبيلة، لكنه لم ينجب منهن غير بنتين واحدة منهن أم ذياب ابن أخت أبي زيد -الذي رفضه والده للونه الأسود- واتهمها بالحرام وطردها من نجد، وهاجرت به إلى الحجاز، فاستقرت بين عرب البادية في الحجاز، فتربى ابنها الأسود بجانب البادية فحطت على أهلها البركة بعد ما جاورتهم خضرة فأطلقوا على ابنها لقب بركات».

كان نصير يسمع ويتابع السيرة فقال: «يعني لازم يكون في لقب للشخص، قالت لي أمي إن الحجة فضية لقبتني بلقب: سقف المغارة، وسلفتها قالت: سقف الحيط، فظل لقبي سقف الحيط وسيدي أبوجابر قال إني فتى الغور».

لقد بدت ملامح سيرة أبي زيد ترسخ بذهن نصير بعدما سمع أجزاء منها من مصادر مختلفة، فلكل راو لغته وخصوصيته عندما يروي السيرة، فتتعدد الروايات، والقصة واحدة.

واصلا السير، وتجاوزا منطقة الكفوف، وقد قاربت الشمس على الغروب وأبوعلي يروي السيرة قائلا: «ويشاء القدر أن تغزو قبيلة أبيه العرب الذين ينتسب إليهم بركات، وبارز أباه وهو لا يعلم أنه أبوه، وكاد أن يقتله، لكنه تذكر وصية أمه له بأن لا يقتل هذا الشخص الذي يبارزه، فعمل كما طلبت منه أمه.

عرف بعد ذلك قصته وأنه ابنه، واعترف به.

أصاب الجزيرة القحط، وبشكل خاص منطقتهم بنجد، وقررت قبيلة بني هلال يغربوا تغريبتهم، فلحقت بهم قبائل أخرى من اليمامة ومن عقربا، ولما وصلوا الغور قعدوا فترة طويلة فسكنوا خربة رومانية فوق الغور، ويقال إنهم أرادوا أن يسموها باسم بلدة في اليمامة عقربا، ولكن اسم البلد الأصلي مَصْطَبة ظل معلق في أذهان الناس، وهيك حافظ أهل البلد على اسم مَصْطَبة، وتخلف ناس من بني هلال وسكنوا الغور، والبلد، واحنا ننتسب لهم».

أراد نصير أن يسأله كيف غدر أبو زيد بذياب على بير أبوالدَرَج، ولكنَّ أبا علي قال: سنرتاح قليلا وأصلي المغرب.

اختار سدرة من سدرات أول المُعَلَّقَة، وهي الفراق لبعضهما البعض من عند السدرة، وضع أبوعلي عصاه وما هو معلق بها تحت السدرة، وشرب الماء من المطرة وناولها لنصير، فشرب أيضا، وتيمم أبوعلي ليصلي المغرب، فصلى المغرب وسأل نصر: «جيعان؟»، وقسم له نصف قرص معجون بالزيت، وقال له: «أنا ساذهب يمينا إلى بطن ظهر حمار لأحصد غدا القطعة، وأنت خليك نازل في طريق المُعَلَّقَة دغري حتى

تصل سهل جمونيا، وهناك بتلاقي أبوك».

اخرج أبوعلي شبريته وقطع غصنا طويلا من شجرة السدر وهذبه، وأزال الشوك عنه بالشبرية، وعمل منه عصا صغيرة، وقال له: «خذ هاي العصا، وإذا لاقاك كلب لا تخليه يقترب منك، أضربه بالحجر، وإذا اقترب بالعصا، إذا لاقتك حية لا تضربها إلا إذا هاجمتك». وأضاف: «وأنت نازل المُعَلَّقَة بعد غياب الشمس تحسس في العصا الصخور والصفي فراح تكون عتمة، لإنه القمر هلال، مثلنا، وبطول حتى يطلع فدير بالك».

لم يكن نصير يريد فراق أبي علي، فلقد أحس معه بأنه كوالده، وهو لديه موهبة الحكي، ونصير لديه موهبة الإصغاء، فمد يده إلى جيبه وأخرج له من الحلوى أربع بيضات حمام، فتبسم أبوعلي وقال: «أكيد هاي من دكانة السقيفة»، وتناول واحدة منها، ووضعها في فمه، وأعاد الثلاث المتبقيات لنصير.

حمل أبوعلي صرته على عصاه التي وضعها على كتفه، وأخذ اتجاه القِبْلة متوجها تلقاء ظهر الحمار، بينما نصير استلم الطريق المؤدية إلى المُعَلَّقَة، وقد غابت الشمس، وعم السكون والهدوء إلا من أصوات الصراصير، وقد ساعدته العصا أن يسرع في خطاه، فقد أضاف ركيزة ثالثة لحمل جسده الصغير الذي يأبى أن يفارق الغور ولا رجال الغور كالهلالي الذي قص عليه جزءا من سيرة أبي زيد، وقد تمنى أن يلتقي به مرة ثانية، فكيمل له السيرة أو أن يستمع لشاعر الربابة، وهو يردّد أبيات الشعر لتغريبة بني هلال.

ما إن وصل رأس المُعَلَّقَة حتى حل الظلام، وأصبحت الطريق وعرة وكثيرة الالتواء، وقد ساعدته العصا على السير في الطريق متقدمة على قدميه حتى لا يخبط في قندولة أو يتعثر بحجر.

عندما تقدم أكثر في نزول المُعَلَّقَة وأصبح في مكان يكشف له أفق السهل لم يرَ شيئا، وتمنى لو يطلع القمر، فهذه أول مرة ينزل هذه الطريق الوعرة لوحده وفي الليل وماشيا على قدميه، ففي المرات السابقة، كان راكبا على ظهر الحمارة وأحيانا نائما على ظهرها، وكانت مشكلة الطريق ووعورتها وانحدارها هي مشكلة الحمارة وليست مشكلته. كانت الحمارة تطلع وتنزل لوحدها، واعتادت على الطريق، فهي لا تحتاج سائقا ولا ناهرا، فقد رباها والده منذ خمسة عشر عاما.

كان يخالج نصير وهو يسير في الليل لوحده شعور الخوف والرهبة، فالسكون والصمت هما سيدا الموقف، إلا من صوت أبي الشويخ الذي كان يرافقه ويؤنسه. إن ما زاد خوفه هذه المرة هو قيام أبي علي بتزويده بالعصا ووصيته له، فهو ما زال طفلا، وتزيد المخاطر في الطريق بالليل الذي تخرج فيه الذئاب والضباع وغيرها، لهذا فإن الخوف أكثر، وقد لا تنفعه عصاه في مواجهة تلك الوحوش.

كان نصير كلما نزل منعطفا ومنحدرا واقترب من السهل بانت معاني وموارس وقطع حقول القمح، وقد زاد مدى الرؤيا الليلة بعدما ظهر الهلال متأخرا في ثلث الليل الأخير، وقد أعجبه منظره وهو يسير معه بدقة، وكأن الهلال يضيء طريقه فقط، فأخذ يتطلع إليه في السماء وللنجوم الصغيرة التي تتلألأ، فتبعث إشارت وإضاءات الأنس له في

الليل، وبينما هو يعتمد على ما دون حاسة النظر التي ارتفعت لترسم في مخيلته منظر مصابيح السماء الدنيا فنظر في السماء فتعثر بحجر، وفقد توازنه في المنحدر، وكاد يقع لولا أنه ارتكز على العصا قليلا، فخففت من الجاذبية فتوقف سقوطه، وتذكر مقولة أبيه في مثل هكذا موقف، فقد كان يقول عندما توشك أن تقع معزة أو غنمة من صخرة معلقة في جبل المُعَلَّقَة «يا ساتر استرنا برحمتك».

قد لا تنفع الغوارنية نصير في نزول المُعَلَّقَة في الليل، ومن قبل ذلك في ترك أولاد عمه يعودون للبلد، وهو يسير وراء غورانيته اتجاه الغور في رحلة الصيف، ولوحده كطفل يسير مسرعا بغرور وبدافع من غورانيته، فتدخلت رحمانية الغور الصامتة منذ أن لحق به أبوعلي، وقص عليه السير والقصص، وإقامة أبي علي الهلالي لصلاة المغرب على ظهر المُعَلَّقَة بالجانب الشمالي من بطن جبل ظهر حمار، وقد حدث كل ذلك بدون خطاب أو كلام، حتى إنه زوده بالعصا ليرتكز عليها عندما تعثر بحجر، وهو ينظر في الليل إلى القمر.

كان النصف الأول من الليل أسود بدون نور القمر، ومروج القمح المصفرة لا تكاد تبين، والرجال أنهكهم الحصاد فرقدوا على حصادهم وقد تغطوا بالسماء وافترشوا غمور القمح أو بيادرهم، ومن شدة التعب ناموا ليجددوا نشاطهم ويعودوا لحصادهم في اليوم التالي.

كان لديه أمل أن يكون والده هو الشخص الوحيد المستيقظ ليستقبله، فهو لا يعلم الغيب، وأن نصير سيكون بعد منتصف الليل مخفيا، وعند الثلث الاخير من الليل ظاهرًا في سهل الفْجِم.

لقد كان والده ليس كغيره من الرجال، فهو دائما مستعجل، فالناس ما زالت تحصد وهو منتظر نسمات الليل ليذري بيدره، فقد أتم درسه نهاية اليوم المنصرم، وكان قد قيل قيلولة العصر، وترك إخوة نصير يدورون خلف البغلة والحمارة على البيدر، ويركبون على لوح الدرس حتى سحقت حوافر الدواب سيقان وسنابل القمح، فأصبح تبنا وقصلا مختلطا بحبات القمح، فكوموا البيدر المدروس لأبيهم، ليكون الليل موعدا له للتذرية والفرز للتبن عن القمح إن هبت الريح الطيبة وفرح بها.

لقد أصبح نصير بأسفل المُعَلَّقَة، ولم يعد يشعر بالخوف، فلقد اقترب من القوم ومن أبيه، وها هو يرى بقايا حصاد والده لمارس جمونيا، فهو قريب من مسلك الوادي الذي يؤدي إلى بئر أبوالعبد، حيث اعتاد والده وأعمامه أن يبيدروا بجانبه بجانب دبة عرعودة التي لا تفلح، وكذلك الأرض التي حول البئر، وأصبحت صلدا من كثرة ورود الدواب والأنعام والناس على البئر لجمع ماء المطر.

كان يتطلع يمينا ويسارا فيرى بعض الناس نياما دون غطاء إلا من السماء، وفي مهاد الغور وكان الصيف في بدايته، وأوشكت رحلة الصيف أن تنتهي فقد دخل شهر حزيران ولا حاجة بهم للغطاء، فحزيران يزيد حرارة الغور ليستوي ويصفر الزرع، وتجف وتتصلب حبات القمح، فتحصد فتندرس تحت حوافر الدواب، فيغافلهم الطير فياخذ نصيبه قبل أهل البيت وقبل الدواب التي تدور على طرحة القمح وفمها مكمم حتى لا تذوق شيئا من حبات القمح، فهي لأهل البيت وهي ستفوز بالتبن في ما بعد.

قطع نصير نصف السهل، وبدأ برحلة الصعود إلى دبة عرعودة حيث البئر وبيدر أبيه، فهبت من جنبات ظهره نسمات، فشعر بارتياح، وساعدته الرياح على المشي، فهو يسير مع تيارها الهادئ الطيب، وهذا سيسعد أباه الذي انتظره، واستعد وأخذ قسطا من النوم بقيلولة العصر، منتظرا ريح الليل ليقوم الليل مذريا ومسبحا ومهللا، فلقد اقترب موعد الصلبية الثانية، فيخلص منها ويذهب إلى البيت فيستحم ويلقى أهله، ويعود إلى ما تحت شفا الغور إلى الطويل ليمضي بمنجله حصاده الثالث والأخير، وتكون رحلة الصيف له قد انتهت وبدأت للناس الآخرين.

أحس أبونسر بحسفة وبوقع أقدام تأتي من بين الزرع، فأولاده نائمون والناس من التعب نائمة، فمن هذا الزائر، فاستلَّ خرطوشه ومشى باتجاه خرخشة الصوت، ولاحظ نصير قدوم والده لاستقباله، لكنه استغرب من رفعه لماسورة الخرطوش، ووضع يده على الزناد، فصاح بأعلى صوته: أنا نصير يا بوي.

أجاب الوالد: شو جابك يا شقي؟ تعال.

وضع الخرطوش واحتضنه وحمله كغمر قمح ووضعه بجانب إخوته لينام، فغداً موعد الحساب ولا يريد أن يعطل نفسه عن التذراية فالريح الطيبة تأتي لمرة واحدة.

عندما مدده بجانب إخوته نزلت من جيبه حبة حلوى بيض حمام، فأمسكها نصير ومدها لوالده الذي وضعها بفمه، وقد رآه لأول مرة مبتسما، فلف أبونسر حطته على فمه وأنفه حتى لا يتأذى من السفير المتطاير وهو يذري، فريح الغور تخدع أحيانا، وتغير اتجاهها دون نذير

مسبق، فيأتي التبن المتطاير على وجهه وهو لا يدري.

سمى بالله وبالرحمن، ووقف على تلة التبن، وأخذ يغدو ويرجع بنفس المسار وهو يحمل بالشاعوب قش القمح المدروس، فينثره بالهواء، فيطير التبن الخفيف ويبقى ما ثقل من حبات القمح، وهو يخطط فيقول محدّثا نفسه: «اليوم الأحد وغدا هو يوم الاثنين، وإن شاء الله بنكون مساء الاثنين في البيت، ليكون موعد الراحة قبل النزول في يوم الثلاثاء إلى ما تحت شفا الغور على الفَخْت والرَّواع بالطويل، فربما أحتاج اسبوعا لأنهي الحصاد، وينقل الأولاد القمح بالحمالات إلى بيادر البلد، فالطويل قريب، ويقدرون أن ينقلوا بالحمار أربع نقلات في اليوم».

كان نصير من شدة التعب لا يكاد يسمع خبطات الشاعوب، وصوت تهليلات وتسبيحات والده، ودعاءه أن تستمر هبات الرحمن، فينهي التذرية مع موعد صلاة الفجر، وما بين كل وجميع تلك الأصوات نام نصير بدون هز أو تقلب، ليصحو صباح اليوم التالي، ويرى صلبية القمح جاهزة للتكييل والتحميل.

5 حزيران 67
الجرح

أيقظ أبونسر أولاده الذين تفاجؤوا بوجود نصير بينهم مستغربين ومتسائلين: مين جابك وإنت متى جيت؟

فأجابهم والدهم بالنيابة عن نصير قائلا: «جاء في الربع الأول من الليل عندما بدأت بالتذرية، فاليوم موعدنا أن نكون في المساء بالبيت، ورانا شغل كثير لنعبي الصليبة ونطلع صاع الخليلي، وخليني أشوف إذا بقدر أبيع أو أقايض التبن مع من تبقى من أصحاب الحلال في الغور، حتى يخزنوه لأغنامهم للخريف القادم وأول الشتاء». وقال موصيا ابنته حمامة: «وصي دار عمك على التبن في غيابنا ما حد ياخذه»، وأضاف: «وقومي وأشعلي النار، واعملي الشاي، خلينا نكسر السفرة».

جلس أبونسر على الأرض وأخذ يلف عدة لفائف من تبغ الهيشي منتظرا كاسة الشاي وقطعة من أقراص الخبر المعجون بالزيت والشومر، وقد قال لنصير وهو يتذكر طعم حلوى بيضة الحمام التي ذابت في فمه بينما هو يذري: من أين أحضرت تلك الحلوى؟

فقص نصير على والده القصة من أولها حتى آخرها، وعرف نصير بذكائه أن والده أحبها، فتحسس جيبه فوجد آخر حبة فيها، وقد التصقت بالورقة المطوية بالمحفظة، فأخرج المحفظة، ونزعها من الورقة، فالتصق بها شيء من حبر صورة اليهودي، وناولها لوالده الذي وضعها في فمه، فهي تمده بالسكر والطاقة بشكل أسرع من الأقراص التي تحتوي على

النشويات بعد أن أفرغ طاقته طوال الليل وهو يقلب القمح المدروس في البيدر بشاعوبه، ويرفع الشاعوب مطلقا ما تجمع في فمه بالهواء، فيطير التبن الخفيف ويسقط من بين فراغات الشاعوب حبوب القمح، وما ثقل وزنه من عقد السيقان، وأحجار صغيرة وتراب تبلور وتجدر.

تحتاج عملية التذرية إلى جهد جبار مرتكز على الذراعين والأكتاف والرقبة أكثر من الجهد على الأرجل، فهو يقوم بالعمل طوال الليل ما دامت الريح الطيبة تساعده وبشكل متواصل، متحركا وغاديا إلى الأمام وراجعا إلى الخلف على مدى مسافة البيدر التي تبلغ خمسة أمتار بارتفاع متر ونصف.

ضحك أبونسر من قصص نصير وقال: «كنا نقص عليك القصص، فأصبحت أنت تقص علينا ونحن نستمع، صحيح فرخ البط عوام». وقال: «لقد رافقت إذن بالطريق نسيبنا أبا علي الذي يدعي أنه من نسب قبيلة بني هلال، لأن اسم عائلته أبوهلال»، أجاب نصير: «إنهم سمر البشرة أيضا، مثل بركات أو أبي زيد، فلقد كان أسمر، وحتى مرة عمي أخته سمراء، وواحد من أبناء عمي أسمر مثله».

نظر أبونسر إلى إبريق الشاي وهو يغلي، وكان لونه أسود، فقال: ليش إبريق الشاي صار أسود.

كان باسل يساعد أباه ويتعلم، فسمح له أبوه أن يذري بالمذراة الخشبية ليحمل بفمها ما ثقل وزنه من القمح، وما اختلط به من تراب وأحجار صغيرة وقصل وعقد، وهي تحتاج لعضلات شبابية، فأنهى باسل التصليب وتكويمه لصليبة القمح بالمذراة، وأصبحت جاهزة ليقوم والده

بتكييلها بصاع الخليلي، فأجاب باسل وهو يتصبب من العرق ويمسح جبينه: أسود من الحرارة ودخان الموقد.

رد أبونسر: يعطيك العافية ريحتني، لكن يا ابني العرق دساس، والأجداد عاشوا بالغور طويلا، فاكتسبوا سمرة ترابه من شدة حرارته.

وضعت حمامة إبريق الشاي وقطع الأقراص أمام والدها الذي قال: «قوموا نأكل وسموا بالرحمن حتى نقوم ونخلص ونحمل، ونسير قبل ما تحرقنا حرارة حزيران ونصبح سمر البشرة، مش شايفين الناس كيف تستغل وقت الصباح وقاعدة تحصد».

نظر نصير من الجانب الايمن من دبة عرعودة التي كانت المنطقة الوحيدة غير المزروعة، وهو يقضم قطعة من القرص المعجون بالزيت والشومر، وكان ما زال متماسكا رغم مرور أسبوع عليه، فرأى منظرا جميلا بالسهل المسمى الفْجِم، وقد انتشر فيه الناس فرادى وأزواجا ومجموعات، وقد شملوا بقطع أراضيهم بالمناجل حاصدين وتاركين خلفهم غمورا ملقاة على الأرض، وآخرين يحملونها ويصفونها على حمالة الخشب على ظهور الحمير وحازقين عليها بالحبال، حتى إذا اكتمل الحمل من اليمين واليسار بنفس العدد والوزن والمقدار، ساق الولد أو البنت الحمار متوجها تلقاء البلد بادئًا بطلعة المُعَلَّقَة التي نزل منها أمس نصير في الربع الأول من الليل، وتعثر لولا عصا الرحمن ويده التي استعان بها من حيث لا يدري وبدون أن يتكلم، ولولا أنه استعان بالعصا لكان تهشم وجهه وزاده ندبا في وجهه، بعد أن تركت عضات الكلب الندب في وجهه.

سأل نصير والده: لماذا دبة عرعودة غير مزروعة؟

كان والده مشغولا بصب الشاي، وقد تناول كاسة الشاي قائلا لابنته: «هلا كثرت السكر فيه»، وذاق طعمه فكان حلو المذاق، فرشف رشفة أخرى وكان حارا، فوضع الكاسة وأشعل لفافة من سرب لفائفه اللواتي صفهن صفا بجانب علبته وأخذ ينفخ الدخان، وينظر جهة شروق الشمس، فيرى القرن والجبال الشرقية للغور التابعة للبلد، وتذكر كم مرة قطعها ماشيا وراء أغنامه، وكان نصير يتابع نظرات والده حتى وصل نظر والده إلى دبة عرعودة، وخطف نظره عن الدبة بسرعة، ونظر إلى الجبل الذي به بير أبوالدَرَج.

فأراد نصير أن يذكر والده بسؤاله عن دبة عرعودة الذي تجاهله على غير العادة، وأن يذكر أباه بقصة أبي زيد، فقال لوالده: «ما قلت لي ليش الدبة غير مزروعة؟». قال والده: «ما بدك تعرف، يعتقد أهل البلد إنه في خيالات تخرج للناس الذين يحاولون أن يزرعوها، وعشان هيك ما حدا بزرعها».

لم يشبع فضول نصير هذا الجواب بالرغم من أنه عرف سبب عدم زراعتها، ولو كان والده يريد أن يحكي تفاصيل لحكى، فانتقل نصير إلى موضوع آخر، حول سيرة أبي زيد. فقال: «أنت ما قلت لي إنه أبوزيد كان أسمر، وكانت أمه اسمها خضرة، وإن زوجها الأمير ما كان عنده أولاد، وإنها شافت طير أسود يهوي على الطيور ويفتك بها، فتمنت أن تحمل بولد مثل ذلك الطير حتى لو كان لون بشرته أسود».

قال أبونسر لابنه: منهم من يقول ذلك، ويقول إن اسم ابن اخته شيحة،

كان يونس مش ذياب، ويونس غدر فيه أبوزيد على بير أبوالدَرَج.

فنظرا معا نحو الشرق إلى بير أبوالدَرَج، فاذا بسرب من الطائرات في السماء من فوق بئر أبوالدَرَج، قادمة من الشرق، ومسرعة وصوتها يسبقها والدخان ينفث من موخرتها، ومرت من السماء الذي فوق رؤوسهم مرتفعة نحو الجبال الغربية، فلاحقتها أنظار كل الحصادين في الفْجِم.

قال نصير وهو مذعور: يابا إنها مثل الطيور التي رأيتها في المنام، نفس اللون ونفس الحجم، لكنها كانت تقذف كتل النار من فمها، ولا تخرج دخانا من مؤخرتها.

نظر الاب إلى السماء وقال الله يستر الحرب ما تقوم ويكون هذا تدريب، أنا من زمان ما سمعت أخبار، يا الله اليوم المساء بنكون في البيت، وبنسمع صوت العرب، بس الامور كانت آخر ستة شهور محشرة على كل الجبهات.

نهض أبونسر وقال: أفطروا يا أولادي، وخلينا نقوم نخلص تعباة الصليبة ونحمل، وخلي الناس واحنا مروحين، وهما جايين يحصدوا، ونسألهم شو في أخبار.

لقد قضى أبونسر على سرب لفائف الهيشي وهو جالس يشرب الشاي، فكانت آخر لفافة مع آخر جغم من الشاي، ونهض مشمرا عن ساعديه قائلا لنصير: «خلي حمامة تجيب الصاع، وإخوتك يجيبوا الكياس»، بينما كان نصير يتفقد ما بداخل محفظته وجد التعريفة ملتصقة بصورة اليهودي، فوضع المحفظة بجيبه وقام ينادي على إخوته وأخته حمامة التي كانت تحكي مع أخت خطيبها، ابنة عمها، وتسألها إذا كان

هناك رسائل من خطيبها، ومتى سيحضر ليتم زواجهما؟ فلما سمعته قالت: «إن أبي يدعوني لأحضر أغراض تعباية الصليبة»، وودعتها وقالت لها نراك في البلد.

صلى أبونسر الظهر وحمل على البغلة كيسين كبيرين من حبوب القمح، من كل جهة كيس وربط عليهما وعلى ظهر البغلة بإحكام شديد، طالبًا من نصير أن يجعل ثقل جسمه معلقا بالكيس ليساوي قوة حزق الحبل في الخطفة اللوزية، فوضع والده رجله اليمنى على الكيس من جهته كدعامة، ولف الحبل على كوعه الأيمن، وأخذ يحزق حتى ارتفع جسم نصير وأصبح معلقا بالهواء وهو يمسك بكلتا يديه الكيس من ظهره. حتى إذا ما أحنى رأسه نصير وجعل رأسه متوجها إلى خلف ظهر البغلة، واضعا لحيته على الكيس، انشرخت الخطفة بلحظة كلمح البصر تحت ضغط الحبل والشد من مكان ما يسمى العقفة، فطارت شرختها كقذيفة مسدس، فنفذت من خد نصير الأيمن، ولامس رأسها المشروخ كحد السكين بطن خده الأيسر. وصاح نصير وسقط على الأرض على ظهره، والدم يعفر من وجهه، وبنفس اللحظة سقط بقوة أبونسر على ظهره من الجهه الثانية والبغله قفزت إلى الأمام وسحل الحمل عن ظهرها، وترك الإخوة والاخت الحمارة التي كانوا يجهزون حملها على ظهرها، وأسرع باسل نحو أبيه وطارت حمامة تلقاء نصير الذي انقلب على ظهره واضعًا يده لا شعوريا مكان القذيفة، وتقدمت حمامة تحمله والدم ينزف من وجهه. كان نصير بين اليقظة وفقدان الوعي، فلم يكن يبكي من حم الضربة، بل ثبت يده على خده وتحسسه فوجد خرقا فيه،

وأن خدَّه مخزوق، وكان كلما أراد أن يتنفس من فمه خرج الهواء من خديه حاملا قطرات الدم فسد فمه وأخذ يتنفس شهيقا وزفيرا من أنفه حتى لا يخرج الهواء الممزوج بالدم من فتحه خده.

رشق دم نصير على وجه حنان وثيابها، وفي هذه الأثناء كان أبونسر قد قام ونهض بمساعدة باسل وباسم واعتدل وقال: «الحمد لله، الرحمن قدر ولطف».

أنزلت حمامة نصير الجريح على الأرض بجانب والدها، فتفحص جرحه وفتح فمه وطلب من نصير قائلا: «أخرج لسانك وخليك شاد على خدك»، ونظر داخل فمه وتفحص لسانه وقال: «الحمد لله، داخل الفم واللسان سليمين، الجرح براني في الخدود». وقال لابنته حمامه: «أحضري لي سعن الماء»، فأسقاه الماء وتفحص مرة أخرى خده، ومسح الدم بطرف حطته، وكان الدم قد نزف، وعلَّم على ملابس نصير المدرسية التي لم يغيرها منذ أن ألبسته أمه تلك الملابس.

أحضر أبونسر إبريق الشاي وقد تبقى فيه تفل الشاي، فقام بغليه مرة أخرى وتركه ليبرد.

كان الخرق في خدي نصير قد أخذ شكل مثلث بدون قاعدة، فقام أبونسر بغسله وتنظيفه بالشاي، وقال لابنته حنان أن تحضر له الحطة البيضاء التي يلبسها بالعادة عند دخول البلد بدلا من الكوفية المتسخة من غبار الحصاد والتذرية والعرق.

أحضر أبونسر شبريته وقام بتقطيع حطته النظيفة لتكون قطعًا تستعمل كشاش، وضغطها على فتحة الجرح، بعد أن أعاد قطعة اللحم لراس

المثلث الذي رسمت أضلعه الشرنيخة ليطبق مع جلد الخد الممزق، ولف من تحت رقبته إلى أعلى رأسه بباقي الحطة، وحزقها وشدها وربطها فأصبحت ماسكة لخده وضاغطة على جرحه الذي توقف عن النزيف وقال له: «لا تبلع لعابك وكل ما شعرت إنه ثمك امتلى ابصق وتمضض بالشاي البارد، واستريح حتى نحمل ونتوكل على البلد، وإذا حصلنا التمرجي في المستوصف بنخليه يسعفك، وإن ما حصلنا بوديك على المدينة».

رغم الإصابة فرح نصير وتهللت أساريره، وتمنى أن لا يكون التمرجي موجودا، فإن إصابته بخده ستحقق أمنيته التي كانت سببا لكل الأحداث التي تبعتها، ففشخة الخطفة بخده سوف تجعله يخش إلى المدينة، تلك المدينة التي توقع من أبيه بعدما رافقه بالغور أن لا يسمح له بالذهاب للمدينة معه، فكان أن تعلق بوالده ليجبره على أخذه معه، ولكن والده رفض ودفع نصير فسقط على الأرض، فكانت تلك السقطة قد سببت له عدة سقطات في القرية، وجرَّت وراءها كل المشاكل والأحداث التي واجهها.

حمَّل الوالد الحمارة والبغلة وقال لابنته: شوفي حد من دار عمك وجيبي شوية ملح واغلي مية في إبريق الشاي على أثر النار، وخلينا نحمله معنا، ولما تفتر المية حطي الملح خليه يذوب وخليه يتمضمض فيه على الطريق، فالطريق طويل وما بدي جرحه من داخل ثمه يعفن.

فعلت كما قال والدها وظبت الأغراض، وكان والدها وإخوتها قد حملوا البغلة والحمارة التي كان حملها أخف من البغلة، فحملها شوية

أغراض، ومكان مخصص لنصير ليستلقي على ظهرها حاملا إبريق الشاي ليتمضض بالماء المالح كل نصف ساعة مرة، وهو متعجب كيف ستتحق أمنيته في أن يخش إلى المدينة، فلقد قضى عمره الذي يتذكره بالغور وآخر ستة شهور بين القريتين قرية والده وقرية أمه، وذكرياته المؤلمة منذ دفعه والده فأسقطه أرضا، إلى تعثره وانكسار البيضات أمام البائع المتجول، وسرقة المحفظة من قبل الولد الأبرص، ومكر أبناء أخواله ووقوعه عن اللوزة، وعثوره على المحفظة مرة أخرى، وصراعه مع الكلب وعضات الكلب وقتله للكلب، وحلمه بسرب الطيور ومشاهدته سرب الطائرات اليوم، وآخرها اليوم إضافة قبلة الخطفة على خده التي ستترك ندبة كبيرة أخرى، مضافة إلى الندب التي أحدثها الكلب.

لقد كان الوقت ظهرا عندما أفرغ الركب أبونسر من طلعة المُعَلَّقَة، وعندما بلغوا رأس المُعَلَّقَة أحسوا بالهواء المنعش من بعد خنقة المُعَلَّقَة.

إن السير بطريق مستو وأخذ الهواء المنعش، ينعش الدواب فتسرع بخطواتها مغربة، وحاملة على ظهرها القمح ونصير، وقد بدت الطريق عامرة بالناس النازلة وما يركبون من دواب، وبالناس والدواب الحاملة بالحمالات والطالعة للبلد.

كان نصير بالرغم من جرحه مستيقظا وينظر عن اليمين واليسار، حتى إنه أشار إلى شجرة السدر التي قطع أبوعلي طلقا منها وعمل لنصير عصاة منها.

وكان يسأل اباه إذا ما كان سيذهب الليلة للمدينة أم غدا. وذكر والده

بسرب الطائرات التي لم ترجع، فقال له والده: ربما غيرت مسار رجعتها.

وأخذوا يتنازعون بعدد الطائرات، واحد يقول أربعا ونصير يقول خمسا، كما قال والده، والآخر قال إنه لم يعدها.

سار الركب وكان أبونسر ينهر الحمارة والبغلة متجاوزا الحمير التي تحمل حمالات قش القمح مع سنابله، وهو يقول لنفسه وعلى مسمع من أبنائه «إنهم اغبياء لماذا لم يعملوا مثلي فيحملون حب القمح فقط ولماذا يعذبون الحمير وأبناءهم؟ ولماذا يتعرضون لمخاطر الطريق وطلوع العقبات؟».

فقال نصير وقد بصق شيئا من لعابه، بعد أن مضمض فمه بالماء المالح وبصق، فجاءت بصقته أمامه على ظهر الحمارة، ولاحظ أنها غير مختطلة بالدم، فقال لابيه مجيبا على سؤاله: «وكيف مفتاح والأولاد يلقطوا سبل إذا كل الناس عملوا مثلك؟». وأضاف: «لقد شاركتهم ولقطت معهم وظليت نازل على الغور وهم رجعوا للبلد».

انتبه أبونسر إلى بصقة نصير ولم ينتبه لجوابه على أسئلته، فأوقف الحمارة وكشف على مكان اللصقة فقال: «الحمد لله ما في دم، لقد قطع الدم من الداخل». أراد أن يتأكد بأم عينه، فقال لنصير: «افتح فمك»، ففتح نصير فمه على الأخير وهو يضع يده فوق ضمادة الحطة، ونظر الأب داخل فمه وقال: «ما في دم من الداخل، الله العليم إنها بدأت تجف من الملح».. وأضاف: «استمر في المضمضة حتى تخلص ما في البريق».

لقد قطعوا مسافة ساروا خلالها ساعات حتى مالت الشمس للغرب بعد أن كانت تعامدت وسط السماء عندما توقف، وصلى الظهر وأخذت

الدواب استراحة قصيرة، وما إن وصلوا إلى ما قبل منطقة الساقية حتى قال أبونسر لأولاده: «استمروا بالطريق وسألاقيكم عند قاع عَقَبة «أبو سليم»، بخطف حالي وبروح أشقّر على معنّاة الفَخْت والرَّواع، حتى أشوف إنهم جاهزين للحصاد والقمح نضج وأصبح أصفر وسيقانه أصبحت قشا».

أخذ يسير بسرعة وبخطوات متباعدة مفترقا عنهم، وعصا نصير معه بالرغم من أنه لم يعتد على حمل العصي، لكنها أعجبته فهي خفيفة وقوية وتساعده في تسريع الخطى، ليختصر فرق المسافة بين الأماكن التي سيشقر عليها والمكان الذي حدده للالتقاء بهم.

إن المسافة التي سيسيرها أطول، وحتى يكون هناك تقاطع بين حركته وحركتهم فالفرق بين طريقه إلى معنّاة الرَّواع أولا وبعدها الفَخْت وطريقهم إلى عَقَبة «أبو سليم»، حوالي ميلين، وعليه أن يغطي هذه الزيادة بالسرعة، فعليه أن يوسع خطواته ويمشي مقاطعا ولا يتوقف، بل يلقي نظرة على الزرع ولونه وسيقانه وإذا ما انحنت وأصبحت قشا يحمل سنابله أم لا.

قام بذلك وهو مستعجل، وكان يتمنى أن يجلس ويلف هيشية ويدخنها، لكنه لم يفعل، فأنهى التشقير وهو يمشي للمعناتين، وطفق ماشيا وبالنزلات مهرولا حتى التقى بهم بعد ساعة وقبل غياب الشمس في قاع العَقَبة، فطلوعها يحتاج إلى حنكة وصبر حتى لا تتعثر الدواب أو تصدم بعضها، وقد تتدحدل أو تقع فتكون الكارثة.

فرح نصير برؤية والده، فلقد اقترب موعد أن يحقق أمنيته ويذهب معه

للمدينة، بينما والده تغيرت أولوياته، فعدم رجوع سرب الطائرات يقلقه إلا إذا عادت من مكان آخر إلى شرق النهر. إنه يتمنى أن يصل إلى البيت ليقوم بعد الاغتسال والعشاء بسماع الأخبار، أو يلتقي بالمختار أو أحد الرجال الذين يعرفهم ومنهم صديقه فهيم الذي يرتاح لكلامه، وهو أحد المنضمين لحزب المعلم أبوموسى، الذين يحبون الأخبار ويحللونها، وينظرون ويفلسفون ويفندون الأوضاع السياسية.

تذكر أنه سمع أخبار عن المدة الماضية والمناوشات على الخط الأخضر مع الجيش الأردني وعلى جبهة سورية، لكن ما يقلقه حقا هو خبر قيام ناصر بسد مضائق تيران.

لقد تذكر خبر حادثة السموع على الخط الأخضر في شمال الضفة عندما ثار لغم وقتل ثلاث يهود، فرد اليهود ودمروا البلدة وقتلوا كثيرا من الجيش والمواطنين، وتذكر عمليات الفدائيين الفلسطينيين التي كان ابنه يحدثه عنها من جهة سورية.

كان يسأل نفسه هل يعملها العرب بعد معاهدة الدفاع المشترك ويحررون فلسطين، بينما هو يفكر بذلك والدواب تصعد العَقَبة ببطء ونصير مستريح على ظهر الحمارة وقد أفرغ إبريق الشاي من الماء المالح، وأصبح بحاجة إلى الماء العذب ليشرب بعد أن جف ريقه، لكنه كان يصبر نفسه حتى يصل إلى دار أبوصادق حيث ماء جرة السبيل البارد، وربما يلتقي والده بأبي صادق أيضا، ويعرف ما حصل لنصير، وقد تغطى نصف وسط رأس نصير مع طوق أبيض على وجهه بحطة والده مخفية ثقب الخطفة في خده نتيجة شدة والده الحبل الذي لم تصمد خطفة

الخشب تحته، فانشلخت وأطلقت شرنخة كقذيفة استقرت بفمه.

وصلوا بعد أذان المغرب إلى جرة ماء السبيل فشربوا، وأثناء الشرب أطل عليهم أبوصادق، فسلَّم وتعجب مما حدث لنصير وقال له: «متى رجعت للغور؟ أنت الأسبوع الماضي كنت جاي من الغور». ووجه الكلام لأبونسر «وقلت لك سلم على الوالد»، فتبسم والده وجلس هو وأبوصادق الذي قال: «خلي الأولاد ياخذوا الدواب على حوض البئر»، وجلسا يلفان الهيشي. وصاح أبوصادق: يا أم صادق سوي شاي هاظ جارنا أبونسر.

مد أبونسر علبته إلى أبوصادق وقال له: سمعت أخبار اليوم؟

رد أبوصادق: والله الراديو خربان وما طلعت اليوم على الجامع وما شفت أحد.

سأله: على حد علمك المستوصف فاتح؟

أجاب أبوصادق: من ما خلصت المدارس والتمرجي روح على نابلس وما رجع، وممكن مساعده موجود، أنت بتسأل عشان وجه نصير؟ ما بنفع لازم تاخذه على نابلس، أو اقولك خلي مساعده مهو من البلد والمفتاح معاه يطهره بالمطهر ويغير الحطة، ويحط شاش وقطن نطيف. ومن مرة بتشوف عمك الختيار ما هو المستوصف في داره.

ودع أبونسر أبوصادق وشكره على الضيافة السريعة وقال لأولاده: «سوقوا الدواب للبيت وأنا بميل على المستوصف». وأمسك نصير بيده قاطعا الأجور من بين حقول القمح الذي كان ما زال فريكا ولم يصفر بعد.

ما هي إلا عشر دقائق حتى كان يطرق باب عمه، ففتحت الباب عمته وكانت تعاني من ضعف البصر والهرم فقالت: «من ريحة المرحومة»، قبل على يديها وقالت له: «ادخل يا ابني عمك قاعد بصلي العشاء على الكرسي وكنت حطيت له صحن لبن يتعشى وقال خليه لما أصلي لربي».

وأضافت: «خير ما له الولد؟». وقص عليها القصة، وكانت نظرات عمه وهو يصلي ترقبه، وكله أذن لما يحكي، وقد بدا ذلك من هزة راسه عندما قال بصوت مرتفع الله أكبر، وأحنى راسه قليلا ساجدا لله.

قالت عمته: خليني أشوف ابني الكبير يروح ينادي على مساعد التمرجي يفتح المستوصف. ووضعت يدها على جبين نصير فأحس نصير بخشونتها لكن ليس كخشونة يد والده، وقالت: «عليه شوية سخونة»، ونهضت وخرجت تمشي بتثاقل لتنادي على ولدها.

كان أبونسر يرقب عمه حتى إذا ما رآه متحللا من صلاته، تقدم إليه مقبّلا جبينه وقال وهو ينظر لنصير: «هذا سقف الحيط صديقي في الناطوفة شو صار لراسه؟». لم ينتظر الجواب لأنه سمع أطراف القصة أثناء صلاته.

فسأل عن أحفاده إن كانوا رجعوا إلى البلد، فقال أبونسر: «ما أنت عارف الكبير في الجيش بسوق بالقائد، والثاني في الكويت وكل يوم زوجته بتعملنا مشكلة وبدها تلحق به، والصغير في جيش التحرير وزوجته وهي أيضا حفيدتك قاعدة تنتظره مع سلفتها، والبنت الكبيرة أنت تعرف إنه زوجها راح أمريكا وما رجع، والصغيرة كانت معاي في الغور وروحت اليوم وتنتظر ابن عمها خطيبها يجي من الكويت ويتزوجوا.. وهاي أخبار

أحفادك. والله يرحمها المرحومة تركتهم لي وهم الصغار، ولولا بنت هالحلال أمه لنصير لكنا تعبنا وشقينا».

قال عمه: هو صار اسمه نصير؟ ما كان اسمه سقف الحيط.

أجاب: «ما إحنا بدنا ندخله المدرسة، فسميناه نصير بلكي ربنا ينصرنا على اليهود».. وأضاف: سمعت أخبار عمي؟

قال: «لا ما هو ابني الكبير أخذ الراديو. هلا بيجي وبحكلينا شو سمع بس ما تصدق من كلامه شيء».

رد عليه أبونسر: ما هو معروف بالتمليح والتبهير، والزيادة في الخبر..

في هذه الأثناء نادت عمته قائلة: هيهم فوق جيبوا للولد.

كان المستوصف في غرفة في الطابق الأول من البيت وعم أبونسر في التسوية، فسمع أصواتهم فنهض ممسكا بيد نصير، وصعد الدرجات من طرف البيت وسلم على أبيها لزوجة ولده الصغير، وعلى مساعد التمرجي المدعو عامر قائلا: خزقت نيعه خطفة الحبل أثناء شد الحبل على ظهر البغلة واحنا بنحمل القمح في الغور.

قال عامر: «هذا الولد شقي. بذكر أصابع يده فرمتها ظرفة الباب، والكلب الذي عضه في وجهه. والآن انخزق خده هات حتى أشوف».

نزع طوق الحطة وما تحتها من قطع الحطة فوجدها قد لزقت بالجرح، وأحس بحرارة على وجهه، وقرب لمبة الكاز من خده قائلا: فتحة الجرح كبيرة لازم خياطة ولازم ينعطى إبرة، وأنا ما بعرف أعملهن، والتمرجي مش جاي بكرة. خذه بكرة على المدينة.

تبسم نصير وقال بنفسه إنه محظوظ وإن الظروف تعمل لمصلحته فقد

تأكدت زيارته المدينة غدا.

قال عامر لأبونسر: شوف قاعد بضحك مش هامه ولا حاسس بحرارة.

أحضر قطنا ومحلولا أحمر، ووضع القطن على فوهة الجلن ورنخها ومسح بها الجرح فنفذت بعض القطرات من الثقب إلى داخل فم نصير، فأحس بطعم مر وغريب هيج فمه وحرق الجرح، فتالم وأراد أن يتقيأ لكن معدته كانت فارغة، فأمسك نفسه وقام عامر، وهي فرصة له ليختبر ما تعلمه من مشاهدة التمرجي، فهو رجل في العقد الثالث من عمره ولا يوجد له أرض يزرعها، ويسكن بجانب المستوصف، وقد عُين كمنظف وبواب للمستوصف، وكانت زوجته تساعده وتستقبل النساء مع أطفالهن بدون أن تكون موظفة، ولم ينجب عامر وزوجته أي أطفال، وكان يساعد التمرجي وخصوصا إذا ما حضر دكتور من المدينة، وكان يحضر مرة أو مرتين في الشهر، فقد تعلم على الإسعافات الأولية والتنظيف والتعقيم، فقام بغسل يديه وأمسك طرفا الجرح بأصابعه من داخل فمه ومن خارجه وألصقهما معا، ووضع قطعا من الشاش الأبيض ومن فوقه لزيق لصقه فوق الشاش، وعلى نصف خده فالتصق بالجلد وثبت. وقال: «الحمد لله نظفناه، وما حد يشيل الشاش إلا الدكتور. ولما توكل يا نصير وتشرب كل على الجهة الثانية وما تفتح ثمك كثير».

شكر أبونسر عامر وودعه، وفي هذا الأثناء نزلوا للتسوية أبونسر وخال أولاده من زوجته الأولى وقد سأله أبونسر: سمعت أخبار؟

فأجاب وكان يحب الكلام والهشت: «الأخبار كثيرة وسمعت معظم الإذاعات ومنها صوت العرب وأحمد سعيد بقول إنه مصر أسقطت ٧٠

طيارة وإنه الجيش الأردني دخل جبل المكبر والطائرات الأردنية ضربت مطارات إسرائيل ومطار قرب كفار كرسن، ولبنان وسورية أسقطوا طائرات كثيرة، وكانت المدافع بقلقيلة بتضرب تل أبيب. حرقوها تل أبيب، وإن الجيوش العربية قربت تلتقي وترمي اليهود في البحر للسمك».

قال أبونسر: هاي أخبار جيدة بس أنا شفت اليوم الصبح سرب طائرات جاية من الشرق وغربت غربة بس ما رجعت.

رد عليه: «الطائرات غطت السماء وبطلنا نشوف الشمس من كثرة الطائرات»، وأضاف: «والجيش العراقي فزع وصار في الأردن وإنت بتعرف العراقيين أشداء وذوي بأس».

دخلوا البيت وهم سعيدون بهذه الأخبار، وأبونسر يقول لعمه: «سمعت أخبار النصر، قرب موعد إلقاء اليهود في البحر للسمك».

قال له عمه: «إذا كانت الأخبار من ابني فانسَ ذلك. قرب شاركني أنت وسقف الحيط بصحن اللبن، ويمكن يكون صاحبي طول اليوم ما أكل».

نظر نصير للجد وأراد أن يقول له إن اسمه نصير وإنه كره ذلك اللقب الثقيل سقف الحيط.

قام الجد بمسح ملعقته بطرف حطته، وأخذ يطعمي صديقه في الناطوفة سقف الحيط ويقول له ابلع اللبن من الجهة السليمة لا يطب الأكل في الجرح. ووجه الكلام لابيه اسلقوا البيض له سلق.

سمع نصير ما قاله خال إخوته من أخبار، وكان يرغب أن يفتح المحفظة ويقول لصورة اليهودي انتوا مجرد صور وطائرتكم صور،

شوف شو سوى العرب فيها، حرقوها.. حرق. آه لو كان كلامه صحيح كان حرقت صورتك. بس أنا سمعت أبوي بقول إنه بملح كثير بالكذب.

استاذن أبونسر وودع عمه وعمته ومضى ماسكا بيد نصير، وهو يقول له كيف خدك الآن أحسن؟ بس نصل نام، وبكرة باخذك للمدينة، وبيشوفك الحكيم.

فرح مرة أخرى وهو يسير مع والده، متخيلا كيف ستكون المدينة؟

كان التعب قد أخذ مداه مع أبونسر مع أنه نادرا ما يتذمر أو يشكو. لكن تأثر بالحصاد وجمع الغمور والدرس والتذرية والتحميل والمشوار وطول الطريق، والشعور بالذنب عما حصل مع نصير، والقلق من وضع الحرب وخوفه على أولاده في الجيش وقلة النوم، وخصوصا أنه لم ينم بعمق منذ أسبوع، وكان نومه مجرد غفوات بسيطة. كان يمني النفس أن يصل فيغتسل وينام نوما عميقا، ومع أنه كان متشوقا أن يقلّب محطات الراديو ويسمع صوت العرب وهنا لندن. لكنه ما إن وصل وسلَّم على أهله حتى أعطى أوامره وجُهز له الماء الساخن، حتى إذا ما أنهى ذلك قلب على جنبه الأيمن ونام من شدة التعب بعد أن صلى المغرب والعشاء جمعا قصرا. وقد لاحظت عليه التعب أم العيال، فقال لها: «غدا سوف آخذه إلى المدينة عند الدكتور»، فأدركت بفطرتها، وإن كانت معذورة وهو لا يدري، فاعتزلته وتركته لينام ويستعيد قوته ثاني يوم بعد أن تذبح له جوز الحمام. أما نصير فاطمأنت عليه، ووضعته بالنافذة وقالت متذمرة منه: «وإنت دائما مغلبني، وهارب من البيت للغور، وحارق قلبي عليك». فغطته ودخل في سبات عميق.

6 حزيران 67
في المدينة

وصل نصير إلى البيت وخده مخروق، ولم يكن يستطيع أن يأكل أو يشرب حتى يسد الخرق في خده بيده. وقامت أمه نصرة بخلع ملابسه وأخذه إلى زاوية في البيت، وقالت له: «ضع راحة يدك على الجرح في خدك»، وقامت بفرك رأسه بالماء والصابون، وتلييف كامل جسمه وتجفيفه وهو مطبق بيده على خده حتى لا يلامس الماء الجرح، ولم يترك خده إلا بعد أن ألبسته ملابس قديمة وضيقة عليه، لكنها نظيفة، فقال لها إنه جائع.

ردت عليه قائلة: سأسلق لك البيض، انتظر واصبر.

بعد أن سلقت له بيضتين، قامت بتقطيع البيض المسلوق قطعا صغيرة، وقالت له: «كل على الجهة الثانية، حتى لا يتلوث الجرح ويجف وتصل مع أبيك عند الدكتور». وقالت لزوجها: خذه على الدكتور حامد.

كان أبونسر قد لبس ثياب الصلاة، وأخذ البشت على يده، ولم يقم بسماع الاخبار رغم رغبته في ذلك حتى يعرف إذا قامت الحرب أم لا. لكنه خاف أن يسبقه الباص فلا يستطيع أن يصل إلى نابلس.

فأخذ بيد نصير وسار إلى وسط البلد، فوجد مجموعة من الرجال ينتظرون الباص ويتجاذبون أطراف حديث الحرب، وأحدهم يقول إنه سمع أن مصر أسقطت أربعين طائرة إسرائيلية، وآخر يقول: إنها سبعون، وآخر يقول: إن لبنان أسقط طائرة.

وسمع أبونسر أبا الحكم وهو عسكري متقاعد يقول إن الطيران الأردني ضرب مطارات إسرائيل، لكن للأسف لم يكن فيها طائرات، لأنها أسقطتها الدفعات العربية. ورجل آخر يسأل الجميع: «شو أخبار الحصيدة في الغور، بالكم تسقط قذيفة على الزرع وينحرق قبل ما نحصده، وتكون هاي آخر رحلة صيف لكم يا أهالي مَصْطَبة إلى الغور».

بينما هم يتجادلون ظهر الباص من جهة الجامع، وقد شاهد نصير ذلك وفرح بقدوم الباص، ولم يعد يفكر بالخزق في خده بقدر ما يفكر كيف بده يركب الباص، وكيف بكون داخل الباص، ومتى يصلون إلى المدينة، وما شكل المدينة، هل هي مثل القرية أم الغور؟ كانت المدينة تشغل باله وتفكيره أكثر من القرية، وسبب له شغفه بالذهاب للمدينة كثيرا من المشاكل والمصائب منذ أن تعلق برقبة والده طالبا منه أن يأخذه إلى المدينة، وقيام والده بدفعه وإسقاطه أرضًا، وما ترتب على ذلك من مصائب ومشاكل. وهو الآن لا يهمه الجرح الذي في خده، ولا أخبار الحرب، ولا حتى رحلة الصيف للغور والحصيد، فكل همه أن يرى المدينة.

كان الرجال المنتظرون الباص يسندون ظهورهم إلى شواهد القبور التي كانت محاذية للبيادر التي يقف عليها الباص، وبينما نصير يفكر بالمدينة صعد مع والده من باب الباص الأمامي، فنظر له الشفير وعاين جسمه وقال لأبونسر: «بتحمله في حضنك يا حج أو اقطع له تذكرة»، رد عليه أبونسر: «اقطع له تذكرة، فنصير رجل، وليس ولدا حتى أقعده بحضني».

شعر نصير في تلك اللحظة بمدى حب أبيه له، وأنه كان مخطئا عندما شعر أن أباه لا يحبه عندما دفعه وأسقطه على الأرض يوم أصر على الذهاب معه للمدينة.

وسألهم السائق: «رايحين على الدكتور؟ روح عند الدكتور خالد». وأضاف: كل أهل البلد بروحوا عنده.

لم يرد عليه أبونسر، فهو يتذكر هذا الدكتور عندما جاء إلى البلدة، فكان يصف لكل الناس صغيرا وكبيرا نفس العلاج والدواء، «أسبرين».

نادى الكنترول: «ظل حدا؟ الباص ماشي». وسكر الباب وانطلق الباص بصوته، وجلس نصير بجانب الشباك، وكان يخيل إليه أنه يشاهد الشجر والبيوت والبشر يتحركون والباص واقف، لولا أنه كان يشعر بالباص يقفز إلى أعلى عندما يأتي العجل على حفرة أو حجر.

كان صوت الرجال والسائق مرتفعا، وكان حديثهم في معظمه حول الحرب والانتصارات التي حققها العرب في أول يومين، وأن الجيش دخل القدس وجبل المكبر، وأن مدفعية الكرنين بالقرب من قلقيلية قصفت تل أبيب.

كان نصير يسمع أحاديثهم، وبالرغم من أن حاسة السمع لديه جيدة وهو يتقنها، إلا أن حاسة البصر في ذلك اليوم كانت أقوى لديه، فهو يشاهد من شباك الباص جبالا ووديانا وسهولا تزينها أشجار الزيتون وعمائر التين وكروم العنب، وبينها زرع من قمح وشعير وغير ذلك، كحدائق ذات بهجة لم يكن ليشاهدها في الغور الذي لا يوجد به شجر إلا شيء قليل من السدر والزعرور.

كان نصير يمتع عيونه لتقلم حاسة البصر عنده هذه المناظر وترسخها بذاكرته، وبشكل خاص منظر أشجار الزيتون التي بدت له أنها تسير مع الباص، فتخطف بصره.

بينما هو يتمتع بجمال البساتين والأشجار خطر بباله الغور، فسأل والده: ليش ما في شجر في الغور؟

أجاب والده: «لأن الغور منطقة مراعٍ مشاع لأهل البلد، ليربوا به مواشيهم، وهي تأكل الشجيرات وهي صغيرة، فلا تكبر، ولا أحد يخضر عليها أو يحميها، وعندما يقل المطر ولا ينبت الربيع بشكل كافٍ تأكل الحيوانات جذور وشروش الشجيرات، فانقطع الشجر بالغور إلا ما رحم ربك من سدر وأثل وزعرور يحمي نفسه منها بأشواكه».

عرف نصير لماذا لم يكن هناك شجر في الغور. توقف الباص فجأة، وركب راكب، وسمع نصير أحدهم يقول: بس أنت يا حج خاش على نابلس من هذه الخربة.

دعس الشفير على دواسة الديزل وأمسك مقود الباص بقوة، وصدر من الباص صوت تعشيق وتقطيع، وبنفس الوقت كان هيكل الباص يسير متأرجحا يمينا ويسارا، فالطريق ضيق ومهترئ، وظلت الحال على ذلك حتى توقف عند بلدة قريبة من المدينة، وركب رجلان وسار الباص بعد ذلك، وأصبحت الطريق سهلة، وفجأة قال السائق: «انظروا الدبابات تخرج من المعسكر، وتتجه إلى نفس الشارع الذي نحن فيه، سأزيد من السرعة قبل ما يسكروا علينا الطريق». قال الرجال: أكيد رايحين دعم للجبهة في قلقيلية حتى يحتلوا تل أبيب.

علق أبوالحكم بما له من خبرة فهو عسكري متقاعد فقال: «يا زلمة إذا رايحين على قلقيلية ليش يجوا هذه الطريق؟ هاي الطريق بتروح على البلد عندنا وعلى البلدات المطلة على الغور، وبعدين بتنزل على الغور».

رد عليه عسكري متقاعد من حرس الحدود الإنجليزي ولحَّق رتبة كابتن، وهو يدعى «فهيم» وأبونسر يعرفه فهو جاره، وكان يعيش وزوجته على راتب التقاعد الذي يُرسَل له من بريطانيا العظمى، وهو شخص متكتك وكلامه موزون، وكان أبونسر يستشيره أحيانا، فقال «فهيم»: «شكلهم لا رايحين ولا جايين، هم يحركون بالدبابات لتكون مستعدة، هذا التحريك ليس تحريك إعادة انتشار أو انسحاب. هذه تحريك اختبار، وتعبئة واستعداد، بانتظار أوامر القيادة».

رد عارف، وهو أيضا ممن خدموا بحرس الحدود وتقاعد وأصبح من جماعة حزب المدرس أبوموسى الذي درس في البلدة وسكن فيها، وكان يدعو أهل البادية للانضمام للحزب، وكان أهل مَصْطَبة يتندرون عليهم بجماعة (حزب التنظير) وقال: «آه ممكن بروحوا على الغور، وبعدين بطلعوا على القدس أو بروحوا على الخليل، ويلتقون بالجيش المصري، ويحاصرون جيش اليهود، وهذا يسمى في تكتيكات الحرب عمل كماشة على العدو».

لم يعبأ السائق لتحليلات الركاب فكان يزيد من سرعته، حتى لو صادف وخرجت ناقلات الجند والمجنزرات والدبابات على نفس الشارع، فيكون تجاوز مدخلها للطريق العام، وهي ما زالت تسير بالطريق الفرعي، وإن كادت تصل إلى الطريق العام الذي يسير به الباص، فزاد

الشفير السرعة أكثر، ورمى الغيار الأخير فانطلق الباص متجاوزا المدخل قبل أن يدخل رتل الدبابات طريقه فيضطر إلى التوقف نتيجة ضيق الطريق.

شاهد نصير المدينة لأول مرة، وكان يسمع عنها الكثير، ذلك أن مجرد دخولها من قبل أي ولد من القرية يعتبر حظا كبيرا، فيظل يحكي لأقرانه عنها، وعما رآه. وسوف تزيد مخيلته عما خزنته ذاكرته من صور لمبانيها الكبيرة، والسيارات والباصات والمحلات الكثيرة، والأصوات المرتفعة، وأصوات الباعة، والنساء وملابسهن، وطرابيش الرجال، وأنابيب الدخان والأراجيل، ومحلات الكنافة، والسينما والأضواء، والكهرباء والمنتزهات.

لاحظ نصير ووالده أن بعض الناس يتجمعون في المقاهي ويلتفون حول الراديو لسماع الأخبار من صوت العرب، لا سيما بيان النصر الذي يتلوه المذيع صاحب الصوت الجذاب أحمد سعيد.

كان نصير ووالده وهم في الباص الذي يسير ببطء بشوارع المدينة يسمعون من داخل الباص محطات الراديو تذيع أنشودة النصر:

«أمجاد يا عرب أمجاد»..

فلقد أسقطت الجيوش العربية المئات من طائرات العدو الإسرائيلى.

نزل والده من الباص بجانب محطة سكة الحديد العثمانية التي أصبحت محطة باصات المشاريق، وأمسك بيد ابنه وقال له: «سنأخذ الطريق القصير من الزقاق»، وكان الشارع مكتظا بالرجال ولباسهم الذي لا يشبه لباس أهل القرية.

لاحظ نصير أن معظمهم يلبس البنطلون والقميص، أو بدلة وربطة عنق، ويضعون على رؤوسهم طرابيش سوداء، ينزل منها شرشوبة حمراء، والأولاد يلبسون بلاطين قصيرة إلى أسفل الركبة، بينما النساء يمشين وشعورهن ظاهرة وواصلة لظهورهن، وأذرعهن مكشوفة كحال سيقانهن.

وبينما هما يمشيان بالزقاق، تذكر نصير «أبوالسوالف»، وحكى لوالده قصة ذلك الرجل العجوز عندما ضرب المعلمات بالعصا على سيقانهن، فلقد كن من المدينة والمخيمات، فمعظمهن بذلك الشكل، والقليل منهن من تضع منديلا على رأسها.

هز أبونسر رأسه وقال: هاظ أبوالسوالف الآن فرحان، قرب يتجوز ثلاث يهوديات ما دمنا انتصرنا.

كانت النساء في المدينة تحمل السلال وتنقي الخضار والفواكه، وكان نصير يسمع كلامهن مع البائع، والحديث الناعم والودود الذي فيه خضوع وتغنج.

لم يشاهد النساء يلبسن شالات سوداء مثل أمه ونساء القرية، وكانت الكبريات في السن يضعن المناديل، أما النساء البالغات والصغيرات، فكن كاشفات شعورهن.

كان والده يسير بسرعة في الزقاق ليوفر الطريق والمسافات فهو دائما مستعجل، وكان نصير وهو يسير ويمسك بيد أبيه يشعر أن أباه يحمله ويطير به بالهواء، بينما هو يريد أن يستكشف ما في المدينة، خصوصا أن ما يراه لأول مرة سيثبت في ذاكرته ولن يمحى. كان كل شيء بالنسبة له شيئا جديدا، فالشوارع نظيفة وأعمدة المصابيح مرتفعة، والرجال والنساء

والأولاد والبنات كلهم مختلفون بلباسهم وبكلامهم ومشيتهم وشعورهم، حتى إنه لم يرَ أحدا يركب حمارا، إنما يركبون الدواليب.

قال له والده: «أسرع بلاش تظلك تتطلع يمين ويسار وتصدم بالناس، أنا جبتك طريق مختصر ما فيه ناس، وعلى آخر الزقاق بنكون وصلنا لعيادة الدكتور».

كان نصير بتطلع يمينا ويسارا فيرى أولادا مثله يركبون دراجة تدور عجلاتها بحركات من أقدامهم على بدالات، ويمسكون بأيديهم مقابض لها، وهي تحملهم وتسير بهم، وليست كالحمير عندهم.

فسأل والده: «ما عندهم حمير مثلنا؟».

قال والده: «لا ما عندهم»، وتدارك أبونسر نفسه وقال له: «عند الجبالية، يحملون الحجارة عليها للبيوت التي على حواف الجبال، فلا تصل إليها السيارات، انظر على يمينك هذا جبل عيبال، وانظر على شمالك هذا جبل جرزيم».

لم يكن نصير لينظر للجبال لأن الجبال في مخيلته هي جبال الغور والقرن، ولا يمكن أن تحل محلها في ذاكرته أي جبال أخرى، لهذا السبب كان نظر نصير متركزا على ما هو جديد عليه، فرأى أولادا مثله ومن عمره يركبون العجلة، وتمنى أن يفعل مثلهم ويجرب، ورأى آخرين يأكلون شيئا ملفوفا بورق جرائد وله رائحة خاصة تشتهيها الأنفس، فسأل والده عن ذلك، وتمنى أن يأكل مثلهم مما يأكلون، فقال له والده: «إنهم يأكلون سندويش فلافل. بس أنت الآن ما تقدر توكل، خدك مخزوق، وخلينا نروح على دكتور يعالجك، واحنا قربنا نصل، ولما تشفى ونرجع على

المدينة مرة ثانية، بتوكل فلافل».

خرج أبونسر وولده من الزقاق إلى شارع كبير ومكتظ بالمحلات والخضار والفواكه وأشياء اخرى، وكل بائع يدلل على ما لديه بعبارات وجمل لأول مرة يسمعها نصير، حتى إنه سمع ورأى شخصا مميزا نحيفا وشعره أبيض وملامح وجهه دقيقة، ويلبس جاكيت فوق القميص، ويضع ورقا كبيرا مطويا تحت إبطه، ويقول بصوت متميز وفيه بحة: «القدس، الأخبار، الشعب.. اقرأ أخبار الانتصار».

ويغني بصوته الجهوري:

«يا عرب أمجاد يا عرب، والقدس رجعت يا عرب، فلسطين قربت ترجع».

كان يطلق العبارات التسويقية ليبيع الجرائد، ويبدو أن الصحافة العربية تحتفل بالنصر.

صعد أبونسر من مدخل ضيق على درجات وكبس كبسة بيده فأضاءت المصابيح، ودخل غرفة بيضاء مضاءة، لكن ليس بلمبة كاز، بل بمصباح زجاجي لا يخرج منه دخان ولا رائحة، كان بداخل الغرفة رجل يلبس ثوبا أبيض، فوق بنطلون أسود.

ويبدو أن أبونسر قد تصادف وصوله العيادة على أثر فتح الدكتور لعيادته، فقال له: أن يدخل غرفة أخرى فيها كرسي طويل، وقال: «شو ماله هذا البطل، احمله ومدده على التخت». وروى له أبونسر القصة، فقال الدكتور لنصير: «أمسك هذا الأنبوب تحت لسانك»، وانتظر الدكتور وأخرجه من فمه، وقال: «الحمد لله حرارته كويسة»، وحمل

الدكتور مقصًّا وقص ما لصقه مساعد التمرجي على خده، وقام بغسله وتطهيره بسائل أحمر. شعر نصير بحرقته، وسمعه يقول لوالده: «بده قطبتين وإبرة يكلفوك يا حج ٧٠ قرش وكشفيتي نص ليرة».

قال أبونسر: «توكل على الله يا دكتور».

مدد الدكتور نصير على المد، وقال لوالده أمسك يديه، ووجه حديثه لنصير: وما تتحرك عموه.

ولبس قفازين وقال: «انت شو اسمك؟ وأي صف؟ أو حتى الآن ما دخلت المدرسة؟». وبينما هو يحادثه غافله وغرز الإبرة وأخرجها، وغرزها مرة ثانية وثالثة ورابعة، وبعد ذلك شد الغرز وربطها، وقص ما تبقى منها.

مسح من فوقها بالقطن، ووضع لاصقا عليها بلون الخد، وأحكم اللصق.

قال بعد ذلك: «اقلب على بطنك يا نصير، وافتح البنطلون، راح أعطيك إبرة مش راح توجعك، خليك ثابت ما تتحرك، أنت بطل، بدك تقتل أو تأسر يهودي، فالحرب قامت والعرب انتصروا». وبينما الدكتور يشاغله بالكلام، كان نصير كعادته يحب أن يستمع ويخزن بذاكرته. ومع أنه شعر بوخزة الإبرة في مؤخرته إلا أنه قال للدكتور: «أنا معاي صورة يهودي بمحفظتي، بتحب أفرجيك صورته». لم يلتفت الدكتور لكلام نصير وقال: «خليك». ووجه الحديث لوالده: «مليح إنك جبته قبل ما يلتهب الجرح، لإنه بلش يلتهب، وإنه أعطيته إبرة».

بعد ذلك أدار ظهره الدكتور، وفتح الماء الذي كان ينزل من الحنفية

وغسل يديه بالصابون والماء، فتعجب نصير من ذلك، وكيف أن الماء يختلف عنه في القرية حيث يصعب الحصول عليه إلا بالدلو أو من النبع أو من الجرة، ويجب وضعه في السعن أو البرميل، فمعركتهم الكبرى في بلدتهم التي توزع ماء المطر هي مع الماء، فمَصْطَبة لا تحتفظ بالماء، فيضطرون إلى جمعه في آبار، وإن كان آباؤهم أكثر ذكاء منهم، فعملوا البركة، وهم قد أهملوها، وعملوا القناة تحت الأرض في الغور لتصل إلى جبل صِرْطِبّة ليخزنوه في حصنهم فوق القرن، وقد أهملوه، وهم يردون على ما تبقى من ينابيع الغور التي لم تغر حتى الآن كالحَفيرَة وبئر أبوالدَرَج وعيون مانع وفصائل، وهذا الأمر غير مقصور على الغورانيين بل على البلدان التي تعاني شح الماء بسبب الترف.

أدار الدكتور وجهه وهو يمسح يديه ببشكير، ويقول لأبونسر: طعميه اليوم بوظة باردة، وبعدها خليه يتمضمض بالماء والملح، وبعد أسبوعين روح فيه على المستوصف، خليهم يسحبوا الغرز إذا ما سقطوا لوحدهم، وإذا صار عليه حرارة استعمل كمادات ماء بارد له، وحممه بماء بارد.

نهض أبونسر ومد يده إلى جيب كبره ليخرج محفظته ويحاسب الدكتور. في هذه اللحظة رن الهاتف وأمسك الدكتور الهاتف فسمعه يقول: «أهلا دكتور. كيف الأوضاع عندكم في قلقيلية؟»، ولاحظ نصير ووالده أن تقاسيم وجه الدكتور اختلفت وانقبضت وهو يستمع إلى الهاتف، وقال وهو مصدوم: «طيب وما نسمعه بالإذاعات كله أوهام وأكاذيب؟ وين أمجاد يا عرب؟».

لم يكن بمقدور نصير ووالده أن يسمعا ما يقول المتصل للدكتور،

لكن من خلال تعابير وجهه وانفعاله بدا أن الأخبار غير سارة، خصوصا قوله ما نسمعه كان كذبا وأوهاما.

قال الدكتور للمتصل: «يعني بكرة بدخلوا نابلس إذا كانوا دخلوا اليوم قلقيلية، الله يستر راحت البلاد، والناس اليوم محتفلين بالنصر، وبسمعوا صوت العرب. طيب دكتور أنا عندي ترانزيستور في العيادة خليني أسمع هنا لندن، ودير بالك على حالك، وأسعفوا الجرحى»، ووضع سماعة الهاتف وقال: «آه يا حج هاظ دكتور زميلنا من نابلس بعمل في قلقيلية بقول إنه قلقيلية والقرى حولها سقطت في إيد اليهود، وهدوا بيوت، وإنه في قتلى وجرحى، وناس هربت إلى القرى المجاورة، وبعضهم في الطريق جاي على نابلس، وبقول إنه ممكن يجي على نابلس، إذا لقي تاكسي».

أسرع الدكتور لمكتبه وفتح الراديو، وكان يبحث عن الإذاعات ويقول يا رب تلقط هنا لندن.

كان كلما حرك على محطة يسمع أغاني الحماسة والنصر، ومنصور يا ناصر.. وأمجاد يا عرب أمجاد. وهو يقول: «ازهقنا من أحمد سعيد وصوت العرب، آه يا كذابين»، ولما لقطت معه محطة لندن وسمع الخبر، انصدم الدكتور، فلقد تأكد ما قاله زميله، ودمرت قوات العدو جميع المطارات والطيارات المصرية، واحتلت غزة ودخلت العريش، وقتلوا كثيرا من الجيش المصري، وهم منسحبون في العريش. وعلم أن سورية قد انسحبت من الجولان، وأن اليهود وقادتهم ومنهم أبو عين واحدة دايان، وصلوا إلى حائط البراق، وأعلنوا عن تحرير القدس، وأنه تم ضرب مطارات وطائرات الأردن بالمفرق.

كان أبونسر يمد للدكتور أجرته بيده، والدكتور يأخذها بدون أن يتطلع عليها وهو يقول:

«روح يا والدي خسرنا ناصر البلاد وبكفي علاجنا نصير هذا اليوم، اليوم أوله نصر وآخره هزيمة، روح لحق بلدكم قبل ما تنحبسوا في المدينة، وقبل ما يصلوا اليهود وما تعرف تطلعوا».

انصدم أبونسر من الخبر وهذا التحول خلال ساعة، وكيف أصبح المزاج العام بعد الفرح حزنا، وبعد النصر هزيمة، وكان نصير يلاحظ كيف تغيرت مشاعر والده بتغير مشاعر الدكتور الذي انصدم بعدما سمع الخبر من إذاعة لندن، في حين الإذاعات العربية ما زالت تكذب على الناس.

تأكد ذلك عندما خرج أبونسر وابنه إلى الشارع ليشتري له براد أو بوظة كما أوصى الدكتور، وشوية أغراض ويعود مسرعا إلى الباص، فوجدوا مزاج الشارع قد تغير، واتغيرت أصوات الباعة، حتى بائع الجرائد اختفى صوته الذي به بحة مميزة من كثرة النداء، فلم تعد تسمع صوته، وتسمع أحيانا عبارات لا حول ولا قوة إلا بالله. وتكاد تميز لهجات بعض المدن، فهذا خليلي صادف وجوده بنابلس يقول للنابلسي: «يعني كله على الفاضي، كاااين القاهر والظافر.. وين صاروا؟».

والنابلسي يجيبه: «آآل اتجوع يا سمك.. ايي يخشوا في... ».

انقلب مزاج الناس، تنظر في وجوههم فترى أنها تغيرت وأصبحت محتارة ومذهولة وغير مصدقة ما تسمعه، وبدا الناس خائفين على حياتها وعلى ممتلكاتها، وتقترب وتجتمع حول راديو في سيارة أو في محل،

وتستمع للراديو وتسمع عبارات استغراب باللهجة النابلسية: «معؤول اللي حصل يابا، والله أنا مش مصدء»..

وما لبثت أن وصلت سيارات من قلقيلية وأخذ الناس يسمعون من القادمين الأخبار، فأكدوا خبر سقوطها، وأن الناس تدفن جثث موتاها، ومنهم من هرب واتخذ طريقه للهجرة، فاليوم قلقيلية وغدا نابلس، وجميع البلدات!

وأين سيهرب الناس، فمن هرب من قلقيلة إلى نابلس، فأين سيهرب غدا من نابلس؟ أيهرب إلى أريحا؟ وبعد أريحا أين سيلجؤون؟ إلى شرق النهر!

كانت تلك خواطر تخطر ببال أبونسر الذي توقف في الخان، وقال محدثا نفسه: «البلاد سقطت. خليني أنا ما دمت موجودا في المدينة، أقضي حاجاتي وألحق الباص».

اشترى بسرعة البراد المثلج الممزوج بالشيكولاتة لنصير الذي أخذ يقضمه ويشعر بارتياح في فمه وجرحه المقطوب، وتوقف أبونسر على عجل عند الكنفنجي فاشترى الكنافة، وتذوق قليلا منها وهي سخنة، ولم يطعم نصير لإنه الساخن يؤثر على جرحه مع علمه أنه يتمنى أن يذوقها، فلف له الكنفنجي الكنافة بباكيت وحمله، وهو يقول لنصير: بعد ما تبرد بتوكل.

كان نصير لا يزال يمص ويلحس البراد، وكان رغم الأخبار السيئة والحزن الظاهر على وجوه الناس بعد الصدمة سعيدا بهذه الزيارة التي انتظرها شهورا، والتي كانت سببًا لسلسلة من الأحداث وقعت له منذ أن دفعه والده وأسقطه ارضا، عندما رفض أن يأخذه للمدينة، فكانت المدينة

قد تشكلت في ذاكرته بشكل معقد، فعقدت كثيرا من الأحداث المتتابعة لتلك العقدة، عقدة سلطة الوالد على ابنه.

أما الآن فقد بدت أكبر من القرية، وبها ما لذ وطاب، وأسواق وبراد مثلج، وأصوات باعة، وليس أصوات أغنام وثغاء خراف. حتى الأطفال في المدينة، كانوا يعملون بياعين، فلا يكاد يخلو محل من طفل بعمر نصير يساعد والده في المحل.

في هذا الخضم من جموع الناس كبارا وصغارًا، نساء وبنات، كان نصير يسير مع والده وهو يمارس هوايته بالسمع التي طغت عليها حاسة الشم، فقد شم رائحة الشواء، وقلمتها حاسة الشم، وقد لاحظ والده عليه عندما كانت عيناه تنظران إلى المكان الذي تأتي منه رائحة الشواء، وكان أبونسر هو نفسه يشعر بالجوع، فانعطف إلى محل يخرج منه الدخان والشواء، وشعر نصير بالسعادة عندما اقترب ورأى ما رأى من اللحم الذي يشوى على الفحم، والصحون التي كانت توضع بها أسياخ اللحم والكباب.

فجلس هو والده على طاولة، وطلب والده قطعا من اللحم المشوي وطلب أن يكون معها سيخ ليّة، ولنصير سيخ كباب وصحن حمص، وقال لنصير: «أنت كل الكباب، ولكن خليه يبرد حتى لا يتأذى جرح خدك».

كان نصير لأول مرة يذوق الكباب فقلمت حاسة الذوق عنده طعم الكباب، وقد عوضه ذلك عن الفلافل التي شم رائحتها صباحا، ولم يأكلها.

كانت لذيذة، خصوصا بعد وضع الحمص المدمس عليها، وأحس بالشبع والاستمتاع، وأن أكل المدينة مختلف عن القرية، وتمنى أن يكون من أهلها.

كان صوت الراديو في المطعم مضبوطا على صوت العرب، وأحمد سعيد ما زال يغذي أوهام العرب بالنصر بالرغم من أن الهزيمة هي الحقيقة، فالوهم ما زال مسيطرا على الإعلام العربي الذي ما زال يسيطر على عقول كثير من العرب الذين لا يقبلون الهزيمة أبدا.

خرجا من المطعم واشترى أبونسر الشاي والقهوة ودفاتر أوتومان للف السجائر، وكثيرا من الحلوى والملبس واللبان، وحمل الأغراض ودخل المسجد الحنبلي، وصلى الظهر وخرجا مسرعين قبل أن يسبقه الباص إلى محطة الباصات، وكان الباص قد بدأ يتحرك فتوقف وركبا الباص، وأخذ نصير يمص البراد الثاني قبل أن يذوب، فلقد تحققت أمنيته فزار المدينة، وإن كان مزاج ومشاعر الناس قد تغيرت، وأصبحت أكثر ذهولا بما فيهم شفير الباص الذي خاف أن يعود عبر الشارع إلى القرية، ويكون الجيش في الطريق فيسكر الطريق، أو أن يقصف طيران العدو سيارات الجيش والباص أثناء الرجوع إلى البيت.

سار الباص من الجانب الشرقي للمدينة متجاوزا المقاطعة، وسالكا طريق نابلس القدس مطلقًا زاموره في بعض المرات عندما يقفز أمامه رجل في الشارع، وكان نصير جالسا بجانب الشباك، فيودع المدينة ويشاهد على يساره بيوتا من الصفائح الحديدية الملاصقة لبعضها بعضا، فيسأل والده فيقول له: إنه مخيم بلاطة.

كان حديث الركاب مختلفا عما كانوا عليه وهم ذاهبون في الصباح، كان متشابكا ومتقاطعا مع صوت محرك وراديو الباص، لكنه كان يسمع بعض العبارات فيفهم بعضها «الله ينصر العرب على اليهود»، وكثير منها

لا يفهمه «يصير فينا نكبة مثل هظول»، وكانوا ينظرون إلى نفس الجهة التي ينظر اليها نصير من المخيم «ونسكن في مخيم وننتظر كرت المؤن».

قال السائق: يا جماعة وحدوا ربنا، وادعوا للجيوش العربية بالنصر حتى يقدروا يرجعوا أهل المخيمات لبيوتهم، والله حرام من عشرين سنة وهم ينتظرون العودة.

كان قد تجاوز السائق بالباص السيارات، وأخذ جهة اليسار ليخرج من طريق القدس، وقبل أن يدخل حوارة انعطف ببطء جهة الشرق ليقود الباص في شارع ضيق ومهترئ، فيكون سهل حوارة الذي كان معسكرا للجيش على يمينه، فنظر السائق والركاب إلى جهة معسكر حوارة فوجدوا أن الدبابات والجيش لا يزالون بالمعسكر، وبين الشجر منتشرين، فشعروا بالأمان، فلم يتحرك من في المعسكر لجبهات القتال حتى الآن. هناك أمل بالنصر، وما سمعوه من سقوط قلقيلية كذب وإشاعة من العدو ليضيع عليهم النصر.

بينما الباص يسير ويتوقف عند مفترق طرق وينزل بعض الركاب، والركاب يتجاذبون الحديث عن الحرب، وعن الحصيدة وأحيانا عن سبب القدوم للمدينة، حدث أحد الرجال أبونسر قائلا: «وأنت أبونسر شو جابك اليوم؟ المفروض إنك بتحصد في الغور»، فقال له: «أنا خلصت حصيدة الفْجِم، وبانتظار حصيدة الطويل وجبت الولد عند الدكتور». رد عليه: «سلامته. هاظ ابن الجديدة الثانية».

فقال ضاحكا: «نعم واسمه نصير ولقبه سقف الحيط.. وتربى في الغور وسيده بناديه، فتى الغور».

استمروا بالحديث وتدخين الهيشي بالباص حتى توقف الباص عند يانون، ونزل الراكب الذي ركب في الصباح بنفس المكان، فسأل والده عن المكان، فقال: هي قرية يانون وهي صغيرة لكنها فيها عيون ماء وشجر زيتون، وهي قريبة من البلد.

في هذا الأثناء كان الباص يلف عند راس البياضة، ويطلق زاموره ونصير ينطر من الشباك، فيرى الغور على يمينه وقد اكتسى بحلة صفراء على خلاف ما كان يراه من صخرة الناطوفة عندما كانت حلته خضراء، ورأى عن شماله ومن تحت الباص صخرة الناطوفة من شباك الباص، فبدت صخرة صغيرة. وما هي إلا لحظات حتى توقف الباص ونزل منه جماعة، بينما كان الناس يفسخون أحمال القمح على البيادر والسائق يتذمر من أنه بعد يومين تمتلئ البيادر، فلا يكون هناك محال ليدور الباص عليها، وفي هذه اللحظة سمعوا صوت طائرات تحوم فوقهم في السماء، وتنطلق مسرعة نحو الشرق، فلاحقتها أنظارهم، وكانت أسراب كثيرة وهي عالية ومرتفعة، فظلت الأعناق باخعة لها حتى تختفي. فقال قائل: «هذه من طائرات العدو. أكيد إنها هاربة، ومش عارفة وين تهدي بعد ما قصفت طائرات جيشنا مطاراتهم».

قال أبونسر: «يا جماعة حد سمع راديو لندن، الدكتور إللي كنا عنده بقول إنهم دمروا كل طيارات مصر وسورية والأردن، وإنه دخلوا غزة والعريش والجولان وقلقيلية والقدس. انتو شو بتقولوا، والله ممكن بكرة أو بعده نشوفهم هان».

قال ذلك وأمسك بيد نصير، وحمل الأغراض بيد أخرى، وسارع

مسرعًا فحديثه لم يعجب أحدًا منهم، فسأله نصير: مين اللي بنشوفهم هان؟

قال له والده: اليهود.

أجاب نصير: «يعني اليهودي اللي صورته في محفظتي بدي أشوفه حي وحقيقي أمامي، والله لأذبحه، وأعمل فيه مثل ما عملت بالكلب».

نظر الوالد لخده، وقال الحمد لله ما في ورم، وسأله: «بتوجعك يا ولد».. فأجاب نصير؛ «لا».. وعاد وقال: «شوي».

وسحب الوالد يده ووضعها وهو يمشي على جبينه وقال: «الحمد لله لا يوحد حرارة».. وأضاف: «خليك في البيت، وما تطلع تلقط سبل، ولا تلحقنا على الطويل حتى القطب تمسك، والجلد يبني ويدور الدم فيه، ولا تأكل من جهتها أبدا، ومضمض بالماء والملح بعد الأكل. وهيك أنت خشيت على المدينة، وقضيت شهوتك، وما تقول مرة ثانية بدي أروح معاك».

ثالث أيام الحرب
المناشير

أصبحت البيادر في الأسبوع الأول من حزيران تكبر منذ أن فسخ الحمل الأول، وتم تصفيف الغمور فوق بعضها، وكانت تكبر يوما بعد يوم معتمدة على مقدار حصاد من قاموا برحلة الصيف، فإذا انتهى صاحب البيدر من الحصاد تكوم البيدر، وأصبح كوما كبيرا.

يحذر أصحاب البيادر من السجائر والحرائق، وكانت البيادر مساحة من الأرض الصلدة موزعة في البلدة بحسب الحمايل، فكل حمولة تخصص قطعة أرض في منطقة مكشوفة ومرتفعة قليلا، وتشترك كل عائلات الحمولة ببيدر واحد.

تستمر البيادر بالتضخم من قبل المشتركين بها حتى ينهوا الحصاد في مناطق الغور والمناطق المحيطة بالبلدة، فتصبح البيادر جاهزة ونظيفة لاستقبال الحصاد بمقدار معدل انخفاض المنطقة في الغور، ففصايل كونها الأكثر انخفاضًا تحصد قبل الفْجِم، والفْجِم كونه أكثر انخفاضًا يحصد قبل الطويل، والطويل يحصد قبل المناطق الجبلية بأطراف البلد كونه أكثر انخفاضا من البلد، فالبلد تقع على سلسلة من الجبال ارتفاعها حوالي سبعمائة متر عن البحر، فاذا علمنا أن فصايل تحت مستوى البحر، وكذلك الفْجِم، فإن منطقة الطويل الواقعة ما بين شفا الغور والغور، هي أيضا بمستوى أقل من مستوى البحر.

لقد رتبت النظم الرحمانية طبيعة مناطق الغور على درجات، كما رتب

الرحمن درجات الناس والرسل والأنبياء، ففضل بعضهم على بعض، فمنهم من كلمه الله، ومنهم من أيده بروح القدس، وأعز خاتمهم برسالة الرحمة، فما ينطبق على الرسل والناس ينطبق على نظم الطبيعة، وكذلك كانت الأغوار، كان ترتيب درجات الأغوار بعضها فوق بعض، ربما عندما حرك الرحمن بكلماته وقوانينه الأرض، فأخرجت أثقالها وحملها، فكان حملها قد سقط في حفرة الانهدام، فُولد الغور بأرضه وبحره الميت، وبحيراته الحية وبقاعه ووديانه وسهوله الممتدة طوليا بين قطبي الأرض، ليكون مهد البشرية ومن بعدها الإنسانية، وعلى شفاه كانت رسائل الرحمن وشرائعه تتنزل ليبارك فيها وبمن حولها، ومنها الأغوار.

تقع بلدة نصير، مَصْطَبة، على شفا الغور متدرج الانخفاض، وفي تلك الدرجات رحمة لأهالي الغور، فكوَّنوا فيها قرى ظاهرة للراحة، فسهلت لهم تلك الدرجات قيامهم برحلة الشتاء والصيف على مدار عشرات القرون، فجاءت الحرب لتقطع طريق هذه الرحلات، وتكون رحلة صيفه هذا آخر رحلة صيف.

إن بعض أهل البلد ما زالوا يحصدون في الفْجِم، ومن لا يبيدر في الفْجِم سيضطر لنقل الحصاد للبلد، فليسوا جميعهم مثل أبونسر الذي سبق الجميع وأنهى حصاد فصايل والفْجِم، وبيدر في نفس المكان، وها هو ينتظر حصاد منطقة الطويل، لولا الاستراحة التي أجبره عليها الرحمن، فكان سببا ليذهب نصير للمدينة، ويستريح أبونسر من الحصاد غصبا عنه.

تميز أبونسر عن أهل البلد بأنه يبيدر في نفس المكان، نتيجة طول

مسافة الطريق.

يسر الرحمن لأبونسر أن شقر على منطقة الطويل، فعندما أنهى حصاد ودرس الفلجيم أثناء عودته، عرج على الرَّواع والفَخْت في الطويل، وعاين نضج القمح، فقدَّر أنه يحتاج يومين إلى ثلاثة أيام، فيكون الزرع ناضجا وجاهزا للحصاد، وحمد الرحمن على ما كره من جرح خد نصير، فعاد وأناب وسبح وحمد الرب. درج أراضي الغور فتأخر حصاد الطويل يومين، ليأخذ نصير للدكتور في المدينة، فيحقق حلم نصير ويستغل اليوم الآخر لتخزين القمح في الخوابي بعد إخراج حقه لذوي القربى والمساكين ممن لا أرض لهم، ويقوم بتنظيف البيدر الذي بجانب البيت فهو لا يريد أن يبيدر مع إخوانه وأهل الحارة على نفس البيدر حتى لا تتكرر سالفة حريق البيادر السابقة، عندما حُرق بيدر واحد فاحترقت كل البيادر معه، وكانت كارثة على الجميع.

لقد تخلف أولو بقية من أهل البلدة من الشيوخ والنساء والأطفال، ممن لا يقدرون على الحصاد أو كان لديهم عذر للبقاء في القرية، وليس بالغور للحصاد. وبالرغم من أنهم منشغلون بالحصاد، إلا أنهم كانوا منقسمين بين من هو منتشٍ بوهم النصر الذي تبثه الإذاعات العربية، ومن هو حزين ممن سمع الحقيقة المرة من الإذاعات العالمية، فخلقت أزمة مصداقية للخبر، وعدم ثقة بمصدر الخبر.

كان أبونسر من الفئة الثانية، فإذا أراد أن يسمع الأخبار شغل الراديو على محطة أجنبية، فكانت موافقة لما سمعه من الدكتور بإذنه، وما شاهده بأم عينه من لغة جسد الدكتور، فلغة الجسد لا تكذب وتفضح كذب لغة

اللسان، فقد كان الدكتور يحكي مع زميله في قلقيلية، وكان زميله شاهد عيان على سقوط قلقيلية، ومن يدري فبعدها طولكرم، والقرى الغربية والوسط والشمال والجنوب، ولربما تسقط نابلس اليوم، والقرى الشرقية، ومنها قريتهم مَصْطَبَة والغور من تحتها.

لاحظ أهل القرية أن الباص لم يذهب للمدينة اليوم، فلقد رجع من الثلث الأول من الطريق التي كانت تستعملها مركبات الجيش القادمة أو المنسحبة من المعسكر.

كانت الساعة التاسعة صباحا، عندما مرت من الطريق الترابي بوسط بلدة مَصْطَبَة التي رصفتها النافعة بالكركر، فكانت هذه الطريق على شفا الغور تمتد جنوبا بضعة أميال، وتمر من جانب قرى صغيرة ظاهرة على شفا الغور، وتنحدر من بين الوديان، وفِي متعرجًات حادة، نزولا إلى الغور حتى تصل إلى أريحا، وما بعد أريحا شرقا للجسر المعروف بجسر دامية، الذي سماه الإنجليز بعد ذلك باسم الجنرال الذي عبره مع جيشه من الهنود والأستراليين وغيرهم، فسمي باسمه (اللنبي).

كان الطريق ترابيا وبالكاد السيارات المدنية تسير فيه، فهو مخصص للتركات والتركتورات الزراعية، وسيارات ومركبات الجيش.

كان نصير رغم جرحه، يصطف مع الأولاد وبعض الرجال والنساء الكبيرات والفتيات الصغيرات، على الطريق وتحت أشجار الزيتون، وهم يرقبون المركبات العسكرية وناقلة طويلة تحمل دبابتين معطوبتين، وبقايا الحريق ظاهرة فيهما، وقد توقفت بالجانب السفلي من أحد البيادر الذي كان يشبه الحفرة الكبيرة، بينما صعدت مركبة أخرى من فوق البيدر، وتم

ربط إحدى الدبابات بها لتسحبها، وبنفس الوقت تسير قليلا الناقلة المحملة فتسقط الدبابة بالحفرة محدثة دوي ارتطام سمعه معظم أهل البلد، وتم بنفس الطريقة إسقاط الأخرى في الحفرة. وعلى قارعة الطريق بالقرب من أحد البيادر كان نصير يرقب ذلك حاله كحال غيره من الأطفال الذين وجدوا فيها فرصة للعب والاستكشاف بعدما أخذ الجيش ورتله طريقه جنوبا، فوثب نصير ومفتاح على ظهر واحدة، ودخل مفتاح غرفة الجنود التي كانت مسخمة بالشحبار وآثار الحريق.

سمع نصير المختار وبعض ختيارية البلدة وهم يتكلمون مع القائد الذي نهر الأطفال وطلب منهم الابتعاد عن الدبابات المعطوبة، متعذرا بإمكانية حصول انفجار نتيجة لعبهم في الدبابات، وتجرأ المختار فسأل قائد الكتيبة: «أتتركهما على البيادر؟ فالناس تحصد وتبيدر عليها، فكيف بدهم يبدروا؟».

قال القائد: «لا مش تاركينهم، سنعود وننقلهن، احنا بدنا ننزل من عند بلدكم على الغور، ونطلع على القدس، ومن الصعب أن تنزل الناقلة بهذه الدبابات في المتعرجات والمنعطفات».

طلب الضابط من المختار أن يمدوا الجنود بالمؤن، فلقد انقطع الإمداد عن الجيش!

قال المختار، إن الناس مشغولون بالحصاد، لكنه سيطلب من المؤذن أن ينادي في سماعة المسجد للتبرع بالمؤن للجيش.

سمع والد نصير ذلك، وقال في نفسه: ولدي وكثير من أهل البلد بالجيش، وربما هم يحتاجون الآن للمؤن، وقال لزوجته والكناين أن

يعجن، ويخبزن كميات كبيرة.

قامت نصرة والكنين بالعجين بدون خميرة لأكثر من ساعة، وحمل أبونسر خمس طرحات خبز ولفها بكوفية، وحمل قصة جبن، وأخذ الطريق من جانب المدرسة وقد لحقه نصير والأولاد حتى وصلوا إلى الطريق الترابي الذي يوصل البلد ببلدات الشفا الأخرى والغور، ووصل جمع قليل من الرجال الكبار الذين لا يستطيعون الحصاد لعجزهم وكبر سنهم. ووصلت الحجة فضة ونادت على نصير بلقبه: «تعال يا سقف المغارة ساعدني»، وكانت تحبي على عصاة قصيرة، وتحمل تحت إبطها صرة، فأمسك يدها وسارا ببطء نحو رتل الدبابات وهي تقول له: «أنا قطعت صرتك في المَداحِل، ولما جابك أبوك ميت حممتك في المغارة، وسبحان الله يحيي الموتى وهيك ماسك بيدي».

تفاجأ مما قالته وأراد أن يسأل والده الذي سمع ما قالت الحجة فضة، فقال أبونسر له: صحيح الحجة قطعت صرتك، مليح إنها مذكرة بس ما تصدق ما قالته، هاي بتهلوس!

تعجب نصير من جواب والده، فقد سمع طراطيش أخبار تشبه ما قالته الحجة فضية، وقطع تعجب نصير أن شاهد على يمينه أبوالسوالف الذي ضرب المعلمات على سيقانهن، كان يشوح بعصاه للجنود ويقول لهم: «خذوني معكم إلى تل أبيب لأتزوج من السبايا اليهوديات»، وكان يتقدم نحو رتل المركبات العسكرية والجيبات وحتى الموتور سيكل التي اصطفت في الطريق الترابي، فقام أبونسر بتسليم الخبز والجبن لضابط في سيارة الجيب، وكان هناك رجال كبار ولحاهم بيضاء أيضا يقدمون المؤن

من زيت ولبن وخبز وزيتون وماء، ويصبون لهم الشاي ويدعون لهم بالنصر والسلامة.

كانت الحجة فضية قد وضعت عنها شالها، واكتفت بشماغ أحمر كانت تظهر منه بعض جدائلها البيضاء، تقدمت نحو الضابط ومدت له صرة وقالت:

«يا ابني ما أنت مثل ابني محمود، أنت ما بتعرفه. هو شاويش عندكم في الجيش، خذ هذه تحويشتي، وأنا الآن مياتي على النار، فخذ مالي في سبيل الله».

رفض الضابط أن يأخذ ذلك، وقال لها: «خلي مالك لك يا حجة، فالجنود يحتاجون الأكل وليس الذهب والفضة».

كانت الروح المعنوية للجنود مرتفعة وهم يتلقون المساعدات من أهل القرية، وقد سمع نصير أحد الجنود وهو يحمل قصة الجبن وفوقها طرحات خبز الطابون، وهو أول عجنة من موسم فصايل للسنة، وهو يقول بصوت مرتفع: «ما زال الخبز ساخنا، خلي هالجنود يكسروا السفرة، فلم نتناول شيئا منذ أمس». وقال بصوت مرتفع: «إن شاء الله منصورين اليوم، بنلف على القدس، وبكرة وبعده في تل ابيب».

ما إن أنهى كلامه حتى سمع نصير وأبونسر والعجوز والمتقاعد فهيم والمختار والجنود، وكل من كان يقف على جانب الطريق، صوت طائرة في السماء تقترب من وسط البلد، فما كان من الجنود إلا أن أوقفوا المركبات تحت أشجار الزيتون، وطلب القائد منهم الانبطاح على الأرض، وطلب من كل الحضور التفرق والاستلقاء تحت الأشجار، وأن

لا يرفعوا رؤوسهم، وقام الجنود بتحريك المركبات بما في ذلك مدفع كانت تجره ناقلة جند.

لقد كان هذا اليوم الثالث للحرب، يوم الثلاثاء، وكان أبونسر هو الوحيد الذي أنهى حصاد فصايل والفلجيم، بينما معظم أهل البلدة في الغور يحصدون، ومنهم من يفرغ جمالاته من القمح على البيادر.

كان الصوت صوت طائرة حربية إسرائيلية مرت من وسط البلد، وحامت على ارتفاع منخفض فوق البيوت والجامع، وكان أبونسر ونصير والجنود يشاهدونها بالعين المجردة، وهم مختبئون تحت أشجار الزيتون والضابط يقول: «خليكم تحت الشجر. وانت يا شيخ اقعد! وما حدا يمشي أو يقف حتى لا يقصفونا. هذه طائرة من طائرات العدو».

رصد أهل القرية الطائرة، فلم تلقِ قنابل أو قذائف، ولم تطلق أي صاروخ على مركبات الجيش، بل ألقت ونثرت أوراقا ومناشير تطايرت فوق البيوت وفي الشوارع ودارت دورة طويلة بشكل دائري، وقفلت مغربة واختفت بعد ذلك.

وما هي إلا لحظات حتى أحضر مفتاح ورقة من الورق الذي أسقطته الطائرة، فأخذه منه الضابط، وقال هذا منشور من جيش الدفاع الإسرائيلي. وصاح بالأولاد والحضور وقال اجمعوا المناشير ومزعوها واحرقوها!

استطاع أبونسر أن يأخذ منشورا واحدا، ويقرأ بصوت يسمعه نصير وأبوالسوالف وفهيم، وهو يقترب من الضابط الذي سلمه المؤن، وإذا بالمنشور مكتوب بالعربي: «باسم جيش الدفاع الإسرائيلي، ندعو جنود

وضبّاط الجيش الأردني لإلقاء السلاح والاستسلام، والنجاة بأرواحهم، ولا فائدة من المقاومة، لأن جيش الدفاع قادم لا محالة».

أمسك أبوالسوالف لحيته بيده ونتفها، وضرب عصاه في التراب حتى غرسها به، وقال بصوت مرتفع: «كيف ربنا بدو ينصرنا واحنا سمحنا للمعلمات المفرعات والكاشفات عن شعورهم والرجلين يدرسن بناتنا، فكيف بدكم ربنا ينصرنا، هاظ سبب الهزيمة، والعذاب لأهل القرى»، وأضاف وهو يوجهه كلامه لفهيم وأبوالحكم: «أنا مش قلتلكم!».

عندما سمع ذلك فهيم قال: «ما في حل إلا بعودة الخلافة».

كان فهيم رجلا في العقد السادس من عمره، ومتقاعدا من حرس الحدود الإنجليزي، وكان لا يلبس الكبر بل البنطلون والقميص والجاكيت، وكان حليق اللحية مع شوارب خفيفة، وقد بدأ حياته يتيما ربته عمته، ودرس في الكتاب وبعد ذلك في المدرسة، فلما بلغ عمل قطروزا لأهل القرية لرعي الاغنام، وبعد ذلك عمل كراعي، وترك رعي الاغنام والتحق بحرس الحدود، وكان مجتهدا ومخلصا، وتدرج حتى أصبح كابتن.

كان أهل البلدة يحترمون رأيه وتنظيمه وترتيبه لأعماله اليومية، وكان يجتمع مع مدرسي المدرسة الذين قدموا للبلدة وسكنوا فيها في أحد البيوت الملحقة ببيته، فكانوا يجلسون في المساء تحت اللوزة، ويصلون المغرب جماعة، ويؤم بهم الأستاذ أبوموسى الذي كان عضوا فعالا في أحد الأحزاب، ويطلقون على أنفسهم أنهم تحريريون، وقد انضم إليه فهيم وآخرون، وكانوا يحللون الوضع السياسي ويحبون التنظير.

كان قد سمع فهيم سؤال أبونسر وجواب الضابط الذي أمر أحد مساعديه بالاستعداد للحركة بعد أن اختفت الطائرة، فقال فهيم متفلسفا على مسمع الجميع والضابط: يعني الجهة الشرقية الجنوبية من نابلس مكشوفة، وأضاف: نابلس واد بين جبلين، والها مدخلين، واحد من الشرق من المخيمات وبجانبها المعسكر إللي انتوا جايين منه، والثاني مدخل وادي التفاح.

اقترب منه الضابط، وقال إن الإخبار التي سمعها أن الجيش قاوم صباح اليوم في وادي التفاح، لكن للأسف!

قال فهيم: معنى ذلك أنهم سيدخلون نابلس من الشرق لإنه ما في جيش في المعسكر.

أعطى فهيم ما بيده من مؤن لأحد الجنود، ومزق المنشور، وقال لمن حوله: إذا دخلوا نابلس اليوم، فيمكن بعد أسبوع يدخلوا البلد، ويجي الدور عليها، فالقرى حول نابلس كثيرة وبلدتنا مَصْطَبة أبعد بلد عنها.

قال أبونسر لفهيم مستفهما وهما يعودان أدراجهما، ونصير يتحسس خده ووالده يمسك بيده: معقول ربنا ينتقم منا، ويسلط علينا اليهود بسبب المعلمات السافرات.

رد فهيم وهو يبتسم: وكمان من ما أجى المدرس عايش الذي يعلم الطلاب على الاشتراكية، والناس بتقول عنه شيوعي لا يؤمن، وأضاف فهيم: وانت تعرف هاي الشيوعية بتقول ما في دين.. والدين أفيون الشعوب.

عاد فهيم ليتكلم بمنطق حزبه: «ممكن أنا كنت مخطئا أمس عندما

قلت إن هذا اللواء سيذهب إلى الخليل، فبعد ما سمعت من الضابط وما قرأت في المنشور، فإن الجيش سيقطع النهر ويرابط شرقي النهر، فالنهر حاجز جغرافي، فأنا خدمت مع الإنجليز، والإنجليز أعطوهم لليهود كل فلسطين». وتنهد وقال: «يا أبونسر، من اللي سمعتوا وشفته، فلسطين راحت كلها راحت».

قال أبونسر: أمس سمعت ذلك من الدكتور.

رد فهيم مستذكرا مبادئ حزبه وساخرا من القومية: هاي نهاية القومية العربية والاشتراكية، ظلوا ينفخوا في ناصر وصدق حاله، وغرروا فيه السوفييت. احنا غير الخلافة الإسلامية ما في حل لكل مشاكلنا ومشاكل العالم الإسلامي، أنا سمعت الأخبار من الإذاعات الأجنبية، الضفة وسيناء سقطت حتى الآن، وكلها بيد اليهود!!

كانوا يسيرون؛ فهيم وأبونسر ونصير، وفهيم ينظر ويحلل، وفجأة غير موضوع الحديث مع أبونسر قائلا: سمعت إنك بدك تبيدر قمح الطويل على بيدر البيت، أنا عندي هالقرطة في الطويل بدي أنزل احصدها، وببيدر مكانك في البلد.

رد أبونسر: حلت البركة، أنا بكرة نازل حصد في الرَّواع بالطويل.

وقبل أن يفترقا قال أبونسر لفهيم: بالك بصير في الناس مثل ما صار في النكبة وبهاجروا؟

قال فهيم: «هذا وارد خصوصا النسوان، فمن كان زوجها في الجيش ستلحق به، ومن كان من الخائفين كذلك سيهاجر»..

رد أبونسر: «انت شفت المهاجرين واللاجئين كيف عايشين في

المخيمات؟». واضاف أبونسر وهو يودع فهيم قابضا على يده بقوة ويقول: «أنا من داري ما بطلع، وبكرة رايح أحصد في الطويل، ومن هل المراح ما في رواح».

ابتعد فهيم عدة خطوات وهو يقول لأبونسر: «ما أنت صرت مضرب مثل بالسرعة والسبق، أنا مستحي منك، وانت عارف الموسم الماضي كان تعبان، وراتب التقاعد متأخر من شهرين، فبدي نص طحنة من قمح فصايل، وبردها لك إن شاء الله على البيدر».

قال أبونسر: حلت البركة وخليها تذويقة لخير السنة، وما بدي تردها.. أرسل واحد من الأولاد أو تعال معي الآن!

ورافقه للبيت، وكان نصير يسير وراءهما ويستذكر أحداث الأمس واليوم، وما رآه وما سمعه، وذاكرته تسجل وتخزن الأحداث التي تقع، وكانت كلها محدثة وجديدة، وقد نسي الخزق في خده، فما زال مشدودا تحت اللصقة، ولا يأكل إلا على الجهة الثانية، ويتمنى أن يمضي الأسبوعان كما قال الدكتور حتى يفك اللصقة عن خده ويفك الغرز، ليرى هل التأم الجرح، ولم يترك ندبا على وجهه، كما تركت عضات الكلب من قبلها ندبا في وجهه.

وهم الغارة

اعتاد نصير أن ينام في النافذة فهو في معزل عن قرقعة البيت. استيقظوا في الصباح، وبالرغم من شعور أبونسر بالأسى والحزن على ما يحصل في الحرب، فلقد نوى هذا اليوم أن يكون أول الحاصدين في الطويل، فسرى وابناءه على الرَّواع في الطويل، وهم يسبّحون بحمد ربهم، وأخذوا الحمارة والبغلة بعد أن تم تجهيزهما بالحمالات الخشبية، وقليلا من الأغراض من مناجل وزق لبن وخبز الشراك، وقليلا من الطحين والزيت والزعتر، وسعن ماء، وخربوش خفيف من الخيش.

إن من سيقومون بالحصاد أبونسر وأبناؤه: باسل وحمامة كحصادين مساعدين له، أما باسل فيسوق أحمال القمح المحصود على البغلة والحمارة للبيت، ويجب أن ينقل أربع نقلات في اليوم، وسيقوم كل يوم بنقل ثماني حمالات من قمح منطقة الطويل إلى بيدر البيت.

كانت الشمس قد ارتفعت في ضحى هذا اليوم، وخفت حركة أرتال الدبابات من طريق البلدة المؤدية إلى الغور، نهض نصير، وهو يتحسس اللزقة على خده، وبعد أن سلقت أمه البيض قطعته قطعا صغيرة ليتمكن نصير من أن يمضغها من الجهة السليمة من فمه، وما كاد يشرب الشاي البارد حتى كان باسل يفتح البوابة ليفسخ الحمل عن الدواب، فقد صلى أبونسر الفجر على راس معنّاة الرَّواع، ونصب الخربوش، ووضع الماء والمونة في ظل الخربوش، وسمى باسم الرحمن حاصدا لزرعه، هو وابنه

الكبير باسم الذي أكمل صف أول إعدادي، وأخته حمامة التي تنتظر خطيبها ليأتي من الكويت. وما إن طلعت الشمس حتى كان يحمّل ما حصده الحمير، ويسوق باسل البغلة والحمارة معا، ويسوقهما قاطعا الطريق، وصاعدا بهما العَقَبة، وكان هو أول الصاعدين في قوافل الحمالات.

وصل إلى البيت في الضحى، وفسخ الحمالات، وهبَّ نصير الذي أنهى للتو فطوره لمساعدته، فما إن يفك أخوه الحبل عن الغمر حتى يحمله نصير بين يديه، ويضعه في زاوية البيدر، فيركمه على بعضه، حتى إذا انتهوا، قال له باسل: خذ الدواب لحوض البئر ليشربوا، وأنا بروح أفطر، وإذا ما في بالحوض مي، ملي بالدلو وخليهم يرووا، الدنيا اليوم شوب، وبدي ألحق انقل اليوم أربع نقلات حتى أحصل على الشلن، كما وعدني أبي.

مضت عشر دقائق، شربت الحمارة والبغلة، وما زال باسل يتناول فطوره، فأنزل نصير الدواب عند البيدر، ولم يكن شقيقه جاهزا ليسوقهما وينزل إلى الغور، فاغتنمت الدواب الفرصة على حين غفلة من نصير، فأكلت غمرا من البيدر، ولما تنبه نصير لذلك، تركها تأكل مع أنه عارف أنه ممنوع عليها أن تأكل القمح، لكن غورانيته جعلته يعتقد أن من يشارك في عمل حتى لو كان حيوانا، فيجب أن يكون له جزء مما يعمل، وهذه الدواب حملت حمالات القمح، ومن قبل ذلك حرثت مسخرة ما زرعوا، فلماذا لا تأكل؟

قال نصير محدثا نفسه: إن كنتَ قد غافلتني وأكلت، فلتأخذ غمرًا من هذا البيدر.

إن التبن هو أكلها، وإذا ما أرادوا أن يحرثوا أو يحملوا حمالات أو أثقال أخرى أو أن يدرسوا عليها، رشوا لها على التبن كبشة شعير، وقال نصير: إن أبي لو كان مكاني لفعل ما فعلت، أولم أشاهده يخرج الصاع العاشر عندما يكيل تسعة أصواع من الصليبة؟

إن غورانية نصير هي بين الفطرة وسلوك أهل الغور، وقليل من سلوك أهل القرى الجمعي، وتأبى غورانيته إلا أن تزيد في الحسنى للذين أحسنوا، وقال: فلياكل الطير والدواب، فذلك حق لهم، سواء أكانوا يحملون رزقهم أو لا يحملون.

شاهد نصير باسل يخرج من تحت التينة بعد أن قضى حاجته، فلما شاهد الدواب تأكل من البيدر، صاح على نصير، فقام نصير بسحبهما من رسنهما، وأخفى ما أكل من سبل تحت الغمور الصالحة، وسحبها إلى قاع البيت ليخرجا ويعود باسل ليحضر حملا آخر، وقد سمعا والدتهما نصرة تقول بصوت مرتفع: «لا تأخذه معك، خليه يرجع هاظا مريض».

قال: لا تخافي برجعوا من عند منطقة الأجور.

خرجا وركب باسل على البغلة ونصير على الحمارة، وتفاجأ بمفتاح مع مجموعة أولاد يرافقونهم ليلقطوا ويجمعوا السبل الواقع في الطريق.

وصادفوا رتلا من ناقلات الجند تمر من وسط البلد. قال نصير لأخيه باسل: تعرف إنه أبوي أمس أعطاهم قصة جبنة وطرحة خبز من قمح

فصايل، وأهل البلد أعطوهم المؤن.

لم تتوقف المركبات، وكانت مسرعة يتقدمها جيب صغير، ودراجة بثلاث عجلات.

أمسك باسل برسن الحمارة، وقال له: «انزل وروح على البيت، وما تظلك طاش في البلد»، وركب باسل على البغلة، وقاد الحمارة من ورائه.

تقدم مفتاح من نصير قائلا: شو صار بخدك، تعال معنا، نلقط ونجمع سبل.

فقال نصير له: «لازم أرجع على البيت»، وأضاف: «أبوي أخذني على المدينة عند الدكتور»، وقال له متفاخرا: أنت عمرك خشيت على المدينة؟

وأخذ يحدثه عمّا رأى وما أكل والدكتور والبراد والبوظة، فتوقف مفتاح ومن معه ليستمعوا من نصير، وعادوا أدراجهم معه تجاه البيت، وهو يقص عليهم ما رأى في المدينة وهم مستغربون، حتى قال مفتاح: «طيب أنا بخزق نيعي حتى أروح، بس مين يأخذني، ما أبويا مسافر في أمريكا وما رجع».

وصلوا إلى الحارة، وأخذوا يتجمعون ويلعبون تحت الزيتون على البيدر المجاور الذي ما زال فارغا لم يتم استعماله أو إشغاله بالحصاد.

كانوا يلعبون وكان نصير حذرا حتى لا يقع، فيأتي على خده ويفسد القطبات، وتصادف أثناء لعبهم أن سمعوا دبدبة وأصواتا تشبه أصوات الدبابات التي شهدوها في الأجور، فعرفوا من تلك الاصوات أنه احد المجانين المعروف بـ«دبدوب»، وهو ليس مؤذيا، فما إن شاهدوه حتى

صاحوا: دبدوب شفت الدبابات؟

رفع يديه دبدوب وضحك ولم يكلمهم، بل كلم نفسه بصوت مرتفع وهو يقترب منهم مقلدًا صوت الطائرة التي رمت المناشير، وأصوات الدبابات والتراكتور، وأخذ يركض وهو يبجبج بصوت ضربات المدافع، وكانوا يضحكون على تلك الأصوات ويلحقون به، وهو متوجه جهة الزيتون في النزل، ويثني رأسه نحوهم قائلا لهم: «ارجعوا وإلا بخلي الطيارات تقصفكم، روحوا اهربوا».. وأصدر أصواتا متتابعة تشبه صوت الطائرات.

بينما هم يتابعونه وقد اختفى بين الزيتون، صادفهم ثلاثة رجال لابسين لباسا عسكريا، وبدون سلاح وكانوا متعبين، حتى إنهم رموا أنفسهم تحت ظل زيتونة بالقرب من ساقها، وبعضهم جلس متربعا وبعضهم استلقى، متكئا على كوعه.

ما إن شاهدوا الأولاد حتى نادى أحدهم: «يا أولاد جيبوا لنا ماء وأكل من أقرب بيت»، واستطرد قائلا: «أنتم ساكنين هون؟».

التفت الأولاد حولهم، وهم مستغربون من وجود ثلاثة أفراد من العسكر بزيهم العسكري بحالة بائسة، ولا يحملون سلاحا. وقد طلبوا الماء والأكل، وهو ما دفع نصير ومصباح أن يذهبا إلى المنزل، ويخبرا أهلهما، فاستفسرت زوجة نسر منه: «لا يكون حد كان معهم من البلد أو إنه يمكن شافوا زوجي. ما حدا سألهم»، وقامت بملء إبريق الماء، وقالت: خذ إبريق الماء وروح قل لهم: إن أهل البيت بحضروا لكم

الأكل.

خرج نصير واتجه للنزل، فإذا بصاحب البيدر جارهم الذي كانوا يلعبون فيه ويدعى مجاهد، قد فسخ أول حمالة قمح عليه، وربط الحمار في الزيتونة، وأدار ظهره فرأى نصير يحمل إبريق ماء وكيلة فقال؛ «لمين هاظ يا ولد؟ هات اسقيني».

قال نصير: للعساكر

أجاب مجاهد: أي عساكر يهود أو عرب؟

قال نصير: هما لو كانوا يهود بجيب لهم مي، وبوصي أمي تعمل لهم أكل؟

وسأل مجاهد نصير: وينهم يا ولد؟ استنى بروح معك وفرجيني إياهم.

سار مجاهد معه، ونزل قطانين زيتون، فوجد ثلاثة عساكر تحت ظل الزيتونة وقد أرهقهم المشي، والإعياء والجوع ظاهر عليهم. قال مجاهد طارحا السلام، وقائلا: «قوكم يا عرب».

ردوا عليه وهم يلتقطون البريق من نصير ويشربون: تحيا والدوم، وسأل أحدهم: شو اسم هذه البلد؟

قال لهم بصوت خافت لم يسمعوا أول كلمة خرجت منه: مصط.. ام السبع حمايل.

لم يسمعوا اسم البلد، لكنهم سمعوا أنها أم سبع حمايل، ولم يطلبوا منه أن يعيد ما قال، فذلك شيء يتحاشاه الغريب، ويقبل بأي شيء.

قالوا: ما وصلوا لكم اليهود.

احنا قاطعين الجبال والوديان من مسافة بعيدة، ومتوجهين إلى شرق الأردن بعد ما انسحبت الجيوش، وقادمين من منطقة الكرنين على الخط الأخضر، وأضاف: احنا اللي كنا على مدفع الكرنين، وقصفنا فيه تل أبيب، بعدين الطائرات دمروا المدافع والدبابات، واستشهد منا خمسة، واحنا ما ظل معنا ذخيرة وتموين، وما قدرنا نلحق كتيبتنا ولا قدرنا ندخل المدن، وكان العدو أسرع منا، وكل ما نيجي على بلد نطلب ماء وأكل، نلاقي العدو سبقنا واحتلها ومنع التجول، وكانوا يقتلوا كل عسكري يصادفونه حامل السلاح.

بعد ما انتهوا من شرب الماء قال كبيرهم، وكان على كتفه شرايط:

انتو متاكدين إنهم اليهود ما دخلوا البلد عندكم؟

قال نصير: اجت طيارة امبارح، وكان الجيش ينسحب، بس ما ضربوا عليهم، ورمت الطيارة ورق كثير.

نظر مجاهد لنصير وقال: أنت قلت لأهلك يعملوا أكل؟

أجاب نصير: آه.

فقام مجاهد: يا رجال خليكم قاعدين عبين ما أشوف شو في الدار من أكل وأحضره لكم.

ذهب مجاهد ونصير، وقطعا البيدر، وقال مجاهد لنصير: شوف إذا أمك أعدت وخلصت الأكل، فنادي علي حتى أحمله، ودخل نصير، ووجد أمه وسلفتها قد جهزن صينية أكل، وعليها صحن لبن وصحن

زيتون، وراسين بصل، وصحن جبنة وثلاثة أرغفة طابون، وإبريق شاي.

فقال نصير لها إن جارهم مجاهد ينتظر عند البيدر، فحملت الصينية وحملت سلفتها إبريق الشاي والكاسات إلى خارج البوابة.

ونادى نصير جارهم مجاهد، فحضر وحمل الصينية، وحمل نصير إبريق الشاي، وذهبا ليطعما العسكر.

وصلوا إليهم، وما إن وضعوا الصينية أمامهم حتى امتدت أيديهم مسرعة للخبز والأكل، فدارت دوراتهم الدموية، وأخذوا يأكلون، ويحدثونهم عمّا رأوا، ويسألون أبومجاهد عن أي لباس مدني، يبدلونه بلباسهم العسكري، فذلك أكثر أمنًا لهم، ويستطيعون أن يواصلوا طريقهم دون خوف وترقب.

أجاب مجاهد إن رجال البلد في الحصاد مشغولين، ولكن سيسأل مين عنده كبر أو بنطلون وقميص زيادة.

قال أحد العساكر وقد شعر بالأمان، وأراد أن يبدي النصح لهم، بعد أن تمت استضافتهم: شوف أبو إيش المحروس..

قال مجاهد ولم يكن لديه أولاد ذكور: أبوآمنة..

قال العسكري وكان في العقد الثالث من عمره، وكان طويلا، وحنطي البشرة، وشواربه قصيرة، وشعر لحيته لم يحلق منذ أسبوع، قال: «اللي عنده سلاح يخبيه خارج البيت، فلقد سمعنا من أهالي القرى أن اليهود إذا دخلوا أي بلد بفتشوها بيت بيت، ومن يجدوا في بيته سلاحا ينسفوا بيته».

بينما هم يأكلون ويلتف الأولاد حولهم، وقد زاد عدد الأولاد، وكان

أبوآمنة يتحدث معهم، سمع الجميع صوت طائرات تهدر من مكان قريب، لكنه كان متقطعا، وكانوا في ذلك الوقت قد انتهوا من تلحيس الصحون بآخر لقيمات من الخبز، وقد مصوا إبريق الشاي بكاساتهم، وأفرغوا ما في إبريق الماء في بطونهم، وما إن سمعوا الصوت الذي يشبه صوت الطائرات حتى اختلف لونهم، ونظر كبيرهم في السماء من بين أغصان الزيتونة الرومانية، ليتاكدوا من الصوت، فلم يروا شيئا، لكنهم وتلقائيا رجعوا فالتصقوا بقرمبة الزيتونة، وقال كبيرهم بصوت مرتفع: «يا أولاد اذهبوا وتفرقوا، وانبطحوا على الأرض تحت الزيتون، أحسن ما تقصفنا الغارة بصاروخ، هذا صوت غارة لطائرات العدو».

انبطح الجميع، إلا نصير الذي كان يجلس بعيدا على رأس القطان، فنظر إلى أسفل القطان، فطل رأس المجنون دبدوب، وظهر لنصير وحده من بين نباتات العُلّيق المتسلقة على سنسلة القطان، يدان مرفوعتان فوق رأس رجل غير مغطى بكوفية، فلما ظهر كامل وجهه عرفه نصير، ولهذا السبب لم ينبطح، رغم أن ترددات الصوت الذي يخرج من شفتي دبدوب كانت اقتربت منهم أكثر فأكثر، والعسكر قد التصقوا بالأرض وكذلك أبوآمنة، وباقي الأولاد.

كانت غارة دبدوب عليهم مفاجئة، فهو يحسن ليس فقط تقليد الأصوات للدبابات والرشاشات والطائرات، بل أيضا أصوات القذائف ودوي الانفجارات، وأصوات الضجيج، حتى إنه يقلد أصوات طلقات القذايف، فيتوهم السامعون والذين لا يعرفون دبدوب، بأنه هناك معركة

حقيقية، فينبطحون على الأرض أو يهربون. أو إذا كان لديه سلاح، فإنه سيطلق النار في الهواء على عدو غير موجود جعلت الأصوات منه عدوا موجودا، وما هو في الحقيقة موجود، وهذا ما جعل العسكر يتوهمون ويعتقدون أن الأصوات الخارجة من حنجرة دبدوب ما هي إلا أصوات حقيقية لغارة طيران عليهم.

نهض نصير، ووقف وهو يضحك والعسكري يقول له: اقعد يا ولد، قبل ما يشوفك كهدف متحرك، ويقذفوا عليك القنابل.

فقال نصير: هاظ صوت الهبيلة دبدوب، وهو تحت القطان بين العليق، قاعد بتهبل وبرفع إيديه وبطلع أصواته.

أدرك أبوآمنة جارهم ذلك، ووقف وهو يمسح التراب عن كبره وقال: والله نسيت إنه بقلّد الأصوات، أنا من زمان ما شفته بالحارة، وأضاف: شو جابوا على حارتنا هاظ؟

ظهر دبدوب على الجميع، وهو رجل ضخم الجثة وعريض المنكبين، وفي العقد الخامس من عمره، وثيابه رثة ولحيته وشواربه طويلة، وقد بدأت تتخضب بالشيب، ويلبس لباسا يشبه لباس العساكر. ظهر وقد توقفت حنجرته عن المعركة، وبدأ يهز رأسه لهم، ويبتسم وأسارير وجهه ضاحكة ضحكة المنتصر الذي يشعر بنشوة الانتصار التي جعلت منهم يقفون، ويكتوا التراب عن لباسهم بعد أن تمرغوا بالتراب، فلقد خوفهم بالصوت الذي يقاتل به عدوا خفيا سكن في دماغه نتيجة ضربة من ضربات عصا والده على رأسه لخبطت خلايا السمع والإدراك لديه،

وحفزت حباله الصوتية، لتنتج أصوات مدافع وطائرات ليقاتل بها من ضربه على رأسه، بسبب أن أخاه الصغير وقع في البئر، ولم يرقبه ويحفظه.

جلس دبدوب غير بعيد دبدوب واقترب منه نصير، وقال له: أروح أجيب لك مي وخبز.

هز رأسه دبدوب وتوقف عن إخراج الأصوات والضحك واكتفى بالابتسام، فارتاح العسكر، ونهض الجميع، وقال كبير العسكر لأبي آمنة: «بدنا لباس مدني، وطريقنا طويل، والمناطق خارج القرية مكشوفة على طيران العدو إذا شافتنا غارة، برموا علينا قنابل».

أجاب أبوآمنة: «أنا بدي أرجع على الغور، أجيب كمان نقلة. بشوف عندي في البيت إذا في ملابس مدنية وبحضرها معي، وبعدين إذا حبيتوا تلحقوني عن بعد، فراح أدلكم على الطريق، وممكن تلحقوا رتل الناقلات الذي مر من البلد اليوم، فسوف يلف على الغور ليقطع الجسر، وممكن تلاقوهم عند طريق أريحا نابلس وتركبون معهم».

لقد كانوا يعرفون المخاطر التي قد تصيبهم إن لم يتخلصوا من ملابسهم العسكرية، فلقد رجوا أبوآمنة أن يحضر لباسا مدنيا، ويتخلصوا من لباس الجيش، فلا يكونوا محط رصد لطائرات العدو.

في هذا الأثناء كان المجنون دبدوب قد تقدم من مكانه نحوهم، وقد عاد لإصدار الأصوات بهمهمة ومتطلعا في الصينية وما بها من الصحون ويقول ضاحكا بصوت متقطع: خلصت معركة الأكل.

غادر دبدوب المجنون المكان وهو يضحك، وحنجرته قد بدأت

معركة جديدة فيطلق الأصوات بحدة ويقول: «عبي واضرب»، ويرد على نفسه: «حاضر سيدي». ويخرج أصوات متوافقة مع حركة يديه، متخيلا أنها تمسك بارودة أو مسدسا.

سار دبدوب، وهو يشرح بيديه بالهواء وقسم من الأولاد يلحقونه.

تهيأ العسكر لمواصلة السير بعد أن وصف الأولاد لهم الطريق، وشكر الشاويش نصير على الضيافة، وأوصاهم إن كان عندهم سلاح أو لباس عسكر أن يدفنوه قبل أن يأتي اليهود، ويهدموا البيت الذي يعثرون فيه على فشقة أو لباس أو حتى حزام عسكري، فلقد شاهدوا ذلك يحدث في القرى المحاذية للخط الأخضر، وقاموا وتوجهوا شرقا مودعين الأولاد، وقام نصير ومفتاح بحمل الصينية والأباريق، وهي فارغة، وأرجعوها إلى البيت، وسألتهم زوجة نسر: «ما سألتهم عن أخوك نسر إذا كانوا يعرفوه أو شافوه أو حي أو ميت؟».

فقال لها نصير: «قالوا لي إذا في بارودة أو فشقة أو ملابسه العسكرية أو بسطاره أو أي شيء يدل أن البيت في واحد منهم مع العسكر، خبوه أو تخلصوا منه»، وأعاد ما سمعه مؤكدا: «هيك سمعتهم يحكون لجارنا مجاهد، فاليهود سياتون ويفتشون الدور، ويهدون البيت اللي فيه فشق أو خرطوش».

ذهبت زوجة نسر مسرعة تخبر خالتها نصرة وسلفتها، وما لبث أن انتشر الخبر في كل القرية، فبدأت الناس تفتش بيوتها، ويدفنون الثياب، وحتى الكتب والمجلات التي بها صور عسكر، وأخرجت سلفتها زوجة

حافظ الكويتي من تحت التخت أعدادا من مجلة العربي التي أحضرها حافظ عندما حضر من الكويت، وطلبت من نصير الفأس، فحفرت تحت التينة حفرة ودفنتها، وجاءت سلفتها زوجة نسر، لتدفن قميص وفانيلة لونهما جيشي، وقشاطا أخضر وطلقات خرطوش، وعلبة بويا لتلميع بسطار زوجها.

بعد ما رأى نصير هذا المنظر، أحس بأن خده يؤلمه، فقال لأمه، فأجابته: «إنه الجرح بلش يطيب. اذهب واسترح في النافذة فهي باردة»، فاستلقى في نافذة البيت العقد على ظهره، وبدأت عيناه يغالبهما النوم، وقبل أن يدخل في سبات النوم وقع نظره على الحائط المقابل، فرأى نصف صورة وجه ناصر. وتحسس محفظته التي تضم صورة اليهودي التي انطمست معظم ملامحها بسبب سرقة المحفظة منه من قبل الولد الأبرص، ورميها في إحدى المزابل، وطمرها بالزبل، والعثور عليها بعد ذلك بالصدفة، وعودتها إلى جيبه، فتثاءب مرتين، ودخل في سبات عميق.

9 حزيران 67
منع التجول

كبر البيدر، وارتفع غمور القمح في زاوية البيدر، وتعدى ارتفاع السنسلة، وكاد أبونسر وباسم وحمامة أن يخلصوا معنّاة الرَّواع، لينتقلوا بعدها إلى الفَخْت، وباسل ينقل يوميا أربع نقلات، ويفرغهن على البيدر، والبيدر يكبر، ونصرة وكناينها يجهزن الزوادة كل ليلة لهم ليحملها باسل وهو نازل، ولم يكن هم أبونسر كهم معظم باقي أهالي مَصْطَبة الذين أصبح همهم سقوط البلاد، فغطى على همومهم الشخصية وعملهم وحصدهم لقمحهم، فبعدما عاشوا أوهام النصر ليوم واحد، فإذا الهزيمة حقيقة لثلاثة جيوش عربية تنقهر وتنسحب من أمام من كانوا يسمونهم عصابات صهيونية.

كان معظم الناس قلقين على مصادر رزقهم، وعلى الحصاد الذي يريدون أن ينهوه قبل ما يدخلوا عليهم جنود الاحتلال.

كانت بلدات شفا الغور، أو كما يسمونها المشاريق، ومنها مَصْطَبة، من القرى التي لم يدخلها جنود الاحتلال، فأهالي مَصْطَبة مترقبين دخولهم بعدما سمعوا كثيرا من الأخبار من القرى والمدن التي كان اليهود قد دخلوها، فكانت الأخبار مقلقة وتخوف الناس، خصوصا نساء العسكر، فبعد ما شاهد أهل البلدة الجيش ينسحب، أصبحت النساء يفكرن، كيف يلحقن بأزواجهن إلى الأردن، ولم يكن مقصورا على الزوجات بل أصبحت الأمهات والآباء والإخوان قلقين على ذويهم في الجيش،

ويريدون اللحاق بهم.

خرج نصير من البيت، مترقبا طرقات الحارة، لعله يرى أيا من أولاد عمه أو أولاد الحارة، فيجتمع بهم ويلهو معهم، فبالرغم من الاحتلال، بدأ شخصيا يأنس جو القرية والمدينة التي زارها لمرة واحدة، وبعد أن تسبب له وجوده بالغور بذلك الخرق في خده.

لقد بدأت نزعة نصير الغورانية تخف رويدا، رويدا، وتنطفئ قليلا، ويعيش الطفولة، بالرغم من الجرح في خده، أحب نصير الجرح في خده لأنه كان السبب في أن يحقق أمنيته، فيزور المدينة التي حُرم منها قبل فترة، وسبب له ذلك الحرمان المشاكل.

خرج نصير، ولم يجد أحدًا، ووجد أمه تحمل على رأسها «لكن» العجين، وقد لحقت به وبادرته بالقول: وين مفتاح عنك اليوم؟ وأضافت قائلة ومبررة حملها «لكن» العجين:

«أنا الطابون عندي بارد اليوم، انسين الكناين يزبلنه، وهسه بيجي أخوك بالحمل، وبدي أودي زوادة لأبوك وإخوتك، وما عندي خبز، وقلت أخبز عند طابون الحاجة فتحية»، وأضافت: «ما هي فاتحة طابونها للنسوان».

لحق بها نصير لعله يجد صبيا مثله حول الطابون جاء مع أمه فيلهو معه، وجلس غير بعيد عن باب طابون فتحية، على حجر تحت اللوزة، مسترقا السمع لحديث النسوان من جانب الطابون.

قد لا يدرك نصير أن استراق السمع إذا كان الغرض منه هو التنصت والتجسس، فإن ذلك مكروه، وإنما ما يدركه أن صمت وسكون الغور قد

صقل موهبته في السمع والإصغاء، وقد اكتسبها من طبيعه الغور التي تجبره على الإنصات لصوت الرياح والأمطار أو الحيوانات!

كان معظم حديث الرجال والنساء في القرية عن الحرب واليهود، والنصر والهزيمة، وتقديم المؤن للجيش والدعاء بالنصر، فكل هذه التناقضات كانت تعاش يوما بيوم، وأحيانا ساعة بساعة، فيلتقط الأولاد الصغار حديث الكبار، وخصوصا النساء اللواتي يقضين أوقاتًا مع الأطفال أكثر من الرجال.

إن الرجال مشغولون بالحصاد، والصغار إما يسبّلون في الطرق وإما يرافقون أمهاتهم إلى الطوابين ليسمعوا ليس فقط أحاديثهن بل حتى أماني وتمنيات بعضهن، وخصوصا النساء اللواتي أزواجهن في الجيش الذي انسحب إلى شرق النهر.

سمع نصير الحجة فتحية تقول للنساء الجالسات على باب الطابون:

«شو بدنا نظل نسوي هان احنا والأولاد، يا غبرة وأزواجنا في الأردن؟». قالت زوجة نسر الذي يخدم بالجيش: «هو مش راح يقدر يرجع واحنا ما بنقدر نعيش بدونه، فلازم نلحق فيه، ونخلص من هالتعب والشقا».

ردت عليها فضية، وهي أرملة، ولا يوجد عندها إلا ابنتها العانس المصابة بالعشى الليلي، وجميع قرايبها في الجيش ولا يوجد لهم أملاك في البلدة باستثناء البيت القديم: «بالك يا ختي، إنه اليهود بحبونا، وبفكروا فينا، واحتلوا البلاد ليخلصونا من الشقاء والفقر، على الأقل إذا هاجرنا، فيه كرت مؤن».

قاطعتها فوزية وهي في العقد الثالث من عمرها ولديها ولد وبنت، وقد وضعت البنت في معسكر الزرقاء وكان زوجها شاويش في الجيش: «ساق الله على أيام ما سكنا في معسكر الزرقاء وولدت بنتي مريم في مستشفى التضميد، والله ظلينا مكيفين حتى نقلوه على معسكر حوارة وجابني على البلد أخدم أمه وأبوه»، وأضافت متمنية: «عاليوم لو اليهود يجوا، ويطرونا شرقي النهر».

ووجهت فوزية كلامها إلى أختها نورية قائلة لها: «وأنت يا نورية وين بدك تلحقي زوجك؟». وأضافت: «آخر مرة كان بدر بجيش التحرير في العراق، بتروحي على العراق!».

ردت نورية: «أهم شيء إنه يكون سالم. وين ما راح بلحقه»، وأضافت: «مرة أخذني أسبوع على معسكر في الظليل. ما بنساه».

قالت أكبرهن عمرا، وصاحبة البيدر الذي كان يلعب به نصير: «ما بعرف يا مسخمات عندي إحساس إنه ما بمر أسبوع إلا وأزواجكن طالين عليكن، وبقولوا لكم جهزوا الحمير بدنا نهاجر»، ووجهت كلامها إلى المهاجرية، وسألتها: «وإلا إيش رأيك يا جارتنا؟ ما أنتم مهاجرين النكبة، وبتعرفي شو بصير».

ردت عليها التي تسميها نساء الحارة «المهاجرية» قائلة: «راح يصير فيكم يا أهل الضفة مثل ما صار فينا في أيام النكبة»، وأخذت تسرد ذكرياتها قائلة: «وأنا صغيرة كان الرجال بتسللوا راجعين بعد ما وقفت الحرب بشهر أو شهرين، ويأخذون نسوانهم على المخيمات، وأنا طلعت مرة مع أبوي على رام الله وكانوا ببنوا في مخيم الجلزون، وصار النصيب

إني أتزوج واحد من بلدكم وأتعرف عليكم، وأعيش معاكم في مَصْطَبة».

قامت نصرة بعدما استمعت لحديثهن ودخلت الطابون واخذت تخبز وتسمع حديثهن، ونصير يستمع لهن، ويشاهد أمه تدخل الطابون وهو يقول في نفسه: «كلهن بدهن يهاجرن بس أمي ما بتهاجر، فوالدي يحصد ويبيدر وكأنه لا يوجد حرب، فكيف بده يترك البيدر». وأضاف بحسب كلام النسوان الذي سمعته إنه النسوان اللي أزواجهن بالجيش بدهن يهاجرن، وممكن زوجات نسر ومحفوظ يهاجرن، لأنهم في الجيش مثل ما قالن نسوان الطابون.. وقطعت عليه تفكيره امرأة اخرى، وكان زوجها لا يملك أرضا يزرعها، ولا أغناما يرعاها، ويعيش من عمله اليومي في البناء مع معلم البناء الوحيد في البلد أبوخشبة، فتقول: «خليهم يخلصونا، ويعملوا لنا كرت مؤن وتمويل مثل مهاجرين ولاجئين النكبة».

لم يكن نصير يفهم كثيرا من حديث النسوان على باب الطابون بينما نصفهن يجلس على قارعة الطريق، فالرجال مشغولون بالحصاد والطريق آمن، وما من أحد إلا الصغار الذين لا يطلعون على عورات النساء.

إن الفتى الوحيد الموجود في طرف القعدة هو نصير، لم يكمل سبع سنوات من عمره ولم يدخل المدرسة، فأمثاله لا يكترثون بلباسهن. لقد ركن نصير ظهره إلى ساق اللوزة وعيناه على الطريق، وأذناه تصغيان إلى أحاديث النساء التي لا تتوقف وتتداخل مع بعضها البعض، وكل واحدة تريد أن تفرغ ما لديها، وذاكرته تسجل منظرهن وأذناه تلتقط أحاديثهن، وذاكرته تخزن، وأنفه يشم، ويقلم رائحة خبز الطابون التي نفذت إلى جيوب أنفه، فما كان من أمه إلا أن رأته من طرف عينها وهي تخرج

وتمسك برغيف الخبز الساخن، وتتخلص من سخونته برميه على طرحة الخبز في الصينية، فقسمت جزءا من رغيف ساخن محمص وناولته إياه، فأخذه وعاد إلى مقعده يأكل منه بحذر، فقد كان ساخنا وحماوة الرضف ما زالت ساكنة فيه. وبينما هو يأكل كانت حاسة التذوق تقلم طعم الخبز من القمح الأسترالي الذي زرعه وحصده مع والده في فصايل، فكان رغم أنه خبز ناشف سهل المضغ، ويمكن أكله بدون غماس، وبينما كانت حاسة ذوقه تقلم الخبز كانت حاسة سمعه تقلم أحاديث نسوان الطوابين، وعيناه ترقبان الطريق.

سمع نصير وقع خطوات قادمة في الطريق، فنهض ليستكشف، فإذا مفتاح وأخوه وآخرون من أولاد الحارة يسيرون بسرعة وهم يتبادلون الكلام بين من يريد الذهاب إلى البيادر، ومن يريد الذهاب لتلقيط السبل، فانضم إليهم نصير بعد ما قرقعت النسوان أذنيه بحديث طوابين مع أنه كان مستمتعا بذلك، لكنه منذ الصباح لديه رغبة اللعب ومصاحبة أولاد البلدة، فما صدق أنهم حضروا، فوثب نازلا معهم عَقَبة القلع، وهو يقول لمفتاح: «وين كنت؟ أنا بستنى عند الطابون، وأكلت نصف رغيف سخن وأنا بطَّلع على الطريق».

فرد مفتاح: روح معنا إلى البيادر وبعدين بنتفق شو نسوي.

وصلوا إلى البيادر وقد أصبحت ممتلئة بأكوام من القمح غير المدروس، وبجانبها مجنزرتان معطوبتان تركهما الجيش، وبعض الأولاد من حارة أخرى يلعبون على ظهورهما.

سمعوا صوتا عاليا ياتي من مدخل البلد من رأس البياضة المطل على

الغور والبلد، كان الصوت الذي سمعوه يشبه قوة الصوت الذي اعتادوا أن يسمعوه بسماعة الجامع، لكنه ليس بأذان، والصوت ليس قادما من جهة الجامع، وكان يعلو ويخفت، وقد سمعوا لأول مرة عبارات: «ممنوع التجول وكل واحد بروخ ويقعد في بيته».

اقترب الصوت أكثر فأكثر، وكان يرافقه صوت مركبات، وما لبثت المركبات أن توقفت عند بيت المختار.

تقدم مفتاح ونصير ووقفوا على ظهر سنسلة بجانبها شجرة صبر، وأطلوا على المركبات والعلم الأزرق والأبيض المرفوع عليها، وشاهدوا عن بعد جنود في لباس عسكري ويحملون البواريد ويلبسون خوذا على رؤوسهم، وقد توسطهم شخص يلبس قميصا أبيض وبنطلونا، ودقوا بقوة على بوابة بيت المختار قائلين: «افتخ مختار احنا جيش الدفاع الإسرائيلي».

فتحت البوابة، وأطل المختار خارجا وتبادلوا معه الحديث، ولم يسمع منه شيئا نصير. مشى المختار معهم وركب سيارة جيب خلفها ناقلتان كبيرتان، وخلفهما نصف مدرعة وونش. اقتربوا من البيادر فتوقفوا ونزل المختار، وطلب المختار من الناس أن تُفرغ أحمالها، وتخلي المكان.

نزل مفتاح ونصير عن السنسلة من خلف الصبرة، وساروا باتجاه البيادر حيث توقفت المركبات.

كان المختار يكلم أصحاب البيادر ليتركوا المكان، وبنفس الوقت صادف وصول مفتاح ونصير، فنهرهم المختار: «ارجعوا يا أولاد، اليهود

مانعين التجول»، وأضاف: «هذا جيش الدفاع بده يؤخذ المجنزرتين».

رجع نصير ومن معه خلف البابور غير بعيدين عنهم وهم يسترقون النظر ليروا اليهود عن قرب وما يفعلون!!

اقتربت ناقلة من إحدى المجنزرات وتقدم الونش ورُبطت بجنزير ورفعت إلى ظهر الناقلة، وكذلك الأخرى، وقد استغرق ذلك وقتا، وقد نزل وانتشر الجند حول البيادر، وطلع اثنان منهم فوق أحد البيوت المطلة، ورفعوا بنادقهم وهم يجولون بنظرهم من الأمام والخلف واليمين واليسار.

كان نصير وراء الحيط يسترق النظر من إحدى الفتحات في الحيط، بينما جلس مفتاح والبقية خلف الصبرات ينتظرون ماذا سيحدث.

أخرج نصير محفظته والورقة التي عليها صورة اليهودي، وأخذ ينظر في الصورة، وينظر في وجهه الجندي الواقف والمكشوف لنظره، فوجد أن هناك اختلافا ما بين الصورة التي يظهر فيها اليهودي بسوالفه ولحيته الطويلة، والجندي الواقف أمامه بشعره القصير، والمدجج بالسلاح والأعتاد، وبدون سوالف ولحية.

كانوا يتكلمون بلغة لا يفهمها نصير، وكان من بينها كلمات قريبة من العربية، باستثناء عسكري كان يتكلم مع المختار بالعربي.

مضت ساعة والحمير المحملة بغمور القمح المحصود تنتظر ولا تستطيع الاقتراب من البيادر. بعد ذلك تحركت الناقلات وهي تحمل مجنزرات الجيش المعطوبة، وركب الجنود مركباتهم وحركوها راجعين نفس الطريق، وتوقفوا بجانب بيت البرمجي، ونزل ثلاثة من الجند

ودخلوا البيت، وما هي إلا دقائق حتى خرج أربعة أشخاص وليسوا ثلاثة، منهم الرجل المعروف باسم البرمجي، وأدخلوه معهم في الجيب وواصلوا السير والمختار يقف مستغربا وهو يقول بصوت مرتفع سمعه نصير والأولاد عندما رجعوا إلى البيادر: ما بعرف شو بدهم من البرمجي!

عرف نصير من الأولاد أن لقب هذا الرجل هو البرمجي.

كان موكب مركبات جيش الاحتلال على وشك الانعطاف في رأس البياضة خارجًا من البلد عندما نادوا مرة أخرى وهم يخرجون من البلدة بنفس الصوت ولمرة واحدة فقط: «يا أهل البلد، لقد تم فك حظر التجول».

قبل أن يسير المختار متوجها إلى الجامع أشَّر بيده لأصحاب حمالات القمح أن يتقدموا إلى البيادر، فأفرج عن الحمير التي كانت واقفة وقوائمها ترتجف تحت الحمل الثقيل وهي قادمة من مسافات بعيدة، وبعضها قد هبط من الوقوف نائما بالطريق التي سُدَّت تماما بأكثر من عشرين حمارا وبغلا، ونفس العدد من الأولاد البالغين والفتيات القادمين من الغور، الذين قضى بعضهم في السير نصف يوم، والبعض الآخر ثلثًا، والقليل منهم ربع يوم، كلٌّ بحسب بعد المنطقة القادم منها في الغور، وكان العامل المشترك بينهم جميعا أن التعب ضارب عليهم أطنابه، وينتظرون متى يتم فسخ الأحمال على البيادر التي خلت من المجنزرتبن المضروبتين.

اقترب موعد أذان الظهر، فسار المختار إلى الجامع بينما المؤذن يؤذن لصلاة الظهر، لحق نصير والأولاد المختار إلى الجامع ليشربوا الماء من

البئر، ويلتقط نصير أخبار الحرب من الرجال الكبار بوجود المختار من بعد صلاة الظهيرة، ومن تحت التوتة، وفي نفس الوقت يمكن أن يرى الولد الأبرص الذي سبق له أن سرق محفظته، فالجامع كان مكان الحدث، وأكيد أنه يسكن حول الجامع، فاذا رآه فسوف يثأر منه، فمفتاح وأولاد عمومته معه، ونصير يستقوي بهم.

تجمع الأولاد تحت التوتة، وخرج المصلون وعددهم يعد على الأصابع وكلهم من الشيوخ الذين بلغوا من العمر عتيا ولحاهم البيضاء متدلية على صدورهم، باستثناء المختار الذي كان بلحية قصيرة.

كان المختار مشغولا بإجابة أسئلة الناس عن اليهود الذين حضروا، فقال لهم إنهم من الجيش وجاؤوا ليأخذوا المجنزرتين المعطوبتين. لكنه مستغرب لماذا أخذوا البرمجي..

أجاب أبوالسوالف: ما أنت عارف يا مختار كيف أجى على البلد؟ أبصر من أين جابوه الإنجليز، وزرعوه لنا في البلد؟

لم ينتظر أبوالسوالف جواب أحد فقال: «عشان يهتم بالخيل تاعت الفرسان، لكنه كان بوز على أهل البلد، وبعد الإنجليز ظل على علاقة مع فرسان الأردن، والآن أكيد بده يكون على علاقة مع اليهود»، وحذر أبوالسوالف الناس منه قائلا: «ديروا بالكم منه».

لم يحضر الولد الأبرص رغم ترقب نصير وأولاد عمه للمرة الثانية، واقتربت صلاة العصر وأحس الأولاد بالجوع فرجعوا إلي بيوتهم، فلقد ضاع اليوم عليهم ولم يلتقطوا أو يجمعوا أي سَبَل من الطرقات.

وصل نصير إلى البيت مع وصول ووجود باسل وهو يفسخ الأحمال،

وقد كبر البيدر وانتفخ، وقال باسل لأمه وهو يتناول غداءه مع والدته ونصير ألّا تعمل زوادة لوالده، فقد خلصوا معنّاة الرَّواع، وراح أرجع وأجيب آخر نقلة. وراح الوالد والإخوة يجوا معاه، ليتحمموا ويغيروا ويرتاحوا، وبعدين بكرة بنزلوا على الفَخْت.

نهض باسل وأمه وهي تقول: «خلينا نجهز لهم أكلة مقلوبة على جيتهم، روح يا نصير على الدكان، وجيب بطاطا وزهرة»، وقالت لأخيه: اذبح لي ديك وفرخة.

وقامت تجهز للطبخ، ورافق نصير أخاه حتى الدكان، ولم يجد أي بطاطا أو زهرة، وسأل صاحب الدكان فقال: من ما قامت الحرب ما رحنا على الحسبة.

عاد فأخبر أمه، فقالت نصرة: مليح إنك خبرتني، وقامت ونقعت حمص بالماء الساخن، وقالت: يا الله بعمل مقلوبة على حمص.

لقد عاد أبونسر وأولاده بعد غياب الشمس، بعد أن قضى في الحصاد ثلاثة أيام متتاليات، ونام على الغمور التي تصل إليها مناجلهم بالحصاد عند غياب الشمس، فتتوقف العيون عن الرؤيا بسبب التعب والغبار والهباء الناتج عن ضربات المنجل في سيقان القمح، عدا عن التعب الناتج عن التغمير والتحميل على الحمير والسير بها إلى البيدر، حتى إذا ما تم حصاد معنّاة الرَّواع عادوا للبيت ليأخذوا قسطا من الراحة، وغسل الجسد مما علق به من تراب وسفير وغبار وعرق.

استحم أبونسر ولبس الدماية وقام لصلاة المغرب والعشاء جمعا وقصرا، والأولاد ينتظرونه لتقلب طنجرة المقلوبة المعمولة على

الحمص بالرز والدجاج، ومن حولها صحون اللبن الرائب، فيسمي الوالد بالله ويحمد الله على ما رزقهم لتمتد الأيادي إلى الطعام، كل يأكل من جانبه، ونصير يأكل ويروي لوالده ما سمعه من النسوان عند الطابون وما شاهده على البيادر ومنع التجول وحديث المختار وأخذ اليهود للبرمجي.

شكلت هذه الطبخة مذاقا خاصا لنصير، فحاسة التذوق عنده قلمت طعم طبخة المقلوبة على الحمص، وغطت على طعم أي طبخة أخرى معمولة بالحمص حتى لو كانت «مفتول» أو ما يسمونه «بَحْبَثون»، ولم تعد مخازن الذاكرة تذوقه، ولا تستوعب أحاديث الناس عن أن المقلوبة تعمل بالباذنجان والزهرة والبطاطا حتى لو عملت أمه تلك المقلوبة بدون حمص.

شرب أبونسر الشاي، دخن الهيشي، وأخذ يقلب محطات الراديو وهو يسمع أخبار الهزيمة للجيوش العربية. فجأة قال للأولاد أن يسكتوا وينامو ليسمع الإذاعة وهي تذيع خبر تنحي عبد الناصر متحملا مسؤولية هذه النكسة؟

هز أبونسر رأسه فقال: «صاروا مسمينها نكسة!»، وتندر أبونسر وهو يدور على إذاعة هنا لندن على إذاعة صوت العرب قائلا: «وينك يا صوت العرب؟ زرعت وهم النصر فينا، فكشفتكم إذاعة هنا لندن والإذاعات الأجنبية الأخرى»، وما لبث أن توقف مفتاح محطات الراديو عند إذاعة صوت العرب وبيان عبد الناصر وإقراره بحقيقة الهزيمة. فقال: «اسمعوا يا أولاد ولا واحد يحكي». أنصت الجميع. ونصير رغم أنه كان منصتا إلا

أنه كان يتطلع إلى صورة ناصر المُعَلَّقَة على الحيط، فيتخيل أن الصورة هي التي تتكلم: «وأقول لكم بصدق -وبرغم أي عوامل قد أكون بنيت عليها موقفي في الأزمة- فإنني على استعداد لتحمل المسؤولية كلها، ولقد اتخذت قرارا أريدكم جميعا أن تساعدوني عليه: لقد قررت أن أتنحى تماما ونهائيا عن أي منصب رسمي وأي دور سياسي، وأن أعود إلى صفوف الجماهير، أؤدي واجبي معها كأي مواطن آخر».

وأضاف: «إن قوى الاستعمار تتصور أن جمال عبد الناصر هو عدوها، وأريد أن يكون واضحا أمامهم أنها الأمة العربية كلها وليس جمال عبد الناصر. والقوى المعادية لحركة القومية العربية تحاول تصويرها دائما بأنها إمبراطورية لعبد الناصر، وليس ذلك صحيحا لأن أمل الوحدة العربية بدأ قبل جمال عبد الناصر، وسوف يبقى بعد جمال عبد الناصر».

بينما كان أبونسر يسمع كلمة ناصر، نام باسل وباسم وحنان من التعب بعد أكلة المقلوبة، بينما صعد نصير إلى النافذة فاستلقى بها وهو يسمع من نافذته التي تعتبر سريره، وينظر إلى صورة ناصر على الحائط أحيانا، وأحيانا يتابع حركة أصابع والده وهو يتنقل بين الإذاعات المختلفة، وكان يشعر بأنفاس والده، ويلاحق بنظره نظرات والده على الصورة المُعَلَّقَة على الحائط. وكان يكاد يسمع دقات قلب والده التي لم يسعها صدره، فشعر بأن صدر أبيه ضائق مما قالت الصورة المُعَلَّقَة على الحائط، ومما قال المذيع بعد خطاب الصورة المُعَلَّقَة على الحائط: «إن الجماهير الشعبية العربية ترفض الاستقالة وتطلب منه البقاء».

نهض أبونسر واقترب من النافذة، فشاهد نصير صاحيا ويستمع. كان أبونسر متضايقا ويحبس دموعه وأنفاسه، ويريد أن ينفس عن غضبه بعمل ما قبل أن ينفجر بأهل البيت، فقال لنصير: «أنا عارف إنك صاحٍ، قوم اركب على أكتافي، وانزع هذه الصورة من الحائط»، وهو يشير إلى صورة ناصر.

ثبت نصير قدميه على أكتاف والده، ووقف حتى وصلت يداه الصغيرتان إلى الصورة المثبتة في أعلى الحائط ببرواز ويغطيها لوح زجاج، فحاول إمساكها من الخيط المعلق بمسمار في الحيط، فاختل توازنه وسقطت الصورة من يديه لتستقر على المَصْطَبة، وقد انكسر الزجاج وهُشّمت الصورة، فانزله والده عن أكتافه وأعاده في النافذة.

لم يصحُ أحد من الأولاد على صوت الزجاج المكسور، وقامت نصرة التي كانت ترضع رضيعها فوضعته في مهده، وأحضرت مكنسة القش القديمة وكنست شظايا الزجاج وقشت الصورة.

كان نصير بالنافذة يراقب أمه وهي تقش الصورة بالمقشة، ويراقب أباه الذي لم يستطع النوم رغم أن وقوع الصورة من يدي نصير وتهشمها أراحه قليلا من قيامه بذلك. ورغم أنه هدأ قليلا إلا أنه لم يستطع النوم، ورجع يدخن ويشرب الشاي رغم تعبه وحاجته للنوم. وقال لنصرة التي حملت شظايا الزجاج والصورة وخرجت: «احتلوا ثلثين البلاد وقالوا: نكبة، والآن كل البلاد وسينا والجولان، وبقولوا نكسة؟!». وأضاف أبونسر قائلا وهو لا يعلم أن نصرة قد وصلت إلى المزبلة وكبت بقايا الزجاج والصورة:

«الأستاذ أبوموسى وأتباعه معهم حق؛ القومية العربية ما تنفع، لازم نرجع على رأيهم الخلافة الإسلامية»، ما أنهى ذلك حتى دخلت نصرة فقال لها: «وين كاينة وأنا بحكي معك وبفكرك جنبي وأنت كاينة برة!». قالت: «ما أنت يا حج من ما سمعت خطاب التنحي وانت مش معنا، كنت بكب في الصورة وشظايا زجاجها إللي وقعتها أنت ونصير، بخاف حد من الأولاد تنغرس شرنيخة في رجله، أبكفيش إنه ضيعوا البلاد؟».

وأطفأ ذنب سيجارته وقال لها: غطيني يا حجة نصرة، وإن شاء الله إنك بتحجي، خليني نسري بكرة ونخلص حصيدة معنّاة الفَخْت قبل ما يدخلوا اليهود البلد، ويردوا يمنعوا التجول.

كانت نصرة تريد أن تحكي له ما سمعته من سواليف الطوابين، فتذكرت أن نصير على العشاء قد حكى كل ما حكته النسوان.

10 حزيران 67
البرمجي

كانت ليلة أمس غير عادية لأبونسر، فبعد سقوط الصورة من يد نصير وتناثر شظايا زجاجها وتهشم الصورة نفسها هدأ غضبه، وتوسع صدره الذي كان ضائقا بما حصل وبما سمع من أخبار. ورغم أنه أراد أن ينام ليسري على حصاده الأخير في الطّويْل، إلا أن تقلبه في نومه وقيامه وشرب الشاي وتدخين الهيشي جعلته قلقا وينام قليلا ويصحو، فينظر إلى مكان الصورة فلا يرى إلا صورة المرأة الجميلة، فكانت نظراتها له كبلسم فيعود إلى فراشه، وأهل بيته كلهم نيام بما في فيهم نصير النائم في النافذة على جنبه، ويده التي مدها إلى خده المجروح، فيتذكر أبونسر جبروته وقوته التي أدت إلى شرخ الخطفة لتنطلق منها شرنيخة فتثقب خد نصير. ثم ما لبث أن تغلب سلطان النوم وتعب الحصيدة على كافايين الشاي ونيكوتين السجائر وألم النكسة، فنام واستيقظ على صياح الديك، فتوضأ وما لبث أن سمع أذان الفجر فصلى في بيته، وأيقظ بعد ذلك كل من في البيت بمن فيهم نصير.

ذهب نصير إلى زاوية السنسلة بجانب التينة، وأفرغ ما في مثانته وهو واقف وعاد إلى قاع البيت، فوجد والده وإخوته وأمه يجهزون الدواب ومعدات الحصاد والزوادة، وأبونسر يتأكد من شد حمالات الخشب على ظهور الدواب، ويقول لزوجته نصرة: «كلها يومين وبنخلص وبنطلع ندرس، والناس لسه بقولوا بسم الله».

قالت نصرة: «يا حج لا تضغط على الأولاد والبنات كثير، هظول ما بقدروا يلاحقوك بالحصاد»، وأضافت: «أنا سمعت النسوان عند الطابون بقولوا: إنه ممكن يرجعوا خلال يومين أو أسبوع أبناء البلد إللي في الجيش، ويوخذوا زوجاتهم وأولادهم».

رد عليها أبونسر: سمعت نسر حكى ما حكته نسوان الطوابين.

ردت عليه نصرة: وهظول الكناين ناطرات أولادك بالجيش. وكل وحدة بدها تلحق بزوجها!

تفاجأ أبونسر بجوابها، فتعب الحصاد وألم الهزيمة أغفله عن التفكير بذلك، فهز رأسه وكأنه غير مكترث لذلك الأمر.

واستطردت نصرة قائلة: بقولوا إنه اليهود دخلوا المدن والقرى، وقتلوا ناس، وهدوا بيوت كثيرة بعد ما دخلوا القرى والمدن القريبة عليهم وشردوا الناس، ورموا بعضهم على شرق الجسر في الأردن.

قال متافقا: رموهم على النهر! احنا في الغور، وما شفنا اليهود برموا في الناس، شفنا الجيش منسحب وناس بتعود، ما حد قاتل. ما شفنا إلا دبابتين معطوبتين على البيادر.

أراد أبونسر أن يجاري نصرة فقال: «آه لو لي حكم على الكناين، لاخذتهن معاي يحصدن!!».

قال نصير لوالده: «أجوا اليهود وأخذوا الدبابتين، ومنعوا التجول، وكان المختار معهم، وبعدين أخذوا البرمجي معهم، هيك قال المختار».

تفاجأ أبونسر بهذه الأخبار، وقال ما حد خبرني، الله يستر من أخذهم البرمجي معهم.

ذهب أبونسر مسرعا إلى غرفة الخوابي، وأخرج الخرطوش وقشاط الفشك، وأخذ طورية وذهب إلى التينة التي على الحد بينه وبين شقيقه، وبسرعة حفر بجانب السنسلة تحت التينة حفرة عميقة ووضع الخرطوشة وأقشاط الفشك بها، ودفنها تحت التراب، وأعاد بناء طرف السنسلة من جهة بيته بالحجارة.

فقالت زوجته نصرة: «ما كمان كاينك دفنن بقايا ملابس أزواجهن العسكرية، بس عند التينة الثانية لما سمعوا الحكايات من الجنود الفارين»، وأضافت نصرة: أنا ما خبرتك إنا اعملنا فطور الهم، وقعد جارنا أبوآمنة معهم شوي.

قال نصير: وخافوا من صوت المجنون دبدوب، فكروه طيارة بتغير عليهم، ودبدوب كان لابس لبس عسكري، ونزل على البلد يطخطخ بصوته وبيديه!

قال أبونسر بعدما سمع ما سمع من زوجته ونصير: في غيابي لا تفتحوا البوابة لأي غريب، وأنت يا نصير لا تطلع من البيت.

نادى على أولاده وبنته وقال: «جهزوا حالكم يا أولاد»، ونظر إلى نصير مبتسما له، وتفحص خده وقال له: أنت لا تطلع من البيت، وساعد أخوك لما يجيب الحمالات وافسخ معاه الحمل، ولا تطلع على الشارع، ممكن اليهود يرجعوا على البلد اليوم أو بكرة ما دام أخذوا البرمجي.

سرى أبونسر والأولاد والبغلة والحمارة إلى الطويل لحصد آخر معنّاة قمح، وهي معنّاة الفَخْت، كانت أصغر من معنّاة الرَّواع، فقدر أنه سيخلص الحصاد والنقل خلال يومين بها، وكالعادة بقي نصير في البيت، والضمادة الملصقة على خده صامدة حتى تجف الغرز التي قطبت

الخرق الذي سببته شرخة عقدة الخطفة.

لم يكن أبونسر نازلا لوحده، فمعظم أهل البلد في هذا الصباح يعمرون طريق الغور، مهللين وذاكرين لله، ومتحدثين بأخبار الحرب السريعة والخاطفة، ومنتظرين ما سيحصل بعد ما انسحب الجيش. وكيف سيدخل عليهم جيش الاحتلال وعلى بيادرهم، وهل سيحصل معهم ما حصل في القرى والمدن الغربية على الخط الأخضر التي بدأت الهجرة منها وبدأت أخبار أهلها تتناقل حتى وصلت إلى القرى المحاذية للغور أو المشاريق، بينما هم مشغولون بالحصاد وكأنهم لم يروا إلا قليلا من جنود الاحتلال. وكانوا في البداية قد غرهم مرور الجيش، فحسبوه منتصرا وذاهبا للقدس، فقدموا لهم الطعام كتموين، وأمدوهم بالدعاء لينصرهم الله، وبعد ذلك كانت الهزيمة والانسحاب.

رجع نصير إلى نافذته ولم يعد ينظر إلى صورة ذلك الرجل الأسمر ذي العيون الثاقبة، فصورته سقطت ليلة أمس من بين يديه عندما رفعه أبوه على أكتافه لينزل الصورة عن الحائط بعدما سمع خبر التنحية، وتكسر زجاجها وتهشمت الصورة من شظايا الزجاج، وبقيت صورتان لدى نصير: صورة المرأة المُعَلَّقَة على الحائط وصورة اليهودي في محفظته.

كان نصير يحب الصور قبل ما ينزلوا إخوته نزلة الخميس مع كتبهم المدرسية على الغور. كانت مجلة أخيه حافظ الكويتي هي شرارة حبه للصور، فأصبح يهوى تصفح كتب إخوته بحثا عن الصور وليس الكلمات، فهو يحب الصور ويفهم منها ما لم يفهمه مما هو مخطوط أو مكتوب، فهو لم يتعلم القراءة والكتابة باستثناء تعلم نقش نصف اسمه

الذي حفره والده على الحجر.

بقيت صورة الفتاة الجميلة على الحائط، يتطلع اليها من نافذته، وصورة اليهودي المطوية في محفظته، وهو يفكر ببراءة الأطفال هل سأرى هذا اليهودي، لقد حضروا إلى البلد، فهل سيحضر صاحب الصورة؟

إن مخيلة الأطفال واسعة وعميقة، وتذهب بالطفل قبل النوم خيالات وأسئلة، وبالتأكيد فإن مخيلة نصير قد تشطح به بعيدًا بعدما تذكره بالأسماء والأماكن التي عاشها فيها بالغور، وقد تؤلمه شطحات ذاكرته والأحداث المأساوية التي نتجت عن إبعاده عن الغور، مثل حادثة السرقة والبئر والسقطة عن اللوزة، وحادثة صراعه مع الكلب، ورحلته مع أبي علي الهلالي إلى الغور حتى انتهيا إلى السدرة التي جلس على صخرة بجانبها فيها معصرة، وأخيرًا الجرح الذي في خده والذي أحبه نصير لأنه حقق له زيارة المدينة وأقعده في البلدة ليشهد الانسحاب للجيش، وحديث نسوان الطوابين، ومشاهد دخول اليهود ومنع التجول، والبرمجي، وأخيرا وقوع صورة الرجل من بين يديه عندما تنحى وسقطت البلاد. كل تلك الأحداث وعلاقتها بالصورة المُعَلَّقَة على الحائط التي يتأملها من نافذته وهو مستلق، والصورة الأخرى التي لم يعد يراها.

أطفأت والدته لمبة الكاز، فلم يعد لنصير إلا أن يتخيل في ذاكرته وهو يتثاءب ويتقلب في النافذة وكأنها قبر، يتخيل كيف يكون صاحب هذه الصورة التي حبست في محفظته، وهل سيلتقيه؟ فغشيته أمنة نعاس، وأغلق عينيه مرة أخرى منتظرًا شروق الشمس، لينظر ما يخفي له اليوم الجديد وما بعده من الأيام القادمة.

منتصف حزيران 67
الأبواب المفتوحة

فرغ أبونسر من الحصاد والنقل وأهالي مَصْطَبة ما زالوا يحصدون وينقلون، والنساء تعاير أزواجها به، فلقد فرش أبونسر طرحة البيدر في بيته ومد القمح بسنابله وفرشه على الأرض بطرحة دائرية بقطر خمسة أمتار وسمك متر من أجل درسه، ظانا أن البركة زادت في الطرحة، وأن الحمارة والبغلة لا تكفيان لدرس وهرس هكذا طرحة.

فكر بشراء حمار أو استعارته، لكن معظم الحمير مشغولة. قال لنفسه: «راح أشوف مين عنده حمار للبيع في الحارة أو حتى في البلد».

ترك البيدر وتوجه تلقاء البوابة فوجدها مفتوحة، فاستغرب وتعجب ونادى على نصرة وأولاده ليسألهم من ترك البوابة مفتوحة مخالفا تعليماته الصارمة بهذا الشأن، فأكثر من مرة نبَّه عليهم أن من يخرج أو يدخل يجب أن يغلق البوابة، فترك البوابة مفتوحة -بحسب رأيه- هو دعوة متطفل أو حرامي للدخول.

كانت البوابة من بوابات رام الله الحديدية، من ضرفتين وذات معدن سميك وقوي، وتحتاج إلى قوة لإغلاقها أو فتحها، وفي داخلها بوابة صغيرة للناس وليست للدواب. وهذه البوابة عند الإغلاق تحدث صوتا، ويبدو أن من خرج لم يغلقها حتى لا يطلع صوت وينكشف أمره. أنكر أولاده أن يكونوا تركوها مفتوحة، وسأل الكناين فقيل له إن زوجة حافظ في دار أهلها، فعرف أنها هي من ترك البوابة مكشوفة.

أغلق أبونسر البوابة خلفه ونزل إلى البلد، وصادف في الطريق صديقه فهيم الذي سمح له أن يبيدر على حصته في بيدر الحمولة في وسط البلد، وسأله إن كان يعرف أحدًا لديه حمار للبيع.

فقال له فهيم: «ما أنت عارف يا أبونسر، في هذا الموسم الناس ما حدا ببيع، فالحمير يستعملها أصحابها للنقل والدرس»، وسأله: «انت عندك حمارة وبغلة ليش بدك إياه؟».

رد عليه أبونسر: ما شاء الله البيدر كبير وما بكفوا.

توقف فهيم وفكر للحظة وقال: «بس خليني أشوف جارنا الأعمى، أبوبصير، إذا ببيع حمارته، وهاظ ما بفلح وكانت الحمارة دليله لمًا يريد أن يخرج من البيت، فيمشي وراءها ويستمع إلى وقع حوافرها ووقع أقدام الناس وأصواتهم، ومن يتكلم أو يمشي في الطريق، فيميزه من صوته أو من وقع أقدامه، لكني لم أره منذ مدة، وسألت عنه فقالوا إنه تعثر في حجر ووقع ورجله انزلقت وانكسرت، وما عاد حدا يشوف حمارته أو يشوفه في الطريق».

وأضاف: «شوف أبونسر، إذا زبطتها البيعة واشتريت لك حمارته، بدك تعطيني إياها يومين أربطها مع الجحش عندي لأدرس البيدر».

ومد كف يده وضرب بها كف أبونسر قائلا: خير البر عاجله، هات لك خمس أو ست ليرات، وأنا الليلة بعد صلاة المغرب بحكي معه ومع أخته، وإذا زبطت بجيب الحمارة لك ليلة.

قال أبونسر: كثير يا رجل هاي حمارة ميتة من القلة، ويا الله تمشي في الطريق من ضعفها.

رد عليه فهيم: ما أنت عارف الحمير في الحراث أو الحصاد، بصير عليهن طلب وبعدين انت طعميها، وبتقوى عندك، بدل ما تظل مزعجتنا في المناهقة من الجوع.

أعطاه أبونسر المبلغ، وتفرقا، وقال له: أنا بانتظارك، ترد لي خبر قبل صلاة العشاء، بكرة بدي أبلش دراسة.

صلى أبونسر العشاء ولم يحضر فهيم، وهمَّ أن يخرج ويسأل عنه، حتى إذا مد يده لفتح البوابة سمع دقا وطرقا عليها، ففتح البوابة وإذا فهيم واقف وبيده رسن الحمارة التي كانت خلفه، فقال فهيم: مبروكة عليك يا حج، حصلتها لك بست ليرات بالزور، لإنه أخته كانت معارضة وفي الأخير وافقت وطلبت طلب.

رد عليه أبونسر: وماذا طلبت؟

قالت إنها تريد فوق البيعة، خريطة قمح.

رد أبونسر: «حلت البركة»، ودعاه للدخول وشرب الشاي، فاعتذر فهيم قائلا: بروح أسمع شوية أخبار حتى أعرف شو بده يصير بعد الاحتلال.

أخذ أبونسر الحمارة وربطها بجانب الحمارة الأخرى. وكانت هزيلة، فوضع لها التبن وكبشتين شعير، وقال: خليني نشوف بكرة، كيف بتكون على طرحة البيدر.

نهض أبونسر في الصباح وأيقظ أولاده، وجهزوا اللوح الناري، وقرن أبونسر البغلة وجعلها في الوسط، وقرن حمارته وجعل الحمارة الجديدة الأخيرة في وسط الطرحة حتى لا تدور كثيرًا، وأمسك برسنها وهو في

مركـز الطرحـة، وجعـل اللـوح الخشـبي مربوطـا بالبغلـة فهـي أقـواهن وأكبرهن حجما، وسـمح لنصير أن يجلس على اللوح، وباسـل يمسـك بالشـاعوب، ويـردد أطـراف الطرحـة، وأخـذت الـدواب تـدور وتهـرس بحوافرها على أعناق ورؤوس السبل، وهو يمسك بالحمارة الجديدة في وسـط الطرحـة فـدورتها قصـيرة، بينمـا البغلـة والحمـارة تـدوران ضـعف دورتهـا. واسـتمر بـذلك حتـى قـارب موعـد أذان الظهـر، فـأراح الـدواب وقلب الطرحة التي بـدأت تصـغر بفعـل الـدرس، وشـرب الشـاي ودخـن الهيشي، وسقى الدواب القليل مـن المـاء، ووضـع لكـل واحـدة شـيئا مـن التبن القليـل في العليـق، فأثنـاء الـدرس غيـر مسـموح لهـن بالأكـل بسـبب الكمامات وممنوع عليهن التغوط على الطرحة إلا في الحفاظات.

تعـب نصـير مـن الجلـوس علـى اللـوح الخشـبي الـذي جعـل مؤخرتـه تهرشـه، فلمـا كشـفت أمـه عنهـا فـإذا هـي حمـراء، فقامـت بـدهنها بالزيـت وقالت له: «اقعد وارتاح، وما تقعد على اللوح. خلي باسـم يقعـد أو أبـوك يحط أحجار بدالك».

ما إن غابت شـمس النهـار حتـى اسـتوت الطرحـة، ودرسـت وهرسـت حـوافر الـدواب والأحجـار والمسـننات المثبتـة في اللـوح كامـل البيـدر، وأصبحت الطرحـة صـغيرة مكونـة مـن التبن والقمـح. وفـك أبونسـر عـن الدواب وطلب مـن باسـل وباسـم أخـذها إلـى البئـر، ومـلأ الحـوض لهـا، وعلفها في الياخور لتأكل وتستريح.

أحضـرت نصـرة صـينية العشـاء، ومعهـا حمامـة تحمـل إبريـق الشـاي ليتناولوا طعامهم على البيدر لتحل البركة عليه وعليهم.

أقام أبونسر صلاة المغرب على البيدر، وأمَّ بأولاده وأهله، وبعد الصلاة طلب من باسم وباسل لم الطرحة المدروسة بالشواعيب والدواكير، وهو يقوم بتكويمها على شكل تلة مستطيلة بطول البيدر تاركا مساحة من الشرق لسقوط التبن فيها.

صلى العشاء وأخذ يناظر هبات الهواء وهو يشرب الشاي ويلف الهيشي ويدخن وينتظر رحمة ربه، فالطرحة جاهزة للتذرية، وسواعدهم منتظرة لهبات نسيم الليل وسهرة التذراية ومنتظرين ظهور القمر، فهذه الأيام يكون بدرا، ولا حاجة ليشعل اللوكس. ولم يتأخر القمر، ومع طلوعه هبت نسمات الليل الخفيفة لكنها غير كافية للتذرية، فانتظر أبونسر ساعة من الليل حتى تحولت النسمات إلى ريح طيبة قادرة على أن تحمل التبن بعيدًا في الهواء، ففرح لها وتناول الشاعوب ونادى على أبنائه ليصفوا معه على كوم القمح المدروس الذي كان بشكل مستطيل، وصعد على ظهره وبدأ بالتذرية رافعا بشاعوبه القمح المدروس، وذاريا به بالهواء لما فوق رأسه، وكان أبناؤه يقلدونه ونصير بجلس ويراقب.

استمر أبونسر يذري طوال الليل حتى إذا ما اقترب الفجر وصاح الديك وأذن المؤذن، إذا بضياء البدر يعانق حبات القمح التي أبرقت وانقشع عنها التبن، وقد أصبحت بمنظر يشرح الصدر، فصلى أبونسر الفجر، وتناول إفطارا خفيفا وشرب الشاي ودخن الهيشي، وقبل أن ينام قال لأهله: أيقظوني في كل الأحوال قبل صلاة العصر، إن لم استيقظ على صلاة الظهر.

نام أبونسر بدون هز، وضبط ساعته البيولوجية ليصحو بعد الظهر

منتظرا الريح القوية قبل العصر لمدارة الصليبة بالمدراة، فهواء ما بعد العصر أقوى من كل الأوقات الأخرى في القلع المرتفع، فهواء العصر قادر على حمل وفرز العقد والقصل وجدش التراب وصغار الحصى التي يدعونها مجازا «صرارا»، عن حبات القمح التي لا يستطيع الهواء العصري حملها بل تسقط لوحدها، ويطير القش والعقد وجدش التراب الذي لم تستطع الريح الطيبة في الليل حمله، فتبقى حبات القمح الثقيلة راقدة عل الأرض لتكون صليبة القمح.

لم يكن أبونسر صائبا في ضبط ساعته البيولوجية، فلقد أخر عقله موعد استيقاظه ساعة، فأعضاء جسده الذي عمل ليل نهار تحتاج إلى راحة وسكن وتجديد، وهو أمر لا يتأتى إلا إذا كان الرأس الذي يحمل المخ مرتاحا وغير قلق، فولداه الكبيران وأخوهما الأصغر الذي بالجيش، وأحد أبناء أخيه الأكبر، لا يعلم عنهم شيئا، ولا ماذا حصل معهم؟ ولا أين هم؟

وقد انشغل بالحصاد والدرس والتذرية، ولم يعد يحتمل سماع أخبار الهزيمة، ولم يتابع مع فهيم ورجال البلدة ما حصل أو ما سيحصل، ولا توجد أخبار إلا أخبار نسوان الطوابين عن أن العساكر من أبناء البلد، سيعودون ليأخذوا نساءهم وأولادهم.

كان أبونسر رجلا مؤمنا وقويا، وقد كان همه الأول والأخير زرعه وحصاده، وها هو على وشك أن ينتهي منه، ولم يتبقَّ من همومه إلا الاطمئنان على أولاده وأخيه وأبناء إخوته في الجيش، فسلَّم أمرهم لعالم الغيب والشهادة، فولده الكبير يسوق بأحد قادة الجيش، ويتوقع أن يكون

القائد سالما، وبالتالي فهو سالم معه. وابنه الآخر في جيش التحرير، وهذا الجيش لم يصل إلى أرض المعركة أو الضفة، وانتظر ليدخل مع الجيوش العربية الأخرى، لكن الحرب كانت قصيرة وخاطفة، ولم تزد على ثلاثة أيام.

استيقظ أبونسر عصرا وهو متعرق وعلى أثر حلم، فقد رأى نفسه يقطع النهر ويعود مرة أخرى ويقطعه، ويعود لقطعه مرات كثيرة، حتى أخطأ في العد. عندها أصابته رصاصة فحرقت لباسه وجرحت فخذته جرحا سطحيا. لم تؤثر على حركته وهو يقطع منطقة الزور غرب الشْريعَة. في هذه اللحظة كان يتعرق ويتقلب في فراشه، ونصير مستغرب من منظر والده وتعرقه وبعض الأصوات التي خرجت منه وهو جالس في النافذة، فأخذ ينادي على أمه، فسمع أبونسر صوت نصير فاستيقظ وهو يتعوذ من الشيطان، وزوجته تقول له: اسم الله عليك يا حج.

فروى لها الحلم، ونصير يسمع ويلتقط كل كلمة تصل إلى سمعه، وسمع أمه تقول: يا حج ارحم حالك أنت قاتلتك الدنيا، دائما مستعجل وبتخلص قبل الناس، والناس لسه يحصدوا وينقلوا، ولا واحد منهم خلص ودرس في البلد إلا أنت.

أجابها: «وين إبريق الوضوء راحت علي صلاة الظهر، وأنا يا حجة خايف على الأولاد، وعلى أخوي الذي في الجيش». قام وأخذ على يده ماء وتوضأ، وصلى الظهر والعصر ووضعت له الأكل، فأكل وشرب الشاي ودخن الهيشي، ولم يرغب في فتح المذياع ولا سماع الأخبار.

نهض وطوى نهايات كبره تحت حزامه على طرفي خصره، ولف كوفيته

حول رأسه وتوجه نحو الصليبة وهو يذكر اسم الله، وما لبث أن ضرب الريح ثنايا كبره، فأمسك المذراة وبدأ يعالج ويداري الصليبة بالمذراة.

كان يضرب المذراة بالقمح ويرفع فمها المملوء بثقل ووزن أكثر من الشاعوب بالهواء، وكان الهواء لا يزال ضعيفا، فكان يضطر لرفعها في السماء لعلو أكثر، وهو ما يزيد التعب والضغط على يديه وأكتافه.

خرج نصير للحارة يترقب ليرى أولاد عمه، فسمع أصواتا من على بيدر جارتهم ومن تحت الزيتونة حيث كان مفتاح وبقية الأولاد، فتقدم نحوهم مستفسرا عن الصوت وما يتطلعون إليه، فقال له مفتاح: أجوا أولادها العسكر للحجة صاحبة البيدر وقاعدين برحلوا وبحملوا على الحمير.

تساءل نصير: ليش بعملوا هيك؟

رد عليه مفتاح: شفت الرجال اللي كانوا تحت الزيتونة، وكانوا خايفين من الغارة، هظول زيهم خايفين من اليهود، عشان هم في الجيش، وها هم حملوا الحمير وأمهم مش راضية تمشي معهم، وزوجاتهم حملن معهن خبز وماء وأباريق شاي، وشفت وحدة حاملة طنجرة، وزوجها بقول لها: «ليش الطنجرة؟». قالت: «بطبخ لكم على الطريق لإنه بقولوا الطريق طويلة حتى نقطع المخَّاضة في الشْريعَة، وبعدين بنركب من شرق النهر ونروح على المعسكر في الزرقاء».

كان منظرا مؤلما عندما حمل رجل ضخم الحجة أمه وهي ترفض ووضعها على ظهر الجحش وقال: «خلينا نتوكل ونمشي والدنيا فضا قبل ما يجوا اليهود على البلد ويطخونا مثل ما قالوا لنا الناس الذين قابلناهم على الشْريعَة من قرى ومدن الخط الأخضر، إنهم قتلوا منهم ناس، وهدوا بيوتهم».

كـان هـذا أول موكـب هجـرة مـن القلـع لخمسـة بيـوت مفتوحـة، ومعظمهم أقارب وإخوة، ولم يكن من بينهم أحد من عائلة أبونسر.

لكن الرجل الذي حمل والدته على الجحش قال: سنمر وناخذ زوجة وأولاد أخ جارنا معنا، وسينتظرنا شرق الجسر بسيارة الجيش، فهـو يقـود ناقلة جند لياخذنا فيها، ويأخذ عائلته معه على معسكر الزرقاء.

كانت نصرة تطل برأسها من أعلى السنسلة، وترى ما يحدث وزوجهـا يرفع المذراة في الهواء، ويقول: «متى يشتد الهواء خلينا نخلص؟».

وما هي إلا لحظات حتى رأت سلفتها وهي تسوق حمارا وعليه شـوية أغراض ويركب فوقه ولدان صغيران، وتسـوق الحمـار لتنضـم إلـى قافلـة الجيران المهاجرين.

فرجعت إلى زوجها قائلة: زوجة أخيك مهاجرة مع جيراننا، ولم تنتظر منه جوابا بل نادت عليها: وين يا ميسر.

فردت عليها من تحت السنسلة: ما هـو بقـدرش يجي، ووصـى لنـا أن نطلع مع صاحبه في الجيش وراح ينتظرنا بعد الجسر.

قالت نصرة لها: تركت بيتك يـا سـلفتي وحياتـك، وكـل شـيء وراءك، واكتفيت بحمل الجحش والولدين!

كانت تحمل على رأسها طنجرة ملفوفة بصلاوية. وقد شاهدت نصـرة تنظر لذلك، فقالت لهـا: هـاي طنجـرة فريكـة، وذبحـت الـدجاجتين اللـي حيلتي واعملت عليهم فريكة عشان لما يجوعوا أطعمهم.

قالـت مسـتعجلة للجحـش: حـا.. طريقـك طويلـة يـا جحـش لتوصـلنا الشْريعَة.

قالت نصرة موجهة كلامها لزوجها على البيدر: «سمعت يا حج؟»، وأضافت: «شفت بعنيك؟».

أجاب وهو يقلب الصليبة: لاحقة بزوجها قبل ما يسكروا الحدود، ويصير فيهم كما صار في أهل النكبة.

ما إن انهى كلامه حتى سمعوا طرقا على البوابة، وأصواتا تشبه أصوات أولاده الذين في الجيش، فهرعت زوجات الأولاد إلى مصدر الصوت يفتحن البوابة ويستقبلن الطارقين المتهالكين من المشي والجوع والهم والغم بسبب ما عانوا وما رأوا خلال رحلة العودة.

دخل ابنا أبونسر، وبعد لقاء الزوجتين والأولاد وقبل التوجه إلى البيدر حيث والدهم يقلب الصليبة، نظروا معا لقاع البيت فرأوا الحمير فقال نسر: «هذه الحمارة جديدة، فسوف أطلبها من أبي»، وقال محفوظ: «وأنا سآخذ الأخرى، فلقد ركبتها بصغري وستحمل أمتعتي وأغراض البيت».

بينما هما متوجهان إلى البيدر ويتقاسمان الحمير قال نسر لمحفوظ: أنت تعرف هذه الحمارة، لا يمكن أبوك يعيرها لأحد، فكيف يعطيك إياها لتتركها على الشْريعَة؟ عشان هيك اخترت الجديدة.

كانا قد اقتربا من والدهما وسمع تخاصمهما على الحمير، وأسند جسده بكلتا يديه على المذراة فتقدما وقبَّلا يديه وهما يمسكان المذراة، وهو يقول: «لا تختصما لدي، روحوا ارتاحوا وكلوا وتحمموا، ما تستعجلوا حتى الآن لم نرَ يهوديا واحدا يدخل القرية، فلا خوف يا أبنائي».

سمع نصير بقدوم إخوته الكبار، فقفز من على السنسلة ورآهم يدخلون، ونسر يحتضن أولاده الصغار، فلحق بهم فوجدهم وكأن الطير حط على رؤوسهم، والتعب والإرهاق يجعلهم لا يحسون بنصير، ولا حتى يقولون له: «مال خدك وشو صار بوجهك؟»، فالكل مشغول بشأنه الخاص الذي يغنيه عن السؤال عن أخيه، وحتى زوجة أبيه.

فلما رأى نصير هذا الموقف قفز مرة أخرى من السنسلة ليعود إلى أولاد عمه مفتاح وأولاد الحارة، يترقبون قافلة جيرانهم التي بدأت تسير نحو الشرق، وقد نسوا حتى أن يقفلوا أبواب بيوتهم، فظلت مفتوحة مما أغرى فضول مفتاح ليدخل، ويرى ماذا تركوا وراءهم، فثار فضول نصير ليستطلع معه ويقف على الباب، ولم يدخل كما دخل الباقون من الأولاد وهم يفتشون البيوت بيتا بيتا لعلهم يعثرون على قرش أو قرط بين أثاث البيوت. كان أول ما يقومون بتفتيشه هو النملية التي أول من يصل إليها مفتاح لوحده، فأخرج جرارة خيوط وإبرة مغروزة بها وملقط حواجب وورقة عليها مادة صفراء ما لبثت أن لصقت على يده، ولما نظف أصابعه بلسانه وأسنانه، وجدها حلوة المذاق كالسكر أو أشد حلاوة، فضحك وقال لنصير: «تعال ذوق طعمها مثل العسل». ولما نظر فيها نصير وجد فيها نقاطا سوداء تشبه ذر النمل، وعند تدقيق النظر بها وجد أنه ليس ذرًّا بل هو شعر صغير وزغب مما يكون على الجلد، فرجع نصير خطوة للوراء، فوقع من على عتبة البيت قبل أن يدخله. أما مفتاح فقد خرج وهو يلحس أصابعه ويقول: خلينا نروح نشوف البيت الآخر، فلربما وقع شيء منهم في البيت قبل أن يهاجروا ويتركوا البيت.

وبينما هم يسطون على البيوت المهجورة التي تركت أبوابها مفتوحة، مر أحد الرجال فنهرهم وقال: سأخبر أقارب أصحاب البيوت، ليأتوا ويسكروا هذه البيوت وكل واحد منكم يروح على بيته.

قفلوا راجعين لبيوتهم وقد غابت الشمس وحل الظلام، وكان السكون هو سيد الموقف، فتسلل نصير من بين إخوته إلى نافذته وكانت أمه في هذه اللحظة تطفئ اللمبة وتقول: «يا حج أنت نمت، إذا ما نمت سامعني، ليش احنا ما نهاجر مع أولادك بكرة؟ أنا شفت كناينك فرحانات، بقولن انهن بدهن يروحن على الزرقاء بكرة، وزقطن الدحاج، كل واحدة بدأت تذبح دجاجاتها وتطبخهن، وتوخذهن معها، ويوكلوهن على الطريق»..

لم يسمع نصير أي رد من والده على مقترح والدته، مما يعني أنه نائم، فلقد أخذ التعب منه ماخذا كبيرا في تذراية البيدر وتصليب الصليبة التي أصبحت كتلة صغيرة، فكل شيء يبدأ صغيرا من حبة قمح تزرع فتخرج شطأها ويتفرع عنها عشرة سيقان أو أكثر أو أقل، ويحمل كل ساق سنبلة بها عشرات الحبات، فتستوي وتصبح مصفرة جاهزة للحصاد والبيدر والدرس والتذراية، لتختصر رحلة تعب بين الفصول من مطر وربيع وصيف، لتتقلص في صليبة قمح مغطاة بأكياس الخيش تمهيدا لكليها غدا..

كان آخر ما سمع نصير صوت والدته وهي تقول: «كأنك نمت يا حج وما سمعتني! يا الله بكرة بنحكي على رواك»، وغط الجميع بالنوم العميق.

بعد 16 حزيران 67
عودة أم هرب؟

كان الأمس يوما غير عادي على نصير، بعد جولة مع مفتاح وأولاد الحارة لدخول المنازل ذات الأبواب المفتوحة التي تركها أصحابها دون أن يغلقوا أبوابها، وهم مستعجلون على الهجرة أو الهرب من عدو، لم يروه حتى الآن.

عاد أخوه نصير من الجيش كما سمع نصير من حديث النسوان عند الطابون، وشاهد جارتهم صاحبة البيدر وقد هاجرت مع أولادها العسكر، وزوجة عمه العسكري هاجرت معهم، وتركوا أبواب بيوتهم مفتوحة، فهل يلحق بهم إخوته؟ شاهد نصير والده، وكان حزينا، وهو يجلس بجانب صليبة القمح صباح هذا اليوم، وما إن اقترب نصير منه حتى نهض وقال لنصير: اذهب وأحضر خريطة من عند أمك لتعبئة القمح.

بينما نصير يمشي ليحضر الخريطة، إذا بأخيه نسر يخرج من حجرته وقد تغير شكله، فلقد حلق لحيته ولبس ملابس غير التي كانت عليه، فوجد نصير بطريقه، فمد يده على رأسه وقال له: «ليش هيك خدك؟»، أراد نصير أن يجيبه فسمع صوت والده يستعجله، فتركه نسر وتوجه إلى صليبة القمح حيث كان والده يعدل الصليبة من جوانبها.

جلس نسر مع والده ريثما يعود نصير بالخريطة، وأخذ الوالد يلف هيشيته ويقول له: صب شاي، وخبرني شو صار معكم، وكيف عدتم؟

فراح نسر يقص على والده رحلة عودتهم وعودة الكثير من الناس من

الكويت والأردن والعراق إلى الديار لينتهي بهم المطاف يسيرون على الأقدام من الجانب الشرقي لنهر الأردن، أو ما يسمى بلغتهم الدارجة «الشْريعَة»، ليقطعوها من المخاضات ويواجهوا بعدها ما يسمى كَتايِر الأغوار التي يصعب المشي فيها، فلا يتحمل ترابها الأقدام، فاذا لم يتماسك ويتحايل عليها السائر فإنه يقع على ظهره أو جنبه أو حتى وجهه.

لم يكن الغور في يوم من الأيام تعبره أعداد كثيرة من الناس بين مغرب ومشرق عائد ومهاجر إلا أيام بطل الغور بحسب أسطورة أبي مليح، وشهد في أيام الحرب وما بعدها اكتظاظا بالعائدين والمهاجرين، فالعائدون كانوا يحضرون سيرا على الأقدام، والمهجرون بالشاحنات، والمهاجرون على الحمير، وما إن يصل العائد حتى يصبح مهاجرا عندما يجد حمارًا، فلقد عاد خائفًا على أهله، فاذا وصل ووجد حمارا أخذ أهله وهاجر، تاركا أبواب بيته مفتوحة لمن هب ودب من أمثال مفتاح ونصير وغيرهم.

أمسك أبونسر المدراة وأعطاها لنسر ليساعده، وأمسك نسر المدراة ولم يحركها وفي نفسه شيء يريد أن يخبر والده به؛ هو أنه عسكري وأخوه محفوظ فدائي وعادا لياخذا زوجتيهما وأولادهما خوفا من الاحتلال.

لم يتكلم أبونسر فهو يعرف ما يريد أن يقول، ولا يزال يتذكر كلام نصرة يوم أمس عندما هاجرت جارتهم وأبناؤها وزوجة أخيه.

أراد أبونسر أن يسهل على ابنه نسر الحديث فقال له وهو يكوم صلبية القمح: احكِ يا نسر شو صار معكم في الحرب ورحلة عودتكم؟

جلس نسر على الأرض، وفي هذا الأثناء حضر نصير مسرعا فهو لا

يريد أن يفوته شيء من أحاديث الحرب، وكان يحمل الخريطة فأعطاها لوالده الذي بدوره أعطاها لنسر وقال له: افتح فم هذه الخريطة.

وبدأ يكيل فيها حتى امتلأت وخاط فمها، وقال له بعد الغداء: «بتودي هذه الخريطة لأبي بصير الأعمى»، واستطرد قائلا: «احنا شرينا منه الحمارة السودا، لكن أخته طلبت خريطة قمح فوق سعرها وقلنا لها حلت البركة».

أخرج نسر باكيت دخان مربع الشكل ويعرف بدخان كمال، وأشعل سيجارة منه وناولها لوالده وقال له: «جرب هذا الدخان يا والدي، له فلتر وأريح لك من اللف». وأشعل واحدة لنفسه.

وقال لوالده إنه صادف أحد الناس الراجعين وهو يحمل خريطة على ظهره من الأردن مليئة بباكتيات دخان كمال، وقد أعطاني كروزا واحدا منها مقابل السماح له بمرافقتنا لكوننا نعرف الطريق، ولما سألته عنها قال إنه سيبيعها بضعفي سعرها بالمدينة، فبعد الاحتلال، أغلقت الحدود ولا تجارة، والمخزون عند التجار نفد.

رد والده: في الحروب بصير تهريب، ويصبح بعض الناس أثرياء.

وأردف الوالد: «أذكر في الحرب العالمية الثانية كنا نروح أنا وأعمامك مضاربين بجهدنا، ورأس المال لعائلة نابلسية. كانوا شركاء معنا في الأغنام، ونجيب عجولا من العراق لفلسطين، ويبيعونها للإنجليز بسعر مضاعف. ونحن نأخذ ربع الربح».

وضع أبونسر الصاع بين يديه وجلس متربعا بجانبه وهو يملأ الصاع ويسمي بالله ويقول: «ما شاء الله»، ويضعه بالكيس ويقول لنسر:

«هات قلي شو صار معاك ومع أخوك اللي لسه نايم كأنه عريس».

قال نسر: في اليوم السابع من حزيران كنت بسوق في القايد متوجهين للقدس بعد ما قالوا إنه الجيش لسه بحارب في المدينة، وقبل ما نطلع من الغور أجاه اتصال أن يعود فورا للقيادة، فلقد تقرر الانسحاب بعد ضرب الطيران وانكشاف السماء، فقال لي قبل ما نطلع طلعة مقام النبي موسى: لف وارجع الحرب اشتعلت والكيان الغاصب شن غارات بطيرانه على مطارات العرب، والحرب على جميع الجبهات المحيطة به، وأعطت القيادة أمر بالانسحاب. وعلينا العودة والتموضع في شرق النهر وأن نترقب ما تسفر عنه الحرب بعد ما انكشف الجيش الذي بدأ بالانسحاب.

وصّلت القايد بالسيارة على ناعور، وبعدين قلت له بدي أعود إلى القرية أحضر أهلي، فلقد سقطت البلاد، فقال انتظر حتى توصلني القيادة وبعدين روح على المعسكر في الزرقاء وسلم السيارة، وغير لباسك وخليهم يجهزوا لك غرفة لأهلك إن قدرت تخرجهم، وروح حاول تجيب أهلك.

التقيت بعد ذلك بأخي محفوظ جاي من معسكر الظليل على معسكر الزرقاء يسأل عني، وتابعنا وجهتنا باتجاه أحد قرايبنا في الزرقاء واسمه أبوخالد، وكان في الغويرية منذ أن تقاعد من الجيش.

تذكر أبونسر أبوخالد فقال له: بتعرف ليش ما عاد للبلد بعد التقاعد وسكن الزرقاء، وفتح فيها محل.

أجاب نسر: لا.

قال أبونسر: لإنه أبوه باع كل أرضه ورهن بيته.

قال نسر: «أول مرة بعرف ليش ما عاد على البلد».. واستطرد قائلا:

فبعد أن استضافنا نصحنا أن نذهب إلى مجمع السفريات حيث توجد الباصات والسيارات المتجهة خارج الزرقاء.

استقلينا سيارة مع الناس الراجعين، واحد منهم جاي من الكويت بعد ما سمع في الحرب، وقلنا للسائق يودينا لأقرب محطة للنهر، فرفض وقال: أنا بوديكم لعمان وانتو دبروا حالكم من هناك، أنا مش تكسي، أنا سرفيس بين عمان والزرقاء ما بقدر أطلع عن الخط.

وصلنا عمان بعد الظهر. أمضينا بعض الوقت في المحطة، ومررنا على المسجد الحسيني في وسط البلد، وصلينا الظهر وكان المسجد مليان والناس بتدعي.

رد عليه أبونسر: من خبرتي يا ابني إنه الناس يزيد عندها الإيمان عند المصائب والكوارث والحروب، وتزيد الدعاء.

كان كلام أبونسر يلامس تقلب الناس في حالة السراء والضراء، ففي السراء ينسى الناس وفي الضراء يهرعون إلى بيوت الله لترفع ويذكر فيها اسمه، فيزداد عدد المصلين، حتى الذين لا يصلون يأتون ليصلوا ويدعوا الله وهم خاشعة أبصارهم وترهقهم ذلة الهزيمة، طالبين من الله اللطف بهم وبأهلهم وأقربائهم.

عاد أبونسر ليقول: الله يساعد الناس، ففي بداية أول يوم أذاعوا بالإذاعات العربية وهم النصر، وفي آخره سمعوا من الناس إنه البلاد سقطت والجيش انسحب، فكان أن تحول النصر إلى وهم وباطل عندما سمعوا الحقيقة ونبأ السقوط من الإذاعات الأجنبية.

إن الدعاء والإيمان بعد وقوع الحدث قد لا يكون محط إجابة من الله تعالى بعد أن قصَّروا بالعمل والعبادة وولوا مدبرين ومن أرضهم خارجين.

وعاد نسر يسرد قصة عودته وأخاه: خرجنا من المسجد والناس تدعو على اليهود، وواصلنا سيرنا مشيا، ومررنا من جانب قصر العدل حتى وصلنا إلى العبدلي. كانت الشوارع مكتظة بالناس وبالسيارات، ولا أحد ينظم المرور، والفوضى لا توصف.

إن أكثر ما يقلق عوام الناس هو عدم الوضوح، خصوصا بعد أن ترفع مستوى التوقعات بالنصر وتحقيق الهدف، فتكون الهزيمة والخسارة.

قال نسر: ترى في وجوه الناس القلق، وهو ما يمكن أن تقرأه بأعين الناس، والحيرة في وجوههم، وكل واحد ينتظر نباء أو خبرا لما ستسفر عنه الحرب التي بدت نتيجتها كما سموها نكسة، وهي بداية هزيمة لثلاثة جيوش وخسارة الأرض وتهجير لكثير من الناس.

أضاف نسر: كنا نرى كل سائق يلتصق بمذياع سيارته يتابع أخبار الحرب، وجدنا أنفسنا وسط هذا الحشد الكبير من الناس وقد سيطرت عليهم الدهشة والقلق لما بدأت تُنقَل الأخبار عن تقدم جيش الاحتلال باتجاه مدن الضفة وسيناء، وإن كانت ما زالت القوات السورية تناوش وتنسحب من الجولان.

وأصبحت الأنباء عن قصف طيران الاحتلال العدو للمطارات الحربية المصرية ومطارات الأزرق والشام مؤكدة.

استطرد نسر محدثا أباه ونصير ينصت ويسمع، فهو يحب أن يخزن في

ذاكرته، وهناك أسماء مدن ومناطق لأول مرة يسمعها، حتى إنه عندما كان أخوه يتوقف عن الحديث، يذكره ويقول: وبعدين شو صار وين وصلتوا؟

استطرد نسر قائلا: صادفنا في العبدلي ابن عمنا وكان مستأجرا غرفة في فندق صغير، وجلسنا عنده نتابع الأخبار مع النزلاء، وكنا لا نستطيع النوم رغم الإنهاك والتعب.

مضى اليوم السادس على الحرب وتواردت الأخبار السيئة بسرعة ذلك اليوم ونحن هائمون على وجوهنا وسط الزحام الهائل في كراجات العبدلي، فاليوم اتضحت الصورة. سقطت الضفة ومدنها وقراها، وعرفت أن الجيش قد أكمل انسحابه، وعرفنا من الأخبار أن جيش الاحتلال يتقدم في سيناء والجولان على وشك السقوط.

قال نسر: لا أستطيع أن أصف حالة الناس والوضع النفسي والمعنوي السيئ الذي بات يسيطر على الجميع.

واستطرد نسر: التقينا في كراجات العبدلي ببعض شباب البلد القادمين من الكويت. قفلنا عائدين إلى الفندق، فقررنا العودة بعد أن بدات طلائع الناس القادمين من الضفة تصل إلى عمان وتنقل معها الأخبار المؤلمة.

ذهبنا نحن الثلاثة إلى جبل النصر حيث يسكن أخوال إخوتي.

وتوقف نسر وتطلع إلى نصير قائلا: خال نصير الذي كان في الشرطة، علنا نجد عنده أخبارا عنكم.

وقاطع نصير أخاه قائلا: أول مرة بعرف أن لي خالًا في عمان.

تابع نسر سرد قصة عودته قائلا: فأخبرنا أن ما هو مؤكد أن الناس تذهب خفية إلى غربي النهر، فاذا صادفهم اليهود أعادوهم، أما إذا كانوا

مهاجرين فيسمحون علانية ولا يسألون بل يشجعون من يخرج ولا يعود، فقال لنا إذا رغبتم في العودة فخذوا ما قلت لكم بالحسبان.

ضيفنا وأطعمنا من حواضر البيت ورجعنا إلى شارع السلط وسط الجموع المصدومة والحائرة، ما بتصدق كان بعض الناس يبكي. وآخرون وجوههم تدل على حالتهم النفسية، والكل لا يدري ماذا يفعل.

كانت تتجمع مجموعات من الناس حول بعضها البعض.

إن الانضمام إلى الجماعات أو ما يسمى القطيع يقلل من الخوف لدى كل مجموعة، فيتوزع الخوف على جميع أعضاء القطيع.

واستطرد نسر: كنا نسمع البعض يتكلم أو يناقش بصوت عال ومرتفع بعدما تنحى عبد الناصر وتحمل كامل المسؤولية عن الهزيمة والنكسة.

فقد الناس البطل الذي غذى آمالهم بالتحرير والنصر، وكانت النتائج عكس ذلك بأن كانت الهزيمة حقا، فلما سمعوا نبأ تنحيه، خافوا على وهم النصر الذي عشعش في عقولهم فلم يصدقوا، وارتفعت الأصوات في الشوارع، وأجهشوا بالبكاء والعويل الذي صار سمة الناس في الشارع.

زادت دموع بعضهم تساقطا عندما عاد ورجع عن التنحي، فما زال الوهم قائمًا، فالوهم لا يقبل إلا بالوهم، فما زالت الشعوب العربية متوهمة متضخمة، تعيش على ما صنع الآباء والأوائل، ولا تحاول أن تتطور، فحتى عندما تنحى البطل صرخوا وبكوا ليعود إليهم، ولا يريدون بطلًا لا يعرفونه حتى لو كان أهدى وأحسن من البطل الذي قال عن هزيمتهم نكسة.

قال نسر: كنا كجنود منهكين وحائرين وحزينين ونحاول الرجوع إلى

أهلنا والخروج بهم إلى شرق النهر حيث المستقر.

لم يكن حال نسر خاصا، بل كان عاما وهناك كثير من الجنود مثلهم هائمين على وجوهم يملؤون المجمع، ويتجمعون حول السيارات كل يسأل السائق عن توصيلة إلى جهته ومقصده.

سأل نسر أحد الجنود عن عمه وكان الجندي يعرفه، وهو من جيله وأصغر أعمامه من زوجة جده الثانية التي تزوجها الجد من شرقي النهر، وكان عمه يخدم في أحد الألوية في الضفة العربية.

أبلغ الجندي نسر أن كتيبة عمه انسحبت إلى شرق الأردن وتموضعت في معسكر في قرية «عيرا» بالقرب من السلط.

واستطرد نسر ووالده لا يزال يكيل في الصليبة قائلا: قرر ثلاثتنا التوجه في اليوم التالي إلى عيرا للبحث عن عمنا، وركبنا في أحد الباصات المتجهة إلى السلط. وصلنا تقاطع الطرق باتجاه قرية «عيرا»، صعدنا إلى إحدى الشاحنات العسكرية بعد أن عرفناهم أننا عسكر بلباس مدني، وسألت سائقها عن تموضع الكتيبة التي يخدم فيها عمي.

أبلغني بأنه يعرفه شخصيا وأرشدنا إلى مكان وجوده، ولما وصلنا تفاجأ عمي عندما شاهدنا ثلاثتنا أولاد إخوته، وإن كنت وابن عمي الآخر من جيله.

سألني عن أخبار البلد وقال إنه أوصى زميله جارنا في البلد اللي أمه صاحبة البيدر بإحضار أهله معهم إلى الزرقاء.

كان نصير يصغي لأخيه أكثر من أبيه الذي كان يسمع ويعمل ويكيل القمح بالصاع، فقال نصير: «أمس تركوا بيوتهم، حتى ما أغلقوا أبوابها

وراهم، ودخلناها أنا ومفتاح والأولاد، وحملوا حميرهم، ومرة عمي راحت معهم، وشافتها أمي وقالت لأبوي: شوف مرة أخوك هاجرت».

نظر إليهم والدهم ولم يتكلم، بل هز راسه وهو يعمل وقال: أكمل.

فقال نسر: نمنا عند عمنا، وفي صبيحة اليوم التالي جاء عمنا الخبر أن أهله في الزرقاء، فتركنا عمنا ليذهب إلى الزرقاء وأعطانا مطرة ماء، وقررنا ثلاثتنا العودة إلى البلد، فتوجهنا إلى بلدة الكرامة ظهرا، ومنها إلى شجرة السدر التي تتوسط السهل المقابل لقرن صِرْطِبّة ننتظر مغيب الشمس كما أوصانا خال نصير، وبعد أن انضم إلينا في الرحلة رجل يحمل خريطة على ظهره.

كان نصير قد سرح قليلا فالقصة طويلة، لكنه عندما سمع اسمه قاطع وقال: «أول مرة أعرف أن لي خالا في الشرطة بالأردن. أنا لما رحت مع أمي عند سيدي وأخوالي قالوا إنه في الكويت، ووقعت عندهم عن مرجيحة اللوز».

لم يعقب أحد على مقاطعة نصير، وواصل نسر يسرد قصة رحلة العودة، قائلا:

اجتزنا مخَّاضة الصعايدة في النهر عند غروب الشمس، وواصلنا سيرنا من الجانب الغربي للنهر على التلال الرملية (الكَتايِر). كنا نمشي بحذر من دوريات اليهود، حتى اقتربنا من شارع أريحا-نابلس إلى أن وصلنا إلى بركة «أبوالشيخ حسن» الواقعة في أراضي البلد في الغور، وكان معنا الرجل الذي يحمل خريطة على ظهره، وعرفنا في ما بعد أنها دخان، فوجدنا على البركة بعض أهالي البلد كانوا قد سبقونا في رحلة العودة من

الكويت، فشربنا الماء وملأنا المطرة وارتحنا وقص كل واحد قصة عودته.

ومن جانب البركة افترق عنا الرجل الذي يحمل الدخان، ليأخذ طريق الجفتلك والفارعة ثم البيذان فالمدينة.

لأول مرة قاطعه والده عندما سمع بركة «أبوالشيخ حسن»، فهو من أعيان البلد فقال: انتو عاد في الغور بتعرفوا كل شبر فيه، وزلمة الدخان يبدو إنه مهرب، ولربما يعود بعد أن يبيع ليحضر كمية أكبر أو الشيء الذي عليه طلب وغير موجود.

واصل نسر قص رحلة العودة قائلا: شعرنا بالأمان بعد أن عرفنا الأرض والطرق التي نتذكرها جيدا من أيام الرعي، وأنا اعرف الغور ومسالكه التي حفرتها أرجل الغنم كمعرفة خطوط راحة اليد، ورغم ذلك وبسبب التعب والقلق فقد أخطأت التقدير، وأخطأنا جميعا في التقدير.

فبدلا من متابعة السير في الطريق المؤدية إلى «عيون مانع» في السفوح الجنوبية لقرن صِرْطِبّة، تعبطنا السفوح الشرقية الوعرة والصعبة لقرن صِرْطِبّة، وما كدنا نقطع مسافة قليلة حتى شعرنا بالتعب والتوتر والعطش الشديد. وخلصت مطرة العم بالرغم من أننا ملأناها، لكن احنا مجموعة والحر شديد، وطلوع السفوح الشرقية للقرن كان صعبا، حتى إن الواحد كاد أن يشرب بوله، أما أخي فلم يعد يقوى على السير فاضطررت أن أتركه يتعكز علي إلى أن وصلنا بكل بمشقة إلى عيون مانع.

قاطع نصير أخاه قائلا: أنا نمت عند أبوي عند الجسر وما خلاني أطلع على القرن، بس جدك أبومليح بقول إنه قصر ملك الغور كان على ظهر

القرن.

تجاهل نسر مقاطعة نصير واستمر يقص رحلة عودتهم قائلا: وجدنا على العين مجموعة من أهل البلد ومن القرى المجاورة، كانوا يصطحبون زوجاتهم وأولادهم وحميرهم مهاجرين باتجاه الأردن، وفهموا من كلامنا أننا من أهل البلد. سلموا علينا بحرارة وصرنا نسألهم عن البلد وأحوالها. أبلغونا أن أهل البلد ما زالوا يحصدون؛ بعضهم في الفْجِم وبعضهم في الطويل، بس أبوك صار بذري في البلد، بينما أعمامك بعضهم لا يزال يحصد، وبعض الأقارب بالغور.

ودعناهم وتابعنا سيرنا شمالا باتجاه عين الحَفيرَة، شربنا واسترحنا قليلا.

قاطعه نصير وقال: وأنا وأبوي وصلنا قبلكم الحَفيرَة لمًا راح يحصد فصايل، وأبوي راح للمداحل وتركني عند العين مع الحمير في الليل!

تجاهل نسر قول نصير، وأبوهم يهز راسه مستغربا من الجدل بين أكبر أبنائه وأصغرهم، ويهز الصاع بيديه.

تابع نسر مسيرة عودتهم وقال: واصلنا السير شمالا نحو سهل الفْجِم، وكنا نقول بنشوفك هناك وانت تحصد، فوصلناه في منتصف الليل تقريبا ولم نجدك، وقالوا لنا إنك حصدت ودرست ونقلت وهاي كوم التبن المغطى لسه موجود. وجدنا أهل البلد وبعض أعمامي ما زالوا يحصدون، وتفاجأ عمي أبو زوجتي ومن معه بقدومنا، فقدموا لنا ما تيسر من الطعام وكانوا سعداء بقدومنا، ويسألون عن أبنائهم. بتنا تلك الليلة عندهم على البيدر من شدة التعب.

قال نصير: «تعرف إنه أبوي وهو على البيدر وكان بحزك الحبل على البغلة، فانشخلت الخطفة وخزقت الشرنوخة خدي».. ومد خده لأخيه ليريه له. «وبعدين أبوي أخذني على الدكتور في المدينة».

مد نسر يده على خد أخيه وتحسس اللصقة التي بدأت تتسخ، وقال: «كإنك أنت رأسك قاسي، حكولي أولادي إنك ما بتلعب معهم ودائما طاش بالغور». وأكمل سرد رحله عودته لأبيه:

في الصباح تناولنا الفطور عند عمي الذي طلب منا أن نحصد معه بدل الفطور.

قال والده: هذه عادته حتى عندما اغتيل والدنا فاستغلنا لنحرث معه لأنه هو الكبير، وعاوز يكون شيخ علينا.

وضحك والده، وقال أجبرني على زواجك وزواج ابنه ببدل الأخوات، وسقط الصاع من يديه.

وتذكر أن نسر كان لا يرغب في الزواج من بنت عمه.

لقد كانت النساء رغم أنهن يملكن الحرية الاقتصادية بالعمل في الحقول وبالحلب والتجبين، يعاملن معاملة المتاع، فيخضعن للمقايضة ويحرمن من مهورهن، ومن الميراث للأرض خوفا من انتقال حيازتها للغير. كان ذلك ظلما وزورا، فزواج الشغار أو البدل ما أنزل الله به من سلطان، لكن كهنوت الدين أجازه، فيقع الظلم على أحد الزوجين بمصادرة حرية الاختيار، ويكون أهل القرى قد ظلموا أنفسهم.

وقال أبونسر: حصدتوا معه؟

قال: لا ما أنت بتعرف إني أنا ما بعرف أحصد، وتركنا وذهب إلى

مارس جمونيا وهو يزمجر علينا غاضبا، وكان يضرب ابنه بالسوط الذي بيده ليتحرك بسرعة، ويقول أبونسر سبقني وصار في البلد.

واستطرد نسر: قصدنا الطريق إلى المُعَلَّقَة المؤدية إلى الطويل، فوجدنا الناس تحصد وتحمل الحمالات، وميلنا على الرَّواع فلم نجدكم، وقالوا لنا أبوك خلص الرَّواع والفَخْت وخلص نقل واحنا الآن بدأنا، وقالوا بتلاقيه على البيدر في البلد.

تسلقنا بعض الدبب الصغيرة بخفة إلى أن وصلنا إلى أسفل منطقة رأس الطويل، شاهدنا بيتا من الشعر ينتصب على بئر ماء يعود لدار أبوهلال.

ما إن سمع نصير الاسم حتى قاطع أخيه وقال له: مشيت أنا وأبوعلي الهلالي نهار، وحكالي سيرة أبوزيد الهلالي، وقال إنهم من قرايبهم.

أمسك نسر أذن نصير بخفة وقال: ما تقاطعني خليني أحكي للوالد رحلة العودة وأخلص، ورانا شغل كثير للتجهيز للهجرة.

فأكمل: واتجهنا نحو البئر وقدم لنا الرعيان الشاي بعد أن عرفوا أننا من دار «أبونسر»، سألنا أحدهم عما إذا أفطرنا فشكرناه، وواصلنا السير في الطريق حيث حمالات القمح تسير خلف بعضها البعض.

كانت الحمير بأحمالها تسد الطريق، وقد لونت الطريق بلون سنابل القمح التي كانت تعكس ضوء شمس حزيران!

كان بعض الحصادين ينتشرون في أرضهم يحصدون ما تبقى منها، وعندما أصبحنا بموازاة أحدهم عرفت أنه أحد أعمامي. انعطفنا باتجاهه ووقفت أمامه، وكان وجهه مغبرا من غبار قش القمح، ووجهه قد لوحته

الشمس، وكانت ابنته ذات السبعة عشر ربيعا بصحبته، وقد لوحت الشمس محياها وهي تمسك منجلها وتحاول بيديها الصغيرتين لملمة سنابل القمح وكأنها لأول مرة تحصد.

تفاجأ عمي بعد أن طرحت السلام عليه، وتقدمنا جميعا نحوه لمعانقته بعد أن رفع رأسه ووضع الشمال الذي كان بيده على الغمر قائلا: «أهلا وسهلا يا عمي، منين حضرة الشباب»، وبحركة عفوية قالت له ابنته على مسمعنا: «هظول أولاد أعمامي يابا اللي بالجيش، يابا أنا عرفتهم عالدم».

جلسنا بحانب أحد الغمور وسارعت ابنته إلى صب اللبن من زق مطمور في أحد الغمور، وأعطت كل واحد شراكة من خبز الصاج، قدمتها لنا وهي تسألنا: «ما شوفتوش أخوي يا أولاد عمي بطريقكم في عمان أو الزرقاء».

تقدم عمي نحونا وقال: «أنت ما تغيرت»، وتقدم من ابن عمي وقال: «وأنت كذلك»، وتقدم من أخي فقال: «ما شاء الله يا عم أنت تغيرت وكبرت، والله لو تلاقيني وين ما كان ما بعرفك». أردف عمي وهو يلف الهيشي فأخذتها منه وأعطيته سيجارة كمال، فسألنا عن رحلتنا وعن أحوال أولاد البلد والأقارب.

أمضينا زهاء ساعة، واستأذنّا منهم متابعين السير غربا، فكانت حقول القمح المنتشرة في الطويل بعضها محصود، والبعض مغمور، والآخر على الحمير محمول، وكثير منه ممن تركه أصحابه وهاجروا ما زال على حاله.

تغيرت أحوال الناس فليسوا كحالهم المعتادة، يمشون بحذر

ويتكلمون بحذر، والحزن والكآبة بادية على وجوهم بعد أن أصبحت البلاد ترزح تحت الاحتلال.

وصلنا سقايف دار أبوحميد وشربنا من البئر الموجودة أمامها.

قاطعه نصير: والدكانة ما شفتوها؟

رد عليه هذه المرة قائلا: لا كانت مسكرة.

لم يعد أمامنا سوى عَقَبة «أبو سليم» الوعرة تفصلنا عن البلد.

كان نصير يستمع لأخيه وقال: آه هان لقطنا سبل ورحت على الغور لوحدي.

نظر أخوه نظرة استغراب من المقاطعة ووالده يقول لنصير: لا تقاطع أخاك، خليه يكمل قرب يخلص، وأنا قربت أخلص تكييل.

قال: تسلقنا العَقَبة بخفة ونشاط. والشوق للقائكم والأهل والأحبة يحثنا على المشي بسرعة أكبر. وما إن رأينا أشجار الزيتون المنتشرة شرق البلد حتى صحنا: الحمد لله، وصلنا البلد، وهاي هي الناطوفة وكرم اللوز بتاع جدي أبومليح ظهر على يميننا.

وقاطع نصير مرة أخرى أخاه: قعدت أنا وجدك على صخرة الناطوفة، وحكالي حكاية بطل الغور.

مرة أخرى نظر إليه بغيظ فهذا الصغير الذي من جيل ابنته ما ينفك يقاطعه، لكنه احتراما لوالده لم يكلمه أو يقول له: اسكت.

تناول نسر سيجارة كمال أخرى فقاطعة نصير: وين راح اللي كان يحمل خريطة الدخان؟

لقد افترق عنا عند عيون مانع، وقال بروح طريق الجفتلك أقرب على

المدينة وبيع الدخان، أنت كأنك نسيت أو سرحت وما ركزت!

واستطرد بعد مقاطعة أخيه وهو يتأفف من مقاطعته وقال: صارت تظهر بيوت البلد أمامنا، ونسيم عليل رقيق كالحرير يداعب وجوهنا، يا إلهي، لم نصدق أننا وصلنا إلى البلد بعد رحلة العودة لنخرج منها مرة أخرى بدون عودة.

كال والده آخر صاع، وسأل نصير: شو اسمه هذا الصاع؟

قال نسر: صاع الخليلي.

قال والده: عليه السلام. يا ابني هذه أرض مباركة للعالمين، هاجر إليها إبراهيم واستعمل الصاع، واحنا من ملته المتبقية في هذه الأرض، واللي بطلع من هاي الأرض بتلفظه وبطلع ذليل على الحمير، واللي بيجي عليها بترحب فيه حتى لو كان عدونا. الارض يا ابني لمن يعمرها، وإذا أنت يا نسر عاوز تقعد وترث الأرض معي أهلا بك، وإذا عاوز تروح تلحق كرت المؤن الله يسهل عليك.

سمع قول أبيه وقال: سنرجع لها محررين يا والدي، وخليني أكمل:

حثثنا السير مسرعين وسط بيوت الحارة الشرقية نسلم على كل من يلاقينا إلى أن وصلنا إلى بابور الطحين والجامع، وبيوت القرية كلها أمامنا، ولم يهدم بها أي بيت، ولم نرَ آثار قصف.

قاطعه نصير قائلا: آه مكان ما ضرب الشيخ المعلمات على رجليهن، وقال كيف بدو ربنا ينصرنا؟ كان في مجنزرات مضروبات للجيش، تركهن وهو منسحب وأجوا اليهود وأخذوهن.

وأضاف نصير وهو يوجه حديثه لأخيه نسر: «انت شفت يهود، هل

قتلت أحدا منهم»، وأردف: «أنا شفت جنودهم على ظهر البيوت يوم ما حملوا المجنزرات. أنا عندي يهودي محبوس في محفظتي». وأراد أن يفتح المحفظة ويريه صورة اليهودي المحبوس بها.

أراد أبونسر أن ينهي مقاطعة نصير لأخيه نسر وسرحانه في خيالاته وأوهامه، فقال لنصير: روح خلي أختك حمامة تعمل شاي لنا.

فقال الوالد لنسر: خليك منه، هاظ كثير حكي. بعد ما تشرب الشاي خذ هذي الحمارة السودا وحمل خريطة القمح هاي وديها لأبوبصير الأعمى وأخته المسكينة، أنا وعدتهم أعطيهم خريطة قمح فوق حق الحمارة.

لم يمض وقت طويل حتى أحضرت أخته الشاي وبرفقتها نصير وسألت أخاها: «ما شفت خطيبي يا خوي ولا سمعت أي أخبار عنه؟ كان قايل بدي يجي في الصيف من الكويت».. واستحت إكمال العبارة.

نظر إليهما أبونسر وقال مخاطبا الجميع: «حمامة خطبتها طولت، خليها تروح معاك على الأردن واتصل على خطيبها، وسفرها على الكويت عنده أو خليه يحضر ويتجوزوا في الأردن».

لم يعجب نسر ذلك فهو لا يعرف كيف يحمل زوجته الحامل وأولاده الصغار، فلم يجب بنعم أو لا.

استدرك أبونسر فقال له: حمامة شاطرة، وما بتغلب، وبتساعدك على الأولاد في الطريق، البنت هاي بركة. أمكم ماتت وعمرها شهر وهاي آخر ذكرى من أمكم.

حمل نسر خريطة القمح، وكانت زوجته الحامل في شهرها الأخير

وتقول له وهي مسرورة: أنا جهزت كل شيء، وقلت للأولاد يمسكوا جاجاتي عشان تذبحهن ونطبخهن ونوخذهن معنا بنوكلهم على الطريق.

قال لها نسر: جهزوا حالكم بعد العصر، أنا وعدت ابن عمي نهاجر سويًّا بعد العصر.

ونهر نسر الحمارة وخرج، وبهذه الأثناء لمحه أخوه محفوظ الذي حضر معه، بعد أن صحا متأخرا فقال: وين رايح؟

لم يسمعه نسر وسمعه والده ونصير، فقال له والده: راح يوصل أمانة وسيعود بعد قليل.

فقال حفظي: يا والدي أنا بدي هاي الحمارة التي أخذها أخي نسر حتى أهاجر عليها.

رفع أبونسر رأسه وقال له: أحضر لي كيسا آخر حتى أضع القصل فيه ليكون زبل الطابون.

قال حفظي وكان شديد الانفعال وسريع الحكم ويشعر بأن أباه يفضل الأخ البكر عليه: يعني أعطيته الحمارة الجديدة.

في هذه الأثناء حضرت نصرة، وكان نصير لا يزال يجلس بجانب أبيه ويستمع له ويراقبه وهو يلف بهيشي؛ فقالت نصرة: يا حج بشوف الكناين بذبحن بجاجهن البياض وبطبخن.

قال أبونسر: بدهن يهاجرن!

وضعت نصرة يديها على خاصرتها قائلة: وأنا يا حج بدك تخليني أنا وأبنائي لوحدنا لليهود، يقتلونا ويهدوا الدور علينا، وخصوصا ابني البكر الكبير باسل.

تبسم لها أبونسر وقال: «انت بركة مثل هالبركة اللي أمامنا»، وأشار إلى صليبة القمح، وأضاف: «ما في يهود أجوا على البلد، ولا هدوا ولا بيت، ولا قتلوا أي شاب، وأنا استمعت لقصة عودة نسر ومن معه، ولم يذكر أنه شاهد يهوديا في الطريق، الناس خايفة من الحكي الذي يسمعونه. هظول يا أم باسل أزواجهم بالجيش، والجيش انسحب وراح يقعدوا شرق النهر، واحنا مش في الجيش، احنا في بيوتنا، ومن هالبيت ما في طلعة وكل من طلع من داره قل مقداره».

استشاطت نصرة غضبا وذهبت مسرعة للخم وهي تقول: وأنا كمان بدي أذبح جاجاتي، وأهاجر.

رجع نسر بالحمارة وقال لأبيه: «يا ريتني ما رحت لأخت أبوبصير الأعمى. مسكت الحمارة وبدها توخذها، وبتقول إنه ضحكتوا علينا في خمس ليرات وخريطة قمح، وجارهم قال لها جيبيها وأنا بشتريها منك بعشر ليرات، عشان بده يهاجر عليها».

كانت الحمير ارتفع سعرها لزيادة طلب المهاجرين عليها!

قال أبونسر: وبعدين شو سويت؟

قال تدخل الرجل المتقاعد فهيم وقال لها: «انتوا بعتوا الحمارة، وهاي مش الكم».

وهددها إذا كان بدها تستعيد حمارتها قال لها: ادفعي عشر ليرات مثل ما قال لكم جاركم، فسكتت وقالت: خلي أبوك يبعث لنا شوية جبنة كمان.

تبسم أبونسر وقال حلت البركة لهم فهم محتاجون، وأخوهن مسكين

ما بشوف ورجله مكسورة!

رأى حفظي نسر وهو يربط الحمارة ويقول لأبيه: أنا مريت على ابن عمي قال لي: بعد العصر بنهاجر على البراد، وكان يجهز حماره، وأنا بدي آخذ هذه الحمارة، وأجهزها وأهاجر عليها.

قال أبونسر: ومن سيعيدها من عند الشْريعَة؟

بشوف حد من البلد راجع على البلد وبسلمها له أمانة يرجعها لك ويركبها.

صرخ أخوه حفظي: وأنا أي حمار بدي أحمل عليه أغراضي؟

قال أبونسر: «أنت ما عندك أولاد وزوجتك غير حامل، حط أغراضك مع أخوك على نفس الحمارة وامشوا. مثل ما جيتوا مشي ارجعوا مشي»، وصرخ أبونسر غاضبا: «الأرض مش بحاجة لأمثالكم. غوروا عن وجهي».

وأضاف أبونسر: «الحمارة الثانية والبغلة لا يمكن أن أفرط فيهن».

زعل الأخ الأصغر حفظي من أبيه وأخيه، وارتمى على الأرض وهو يتفعفل مستعطفا والده كونه هو أصغر أبنائه من الزوجة الأولى، وقال مهددا بعد أن فشل في الاستعطاف: والله لأروح لليهود وأقول لهم إنه عندكم في البيت بارود، وخليهم ينسفوا البيت عليكم أو بروح للبرمجي.

لم يأبه الجميع بما كان يقول حفظي سوى أن زوجته أخذته لحجرتها، وما هي إلا نصف ساعة حتى تغدوا جميعا، وكان قد أصبح البيت مرتبكا وحاله كحال البيوت الأخرى في القرية التي كان لها أبناء في الجيش، أو في

الكويت. ومعظمهم سمعوا ما بما حصل في المدن والقرى الغربية من هدم وقتل، فانتشرت الأخبار الصغيرة التي قد يكون جزء يسير منها حقيقة، فأصبحت وهما كبيرا ولدته أحاديث القرى وذاكرة الناس وكبرتها مخيلتهم من عمليات قتل وهدم وطرد، حتى ترسخت في أذهان النساء فأصبحت المادة الرئيسية لحديث الطوابين، فما إن تتلفظ إحداهن بخبر حتى تتلقفه خمس أو ست نساء جالسات بباب الطابون، وكل واحدة تنقل الخبر إلى زوجها أو حارتها وقد زادت عليه أو أنقصت منه أو حرفته أو هولته، ليصل وما به إلا عشر الخبر الحقيقي.

إن النساء هن الاكثر تأثيرًا على الرجال، فإذا رحلت جارة أو قريبة وأصبحت في عمان أو الزرقاء، فإن الأخريات يردن الهجرة واللحاق بها، فإذا كان ذلك كذلك، فإن معظم القرارات تكون من النساء وقليل منها من الرجال، لكن هذا القليل أيضا تحت تاثير النساء، وهو ما يعني أننا تحت حكم النساء شئنا أم أبينا، كما لو أننا أمام أسطورة نساء الأمازون.

إن بيت أبونسر كغيره من البيوت، معظمهم يريدون ترك البيت والأرض ليصبح من المهاجرين، إلا كبير البيت أبونسر المتعلق بالأرض، الذي بدأ تخزين قمح الصليبة في الأكياس تمهيدا لسكبه في الخوابي. ونصير الذي يستمع ويصغي، وتسجل ذاكرته الأحداث بصمت كصمت الغور، ويستمع للأحاديث فيقاطع تلك الأحاديث عندما تتقاطع مع غورانيته التي توقظها الأحاديث من غفوتها، فلا يستطيع وقفها، فهذه الغوارنية عاش بها وداعبتها أحلام الطفولة لديه، وأطفأت نارها زيارة

المدينة.

بدأ الحصادون يغادرون الغور، وحمالات القمح المغربة اختفت وحل محلها حمير المهاجرين أو الهاربين أو المهربين والمشرقة بقليل من المتاع، تاركة البيوت وأبوابها مشرعة لمفتاح وأصدقائه، ولمن سيأتي من بعدهم.

تأخر نسر وحفظي وابن عمهم في الانطلاق، فجهزت نساؤهم أغراضهم، ووضعهن بعض الأشياء في حقائب وأكياس صغيرة.

قبل غياب الشمس تجمعت قافلة الحمير عند باب البيت، فانتشر خبر هجرة نسر وحفظي وابن عمهم ومعهم حمامة، وكانوا على وشك الخروج بعد تقاسم الأخوين نسر وحفظي الحمارة، كل واحدة شقة من خرجها. وأولاد نسر: البنتان والولد على ظهرها، بينما زوجته الحامل ستمشي بحملها، وحمامة ستحمل طنجرة طبيخ الدجاج على الفريكة، وزوجة حفظي ستحمل صرة على رأسها.

جاء أيضا ابن عمهم وزوجته وولداه وشقيقه الذي كان من جيل باسل واسمه أحمد وشقيقته الكبيرة، فما إن شاهدت نصرة أحمد يهاجر مع أخيه حتى قالت: «أنا ابني البكر باسل من جيل أحمد، وما بخليه لليهود يقتلوه». ووجهت كلامها لزوجها مباشرة وأمام الجميع: «هاظ ابن أخوك الكبير أحمد ومش عسكري، ومن عمر ابني باسل ومهاجر مع أخوه، فلازم باسل يهاجر».

كانت نصرة قد فشلت كل محاولاتها منذ ليلة أمس مع أبونسر ليهاجر، فانتقلت إلى هدف آخر ممكن أن يتحقق وهو هجرة ابنها باسل. لقد

كانت تصر على أن تهاجر هي، وقد ذبحت وطبخت بعض دجاجاتها غيرة من زوجات أولاد زوجها. لكنْ أبونسر الذي انهى للتو البيدر وهو على وشك أن يحفظ القمح بالخوابي، لو هدموا البيت فوق رأسه لن يهاجر، فانتقلت إلى الهدف الآخر وهو قابل للتحقيق، بأن يهاجر ابنها البكر ابن الخمسة عشر عاما.

عارض أبونسر زوجته بهجرة ولده، وقال: «لسه الولد صغير، وين بدوه يروح يتلطى ويترمى معهم»، لكنه رضخ تحت إصرارها وتهديدها بترك البيت، فجهزت على عجل حقيبة صغيرة له وقالت:

الحق بأخويك، وإذا وحدة منهن زعلتك روح عند دار خالك في عمان، وخليه يعملك جواز ويكبر عمرك ويسفرك إلى الكويت، وما ترجع على البلاد، البلاد راحت لليهود.

تهيأت القافلة وانضم إليها باسل. وفي اللحظة الاخيرة حضرت عايشة الابنة الكبرى التي سافر زوجها إلى أمريكا ولم يرجع. وكانت مجهزة نفسها وحاملة حقيبة متوسطة معها وصرة، وقالت: أنا شو بدي أظل أسوي هان، خليني أهاجر معكم وبعدين بدبر حالي حتى ألحق بزوجي وين ما كان.

سقط الأمر من يد أبونسر فاستسلم وجهز الحمارة الثانية لأولاده، وأخذ عهدا على نسر أن يعيدها له بعد أن يقطعوا الشْريعَة، فهي تعيش معه منذ خمس عشرة سنة، وكانت تحمل نصير من الغور وتسير به لوحدها وتصل إلى البيت، فتقدم منها نصير وودعها، وكان يسير مع الأولاد خلف

قافلة حمير المهاجرين حتى خرجوا من شرقي البلدة، فعاد نصير والأولاد إلى بيوتهم قبل أن تغيب الشمس.

كانت القافلة تسير ببطء وبتمهل لوجود الحوامل، وكانوا يستريحون بين فترة قصيرة عند آبار الماء وعيونه للشرب وملء سعن الماء ليطفئ عطش الأطفال، حتى وصلوا إلى «عيون مانع» في عمق الغور عند منتصف الليل، فاستراحوا وتابعوا السير شرقا إلى أن وصلوا إلى الشْريعَة، وكانت زوجة نسر الحامل قد بدأت تشعر أن الجنين يريد أن يخرج بعد كثرة المشي، فحمل نسر ومن معه الأولاد، وركَّب زوجته على الحمار ليقطع بها الملاحة وهي تقول: «حاسة بتوسع في الرحم». وقطعوا الشْريعَة ومنطقة الزور، وعند أقرب سدرة قالت له: «وقف هان حاسة الرأس بمزط»، وأنزلها نسر عن الحمارة وتوقفت القافلة، وعمل خيمة من شالتها وجمعوا الحطب على عجل، وأشعلت أخواته النار، ومُلئت الطنجرة التي فُضّيت من الأكل بالماء من السعن، وسلفتها تمسك يديها، وزوجة ابن عمه عملت نفسها داية لها.

كانت صوت الطلق والآهات والشد قويا، وما هي إلا لحظات حتى خرج مولود جديد مهاجر منذ لحظة ولادته، فبعد أن تركت بيتها وسارت خمسة عشرين ميلا وقطعت الشْريعَة، وتحت أول سدرة قابلتها ولدته، فقطعن صرته، وسماه نسر «يوسف».

بينما هم فرحون بالمولود الجديد، كان نسر مشغولا بكيفية إعادة الحمارة لوالده والوفاء بعهده.

صادف نسر كثيرا من العائدين قبل أن يقطع النهر، لكن بعد ذلك لم يعد يرى أحدا. نظر حوله مترقبا وهو يقول إذا لم أعدها لأبي فلن يثق بي بعد ذلك. ثم تطلع في وجه المولود وكبَّر في أذنه، وقال مداعبا: «إن عشت فأنت أول مولود أثناء الهجرة وعند الشْريعَة». وبينما هو يكاغي له ويطرد الذباب الأزرق من تحت السدرة الذي تجمع على مخلفات الولادة، أعطى الولد لأخته وأخذ الخلاصة وابتعد بها قليلا، وحفر بالأرض بغصن سدر جاف حفرة، وبينما هو يزيح التراب فوق الخلاصة برجليه في الحفرة، شاهد شاحنة تقف ليس ببعيد لكن بجانب أحد الكَتابِر، وتفرغ أكياسا وحمارين، فسار إلى الشاحنة فخافوا منه وارتموا أرضًا، فسلم عليهم فإذا هم رجلان وحماران وسائق الشاحنة وخمسة أو ستة أكياس. تذكر ذلك الرجل الذي رافقه وكان يحمل خريطة الدخان على ظهره، فتفاجأ فعرفوا بعضهم، وقال له: «هذا أخي». فرح بهم وقال للسائق: «بدنا نركب معك وتوصلنا الزرقاء، فكم تريد مقابل ذلك؟».

قال المهرب للسائق: راعِهِ، لقد كدت أهلك من العطش في المرة الأولى لولا أن سمح لي بمرافقته؟

قال السايق: دينار ونصف.

قال: خليها دينار، واحنا وأغراضنا مش كثار.

والتفت للرجل الذي يعرفه فقال له: «عاوز توصل الأمانة لوالدي في بلدة مَصْطَبة.. تلك الحمارة لإنه أخذ مني موثقا لأعيدها له».

فرح المهرب فقد حصَّل حمارة لتحمل بعض مهرباته وقال: أبشر..

ساروا جميعا إلى السدرة فركبوا الشاحنة من الخلف، وركب هو وزوجته والمولود الجديد بجانب السائق، وأخذ المهرب الحمارة وعاد إلى رفيقه لينتظروا الظلام ويحملوا بضاعتهم ويقطعوا النهر، وهو يعلم أن اليهود يطاردون العائدين ويغضون النظر عن المهاجرين، فكيف إذا كانوا عائدين ومهربين؟!

واصل السائق سيره باتجاه الكرامة ومنها إلى عمان ثم الزرقاء، فمعسكر الزرقاء.

أما المهربون فقبل مغيب الشمس كانوا قد حمّلوا الحمير بأكياس وبالات البضاعة، وقطعوا الشْريعَة من مخَّاضة الصعايدة، وقد استعدوا وتوجهوا غربا، وأسرعوا قبل أن تصل أي دورية إسرائيلية ليقطعوا بسرعة الشارع الموصل بين أريحا ونابلس، ثم عين «كوريزليا» ثم غربا إلى بير أبوالدَرَج وصولا إلى الفْجِم ومن ثم إلى طريق الجهير لإخفاء البضاعة في أحد الكهوف من أجل أحد التجار لإحضاره فيعاين البضاعة ويتفقون على السعر، ثم النقل إلى القرى الواقعة بعد جبل طانِة وبعدها إلى المدينة.

أفرغوا الحمولة وساق أحدهم الحمارة ووصل إلى عين الجْهير التي وجد عندها بعض أهالي بلدة أبونسر، وبعد السلام قال لهم إنه عائد وقابل نسر وسلَّمه الحمارة ليركبها ويعيدها إلى والده، فوافق وها هو يريد أن ياخذ طريق طانِة مشيًا إلى بلدته، فقال الرجل: «إن شاء توصل». وأضاف: «أبونسر من نسايبنا»، فسلم الأمانة وبلغه ما قاله نسر له، عن أنه

سيكون بمعسكر الزرقاء.

صعد الرجل المهرب، وواصل سيره من على هضاب طانِة وأخوه في الكهف يحرس البضاعة المهربة ليصل إلى بلدتهم. فوصل الفجر، ووصلت الحمارة لصاحبها ثاني يوم محملة بالليمون والرمان الذي سبق أن زرعوه في بساتين حول نبع الجهير.

ما بعد 20 حزيران
الحمير

عادت الحمارة، مع حمل الليمون والرمان من بساتين نبع الجهير، وسأل أبونسر عن كيفية عودتها ومن أعادها من الشْريعَة؟ وما قال له الرجل الذي أعادها؟ فقيل له إن ولده نسر ومن معه سيكونون في معسكر الزرقاء، وإن من أوصلها هو من كان يحمل خريطة دخان كمال معه، وقد رافقه في رحلة العودة أول مرة.

سأل أبونسر عنه من اي بلد؟ فقيل له: إنه من البلدة التي خلف جبل طانِة!

فاستغرب أبونسر من عودتها بعد الطلب الهائل على الحمير ممن هم من المهاجرين، والتهريب يزيد الطلب على الحمير!

أصبحت الحمير مطلوبة من الجميع من المهاجرين والعائدين، ومن الثائرين والمهربين، وأخيرا من اليهود المحتلين.

أنهى بعض الناس المتاخرين حصادهم في الغور، أو كادوا أن ينهوا، فمنهم من أنهى الحصاد وأخذ يدرس البيدر على الحمير.

كان المجنون دبدوب يتمختر في القرية وهو مزهو بلباسه العسكري، ويصدر أصوات طائرات ومدافع ورشاشات، وينام على البيادر مع من ينامون على بيدرهم، ويأكل مما يأكلون. وكانوا يخافون عليه لأنه لابس لباسا عسكريا، ويتندرون على بيادرهم بالقول: إذا دخل اليهود حسبوه عسكري، فطخوه وخلصوا القرية منه ومن أصواته التي لن تهزم المحتل

ولن تخيف أهل القرية.

تنادى الأولاد مصبحين أن هناك بيوتا أبوابها مفتوحة. إنها البيوت التي تركها أهلها فكانت مهجورة.

كان مفتاح والأولاد يتسكعون بالحارة، ونصير يسير معهم فينظر ماذا يفعلون. كان مفتاح يتطلع ويترقب، فكلما هاجر أصحاب بيت وجد أبوابه مفتوحة فدخل، وإذا كانت مغلقة فتحها ودخل يستكشف ما تركوا في بيوتهم، فينتهكون بيوتا مهجورة وهم لا يعرفون.

كان مفتاح وعصبته إذا لم يجدوا بيتا لمهاجر يذهبون إلى البيادر، ومرات أخرى ينزلون على العَقَبة لالتقاط السبل الواقع في الطريق، وكانوا بالكاد يعثرون على ضمة سبل بمقدار قبضة اليد، ونصير كان يرافقهم ويراقب ويسمع، فلقد نقص عدد من ينامون معه، فشقيقته وأخوه هاجروا مع من هاجروا، وهجر النافذة، وأصبح ينام على الأرض، وأصبح له متسع ومكان ليتقلب به وسقف ينظر إليه، بل قد ينام في حجرة لوحده.

كان ينبطح على فرشة الأرض لوحده، ويختلس النظر فقط للحائط وما تبقي به من صورة العذراء التي لم يمسسها بشر.

أصبح نصير يجلس مع والده الذي خلص حصيدة ودرس، وذرى وخزن القمح في الخوابي.

لاحظ نصير على والده أبونسر الذي كان صامتا كصمت الغور، أنه الآن بعد ما حدث أكثر صمتا من الراديو الذي خلصت بطاريته، ولم يعد بالإمكان شحنها.

أتاح لأبونسر صمت الراديو أن يفكر بأولاده الذين تفرقوا، ولم يعد

عنده إلا الصغار وسقف الحيط، فقد سقط السقف وبقي الحيط، وأصبح الغور طريقا لحمير المهاجرين والعائدين والمهربين وقليل من المناضلين.

كان أبونسر يشعر بألم في خاصرته اليمنى التي أرهقها بالثني بالحصاد ولي الشمل وغمر الغمور والتحميل وشد الحبل، والضغط على الخطفة التي خرقت خد نصير بحياته، فتذكر أنه مر أكثر من عشرة أيام على الضمادة، ويجب أن يغيرها له ويزيل الغرز، فقال لنفسه: «إن الخرق قد التأم فهو يكفيه ما عنده من ندوب من آثار عضات الكلب!». واستطرد في التفكير: «لكن التمرجي لم يعد من قبل الحرب، والمستوصف مغلق، فماذا لو كشف هو بنفسه على الجرح أو استعان بصديقه المتقاعد من حرس الحدود فهيم، فلقد سمعه مرة يقول الإنجليز شاطرين في التعليم وعلموهم على إسعاف أنفسهم في الحروب، وقال: ربما سأجد عنده خبر أو مطهر أو على الأقل سبيرتو وشاش نظيف، فيغير على الجرح ويترك الغرز، فسوف يغطيها الجلد مع تقادم الزمن». وبعد هذا التفكير قرر أبونسر أن يخرج إلى البلد وإلى البيادر، فقد سمح للمتقاعد فهيم أن يبيدر مكانه في البيدر، وقال في نفسه: ولماذا لا آخذ نصير معي؟ فهذا الولد لم يتعلم، سأعلمه الوضوء والصلاة، والمدرسة والحياة ستعلمانه ما تبقى. سيرافقني فيصلي المغرب في الجامع، وبعد صلاة المغرب ممكن أن يقابلوا فهيم أو يجدوه بالبيت أو على البيدر، وقد يجد لديه إجابات على ما حصل في الحرب وما بعد الحرب!!

قبل غياب الشمس نادى على نصير: «ما تروح تلعب برة، خليك

بتروح معي لصلاة المغرب وبتصلي معي، وبنغير على جرح خدك»، وقال له: «أحضر لي إبريق الوضوء وراقبني كيف أعمل، وقبل ذلك روح تحت التينة واغسل حمامتك وما تحتها بالماء بيدك اليسرى، وتعال وشوفني شو بعمل واعمل مثلي».

كان ذلك مألوفًا لنصير، فلقد شاهد أباه وأمه وغيرهم يفعلون ذلك لكنه لم يكن يفعل ذلك، ونادرا ما غسل وجهه في الغور، ولم يقل له أحد توضأ وصلِّ، وقد شارك في الصلاة الجماعية عدة مرات بدون وضوء.

ولما وصل إلى المضمضة قال له أبوه: «تمضمض ثلاث مرات وابصق». وكان يراقبه ويراقب فتحة فمه وما يخرج من مخرجات الماء، فقال له: «افتح فمك»، ونظر إلى جدار خده من داخل فمه، فوجد أن الجرح اختفى وبطانِة فمه واحدة ولها نفس اللون فقال: الحمد لله.

فقال نصير: يعني واحنا بنتوضا بنقول الحمد لله يا أبي؟ فأجاب: نعم والأفضل أن تقول بسم الله والحمد لله.

وأضاف والده: «اغسل جهة واحدة من خدك، وهذه الجهة التي عليها شاش؛ امسح بيدك فوقها فقط لا تضع الماء عليها».

قال أبونسر لنصير وقد شمر عن ساعديه ليكمل وضوءه: «بدنا نروح نصلي المغرب ثلاث ركعات في الجامع، افعل كما أفعل أو كما يفعل المصلون والإمام».

كان عدد المصلين بعدد أصابع اليد الواحدة. أقام الصلاة أحد أعمامه، وتقدم الإمام وكبر رافعا يديه إلى مستوى أذنيه، وصمت قليلا وقرأ الفاتحة، وعندما وصل إلى نهايتها قال المصلون جميعهم بصوت واحد: «آمين».

فسكت الإمام، وقرأ ما تيسر من آيات الذكر الحكيم من سورة الأنعام، فأتى على ذكر إبراهيم عليه السلام والكوكب والقمر والشمس.

انتهت الصلاة وتجمع المصلون تحت التوتة التي أصبحت عارية ويابسة، وأحد الرجال يقول: خلينا نقطعها لقد ماتت، والأحجار التي تحتها بقولوا إنه اليهود أجوا في الليل واحنا نايمين وأخذوها.

لاحظ نصير أن الحجارة الأسطوانية لم تعد موجودة، فلم يعد هناك من مقاعد يجلس عليها الرجال ويتجادلون ويتجاذبون الأحاديث، وأصبح الختيارية يجلسون أمام الدكاكين ليتحدثوا عن أسعار الحمير، وكيف زادت بسبب المهاجرين والمهربين.

تفاجأ أبونسر بمليح وسأله عن والده فقال له إنه بخير لكن ما بقدر يمشي، واقترب منه مليح قائلا: «الشباب والبنات هاجروا»، وأمسك يده وكان كثير الكلام وأبونسر لا يصدق من كلامه شيئا، لكنْ مليح وهو خال أولاده سأله: «ما بدك تجرب تروح للضفة الشرقية يا حج، وتزور أولادك وتطمنا عليهم وعلى البنت؟».. وأضاف: «وأنت راجع بتجيب لك شوية أغراض وبتبيعهم هان».

لم يكترث لكلامه أبونسر، فقال له مليح: «أنت مش مصدقني، الناس بتهرّب بضاعة ودخان للضفة الغربية، الناس بتربح في النقلة الواحدة بتعمل أكثر من تعب سنة»، وأضاف مليح قائلا: «فحتى في ناس تركوا زرعهم بدون حصيدة، وبعضهم بدون درس، واشتروا حمير وبعضهم استأجر حمار». وتدخل رجل آخر يثني ويصدق ما يقول به مليح: «أنا شفت واحد بأجر حمارة بعشرة دنانير على النقلة الواحدة»، فتدخل رجل

ثالث مشتركا بالحديث: «بس فيها خطورة لإنه اليهود صاروا يطلعوا دوريات على خط أريحا نابلس، واحد قلي إنه طخوا عليه في الزور قبل ما يقطع النهر، وظل مستلقي مكانه حتى راحوا، والله ستره».

كان أبونسر يتوقع أن يجد فهيم في صلاة المغرب، فوجد مليحا الذي أعطاه أخبار الساعة في البلد، فتركهم بجانب الدكان يتحدثون عن اليهود متى سيحضرون للقرية، وأخذ بيد نصير وسارا نازلين إلى البيادر وقد حل الظلام، فإذا بفهيم قد درس بيدره وجهزه للتذرية وأخذ يشعل اللوكس، فبادره أبونسر: قوكم، إن شاء الله الريح طيبة الليلة وبتخلص.

قال: «الله يسمع منك. هيني بضوي باللكس، احنا مش زيك صرت مخلص كل شيء»، وأضاف: «هات هالعلبة نلف سيجارة»، وجلسا وهما يتحدثان ويدخنان فقال له: «أنت بتعرف التمرجي راح وما رجع، وبدي أفك الضمادة عن وجه الولد».

فقال فهيم لنصير: قرب يا عمي شو اسمك؟

أجاب: نصير.

رد فهيم مبتسما: «مليح إنه مش ناصر»، ومد يده على خده وانحنى حتى أصبح في مستوى نصير ويقول له: «افتح ثمك وسكر»، ونزع الضمادة وأحضر شوية «سبيرتو» من اللوكس وسكبها على طرف حطة والده ومسح بها الجرح، فأحس نصر بحرقة في خده فقال له: «لا تخف راح تجف، وهذا الألم يعني إنه مناعتك تقاوم الالتهاب، وما تحط عليها ماء، وخلي الغرز أيضا تجف، وبعدين يمكن يرجع التمرجي، ويفك لك الغرز، لكن اطمئن فالخرق مسكر، واللحم كتم من برة ومن جوة».

توجهه فهيم بالحديث لصديقه أبونسر قائلا: شفت شو صار بسوق الحمير، صار إذا بدك تشتري حمار بدك مهر عروسة!

رد عليه أبونسر: شفت شو صار في العرب؟ واستطرد متسائلا: شو بصير برأيك يا فهيم فهمني؟

قبل أن يجيب فهيم وقد أنهى إضاءة اللوكس، ظهر له خيال متحرك من خلف الصبرة وشوية خسفة، وتبع الخسفة صوت دبابة وبعدها صوت مدفع، وصوت رشاش وصوت طائرة. قال نصير وهو يتحسس خده: «هاظ المجنون دبدوب. ظهر لي وهو يلبس عسكريا، لابق عليه الزي العسكري».

وسأل نصير أباه وفهيم سؤالا غريبا عن المجنون بعدما استفزه فضوله الغوراني، سائلا: كيف دبدوب صار مجنون؟

نهره والده قائلا: «شو بدك في هذا السؤال يا ولد؟». وامتعض منه، ومع ذلك قال له فهيم: قرب عندي أحكيلك قصة دبدوب، وكيف صار مجنون؟

دبدوب كان ولد عادي وهو أكبر مني شوي وممكن من جيل أبوك، وسمعت من أهل البلد إنه لما ولد كان كبير الحجم، وتعسرت ولادته. ورغم اجتماع كل دايات البلدة عليه، فقد مكثت أمه يوما كاملا وهي تدحر، وتطلق دون فائدة. وأخيرا جرحت إحداهن رحمها لتوسعه فخرج وكان حجمه غير طبيعي، ولونه أسمر، وأنفه أفطس، وشفاهه غليظة وعيونه جاحظة، وما لبثت أمه أن ماتت من شدة النزف. وكان الكساد والقحط ولم يجدوا مرضعة له إلا الحمارة التي كانت قد ولدت بنفس

اليوم، فقتلوا الكر وكانوا يحلبون له الحمارة ليشرب ويعيش ويكبر جسمه الذي كان أكبر من غيره. لم يصبر أبوه حتى تزوج أرملة من بلدة أخرى وأصبحت تعامل ابنه دبدوب بقسوة وطردته من البيت، وكانت تنيمه برى البيت لما يكون أبوه مش موجود، وكان ولدا عاديا لكنه يختلف عن أصحابه، بأنه ضخم وغير جميل وبشرته سمراء تختلف عن غيره، وما لبثت زوجة أبيه أن حملت وولدت له ولدا طبيعيا وجميلا وبشرته بيضاء، فأحبه والده وميزه بكل شيء، وجعل من أخيه حارسا له يحمله ويهتم به. وعندما كانوا يلعبون كان كل الأطفال يخافون من أخيه فكانوا له مذعنين ليس خوفا منه بل من شقيقه الذي كان إذا لمسوا أخاه الصغير ضربهم وهربوا منه، وكانوا يترصدون أخاه الصغير حتى إذا كان لوحده انتقموا منه، وكعادتهم يلعبون في ساحات الأبيار.

جلس نصير على قش القمح يستمع لفهيم وهو يقص قصة دبدوب، فقال فهيم: ذات يوم كان الأولاد يلعبون، واغتنموا فرصة انشغال أخيه عنه فضربوه ودفعوه فدفعهم، لكن كانت دفعتهم قوية فأسقطت الولد في البئر.

ما لبث أن جاء أخوه دبدوب وكانوا يهربون منه فلحقهم ورجع يبحث عن أخيه فوجده قد سقط في البئر، وصادف أن كان أبوه قادما وقد ربط الحمارة، وكان يحمل عصاه وسمع الضجة حول البئر، فقال الأولاد لأبيه حتى يبرؤوا أنفسهم إن أخاه الضخم القبيح هو من أوقعه في البير. فاعتقد والده أنه من غيرته من شقيقه الصغير أوقعه في البئر فلم يعرف كيف استشاط غضبا ونفَّس عن غضبه وراتفعت يده بالعصا فضربه على رأسه،

واستمر في الضرب. ومن يومها فقد عقله وأصبح مجنونًا لا ينام إلا في الطوابين، مقلدا بابور الطحين وصوت الرعد في كوانين، ولما كبر كان يهيم في الجبال سيرا على الأقدام حتى وصل إلى البحر، وعاد بعد شهر على القرية وهو يحمل كيسين زعتر ومرمية، فقد جمع ذاك من البرية.

كبر واشتد عوده وظهرت قوته الجسدية، فإذا ضرب كلبا أو قطًّا بحجر قتله، وكان يحمل أثقالا أكثر من البغال والحمير. ولأنه يمضي وقته في البراري كان يأنس بالفرارين والثوار، وهم يعطفون عليه ويطعمونه من طعامهم، حتى اعتاد عليه الثوار، فكان يرافقهم ليخدمهم ويعبئ لهم البواريد ويحمل صناديق الفشك، وشاركهم في كثير من المعارك. وعاد بعد النكبة وقد فقد كل عقله تماما، وأصبح يدبدب في القرية بأصوات ما سمعه في المعارك من أصوات مدافع وطائرات ورشاشات وبنادق، ويخوض معركته الدونكيشوتية مع ألواح الصبر ويحاول أن يهزم الصبارة، بإطلاق أصوات دباباته ومدافعه عليها في الهواء.

وما إن انهى فهيم القصة حتى ظهر دبدوب لهم على البيدر من خلف الصبرة وهي لا تزال صبرة، وكسبت معركتها مع دبدوب باستثناء لوحين صبر استطاع أن يقطعهما، وكان يحمل لوحي الصبر بيديه ورمى بهما أمامها قائلا: «ادفنوا قتلاكم». وضحك فسألهم بشكل متقطع ومدبدب أن يعطوه سيجارة هيشي، وكاسة شاي.

فأعطاه فهيم الهيشية الثانية التي لفها من علبة أبونسر ولم يدخنها، وقال له: «خذ على حساب عمك أبونسر، بس روح دخنها بعيد عن البيادر». ومضى وهو بحمل الهيشية بيده ويضحك لها ويصدر أصواته

المعهودة ويبعد عنهم.

نظر فهيم لأبونسر، وتذكر سؤاله عن حال العرب فقال له: «انت كنت سألت عن حال العرب، شفت يا أبونسر أصوات المجنون؟»، وأضاف موضحا: «ثلاثة جيوش عربية حتى ما طلَّعت صوت مثل صوت المجنون اللي بخوف فيه الأولاد الصغار».

وبدا فهيم يلف هيشية أخرى ورغب في الكلام والتنظير متأثرًا بحزبه، فقال: «عملوها الإنجليز يا أبونسر وانتقموا من ناصر الأمريكي بعد ما أنقذته أمريكا في حرب السويس من بريطانيا وفرنسا، أنا خدمت مع الإنجليز وبعرف خبثهم ومكرهم وعدلهم وتعليمهم، والإنجليز مثل الجمل العربي ما بنسوا، هذا كله تخطيط الإنجليز للانتقام من أبو القومية العربية والأمريكية».

«وبعدين؟»، قال أبونسر متسائلا..

أجاب: «ما بنفع إلا نعود للخلافة الإسلامية!». أجاب فهيم وأردف: «اللي غربا غربا. واللي شرقا شرقا، فلسطين راحت! وراح يجوا اليهود ويهدوا كم بيت في البلد، ويخوفوا الناس حتى ما حد يستعمل السلاح. وراح يعملوا مثل ما عملوا الإنجليز ويطبقوا نفس القوانين الإنجليزية. الإنجليز دهاة هم والفرنساوي أنهوا الخلافة، وقسموا تركة الخلافة لدول عمرها ما كانت دول!».

قال أبونسر: يعني فكرك إنهم اليهود أخذوا البرمجي اللي جابوه وعلموه الإنجليز، عشان هيك!

فقال فهيم منبها أبونسر: عمره البرمجي شافك حامل خرطوش.

قال: لا ولا حتى أي شخص في البلد. كنت أحتفظ فيه لما كان عندي غنم.

أجاب: لا تخاف، إذن ما في وزة عليك.

ما هاظ الرجال جابوا الإنجليز وزرعوه بالبلد حتى ياخذوا منه أخبار البلد! واليهود ياخذوا رجال الإنجليز.

وأضاف: البلاد راحت، وهاي مسالة بتطول ما لها من حل إلا بالرجوع للخلافة.

كان فهيم يقرأ ما يقدمونه له أصحابه في الحزب من كتب، وقد سلموه أمور الحزب في القرية بعدما تم نقل الأستاذ أبوموسى إلى مدرسة أخرى في قرية أخرى. وكان متابعا للأخبار وعلى علم بعد العلم والتدريب الذي تلقاه من الإنجليز وهو في حرس الحدود، خصوصا أنه كان فارسا خيّالا وقد رُقّي إلى رتبة كابتن قبل أن يتقاعد وينتمي إلى الحزب. ولأنه تسلم أمور الحزب في القرية، وكان عددهم لا يتجاوز أصابع اليد، فقد كان يطمع أن ينضم أبونسر، فاذا انضم أبونسر فإخوانه العشرة احتمال أن ينضموا، ولهذا كان يتقرب منه، وأبونسر كان مشغولا بالأرض والحلال، لكنه كان يستمتع بما يسمع منه، حتى نصير استمتع بحديثه وأحبه عندما روى له قصة دبدوب.

كان فهيم محيطا بأوضاع البلد وما يحصل من تهريب وتجارة، فقال لأبونسر: «ما بدك يا حج تروح اتجرب وتصير تتاجر، وتهرب مثل أهل البلد والمشاريق، وانت رجل تعرف الغور، وكل خزق فيه والحمير والبغلة عندك وحق النعجات ما زال يدفئ جيبك».

وقع الكلام على قلب أبونسر فقد سمع بعد صلاة المغرب خاله مليحا يتكلم في نفس الموضوع، ولم يصدقه لأنه يعرف أن خاله يبالغ بل حتى يكذب، لكن ما سمعه من فهيم الآن يؤكد أن خاله لم يكن يكذب، بل كان يحكي ما سمع أو ما شاهد في البلد. قطع عليه تفكيره صوت فهيم وهو يقول له: «بدك بتشارك معك بالربع؟».

تفاجأ أبونسر بعرضه وقال: «ماشي بس أنا بشوف حدا من إخوتي يمكن يتشارك معي ومعاك»، وأضاف: «بشوف إذا وافق بخبرك»،

وأراد أن يودعه فقال فهيم: «خلي الموضوع سر، لا تخبر حدا وقول لأخوك إذا وافق حتى ما يجيب خبر لأهل بيته»!

انتبه فهيم لنصير الذي كان يجلس على غمور القمح المستفة على البيدر وقال في نفسه: هل سمعنا هذا الولد؟

قام أبونسر وودعه ونادى على نصير فحضر وأمسك بيده وقفل راجعا، وقبل أن يصعدا العَقَبة شاهد أبونسر ونصير رجلين يتساومان حول سعر حمار، والآخر مستعجل بده الحمار ليهاجر من البلد قبل ما يجوا اليهود ويدخلوا البلد.

وبعد أن صعدا العَقَبة أخذ أبونسر شهيقا، وكذلك عمل نصير وأتبعه بزفير وقال لوالده: شو فهيم بده يشاركك في إيش؟

انتبه أبونسر لسؤاله وتذكر آخر ما قال فهيم له أن يكون الموضوع سرا فقال له: ما تقول لأحد مثل ما قال عمك فهيم!

أجاب نصير: لا لا مش راح أقول، بس يعني بدك تروح على الغور.

لم يرد عليه والده لكنه كان يفكر جديا بالذهاب إلى شرق الأردن،

فيطمئن على أولاده وبناته، ويتاجر في الدخان والقماش، وما خف وزنه وعليه طلب في الضفة.

فكر في واحد من إخوته كان رافقه مرة برحلة جلب العجول من العراق، وكان اسمه «مخلص»، فقال سأمر عليه فهو قرب ليخلص بيدره. وبالفعل مرَّ عليه وعرض عليه الأمر فوافق وقال: «أنا مجربك يا خوي، واللي برافقك بفلح». فساعده على إنهاء البيدر وقال له: «الموضوع سر. نحتاج لشخص مثلك بعرف الطرق في الغور ويكون شريك ينتظر بعد النهر عند إحضار المهربات للشريعة، وأنت يا خوي أكثر خبرة بالغور من فهيم، لكن برضه فهيم بفهم أكثر من غيره. ترباة إنجليز، وبعرف التجار في المدينة لما بدنا نبيع المهربات».

بعد 1 تموز 67
السر، وهدم البيت

انتهى موسم الحصاد وانتهت الحرب ما بين العائدين والمهاجرين والنازحين والمهربين والفدائيين الذين تسللوا ليستكشفوا الطرق ويخلقوا قاعدة من الداعمين لهم في الأرض المحتلة، فيمدوهم بالتموين والمأوى، ويثقوا بهم ليخزنوا السلاح لديهم في القرى والمدن، وكانت أولى القرى هي القرى المطلة على الغور، كقرية مَصْطَبة من قرى المشاريق.

أنهى الحصادون حصاد أغلالهم وخزنوا ذلك وهم ينتظرون ويترقبون دخول جنود الاحتلال لبيوتهم للبحث عن السلاح وهدم البيوت. ولأن الانتظار قاتل، شاع خبر التهريب للدخان، وأن ربح نقلة واحدة يعادل جهد سنة من الفلاحة. والحمير تلك المخلوقات التي سخرت لهم لتحملهم وتحرث أرضهم وتحمل أثقالهم، أصبحت هي القاسم المشترك بين معظم أطياف رجال النكسة، فالطلب عليها ارتفع، ومن عنده حمار استغنى أو فك زنقته، فحميرهم متوفرة، فلماذا لا تشارك بالتهريب، وتشارك أيضا في حمل سلاح الفدائيين، وحمل المهاجرين.

اتفق ثلاثتهم بما فيهم أبونسر ومخلص على أن يقولوا لأهلهم إنهم ذاهبون للاطمئنان على من هاجر من أبنائهم وبناتهم إلى عمان والزرقاء، وإنهم سيمدونهم بالمال ليستأجروا بيوتا ويفرشوها بالمتاع القليل. وسيستطلعون الأمر في ثلاثة أيام ويعودون. وقد نجحوا في ذلك، وبقي

السر عند نصير لوحده الذي كان يتقن فن الإصغاء بفطرته الغورانية، فانطلقوا مصبحين وكل واحد منهم مجهز حماره وقروشه، وقد أعار أبونسر فهيم الحمارة السوداء التي ساعد في شرائها بلا مقابل كنوع من رد الجميل.

صلوا الفجر وانطلقوا على حميرهم، وقد خرج نصير وراءهم متربصا دون أن يلاحظوه، وقبل أن يمحو النهار الليل، وصلوا إلى الطف، فتوقفوا عند مغارة «أبو جاج»، وسمعهم يقولون إن العودة والالتقاء وتفريغ الحمل بعد ثلاثة أيام في هذه المغارة، وسننطلق الآن فرادى، كل واحد لوحده، واللقاء قبل مخَّاضة الصَّعايدة عند العشاء. ومن يسبق ينتظر الآخرين. وكل واحد يخلي ليراته تحت شداده، واللقاء ثالث يوم في هذه المغارة.

كان نصير يفكر بأن يتبعهم، لكن ذلك سيغضب والده فهو ليس ذاهبا للغور للحصاد، بل لشرق النهر ليشتري بضاعة ويحضرها إلى هذه المغارة بعد ثلاثة أيام، فليرجع للبيت ويعود في فجر اليوم الثالث.

شاهد نصير وهو مختبئ والده يخرج أول واحد من المغارة، وأخذ طريقا للغور. وبعد برهة انطلق فهيم وبعده انطلق عمه مخلص، وكل واحد يأخذ حمارا سالكا طريقا غير الذي سلكه الآخر.

عاد نصير إلى البيت قبل أن تفتقده أمه فيصبح محط سؤال ويبوح بالسر، وكان إخوته نائمين وأمه تخبز الطابون، فتسلل إلى النافذة واستلقى بها حتى لا يسمع إخوته حسفة منه، فيصحوا ويسألوه أين كنت. فليصحُ معهم ويأكل معهم الفطور وينتظر كما ينتظرون خبرًا من أمهم أن

أباهم ذهب إلى الأردن ليطمئن على أولاده الذين هاجروا، وكلها ثلاثة أو خمسة أيام بالكثير فيعود، ويحضر لهم الملبس وما يخطر ببالهم.

سمع نصير الخبر من أمه فتظاهر بأنه مصدق ما تقوله، وهو يعلم السر ولن يبوح به حتى لمفتاح أو غيره من الأولاد الذين اجتمعوا في الضحى ليقوم مفتاح بجولته على البيوت الجديدة ذات الأبواب المفتوحة التي هاجر منها أصحابها حتى لو كانت في حارة أخرى. وهذا ما حصل، فقد دخل بيت الخياطة التي كانت تُعلّم أخت نصير، فنصير يعرفها وقد سبق أن حضر مع أخته والبنات لتعلمهن الخياطة، فوقف نصير يرقب ما يعمله مفتاح الذي جلس على كرسي الخياطة، وأخذ يلف بيده ماكينة الخياطة ويضغط بقدمه، فتغرس الإبرة بالخيط على لباس رفرف لم تكمل الخياطة خياطته، فنزعه من الماكينة ووضعه تحت إبطه وفتح الخزانة فما وجد إلا قصاصات ورق وقطع ملابس وذيول قماش مقصوصة. بعد ذلك ذهب للمطبخ فلم يجد شيئا ففتح النملية، فكانت خالية فمد يده يتحسس، فوجد حبات من القطين بعدد أصابع اليد، فتقاسمها مع نصير وأكل كل واحد حبة.

خرج مفتاح قائلا لنصير والأولاد: خلينا نروح على طرف الحارة الغربية نشوف بيت آخر في الجبل.

انطلقوا يتجولون بين البيوت في الجبل الذي كان فيه أشجار زيتون كبيرة وأشجار لوز، وجلسوا غير بعيدين تحت زيتونة رومانية يملكها والد مفتاح، لكنه لا يملك الأرض التي عليها الزيتونة، فمفتاح يعرفها وكان يتسلق عليها ليقطف الزيتون المرتفع بين أغصانها الكثيفة. فتسلقوا عليها

يلعبون ويترقبون حركة الناس. كان الوقت ظهرا، وقبل سماع أذان الظهر سمعوا صوتا قادما من وسط البلد وهو ينادي. كان الصوت يشبه الصوت الذي سمعوه عندما حضر اليهود وأخذوا الدبابات المعطوبة. كان الصوت يصل إلى سمعهم: «ممنوع التجول كل واحد يروخ يقعد في بيته، فجيش الدفاع في البلد».

نهضوا وأرادوا أن يعودوا إلى حارتهم وبيوتهم، لكن فضول نصير جعلهم يبقون بعيدين، لكن الصوت كان يقترب منهم، وبعد ذلك انخفض ودخل البلدة القديمة. تسلق نصير غصنا عاليا من شجرة الزيتون ليرى ما يستطيع أن يرى، ولحقه مفتاح، بينما الأولاد الآخرون ظلوا في أماكنهم على أغصان الزيتونة المرتفعة ليشاهدوا من خلالها وسط البلد.

شاهد نصير سيارات عسكرية كبيرة تتقدمها سيارة جيب، وقال لمفتاح إنه يرى رجلا بلباس مدني ينزل من السيارة الصغيرة، حاول مفتاح أن ينظر لكنه لم يستطع أن يرى من مكانه سوى السيارات الكبيرة، فسأل نصير: «شو بتشوف كمان؟»، قال له نصير: «بشوف عسكري يشير بيده إلى أحد البيوت». وقال: «إن العساكر يمشون حول البيت، ودخلت مجموعة منهم في البيت وبقيت مجموعة تأخذ مواقع مراقبة وتشهر السلاح وتترقب». ثم قال: «خرجت المجموعة، وبيد أحدهم خرطوش، وصاحب البيت معصوب العينين وهو رجل كبير وقد سقطت كوفيته فبان شعره الأبيض ووضعوه في سيارة الجيب، وأخرجوا أهله من البيت وعادوا وهم يحملون الديناميت ودخلوا البيت مرة أخرى».

سأل مفتاح نصير: «شو شايف كمان؟». فقال نصير: «تعال جنبي

وشوف مثل ما بشوف»، فقال مفتاح: «بخاف ينكسر فينا جذع الزيتونة». مع ذلك اقترب قليلا فأصبح يرى كما يرى نصير، فقلد شاهدا الجنود وقد خرجوا وهم يسحبون سلكا وابتعدوا عن البيت مسافة حتى خرجوا بسيارتهم من البلدة القديمة، وفجأة دوى انفجار هائل، وتطاير من البيت دخان كثيف ارتفع في السماء ورافقه الغبار والتراب، وقليل من أحجار البيت التي تطايرت وارتفعت في السماء، فهو بيت عقد قديم أحجاره كبيرة.

لقد تم نسف البيت وهدمه مع ما حوله من حوش وسور، وهو بيت عقد عتيق، فشق غبار وتراب البيت السماء، وتكونت سحابة صغيرة فوقه، وصعد الناس إلى أسطح منازلهم ليشاهدوا أول هدم لأحد بيوت بلدتهم.

عاد الصوت بالسماعة من فوق سيارة الجيب ليقول لأهل البلدة: «ما خدا يطلع من بيته ممنوع التجول».

كان مشهدا جديدا لمفتاح ولنصير، تقتنصه ذاكره نصير عن بعد وهو وأصحابه مختبئون فوق الزيتونة، فوقف مشدوها، فشخصت ذاكرته المشهد وخزنته ووجدت أنه سمع قبل ذلك بخبر مشابه كان من الصعب عليه تخيله. وما إن شاهد هدم البيت حتى تطابق المشهد مع الخبر المخزن بالذاكرة، فكم من الأساطير والخرايف التي سبق أن سمعها عن بطل الغور من جده لم يحدث منها شيء، لكن ما سمعه من الدكتور في المدينة عن هدم البيوت، وما تناقله النساء والرجال، وكان سببا لهجرة الكثير منهم، شاهده الآن بأم عينه ولو من بعيد وعن ظهر الزيتونة، وفي نفس اليوم الذي ذهب به والده إلى الضفه الشرقية.

كان نصير وأصحابه يريدون أن ينزلوا عن الزيتونة، إلا أن صوت الميكروفون لمنع التجول والمركبات العسكرية اتجه نحوهم إلى الجبل، وقد تعامدت الشمس في وسط السماء، فقال لهم نصير: «خليكم على ظهر الزيتونة. إنهم آتون إلينا، وإذا شافونا بطخونا، هيك سمعت الدكتور بقول».

سارت المركبات وهي تطلق الصوت بحظر التجول حتى توقفت عند أقرب بيت جديد من شجرة الزيتون التي يختبئ بها نصير وأصحابه. أحاط الجند بالبيت فنزل نفس الشخص وأشار إلى البيت، وعاد إلى داخل سيارة الجيب، ثم أخرجت السماعة من أعلى ظهر سيارة الجيب صوتا يقول: «يا أهل البيت اطلعوا وارفعوا أيديكم فوق رؤوسكم».

خرجت امرأة وأولاد من البيت فقال: «وين صاخب البيت؟». فقالت له: وهي ترفع يديها للأعلى: «مش موجود شو بدكم منه؟»، وأضافت: «الله ياخذكم».

«تعال هون وابعدوا عن البيت» قال أحدهم. ودخل مجموعة من الجنود البيت، والآخرون طوقوا البيت حتى إن جنديا مدججا بالسلاح اقترب من الزيتونة وكان على مسافة خمسين مترا.

بعد برهة من الزمن خرجوا ومعهم خرطوش وقشاط فشك، وعرضوه على الشخص الذي أشار ودل على البيت، فاستطاع نصير أن يرى هزة راسه بالموافقة.

دخل بعد ذلك في البيت مجموعة من الجند يحملون معهم متفجرات وخرجوا بدونها وهم يمدون سلكا طويلا، وابتعدوا عن البيت. كان البيت

جديدا، بُني من الإسمنت المسلح والحجر، وكان صاحبه يعتبر أحسن بنّاء حجر في القرية، وقد زان أحجار البيت البيضاء المدقوقة بطوق من الحجارة صغيرة الحجم ذات لون أحمر قانٍ من الخارج، ومن الداخل زين الحائط بخرطوش وقشاط فشك ورثه عن والده الذي كان يُقلق الإنجليز بضرباته، فلم يتمكنوا منه بالرغم من الأخبار التي كان يزودها بهم عينهم على البلد البرمجي. وقد حاول والد صاحب البيت أن يقتل البرمجي ليريح البلد منه، لكنه فشل وانتهى به الأمر أسيرا يتنقل بين سجون الإنجليز في فلسطين حتى توفي في أجنادين.

عاد البرمجي مع اليهود لينتقم من ولده، فالخرطوش ما زال موجودا في البيت. ما هي إلا لحظات حتى دوى انفجار هائل جعل نصير ومن معه يضعون أيديهم بأفواههم حتى لا يصرخوا وينكشف أمرهم. لقد سقط الغبار وبعض الحجارة في محيط الزيتونة، بينما ارتفعت صرخة صاحبة البيت والأولاد الذين لم يخرجوا إلا بملابسهم، وخرجت النساء من بيوتهن، وهن يولولن، ويقلن: «الله عليكم»، وقامت إحدى النسوة بأخذ صاحبة البيت والأولاد إلى بيتها القريب.

سجلت ذاكرة نصير بالعين والسمع نسف الجيش لبيتين في يوم واحد، بيت عقد قديم في البلدة القديمة، والآخر جديد في أطراف البلدة. وببطء وحذر انسحب الجيش من البلدة، وسماعة الجيب تقول: «يا أهل القرية اللي عنده سلاخ يسلمه وإلا سيهدم بيته مثل ما شوفتوا».

نزل نصير وأصحابه عن الزيتونة واقتربوا من البيت، لقد سقط سقف الحيط عندما تفجرت قواعد حيطانه الثلاثة، وبقي الحيط الرابع يمسك

السقف من جهة واحدة، ولم يتفجر السقف جميعه، بل ظل جزء منه واقفا ومستندا على الحائط الذي تماسك مع الباب الذي كان بنفس الحائط. شاهد ذلك نصير وتذكر أن لقبه كان في الغور سقف الحيط.. وسمع جارة المرأة تقول لها: خلص يا غبرة هاجري، والحقي زوجك ما عندك بيت.

ردت عليها: «ما بهاجر، وبسكن في ما تبقى من السقف بجانب الحيط، والباب لسه موجود، والله يحط غضبه على اليهود، وبستنى أبو العيال ما هو قال هالنقلة وبرجع على البيت. راح أسبوع على شرق الأردن وراجع. وإن شاء الله بنعمر على جنبه أحسن بيت، ولو كل البلد هاجرت أنا ما بهاجر، وين أروح أتلطى في الزرقا أم الذبان».

رجع نصير للبيت، وكان وهو راجع يفكر بما قالته هذه المرأة، ويقارنه بموقف أمه التي ذبحت الدجاجات حتى تهاجر لما شافت زوجات أولاد زوجها هاجرن، وشافت سلفتها وجيرانها هاجروا. لكن هذه المرأة بالرغم من أنه لم يبقَ إلا جزء من سقف بيتها مسنودا على حائط واحد، لم تهاجر. فقال سأقص قصتها على أمي وإخوتي عندما أصل إلى البيت.

5 تموز 67
لقاء أصل الصورة

مضت ثلاثة أيام وتسلل نصير إلى مغارة «أبو جاج» مرتين، مرة في الصباح ومرة في المساء، ولم يجد فيها أحدا. عاد في اليوم التالي ولم يجد أحدا سوى ريش دجاجة حديث مخضب بدمائها، فلعله حصيني أو سنتح تسلل إلى أحد الأقنان، فافترس دجاجة قاصية عن قطيعها، ونسي الديك أن يُدخلها القن، فهي عجوز ولم تعد تبيض، ولم يعد أحد يرغب في لحمها القاسي، وخف نظرها فتأخرت عن دخول قنها أو خمها، وهي لم تعد يهما أمرها، فقد أدت دورها، فإن كانت من حظ الواوي فهي مسلمة أمرها، فلم لا تكون فريسة لغيرها حتى لو لم يكن من بني آدم.

استيقظ نصير في اليوم الخامس متأخرًا، وغيَّر مبكرًا وهو قلق على والده وشركائه، فلم يعودوا كما اتفقوا، ولربما حصل معهم طارئ، فالطريق مليئة بالمخاطر وبالمهاجرين والعائدين والمهربين والفدائيين وجنود اليهود المحتلين الذين انتشروا في الغور على حدود النهر يبنون سياجا وشيكا من الأشواك المعدنية بعد أن اشتبك شباب عائدون بخفيف سلاحهم مع دورية يهودية صدفة على طريق الغور أريحا نابلس، فعمل الاحتلال السياج والشيك الذي أصبح عائقا أمام حركة الحمير ويحد من حركة العائدين والمهربين والفدائيين والحمير التي تحملهم وتحمل متاعهم أو تجارتهم أو سلاحهم، وأصبح الجيش يوجه المهاجرين إلى الجسر ليخلص منهم.

لقد أحدث المهربون فتحات في السياج والشيك بمقدار جسم الحمار العادي، ولم يكن الفدائيون يعلمون ذلك، وكانوا يقلدون المهربين في طرقهم، وأحيانا يلبسون لباسهم ويستعملون الحمير، ويسيرون على أثر المهربين، ويمرون من الفتحات التي تمر منها حميرهم، ومن كثرة مرور الحمير التي بالعادة تدمى مؤخراتها من الضرب بالعصي عليها، لتسير بسرعة، أدمى السلك الشائك أيضا أطرافها، وهي لا تدري ما تحمله، أهو دخان أم سلاح مهرب؟

عادت دوريات اليهود لمراقبة السياج، وتفقد إذا ما تم العبث بالشيك، فوجدت فتحات كثيرة ومتباعدة به، لكن هناك فتحة أخذت أشواكها خزعات أو نتفات من دم الحمير وجلدها، وشيئا من شعرها، فما كان من دوريات استطلاع الاحتلال إلا دعوة قسم قصاصين الأثر والقسم البيطري لياخذوا العينات لتحلل في المختبرات. أظهرت نتائج فحص العينات أن الدم دم حيوانات، وأن خلايا الجلد هي لجلد حمار وأن الشعر هو شعر حمير.

اعتقدت إدارة الحاكم العسكري أن المخربين -بزعمهم- يستعملون الحمير لتهريب السلاح وتخزينه، ومن ثم استعماله لقتل جنودهم.

أُخبر جيش الاحتلال فأحضروا قصاصين الأثر، فقصوا أثر الحمير حتى وصلت الآثار إلى بلدة مَصْطَبة في الغور، فهي أقرب بلدات شفا الغور للشريعة، فما كان منهم إلا أن استدعوا عساكرهم وطائراتهم التي كانت ترصد الطرق السالكة للغور، فتوقفت حمير المهاجرين والكسالى من الفلاحين المتخلفين عن موعد الحصاد، ومنع عسكرهم التجول وطوقوا البلد، ونصبوا خيمة في ملعب المدرسة في وسط البلد.

سمع نصير كما سمع غيره، صوت السماعات التي تشبه سماعة المسجد، تنادي بلهجة عربية مكسرة على أصحاب الحمير بالسماعات: «كل صاحب خمار يجيب خماره إلى ملعب المدرسة، كل خمار في الطريق جاي من الغور يجيبوا صخابه إلى الملعب، كل واحد عنده خمار في البيت، يجيبوا إلى الملعب».

كان أهالي بلدة مَصْطَبة مندهشين وخائفين أن يُجمَع الرجال والشباب في المدرسة ويتم التحقيق معهم عن السلاح، أو من لديه سلاح أو كان لديه سلاح.

أما أن يتم استدعاء الحمير، فهذا طلب غريب وعجيب، فلم يسمعوا عن قصص من هذا القبيل لا في زمن الإنجليزي ولا في زمن العصملي، ومع ذلك الاندهاش والاستغراب المبهم، لحق مفتاح ونصير وغيرهم من الأطفال أبا قادح وهو يقود حمارته إلى الملعب، فلما وصلوا رأوا كل شخص لديه حمار أو حمارة يقوده ويتوجه به إلى ملعب المدرسة، وكان بعضها محملا، فكان الجنود يطلبون من أصحابها فسخ الحمل وإحضار الحمار إلى الملعب.

وصل أبوقادح وحمارته يرافقه مفتاح ونصير، واصطف بصف مجموعات الحمير.

كان بعض الحمير قادما من الغور ذي الطقس الحار، ولا ننسى أن الزمان هو شهر تموز الذي كما تقول الأمثال الشعبية «في تموز تجف الماء من الكوز». والناس لا يريحون الحمار، بل إذا قصر أو قرق كانوا يناهلون ضربا على دبره حتى يصبح أحمر ونازفا، فيقولوا «مضبر».

فرحت الحمير بهذا التجمع فأطلق الذكور نهيقهم، والأناث علوجها للذكور، وأخذت الحمير يوم راحة في العمر، واستراح سائقوها من التعب والتحميل والسير، كانت الحمير تقطر مؤخراتها وأسافل بطونها دما إما من الضرب، وإما أنها تبول دما من حر تموز.

كان نصير يسمع ويسجل في ذاكرته ما انتشر من إشاعات بالقرية بسرعة حول سبب جمع الحمير في الملعب، ومما سمع أن جنود الاحتلال يبحثون عن حمار معين للاستدلال على صاحبه، فشاهد أهل القرية الجيش وهم يكشفون على أطراف الحمير، ويبحثون عن جروح بها، والحمير تحدث ضجة بأصواتها ونهيقها. وزادت الضجة بعد أن شمت الحمير رائحة علوج حمارة شائعة بينهم، وتدعو الذكور للتزاوج، فشاهدها نصير ومفتاح وهي تفتح فمها بطريقة تغري الذكور، وتقول لهم إنني مستعدة وبيوضي جاهزة فهل من حمار يتقدم، ويكون هو صاحب النطفة.

إن ذكور الحمير عندما تشاهد منظر الحمارة وهي شائعة، يرتفع لديها هرمون الأستروجين، فتتفلت من مربطها، ويصبح الحمار بقوة حصانين، فيفلت من صاحبه ليقاتل الحمير على الأنثى الشائعة، فتراها تفتح فمها لتعض أو ترفس بعضها البعض، حتى يسيطر حمار على الوضع، وتنسحب الحمير الأخرى.

عندما سمع أبوقادح الحمير تنهق وتتفلت لف رسن حمارته الشائعة حول معصمه حتى لا تفلت، فأفلت حمار من صاحبه وتوجه مسرعا نحو أبي قادح وحمارته، وتبعه حمار آخر أكبر من الأول، فعنفصت حمارته فلم يستطع أن يفلت رسنها من يده فجرته وراءها، وكأنها تريد أن تنتقم

منه لأولادها الكرار الصغار الذين كان يذبحهم أمام الأطفال وأمامها وأمام نصير الذي تذكر ذلك الموقف المقزز.

كانت الحمير تلحق بحمارته، وهي تجر أبا قادح وراءها مسحوبا على أرض الملعب. وقد سقطت كوفيته فبانت صلعته وتهشمت يداه حتى سال الدم منهما ومن وجهه وصلعته. والناس والجنود والأولاد بين ضاحك ومتأسف لما حصل له، وبين من لحق بالحمير، ومنهم الجنود الذين أخافوا الحمير بإطلاق أعيرة نارية حتى تمكن جندي من وضع قطع قماش على رؤوس الحمير والحمارة، وقاموا بفك قيد أبي قادح الذي كان مغمى عليه، فحملوه على نقالة وأدخلوه الخيمة بعد أن ذاق العذاب الأدنى على أفعاله الجرمية وأقلها قتله كرار الحمارة التي أخذها الجيش وغطاها بخيمة، وتم سحبها من الملعب وإخفاؤها عن أعين الحمير.

عندما شاهد مفتاح ونصير ما حدث مع أبي قادح، تركا الملعب ورجعا إلى القلع ليخبروا أهاليهم بما حدث، وكذلك ليفطر نصير فلم يكن قد أفطر سوى أنه كسر السفرة بخبزة وكأس شاي، فكان يشعر بالجوع.

لقد أحدثت الحمير مباراة فوضى في ملعب المدرسة وهي تطلق نهيقها، وتطلق أشياء أخرى من تحت بطنها، والناس تتفرج على بعضها البعض وكل واحد يمسك حماره وينتظر دوره، وجنود الاحتلال ينظمون ويطلبون من كل شخص أن يمسك حماره، وينتظر دوره للمعاينة الظاهرية لفرز الحمير التي تحتاج لأخذ عينة منها.

تصادف وجود بعض الحمير المحملة بأغراض المهاجرين، وبعضها لا تحمل إلا حلسها وحمالة القمح، وبعضها بدون حلس، وتصدر أنكر الأصوات.

كان أهالي القرية منظمين وهم يصفون حميرهم بالدور، فيقوم شخص بتشخيص أطراف الحمير، فالحمار الذي به جرح أو خدش من أحد أطرافه يعزل هو وصاحبه، ليأتي شخص بلباس أبيض فيدق إسرنج بطرف الحمار، ويضعه في أنبوبة لتحمل إلى الخيمة.

أفرج عن الحمير التي لم تدق إسرنج، وبقيت القليل منها تنتظر نتائج التحليل من داخل الخيمة، وأخيرا أعلنت براءة الحمير، فانتشر الجند في أنحاء البلد بمجموعات لعلهم يعثرون على الحمار المجرم صاحب عينة الدم التي تركها على شوك سياج الشيك على النهر، ولم يحضر إلى الملعب ولا يزال مختفيا وهاربا.

طلع رهط من الجند بسلاحهم إلى القلع، وكان نصير قد أفطر وملأ بطنه، ورجع ليعرف ما حصل في الملعب، ولم ينتظر مفتاح ولم ينادِ عليه، فوقف على ظهر الياخور ليستكشف وينظر إلى الحمير ويسمع ما يسمع من نهيق، فتحسس خده، وتحسس جيبه فوجد المحفظة، وفتحها وأخرج صورة اليهودي. قال في نفسه: «عندما أعود بالملعب راح أتفرس بوجوه اليهود حتى أشوف صاحب الصورة موجود معهم». وطواها وأعادها للمحفظة في جيبه، فزادت نزعته الغورانية للنزول ليشبع فصوله الغوراني، فنزل عن الياخور مسرعا راكضا ويزيده قوة دفع بركضه فضوله الغوراني، حتى إنه تذكر بطل الغور وهو يسابق الفهد في أسطورة أبوماليح، فكان يغمض عيونه وهو يركض، ويشعر أن كعبي رجليه تلامسان ظهره. حتى إذا وصل إلى المنعطف في وسط العَقَبة، وقريبا من اللوزة التي صرع الكلب تحتها، تفاجأ برهط من الجند اليهود على المنعطف يصعدون

العَقَبة ويلهثون من ثقل حملهم وحدة انحدار العَقَبة وصعوبة صعود الطريق، فكانوا في غفلة وتعب، وبلمح البصر تفاجؤوا بنصير النازل ركضا ومتخيلا نفسه بطل الغور، فتفاجأ بدوره بهم.

كانت المفاجأة عبارة عن اصطدام بين شيئين مسرعين وعلى حين غفلة، وخصوصا من الرهط الذين أرهقهم حملهم المتاع والسلاح وطلوع العَقَبة، فكانوا وجها لوجه مع نصير الذي استذكر بنزعته الغورانية الكلب، فهجم بدون وعي على أولهم، فخر الأول من المفاجأة، وخر من يتبعونه بخرة أولهم، فكانوا نياما على الأرض، وأيديهم تبحث عن الزناد ويوشكون أن يطلقوا بالهواء وابلا من الرصاص وعلى المهاجم، فنهضوا يكتون التراب عن أيديهم ووجوهم ويقول قائدهم وهو يقوم عن الأرض ونصير يمسك برقبته ولحيته: «بيبي صغير متوحش»، وحمل نصير ووضعه بشدة على الصخرة مقلوبا على وجهه فكان خد نصير المقطب قد ارتطم بالصخر، ونهض الجميع ونصير يتفعفل بين يديه، فسقطت محفظة نصير على الأرض، فالتقطها جندي آخر يختلف بجسمه ورأسه ولون بشرته وشعره عن الآخرين. كان الجنود ذوي بشرات بيضاء وعيون زرقاء، ويلبسون خوذهم العسكرية، والجندي الذي التقط المحفظة كان الوحيد الذي لون بشرته حنطيًّا، وشعر سوالفه طويلا، ويضع قبعة صغيرة على رأسه مع أنه يلبس ويتسلح بنفس ما يلبسون ويتسلحون. فأخذ المحفظة وفتحها، وفتش فيها فأخرج الورقة المرسومة عليها صورة يهودي، وأطلق ضحكة عندما رأى من بالصورة يشبهه أو خيل إليه أنه يشبهه، ولولا أنها أصبحت مهترئة لحسبها صورته، فتبسم وتقدم يضحك

وهو يقدمها لقائدهم الذي كان يمسك نصير بيديه من وراء ظهره، بينما كان نصير مقلوبا على وجهه على الصخرة، فقال له: «انظر ما وجدت معه، صورتي!» واستدرك قائلا: «إنه يشبهني»، لم يكترث الضابط لذلك، فوضع الجندي المحفظة وما بها في جيبه، ونصير ينظر إليه خلسة ويقول في نفسه: لقد سرقني مثل ما سرقني الولد الأبرص.

بينما رهط الجند يتشاورون، هل يكملون مهمتهم بالبحث عن الحمير أم يرجعون للخيمة بولد كل وجهه ندب وبثور، وخده الأيمن ينزف دما بعدما تهتك قطب الخزق، قال الضابط الذي يمسك نصير وكان يتكلم العربي بلكنة اليهود: خبيبي أنت في خمار في بيت؟

فهم نصر عليه وقال: ما في خمار بالبيت.

فقال له: «طيب أنت بيبي صغير، روخ بيت وما يطلع من البيت». ونظر الضابط إلى خده النازف فأخرج من حقيبة صغيرة معلقة على جانبه قطنا وسكب عليه مطهرا، ومسح جرح نصير حتى توقف النزف، وأخرج لاصقة بلون الجلد وألصقها على خده بقوة فسدت خده، وقال له: روخ بيت.

كان نصير يلهث ومذهولا من الذي حدث، ولا يعرف أين يذهب، فأخذ طريقا أفقيا من جانب العَقَبة، ولم يرجع ليصعد العَقَبة أو ينزلها، وأسرع وهو يركض بين حقول اللوز من خلف مدرسة البنات نحو بيوتهم في القلع، فصادف مفتاح وهو يحاول أن يفتح بيت أحد المهاجرين، وقال نصير له: «اركض اليهود لاقيتهم بالعَقَبة، وخافوا مني». وقال وهو يلهث ووجهه أحمر: «بدهم الحمير روح خبي حماركم، اليهود بوخذوا الحمير».

قال مفتاح: «حمارنا أخذوا خالي لما هاجر عليه». وسأله: «وين

اليهود؟ أنت خراط مثل ما خرطت علي إنك قتلت كلب في العَقَبة»، وأضاف: «تعال معي نفتح هاي الدار، كانت صاحبتها داية ومسكرة الأبواب؟».

قال نصير له: «تعال أفرجيك إياهم. هم كانوا عند اللوزة في وسط العَقَبة». وتسلقا شجرة لوز طويلة ليريه اليهود عند العَقَبة، فشاهداهم وهم منتشرون، وبنفس اللحظة سمعوا صوت المجنون دبدوب وهو يطلق أصواته مثل صوت الرشاش، ويخرج من المضافة القديمة المهجورة التي كان بالعادة ينام بها، وهي واقعة على الجهة المقابلة للوزة، وقد ظهر أمامهم فجأة بقميصه العسكري، وبصوته الذي يخرج كصوت الرشاش وطلقات البنادق، فجعل من يسمعه يعتقد أن هناك معركة، فما كان من رهط الجنود اليهود إلا أن أمطروه بوابل من الرصاص، فخر دبدوب المجنون مضرجًا بدمائه، وتوقفت شفتاه ولسانه عن إطلاق الأصوات في الحارة، فكان أول شهيد أو قتيل في بلدة مَصْطَبة في سنة النكسة.

تقدم الجنود نحو دبدوب وهو ملقى على الأرض وسابح بدمه وهم يطلقون الرصاص على جثته وقميصه العسكري، وتركوه وراءهم، وركبوا سياراتهم من أسفل العَقَبة وانطلقوا راجعين إلى الملعب. وبعد مدة قصيرة عادوا وطوقوا المكان مرة أخرى وفتشوا المضافة التي خرج منها، فوضعوا الجثة في كيس أسود وأخذو جثته معهم إلى الخيمة، ونادوا في السماعة على المختار: «يا مختار بلدة مَصْطَبة تعال إلى الخيمة في ملعب المدرسة».

نزل نصير ومفتاح من على اللوزة وعادوا، فكان الناس على أسطح علّياتهم، يستكشفون ما حصل، وصوت الرصاص ومن انقتل، فكان أن

عرفوا من نصير ومفتاح وهم يركضون أن اليهود قتلوا المجنون دبدوب وأخذوا جثته معهم.

كانت أصوات من بقين من النساء لا تبكي على دبدوب، فقد كن خائفات على أولادهن لكنهن رفعن عقيرتهن على أزواجهن بغية الهجرة والرحيل، بحجة أن اليهود هدموا البيوت ولموا الحمير، وها هم بلشوا بالقتل وقتلوا دبدوب، فوجب الرحيل والهجرة، وما قبل من الأزواج بالهجرة إلا القليل ممن لا حول له ولا قوة، فانضموا إلى المهاجرين الذين لم يتوقفوا عن المرور بالقرية إلى الغور إلا يوم جمع الحمير، بسبب جمع وفحص حميرهم التي ما لبثت أن أُفرج عنها ليواصلوا طريق الهجرة التي تبدأ من البلدات والقرى المحاذية للخط الأخضر، وتمر بقرى وبلدات الوسط، فتنتشر الأخبار ويُزاد عليها مما لم يحصل أو يحدث، وتختلط الأشاعات التي تتضمن بقر بطون النساء وقتل الأطفال واغتصاب الفتيات وتجميع الشباب ورشهم على الجدران، وتعصيب أعين الرجال الكبار وجمعهم بالمدراس وضربهم بالعصي.

خاف أهل بعض القرى المستقبلة للمهاجرين أن يحصل فيها ما سمعوه، فهبت النساء لذبح الدجاج والحمام والأرانب والاستعداد للهجرة، فإذا كان فرد من الأسرة عسكريا أو فدائيا، وجبت السرعة بالفرار وترك الدجاج بدون ذبح وترك الباب مفتوحا.

إن الرعب والخوف هو ما يقرر من يخسر ومن يربح، ومن ينتصر ومن ينهزم ومن يصمد ومن يهاجر. لقد خلق الناس الرعب لأنفسهم وإن كان هناك جزء يسير من الحقيقة، إلا أن الرعب غذى الوهم، فانضم إلى ركب

المهاجرين مهاجرون جدد من الخائفين، وأكثرهم كان يمر من بلدة نصير، فيتزودون بالماء وينزلون عَقَبة «أبو سليم» مشرقين، ونصير ما زال ينتظر والده الذي شرَّق ليهرب الدخان، فما رجع حتى الآن هو وصحبه، وغدًا سيذهب نصير إلى مغارة «أبو جاج» لعل وعسى يجد أحدا منهم، فلقد قالت له والدته وهو يصعد إلى النافذة لينام: أبوكم يا أولاد؛ طول، قال إنه بالكثير خمسة أيام!

أطفأت لمبة الكاز وهي تحاول أن تنام وتستوعب رواية نصير وما حدث معه ومع الجنود، وتحاول أن تكذبه وتكذب نفسها، لكن اللاصقة الجديدة على خدّه فوق القطنة تقول إن ما رواه حدث معه بالفعل، وإلا فمن أين جاءت تلك اللاصقة، وهي شيء جديد لم تره في القرية من قبل؟ لكن ما يقلقها هو غياب زوجها، سند وعماد البيت، فالأولاد ما زالوا صغارا، والكبار هاجروا، ورب البيت ذهب ليطمئن على من هاجر وسيعود.

كان نصير مشغولا بغياب والده ورفيقه في الغور، فهو بالكاد عرف من بعده قليلا من أولاد القرية، ومن الآخرين الذين آذوه، وآخرهم اليهودي الذي استرجع صورته من محبسها في محفظته، فسرقت المحفظة للمرة الثانية، ونزف خرق الخد مرة ثانية، لكن اليد التي أسعفته ووضعت اللاصقة الجديدة عليها كانت يد جندي أبت إلا أن تكون يد إنسان قبل عدو، فغطت خرق الخد والجرح باللاصقة، وهي بالتاكيد ليست اليد التي سرقت محفظته، فليسوا سواء!

6 تموز 67
اللقاء في المغارة

انقضى يوم جمع الحمير، ومضت خمسة أيام ولم يعد أبوه، وها هو نصير يصحو مبكرًا، ويتسلل حذرا دون أن يراه أحد إلى مغارة «أبو جاج» لعل وعسى أن يجد أباه أو أحدا من شركائه، فيطمئن قلبه ويبوح بسره لوالدته التي اعتقدت غير ما يكتم في قلبه من سر. سار نصير مسرعا ومقاطعا الطريق العادي ومشرقا باتجاه الغور، ليسير بين البيوت والجنائن والزيتون المتناثر هنا وهناك، وعماير التين، وما زالت الشمس غير مشرقة، والكلاب تنبح، والديوك بين حين وحين تصيح، بعدما كان بالأمس يطغى على كل صوت صوت الحمير.

خرج نصير من بيوت الحارة الشرقية، وقد ولج إلى منطقة الطف الذي يسمو فوق الغور ويطل عليه، ليصل إلى مغارة «أبو جاج» التي لم تكن مغارة لوحدها، بل كانت مغارة في بطن شقاف.

كان الشقاف له باب كقوس السهم تكوَّن بفعل عوامل الطبيعة، ولأن الشمس تطل عليه من الشرق، فإن الأولين السابقين نحتوا من جانبه الأيمن الداخلي مغارة فيه وكأنها حجرة، فمن يجلس بها لا يكون مرئيًّا لمن يقف بباب الشقاف.

تقدم نصير بين شجر الزيتون من الجانب الغربي من فوق الشقاف الذي تغطيه زيتونة رومانية كبيرة أغصانها كثيرة، فاذا لم تقف عند قرميتها فلن تعرف أن هناك مغارة، وكان الشوك والشومر قد نبت واخضرَّ

واصفرَّ، وبقيت براعم الشومر خضراء فلم يجز أو يحصد.

داعبت أشعة شمس تموز الصباحية جبهة نصير، فانحرف شمالا ليأخذ طريق القطان المؤدي إلى باب المغارة، ولما نزل عن رجم حجارة صغير كادت إحدى فردات حذائه الواسع أن تلصم بين حجارة الرجم، فحاول سحبها بقوة فخرجت قدمه وبقي الحذاء ملصما، فجذبته الأرض إليها فوقع على جنبه، وكان خده الملصوق يتقبل قبلة من الأرض، ورفع رأسه قليلا ماسحا حبيبات التراب الناعمة، فزاغت عيناه من الشمس جنوبا فرأى شجرة الزيتون التي بباب الشقاف وقد ربط بها حمار عمه مخلص، وحمارتهم السوداء التي أُعيرت لفهيم، فأراد أن ينهض ويركض لباب المغارة لولا نخزة شوكة قندول لقدمه الحافية، فتألم وتذكر حذاءه الواسع الذي اشتراه له والده ليكون حذاء يلبسه في المدرسة عندما يدخلها، فرجع ليلتقطه من بين الصخور ويرفع ويحرف صخور الرجم أو القبر، فتلك الرجوم موجودة في كثير من البلدان، لكنك تراها بكثرة في ريف فلسطين وفي البراري والمراعي. كانت تلك الرجوم لمن سبق قبورا، غذ تُعلَّم القبور برجوم وأكوام من الحجارة. وكلما كان الرجم أكبر وحجارته أكبر وأكثر كان من يرقد فيه أعظم شأنا، وأعلى درجة في الكهانة وعبادة الشمس التي تشرق أول ما تشرق على هذه المغارة التي كانت بيت الرب.

أخرج نصير فردة حذائه وأدخل قدمه التي ثُقبت من أسفل مشطها ونزفت، فتكشف له ما تحت الزيتونة، فلم يشاهد حمارة والده.

خاطب نصير نفسه بصمت: «إن والدي لم يصل بعد، وصل عمي

مخلص وفهيم، فحماراهما مربوطان بالزيتونة»، وسأل نفسه: «لماذا لا أذهب إليهما، وأسأل عن أبي؟»، وأجاب عن سؤاله: «سينكشف السر ويسألونني كيف عرفت وحضرت إلى المغارة».

وقال لنفسه ليثنيها عن السؤال: «أبي لم يصل بعد، فلو وصل لكانت الحمارة تحت الزيتونة حتى لو لم تكن مربوطة، فلن تغادر ما دامت تعرف أن أبي في المغارة، لكنها ليست هناك، فأبي لم يصل بعد».

اقترب قليلًا بحذر وترقب، فوجد أمامه شجرة زيتون كبيرة وقريبة من المغارة، وقرميتها أسطوانية كبيرة، ومنبسطة كهرم، وفي أسفل قاعدتها من جهة نصير تجويف يشبه الحجرة، وعلى باب التجويف نبتت شتى أنواع النبات، وتفرع من بينه بيت الشومر بأوراقه الشعرية الدقيقة وسيقانه الطرية التي تحيط شطأه بسيقان غليظة، حملت على رؤوسها أكوازا من حبوب الشومر التي استوى بعضها، وبعضها ما زال أخضر، فإذا لم تقطف من نصير أو من غيره فسوف تسقط على باب التجويف، وتكون في ما بعد ذريتها هي المسيطرة على باب مغارة الزيتونة. إن هذا يفسر لماذا هذه الزيتونة كبيرة وأضخم من غيرها، وقد يكون لمقدار ما تتلقاه من الطاقة ونور الشمس تأثير على ورقها وحباتها وزيتها، فتأخذ نصيبا من النَّوَر أكثر مما يأخذه غيرها، فيصبح ذلك ليس كغيره من الزيت، لكن بميزة تفضيلية؛ أنه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، لأنه أخذ قسطا أكبر من فيض النَّوَر السمائي، فلا غرابة أن حدث ذلك مع أحد البشر، وإن كان لم يبلغ الحلم، لكن بلغ الشدة واستوى نتيجة نموه وعيشه، وتفتحت ذاكرته ببيئة قاسية لا ترحم إلا بمقدار ما تتحمل، بشرط أن لا تتذمر وتتكلم قليلا،

وتتعلم فن الاستماع وتعمل بصمت.

إن هناك عوامل مشتركة بين البشر والشجر، فكلاهما نبت وخرج من الأرض، فهذا طويل وذاك قصير وهذا أبيض وذاك أسود، وهذا شاء وقرر أن يتعدى على غيره، وذاك شاء وقرر أن يبقى كما، وهذا قرر أن يصلح الأرض، وكذلك الشجر والشومر، فهذا أطول وأكثر وأكبر من غيره. إن السبب هو الحصول على طاقة وماء وعناصر غذاء أكثر من غيره، فأصبح أطول وأكثر خضرة.

إن هذا ما حصل مع بيت الشومر الذي أخذ قسطا من الشمس والماء أكثر من غيره، وبقي على اخضراره وعرانيسه صفراء فاقعة.

أشاح نصير بيديه سيقان الشومر، وأدخل كامل جسده الصغير في تجويف بطن الزيتونة، فإذا بوجهه يسد شقا في قرمية الزيتونة من جهة المغارة، فباب الشقاف مكشوف له من بطنها، ورأى من الشق الحمير تلملم بفمها حشائش الارض، والصمت لا يقطعه إلا كحة عمه مخلص المميزة من داخل المغارة.

قال نصير لنفسه بصمت:

سأبقى في بطن الزيتونة أنظر وأترقب أبي، فسوف يحضر كما وعدهم، فهذا اليوم الخامس وقد سبقوه هذه المرة مع أنه كان دائما هو أول السابقين، ومعروف عند كل أهل البلد بسرعته وعجلته في كل شيء، فلماذا هذه المرة تأخر ولم يكن أول الواصلين؟

ارتفعت الشمس وهلَّ الضحى ولم يصل أبوه. شاهد عمه يخرج وهو ينفث الدخان من فمه، استطاع أن يميز نصير رائحة الدخان، فهي ليست

كرائحة الهيشي، إنها رائحة دخان كمال الذي أحضره أخوه العسكري نسر، وما لبث أن خرج فهيم وهو يتحدث متذمرا، ونصير يسمعه بصعوبة وهو يقول: لقد تأخَّر أخوك فماذا ستفعل؟

واستطرد قائلا: «سننتظر حتى صلاة الظهر، وبعد ذلك سأذهب وأستطلع أمور البلد»، وأضاف بعد توقف عن الكلام: «وأشوف مركبة لتحضر إلى منطقة صوف، وهي أقرب نقطة عند طريق النافعة الذي لم يكتمل رصفه، وبعد ذلك ننقل البضاعة بالمركبة وأنت خذ الحمير على البيوت، وانتظر عودتي بعد أن أبيع المهربات».

رد مخلص: خليني أنزل شوية في الطف، وأقف عند مراح الهوى وأستكشف إذا ما ظهر لي قادما عن بعد.

رد فهيم على مخلص قبل أن ينزل ويستكشف، متسائلا: «لقد تأخر واحنا شرقي النهر، وانت بتعرف إنه بعث لنا مرسالا مع ذلك الرجل أن نسير ولا ننتظره. ما قاله الرجل لنا أنه سيلحق بنا، فحمله أثقل من حملنا، فماذا يكون قد اشترى يا ترى؟».

لقد اتفقنا معه أننا جميعا سنشتري الدخان لأنه ذو وزن خفيف، فماذا يكون اشترى حتى يكون حمله ثقيلا كما قال الرجل؟!

رد عليه مخلص، وهو يرمي ذنب السيجارة ويطفئها تحت قدمه: «ما بعرف خليني أنزل وأشوف، بس اللى بعرفه إنه أبونسر ما بنخاف عليه أخوي وبعرفه»، واستطرد: «ممكن صار معه عارض أو اعترضته دورية يهود، ما انت شفت شو صار معنا، بعد ما قطعنا المخَّاضة، ورحنا على الفتحة في سياج الشيك، وكنا محظوظين إنهم أطلقوا قنابل الإضاءة الليلية

بعد ما نفذنا. وإلا كانوا طخونا».

أجاب فهيم: «حتى لو طخونا فنحن سعداء، وسيقول أهل القرية إننا فدائيون وشهداء، وراح أولادنا وأحفادنا يذكروننا كشهداء، ويعملوا منا أبطال وإنّا قتلنا وفجرنا دورية إسرائيلية، واحنا شوية تجار مهربين للدخان وهذه السموم»، وأردف وهو غير راض عما فعله وهو الكابتن المتقاعد من فرسان خيالة الإنجليز والمنضم إلى حزب المدرس أبوموسى الذي علمهم التحليل والتنظير:

«روح يا مخلص شوف وخلص أخوك، وخبرني شو بتشوف على مد النظر في الطريق وتعال خبرني، وموعدنا الظهر بنصليه وسننطلق، لنرى كيف نوصل البضاعة للتجار في المدينة».

كان نصير يمارس موهبته التي تعلمها من صمت الغور، ألا وهي الإنصات، فهو يستمع لحديثهم الذي بالكاد يصل إلى أذنيه، ولولا الهدوء الضحوي لما سمع شيئا، وعندما يصمتون يقول نصير في نفسه إن أباه يعرف الغور والطرق ويعرف كيف يسبق الجميع، فلماذا هذه المرة يتأخر؟ أفيكون حمَّل الحمارة حملا ثقيلا؟

إن خبرة نصير مع تلك الحمارة ترد على سؤاله وبصمت: حتى لو كان حملها ثقيلا، ووالده تخلف عنها لأي سبب، هي قوية ومتميزة، وحجمها أكبر من الحمير العادية، فهي أصلا حمارة قبرصية!

اختفى عمه عن نظره وبقي فهيم الذي دخل المغارة وخرج وبيده رغيف خبز ليس كخبز الطابون، إنه يشبه الخبز الذي رآه في المدينة، وسأل والده عنه فقال إنه خبز كماج ومحشو بالفلافل، ولم يتذوقه بسبب

سرعة والده ليأخذه إلى الدكتور يوم وقعت الحرب.

كان فهيم يقضم الكماجة ويلحقها بخشمة من زر بندورة، ونصير يتذكر هذه الفاكهة فقد ذاقها من أبوصادق صاحب مية السبيل.

كانت الأفكار والمشاعر والقلق على والده تدفع نصير وتكاد تجعله يخرج من جحره من بطن الزيتونة، فيشارك فهيم في خشم ما تبقى من زر البندورة، لكن الإصرار على عدم كشف نفسه إلا لأبيه جعله يصبر وينتظر رجوع عمه مخلص الذي عاد فقال:

«ما شفت على مد البصر في الطريق حد، وتفقدت ملتويات العَقَبة ومديت، وكررت النظر في طريق السقائف والطويل حتى الساقية وظهر حمار». وأضاف: «حتى إني شفت السدرة اللي في أسفل جبل ظهر حمار، فلم أر إلا حمير المهاجري، بين كل واحد والثاني ميل أو نص ميل، كله مشرق ما في حد مغرب، وجاي جهتنا».

بعد أن سمع نصير ما قال عمه، فقد الأمل بأن يرى والده قبل الظهر. وسيأخذ البضاعة فهيم وعمه مخلص، وسيتركون المغارة عند الظهيره دون والده.

أبت غورانية نصير أن تستلم لظاهر حديث فهيم ومخلص، فما زال الأمل برؤية والده قائما وقويا كقوة والده، وتميز وتفرد حمارتهم، فليبقَ بالجحر في بطن الزيتونة، وينتظر معهم حتى الظهر.

دخلوا المغارة وأدخلوا الحمير في داخل الشقاف، فلم يعد يراها، فالضحى بدأ يختفي وظل الزيتون يتقلص، والأمل يتقلص معه، فمد يده إلى باب جحره فقطف رأس عرنوس الشومر، وفركه بين يديه ونفخ عليه

بصمت، واستمر بالنفخ بصمت على ما تبقى بكفيه، فبقيت عشرات من حبات الشومر فلقمها لفمه، وبدأ بمضغها؛ فرائحتها وطعمها لذيذ وهي تطفئ العطش وتساعده على البقاء والاستمتاع بالمضغ. وقام بقطف كل رؤوس الشومر الناضجة، وترك الرؤوس التي لم تنضج ووضعها في جيوبه. وأخذ يتأمل سرب النمل من جانب الفرج الذي يدخل منه ضوء الشمس إلى جحره، فالنمل شق طريقه في ما استغلظ وتعفن من قرمية الزيتونة التي طال عليها العمر وبقيت صامدة أمام ما يصيبها من الخارج، وما ينخر فيها من الداخل من النمل الذي بنى مساكن وحجرات تحت جذورها في الأرض. وها هو يراقب أسراب النمل ما بين نمل عائد حامل لقطع صغيرة من الشومر وغيره من حشائش وحشرات الأرض، وما بين سرب من نمل غادٍ ليجمع ويعود، فقال لنفسه: «إذا كان النمل يصل إلى جحره، فوالده بالتأكيد سيعود حاملا البضاعة، ولا بد أنه سيعود إلى مسكنه كما يعود هذا النمل». فحرك قصفة صغيرة ونحيلة وجافة من قصفات هذه الزيتونة، فجعلها عائقا بطريق النمل، وهو يقول: «ألعب مع النمل أفضل من أن أخرج وأسألهما عن غياب أبي». إنه يتسلى حتى يمضي الوقت وتتعامد الشمس، فيفضى الشقاف فيدخله ويتلمس آثارهما حتى يتبع أثر أبيه في الغور، وما بعد الغور.

كان بعض النمل يلف ويعمل طريقا بعيدة، وبعضه يصعد على ظهر القصفة فينقلب على ظهره، وبعضه أخذ بقضم القصفة بفمه، وهو يحرك القصفة يمينا وشمالا، ويتسلى ويبصر ما هي التكتيكات التي يبتكرها النمل.

مضى الوقت وخف عدد النمل، فقد دخل مساكنه عندما رأى أن هناك عائقا أمامه كقصفة الزيتون، فتنادوا ونصير لا يسمع نداءهم:

«أن ادخلوا مساكنكم»، فدخلوا كلهم إلا نملة بقيت تباطح بحبة قمح أثقل من وزنها بمرات كثيرة، وأكبر من حجمها، لكنها لم تستلم لقصفة الزيتون وبقيت تحاول، وكلما صعدت قليلا انقلبت وتدحرجت هي وحبة القمح، فتعود فتحملها وتحاول، والوقت يمضي، وقصفة الزيتون تعترضها، حتى تعامدت الشمس وسكن ظل الزيتونة في أصل الزيتونة نفسها، فخرج الحماران محملين من باب الشقاف، كل حمار يحمل كيسين كبيرين مشدودين على جنبيه وظهره وبطنه، وساق عمه مخلص حماره وفهيم ساق الحمارة السوداء، وتخافتوا بصوتهم، وقد سمع قول فهيم:

«اللقاء عند منطقة صوف في زيتونات أخوك الكبير، وتحت السنسلة الكبيرة بحانب الشارع، نلتقي ونفرغ الحمولة هناك، حتى نحضر مركبه أو أحضر التاجر نفسه ليكشف على البضاعة ونبيعه ونقبض الثمن، وهو يستلم البضاعة بأرضها». ونهروا حميرهم وابتعدوا عن باب الشقاف الجنوبي، متسفحين السفح، وفي هذه اللحظة رمى نصير من يده قصفة الزيتون ليخرج من جحره، فسارت النملة بقمحتها إلى مسكنها بعد جهد ومحاولات.

دخل الشقاف والمغارة التي كانت أرضيتها مبعثرة، وفيها بقايا قطع الخبز وعروق أزرار البندورة وأعقاب السجائر، ورائحة شيء غريبة شم رائحته أول مرة في المدينة. وعندما سأل والده قال له: «إنها فلافل». لكن والده استبدل له الأدنى وهو الفلافل، بالأعلى وهو الكباب الذي قلم طعمه لأول مرة في الخان، وعندما ذكَّر والده بالفلافل قال له: الكباب ازكى.

أخذ يبحث في أرجاء المغارة، فوجد قطعة جريدة وبها كتابة لا يستطيع أن يقرأها، وعليها من الصور التي يحسن فهمها، وأحيانا الاحتفاظ بها، كما احتفظ بمحفظته بصورة اليهودي.

كانت الصور لجنود وعساكر، وتذكر صورة العسكري اليهودي الذي سرق محفظته. كانت صور العساكر في الجريدة تغطي بقايا أقراص من الفلافل ونصف كماجة بيضاء وزر بندورة مخشوم نصفه، فلف نصير ما وجد بالجريدة ووضعها بجيبه، فهو لا يزال يمضغ حبيبات الشومر، وجيبه الآخر مليء بالشومر. وتجول في كوة صغيرة في أقصى المغارة، كانت تشبه نافذته التي ينام بها، فشم رائحة ريش الدجاج وأيضا رائحة البول والبراز فخرج مسرعا إلى باب الشقاف، ووقف متسائلا: أيرجع للبيت بدون أبيه، وماذا ستقول له أمه؟

بينما كانت خواطره تقول إن أباه حصل معه ما حصل مع النملة، فقد يكون لا يزال يصارع عائقا ما بطريقه، وعندما يزول العائق ستسير الحمارة حتى لو كان حملها ثقيلا، فهي تعرف الطريق.

لم ينتظر نصير طويلا باب الشقاف، فقد وجد نفسه لا شعوريا يهرول من باب المغارة في الطف، تحفزه غورانيته فيهوي إلى مراح الهوى، ومن ثم إلى الكَتايِر وعَقَبة «أبو سليم»، فهي كما قال عمه مخلص يسير في طريقها المهاجرون. وحر تموز عند الظهيرة يزداد، والغور هو أشد حرا وأكثر وعورة، وتذكر أن أباه سماه نصير، فسأل نفسه: أفلا أنصر أبي وأبحث عنه حتى لو كان في الغور؟

6 تموز 67
تحت السدرة

وصل نصير إلى بداية نزلة عَقَبة «أبو سليم». لم تكن هناك حمير محملة بالقمح وطالعة للبلد، بل كان هناك حمير نازلة، وناس تمشي خلف الحمير ببطء وتعب، يتقدمهم الحمار المحمل ومن خلفه الرجل، ومن خلف الرجل امرأة تحمل على رأسها جونة، ومن خلفها أولادها الأربعة، أكبرهم يمسك بذيل شالها، ويليه الأوسط يمسك بيد أخيه، وأختهم من خلفهم تمسك بيد أوسطهم، وكانت هي آخرهم.

ظهروا عن بعد والتعب والإنهاك باديان عليهم، وعلى أختهم أكثر منهم. توقف نصير عن بعد تاركًا مسافة التخفي بينهم وبينه، فرأى أختهم قد أرخت يدها من يد أخيها الأوسط وأبطأت في خطواتها، ليبتعدوا عنها شيئا فشيئا وهي تتخلف عنهم شيئا فشيئا.

أدرك نصير ببصيرته وخبرته وما سمعه عن المهاجرين القادمين من مسافات بعيدة، أن هؤلاء كغيرهم عانوا السير لليالي وأيام والنوم المتقطع تحت الزيتون في العراء أو في الكهوف أو مساجد القرى التي يمرون عليها.

كانت أكثر النساء هن الدافعات لأزواجهن إلى العجلة في الهجرة والتشريق، هذا ما شاهده وعاشه نصير عندما هاجر أخوه نسر ومحفوظ، ورأى موقف والدته نصرة وإصرارها على الهجرة وذبحها الدجاجات. لم تكن الطرق سهلة ومعبدة، وبالكاد تستطيع أن يمشي بها البغال والحمير،

فما بين الجبال والوديان كان هناك طرق قديمة لعربات الرومان ومن بعدهم ممن ورث الأرض من المسلمين، وآخرهم الأتراك فالإنجليز، فأصبحت تلك الطرق مسالك للأغنام وللمزارعين وحميرهم. طرق بعيدة لا يوجد بينها أماكن إلا القرى التي اكتظت بالمهاجرين، فلم يعد خيار أمام المهاجر الخائف ممن كان بالجيش إلا الفرار نحو الأغوار فالشْريعَة، ليقطعها وبعد ذلك يكون في أمان.

إن معيار الوصول لبر الأمان شرقي الشْريعَة هو القدرة على التحمل والمشي والصبر على الجوع والعطش، فمن كان يملك ذلك، فلا بد أن يسير بالطرق الوعرة والمنحدرة التي بها نزول من شفاه الغور الغربية، وإن كان طريق النزول أحيانا أكثر صعوبة من طريق الصعود.

كان نصير يراقب تلك الأسرة وهي تنزل العَقَبة، ويتقدمها الحمار وهو يقفز على الصخور مقاطعا غير مكترث بطريق الحمير، فهو كفتى الغور له مسالكه التي تختصر المسافات، وكان يلاحق بنظره تلك العائلة المهاجرة في عز الحر من شهر تموز، فيرى أن البنت تبتعد خلف عائلتها، ويرى الأم أحيانا تنظر خلفها فتراها وتقول لها وهي ترفع يدها نحوها: امشي لقد اشتد علينا العطش، فلعلنا نجد ماء بعد قليل عند تلك السقائف.

كان نصير يستطيع بنظرة من أعلى الجبل أن يرصد مسار حركات المهاجرين، ومسار حركة تلك العائلة المهاجرة، فيرى أمامها أسرًا وعائلات أخرى قد وصلت إلى السقائف، وبعضها ورد على بئر الماء، فقال في نفسه: «كأنهم يريدون أن يلحقوا بمن هم أمامهم، وإلا لتوقفوا واستراحوا وارتاحت تلك البنت التي أفلتت يد أخيها». فأدرك أن هذه

العائلة من نفس قرى أو بلدات تلك العائلات التي تتقدمها، وقد تأخرت عنها بسبب حمل الحمار.

إن رب الاسرة يقود الحمار بطريقة تجعل من يشاهده عن بعد يشعر وكأنه يجر ويسحب الحمار جرا، فالحمار منهك أكثر منهم. فلم تتوقف هذه العائلة للراحة ولا تريد أن تنتظر أحدا حتى لو كان أحد أفرادها، فالطريق طويل ووعر، والخوف من قصف الطائرات أو من دوريات اليهود قد انتشر.

اقترب نصير من البنت التي تأخرت عن أهلها ولم تعد تستطيع المشي، فجلست على صخرة في العَقَبة لتستريح، فلفت نظره عن بعد ثوبها الأحمر، وكان بين نصير وبينها مسافة أكثر مما بينها وبين عائلتها، وإن ما يفصل بينها وبينه أقل من مشي ربع ساعة بخطواته كطفل، وما يفصل بينها وبين عائلتها أقل من مشي عشر دقائق.

حث نصير الخطى، وهو يفكر بلقاء والده. وكان كلما تقدم نزولا للعَقَبة تبدو له معالم البنت الجالسة على الصخرة كفتاة من جيله، يميزها لون ثوبها الأحمر الذي يجذب نظره عن بعد تجاه مكان جلوسها، فما حولها مجرد صخور بيضاء بأشكال وأحجام مختلفة، وأحجار كبيرة وصغيرة ومبعثرة في طريق جبلي متلوٍ كالافعى، فيه كثير من المنعطفات التي يضيق بعضها في كثير من الأحيان، ونادرا ما يتسع لحمارين محملين باتجاهين متعاكسين.

لقد اختارت الفتاة ذات الرداء الأحمر أن ترتاح على الصخور المطلة على غيرها من الصخور الأخرى وعلى الطريق الهابط، فترى من هو

أسفل منها، ولا ترى من هو فوقها وفي قصوة الطريق العليا. ولما ضاقت المسافة بين نصير وبينها أصبح بمقدوره أن يسمع بعض ندائها وبكائها المتقطع.

استنهض نصير غورانيته بالسمع والإنصات، وكانت تبدو له بجسدها الملفوف باللون الأحمر الذي يعلوه رأسها بشعر منفوش ومنقوش، ويتهدل على كتفيها، فأسرع الخطى والقفز على الأحجار والصفي الصغيرة، ويتجاوز لافًا عن الكبيرة منها، فيقرب المسافة بينه وبينها، بينما تتباعد المسافة بينها وبين أهلها.

أدرك نصير بغوارنيته أن التعب والإرهاق أجبرها على أن تجلس على الصخرة المطلة، تتابع بنظرها خطوات أهلها وهم يبتعدون، كانت تبكي بحرقة وتعيد وتكرر ما تصرخ فيه قائلة: وقفوا لي، استنوني، وركبوني على الحمار، أنا مش قادر أمشي.

ابتعدت عنها عائلتها خلف المنعطفات والصخور، واقترب نصير منها بأكثر من مقدار ما ابتعدوا عنها بخطواته السريعة. وكان يسمع موجات من نغمات بكائها الذي خبا وتغير من نغمة عياط وصراخ إلى نغمة من الاستجداء الذي يتحول فجأة إلى الصراخ ومن ثم إلى التهديد، وهي تصرخ فتقول: بعود إلى القرية التي مرينا فيها إذا ما بتوقفوا.

كانت عائلتها تسير وتنظر إليها، وتعتقد أنها ستلحق بهم، فلقد أخذت قسطا من الراحة. وبنفس الوقت، كان رب عائلتها يريد أن يلحقوا بالعوائل الأخرى التي سبقتهم. لم يعلم نصير إذا ما سمع أهلها بكاءها، فلربما سمعوا وقالوا: «بتقوم وبتلحق فينا»، لكنه فهم قولها، وسمع

صراخها وتهديدها، ولا خيار لها إلا أن تنزل وتلحق بهم، فمن المستحيل أن يعودوا ويطلعوا العَقَبة في الحر الشديد بعدما نزلوا وهم يستعجلون الخطى ليلحقوا بركب المهاجرين، فالأولى بها أن تنزل وتلحق بهم، وعنادها لن ينفعها الآن حتى لو توقفوا. كان الأب والأم يعتقدان أنهم إذا ما رضخوا لها هذه المرة، فسوف يتوقفون عند كل طلعة ونزلة. وما أكثر الطلعات والنزلات في الأغوار! والطريق طويل ووعر، فظل الأمل عند والديها أن تلحق بهم، حتى إن الاب أدار وجهه غلى زوجته وكأنه يقول لها: لا تنظري إليها واعملي حالك أنك غير سامعة حتى تيأس وتلحق بنا.

وصل نصير إليها وقد خفت صوتها، وأحنت رأسها على صدرها، وأسندت يديها على ركبتيها تمسح آثار الدماء التي نزفت من سيقانها بعدما خدشتها كل أشواك القرى والجبال وتلال ووديان الضفة منذ أن هدم منزلهم جراء القصف في أول يوم من الحرب.

كان نصير يفكر بما سمعه من الدكتور، فقد تكون هذه الفتاة من إحدى القرى الصغيرة الواقعة في جانب الخط الأخضر، فانتقلوا بعد ذلك إلى المدينة القريبة، فلحقهم العدو ولحق بهم غيرهم، فساروا هائمين بعد أن تفضل عليهم أحد الرعاة بحماره، فحملوا متاعهم القليل عليه وساروا برحلة طويلة مهاجرين حتى وصلوا إلى أسفل شفا الغور، فلم تقدر أرجلها أن تحملها بعد أن سارت ومشت مسافة طويلة. ولأنها فتاة وقوية كعماتها (تعتقد الأمهات أن البنات قويات وأنهن من صدور العمات) فلم تركبها أمهاعلى الحمار كإخوانها الذكور، فحظوا بقسط من الراحة يعينهم على مواصلة السير، بينما هي لم تحظ بذلك فتعبت ولم تعد قدماها

الحافيتان الداميتان قادرتين على حملها، فجلست على الصخرة مستندة وصارخة ومهددة، لكنها من الجوع والعطش والتعب لم تعد ترى أهلها، ولا تسمع إلا تنهداتها، ووقع أقدام قادمة إليها ومتقدمة نحوها، وقد سمعت صوتا هاتفا يناديها من خلفها قائلا: «سلام.. لا تبكي، أنت لست وحدك، أنا نصير، ومثلك.. ستلاقي أهلك وألاقي أبي».

فالتفتت خلفها لتقول كما سمعت أمها تقول من قبل عند المفاجآت: «سلام قولا من رب رب رحيم، وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

قال نصير وهو يقترب منها أكثر ويتأملها: «أنا نازل ألاقي أبوي، ما تخافي قومي معي سنلحق بأهلك فلا تخافي، وتوقفي عن البكاء».

اقترب منها لمسافة الأمان التي لا تخيفها، وحتى يخفف خوفها جلس على صخرة من تحت صخرتها التي تجلس عليها، فنظر إليها من أسفل إلى أعلى، فوقع نظره على ساقيها من تحت ركبتيها اللتين غطاها الثوب الأحمر المهترئ والمتسخ، فكانت الساقان مكشوفتين ودامیتين. كانت فيها جروح التأمت أو كادت، وبعضها لا يزال ينزف، وعندما أخفض نظره إلى الأرض، وجد أنها حافية، وأن قدميها أصبح لونهما كلون ثوبها، وقد انتفختا وتهشمتا، فلم تعد تُرى أظافر أصابع قدميها!

ورفع نظره إلى ثوبها الأحمر، فلم يكن أحسن حالا من ساقيها، فلقد أصيب بخروق وخزوق، فعرف أن الذي جرح وأدمى ساقيها وقدميها هو نفسه الذي مزع ثوبها الذي حمى جسدها من لسعات أشواك وقندول فلسطين الذي يصبح في الصيف يابسا وأكثر حدة، فيهشم القدمين الحافيتين ويسلخ جلد السيقان المكشوفة، ويمزع ما يغطيهما من لباس إن وجد.

رفع رأسه لاعلى جسدها ليشاهد رأسها الذي كاد ألا يحمله جسدها، فانحنت رقبتها به نحو اليمين، وقد بدأت دموعها مرتعا لذباب الغور الأزرق الذي شم ماء الدمع، وهي إن كشته انتقل بسرعة إلى شعرها الوسخ الذي تجدَّل بخصال يربط بينها الطين والتراب والعرق، وأشياء اخرى من قش تعلق بين الشعر، ويبدو أنها منذ خرجوا من بيوتهم، والمشط والماء لم يلمسا شعرها، فتعقد وأصبح كالخريص. وكان لها وجه ترى فيه العيون الواسعة ذات البؤبؤ الأسود، وشفاه مشطبة ومقشرة وجافة، ويدين بانت أكواعهما بعد أن تمزقت أردان الثوب.

قالت وهي تنظر إليه فتجده من نفس عمرها: هل معك ماء؟

قال: «لا، ولكني أعرف بئرا قريبا عند السقائف». ونظر بنظرة من علو في الأفق البعيد، فرأى السقايف وأمه على البئر يسقون، وأهلها يردون عليه، فقال: «انظري»، وأشار بيده إلى مكان بعيد. «أليس أولئك أهلك يردون على البئر، لعلهم ينتظرونك هناك عند السقايف، لعلنا نلحق بهم. سيأخذ منا ذلك مشي ساعة أو أقل فنصل البئر وأهلك، فهل تستطيعين المسير؟».

نظرت إليه وهي تحبس بكاءها، فلم ترَ شيئا إلا وجهه، ولم ترَ ما يشير إليه فقد كان بينه وبين نظرها غشاوات من التعب والعطش والجوع والإرهاق، فلا طاقة ولا ماء ولا غذاء يحرك دورتها الدموية، حتى إن دموعها نشفت ولم يعد يُهدّي عليها الذباب.

فأراد أن يخفف عليها، فأعاد عليها اسمه. فقال: أنا اسمي نصير.

قالت بصوت متقطع وهي تبلع ريقها لتقدر أن ترد عليه: «أعرف، وأنا

اسمي عبير، وأهلي تركوني، ويحسبون أنني قادرة على اللحاق بهم، وأنا لا أستطيع أن أسير على قدمي».

كانت حالتها سيئة، وبالكاد تسمعه وترد عليه، ولم تكن تستطيع أن تقشع تفاصيل وجهه، فلما تقدم وكش الذباب عنها، قشعت وجهه، فرأت الندوب وآثار الجروح واللاصقة على خده، فقالت: «ما الذي فعل بوجهك هذه الندوب؟».

قال وهو يخلع حذاءه ويقيسه على قدمها: هذه منذ زمن ليس بطويل وساحكي لك عنها، خليني أشوف قدميك فإذا لبست حذائي هل تستطيعين أن تسيري، وعند ذلك سأحكي سبب النزول ونحن نسير ونلحق بأهلك».

لاحظ نصير أنه بالرغم من تورم قدميها فلا يزال حذاؤه أكبر من قدميها، لكن لا بأس فبداخله شرائط لتضييق المساحة والالتصاق بالقدم، ومع ذلك عندما أدخل قدمها النازف بالحذاء صاحت فلقد لمس الحذاء جروحها.

فكر أن يحملها، لكنه لا يستطيع، فهو طفل في مثل عمرها، وحتى لو استرجع غورانيته وتحول إلى حمار لتركبه فإنه سيكون كرا صغيرا، وسيهبط ظهره ويقرك في العَقَبة.

فكر بغطاء قدميها ولفهما كما كان جده يلف أقدام المكسورين، ففكر ونظر إلى أردان قميصه، فهي تصلح لتكون جوارب ليلف قدميها وساقيها بها، وتحمي الجروح فتسير بدون ألم وهو يسير حافيا، فهو معتاد على السير في الغور حافي القدمين، والأردان لا حاجة لهما في فصل الصيف،

وبالذات في تموز وفي مكان منخفض كالغور، فتذكر نفسه وهو يراقب النمل، وأراد أن يقص عليها قصته والنمل وهو في بطن قرمية الزيتونة، وتذكر قبضة حبيبات الشومر الخضراء ذات الطعم والرائحة الجيدتين، وما بهما من ماء يحفز اللعاب ويسهل بلع الريق، إنه الشومر وما يخزن فيه من ماء.

مد نصير يده إلى جيبه فأخرج حفنة بمقدار راحة يده، وأخذ قليلا منها ووضعها في فمه، ومضغها وقال: «حبوب شومر زاكية، وبتنعش. ويُشرب منها الماء».

ومد يده إليها وقال: جربي شوي، وإذا عجبك ضعي كمية بفمك وامضغي ببطء، ولا تبصقي شيئا.

فلما رأته يمضغ وهو مستمتع مدت كفها، فوضع قليلا من الشومر بيدها فالتقطته ولقمته فيها، وأخذت تمضغ، ويقول لها: امضغي ببطء ولا تبلعي إلا لعابك.

أحست بطعمه اللذيذ وبنكهة فواحة، وبدأت خلايا لعابها تلعب وتفرز، وأسنانها تطحن حبيبات الشومر، فما تدري هل تبقي ذلك في فمها أم تبلعه فتسكت عصارة معدتها التي بدأت تحرق جدارها.

لقد بلعت القليل وتركت في فمها ما تبقى، وبدأ الاثنان يمضغان الشومر. وهو يمزع أردان قميصه ويربط أكمامها حتى أصبحت كجورب، ورفع قدمها وحشرها بالجورب الذي أدخل فيه أيضا ساقها حتى أسفل الركبة.

نهض نصير وهي ما زالت مستمتعة بالمضغ، وقام بإمساك قدمها

وحشرها، وكانت هذه القدم الثانية التي كانت أكثر جروحا وبقاقيش متقيحة وأكثر ضررا، فلم تتألم واستطاعت أن تنزل عن الصخرة، وتقف على قدميها بحذائه الواسع وهو حافي القدمين، ويتجنب أن يخبط على حجر أو صخرة من شدة سخونتها التموزية، فكان يختار أن يخبط على التراب الأقل حرارة حتى لا يحرق باطن قدميه، فتتقرحا.

إن الطريق صامتة كصمت الغور، ولا يوحد فيها أحد، والشمس حارقة، وها هو يمسكها بيديه ويسير بها نازلين العَقَبة، لعل وعسى أن يبلغا البئر عند السقائف، ويكون أهلها ينتظرونها ويسلمها لهم، ويواصل رحلته حافيا بالبحث عن أبيه الذي تأخر.

إن العبير الذي يخرج من جسدها وثيابها كلما اقترب منها، يجعله يشم كل روائح شجر وزهر الأرض التي مرت منها، فاستقرت بملابسها وبشعرها، فاختلطت بالعرق والغبار، فلا يستطيع أن يكذب حاسة الشم التي تقول له: «هذا عبير كل ما في الأرض». فهل خانته ذاكرته أم صورت له ما كان يحب أن يقلم أنفه من روائح أولا، وهل قلم أنفه أيضا بخور الشومر الذي يخرج من بين شفتها؟ فقال محدثا نفسه: إنها عبير.. حملت معها رائحة الليمون من القرى والبيارات، وبرحلتها مع عائلتها المهاجرة، مرت من كروم العنب وعمائر التين، حتى وادي التفاح والزيتون، فقد حملت معها ريحًا من كل قرية أو شجرة مروا بها.

كان نصير يسير مع عبير حافي القدمين، يحاول أن لا يخبط على صخرة أو شحفة حجر فيجلخ القدم، هو يعرف أن التراب أحن على القدم من الحجر، فأفضل له أن يمشي عليه بحذر، وهي تمشي بجانبه

بحذائه الواسع، وأردان قميصه التي أصبحت جوارب لها، ورائحة الشومر تخفف من رائحة العرق، والطريق خالٍ حتى من الطير، والأقدام تسير نحو البير فالعطش شديد، ولا يستطيعان الكلام حتى لا تبلع حبات الشومر أو تقذفها في الطريق، فحبات الشومر هي ما يجعلهما في هذا الحر يسيران، فلقد أوشك العصر على الحضور، والطريق تصغر ما بينهما وبين البئر.

ولما اقتربا من بئر السقائف عند العصر كان الرعاة قد سقوا أغنامهم وصدروا إلى بقايا المعاني والقرطات والموارس والخصوم التي لم يحصدها أصحابها وتركوها، فلقد اشتعلت الحرب والحمير جاهزة للتهريب وحمل الدخان الذي يغنيهم ضعف أو ضعفين ما يجنون من حصاد القمح الذي تعبوا عليه نصف عام، فلترتع به أغنام أصحاب الحلال التي بعد أن شربت ظهرا وقالت من حر تموز صدرت عصرا، بعد أن بدأت هبات نسمات العبير العصرية، فلتأكل الأغنام سبلا وحبًّا مما تركه الناس بسبب التهريب، فذلك أشهى من الهشير، فكان العبير العصروي من خلف النعاج متسللًا من شفاه الغور إلى وديانه، مصطدما بجسدي نصير وعبير، ومخففا من رائحة العرق وما يزكم الأنوف حتى لا تقوى على التقليم بين الروائح.

قال نصير لعبير: «الحمد لله وصلنا إلى البئر بعد أن صدر الرعاة لأن بعضهم لا يؤتمن جانبهم، فأنا عندي بهم خبرة في الغور». قال وهو ينحرف إلى جهة اليمين وهي تتبعه بثقل، وقد نساها العطش ذكر أو نداء أو السؤال عن والديها، إذا ما انتظروا على البئر أو لا.

ما دامت قد وصلوا بئر الماء فلتبصق بقايا قشور حبات الشومر التي لم يعد فيها شيء ياخذه الريق، وهو لم يعد يهتم أين بخبط، أعلى حجر أم شوك، ونسي أنه حافي القدمين، فالماء هو الحياة بل كل شيء.

كانت الأغنام قد ارتوت وبقي في جوابي وحوض الماء شيء للطير والغريب وعابر السبيل، ولنصير وعبير اللذين هرعا على الماء فنضحا يكفيهما الماء على وجهيهما ورأسيهما حتى بردا، فقال نصير لا تشربي من خلف الغنم والحمير.

فوقف على باب البئر، وسحب بقوة حبل الدلو، فخرج الدلو بماء بارد من قعر البئر، فرفع لها الدلو بيده، فاستمرت بالشرب فنزعه من فمها ووجهه إلى فمه وشرب، وجلسا يستريحان على خرزة البئر، فقال لها: «لا بد أن أهلك وقفوا هنا وشربوا وملؤوا السعن أو الجلن ماء وساروا، ليلتحقوا بجمع المهاجرين ولا يفوتهم الهجرة مع الجماعة»، وقال: «سنشرب ونرتاح، لكن كيف لنا ناخذ معنا الماء، فالطريق طويل، ويجب أن نلحق بهم قبل أن يغشانا الليل، وأكيد هم يسرعون ليلحقوا بجماعتهم المهاجرين».

اعتقد الناس أن الموت مع الجماعة رحمة، وأن الظلم والهجرة قد تغني عن العذاب الذي يلحق بهم نتيجة هذه الملاحقة التي تعلمها البشر من مطاردة الحيوانات لبعضها البعض، فلا يعرف الحيوان الذي يطارد فريسته أنه مطارد من حيوان آخر، وأنه قد يكون ضحية أو فريسة، فيلجأ إلى الجمع والقطيع، فذلك يحقق له الأمن، ويسير مع القطيع حتى لو تطلب الامر التخلي عن الرضيع أو الصغير الذي لا يستطيع أن يلحق

بالقطيع، فيقع فريسة لمن يلاحق القطيع ويتربص به. قد يكون ما حصل مع عبير وأهلها مشابها لذلك، لكنها كانت محظوظة أن التقت بفتى الغور الذي سيكون لها سقفا يحميها وحائطا تستند إليه. إنه هذا الفتى الذي أصبح اسمه نصير، والذي ورد بها إلى ماء البئر بعد أن صدر عنه الرعاء، وجلس على خرزة البئر كعبد فقير.

قالت له بعد أن شربت وارتوت: أنا جائعة.

نظر إلى الدكان الصغير عند السقائف ومن كان يشتري منهم ما يجنونه من التسبيل، فوجده مغلقا. وتذكر المغارة التي تواعد أبوه مع صحبه بها وبقايا الكماجة والفلافل اللذين لفهما بقصاصة الجريدة ووضعهما بجيبه، فأخرجها من جيبه وقطع منها قطعة بمقدار لقمة، فانتشر عبير الفلافل النافذ، فأكلت وأكل وشربت بعدما أكلا، فرجعت لهما طاقتهما المفقودة، ودار الأدرنالين في عروقهما، فانطلقا وأخذا طريق الغور التي أصبحت تعرف بطريق المهاجرين، لكن على مد أبصارهم لم يكشفوا أحدًا في الطريق أمامهم، ويبدو أن أهلها لا يزالون يطاردون قطيع المهاجرين من قريتهم، على أمل أن يلحقوا بهم، وقد ضحوا بعبير.

نظر نصير أمامه، ومن خلفه فلم يرَ في العَقَبة أحدا، فالمهاجرون ينزلون في الصباح والدنيا براد، ونظر إلى الشمال واليمين من الطريق، فرأى الأغنام بينما كانت ترعى القمح المتروك، والرعاة يوقدون النار فيصنعون الشاي. وكان نصير يراقب حمارهم لعله يقترب منه، فيأخذ مطرة الرعاة من ظهر أحد حميرهم، لكن خاف على عبير، فواصل السير ببطء، فالأغنام سارحة ترعى وتقضم السبل، وأحد الحمير مع المرياع قريب من

الطريق، ويكاد يرى المطرة معلقة من جهة، وزوادة الراعي من الجهة الأخرى، وهذا ما يحتاجه هو وعبير، فالطريق طويل والجو حار، ولا بد من الماء وشيء من الطعام حتى لو كانت كسرات خبز يابسة من وراء الرعاة، لكن الكلاب دائما حول الحمار والمرياع، وهو يعرف اسم هذه المنطقة، فلقد قال له الهلالي الذي رافقه بنفس الطريق وسمع منه سيرة أبي زيد إنها الساقية. سيتبع نصير في مسيرته مساره مع أبي علي الهلالي، ويحدثها عن قصته أو سيرة أبي زيد أو يسمع منها من أين أتت مع أهلها؟ وهل أبوها كان في الجيش وعاد خائفا ليأخذهم كما فعل إخوته وأهل بلدته؟ أم أن لها قصة مختلفة لها ولوالدها وأمها؟

كل مهاجر له قصة وسبب لترك بيته، وإن كان العامل المشترك هو العدوان والاحتلال. وهناك من بقي ولم يهاجر مثل والده. كان يرغب في سؤالها: هل ذبحت أمها الدجاجات قبل أن يهاجروا ويسيروا خلف الحمار؟

ذهب تفكيره بعيدًا، فإذا لم يحصل على مطرة الراعي، فلا مجال إلا أن يسرعوا بالطريق، فإما اللحاق بأهلها الذين يسرعون ليلحقوا بالقطيع، وإما الوصول في الليل إلى عين الحَفيرَة أو بير أبوالدَرَج، وربما يجد والده قادما في الطريق. أو إذا ما صادفهم عائد أو مهرب يسأله عن أهلها وعن أبيه أو حمارتهم؟ تعرف حمارته الطريق، وهو يعرف طريقها، فلقد ركبها مرارا وكان وحده على ظهرها، فأوصلته إلى البيت بأمان حتى لو كان نائما، فهو يتذكر والده بالليل عندما وضعه بين قصات الجبن على ظهرها، وكان الوقت منتصف الليل بعد أن خدعه القمر، فكانت آخر

كلمات والده: «أنت بين يدي الرحمن».

تذكر رحمانيته التي اكتسبها من صمت الغور وسكونه، وتذكر غورانيته وتحمله للمخاطر عندما تركه والده عند عين الحَفيرَة، وذهب ليشقر على زرع المَداحِل.

كانت الشمس ما زالت تميل إلى الغرب لتقترب قليلا من شفاه الغور، وكانت الأغنام ترعى بالقمح، والرعاة بجانب التلة في نهاية الأرض المحصود نصفها، والمتروك النصف الآخر منه. وكانت الكلاب تحيط بالحمار القريب منه، وهناك حمار آخر بعيد، لكنه قريب من الرعاة الذين أشعلوا النار، وهو يمشي وعبير تمشي بجانبه، ولا أحد يستطيع أن يراهم وهو في الطريق الذي هبط، فأصبحت تحت غدوة الأرض المزروعة. كانت عيناه ترقبان المطرة على ظهر الحمار القريب، وترقبان الكلبين وهما يحركان ذيليهما بين أرجل الحمار، ويلهثان. كان يريد أن يقص عليها قصته كما قص عليه أبوعلي سيرة أبي زيد. وكان أحد الكلاب يشبه كلبه سرحان، كل ذلك تذكره، لكن عقله تذكر، وما تذكر إلا ذكر والده المفضل واستعانته الدائمة بالرحمن، فما قال والده «الرحمن» إلا وتيسرت أمورهم وأنهى عمله قبل غيره، فلماذا هذه المرة تأخر عنه الرحمن، هل ضل عن طريق الرحمن؟

شعر كأنه يسمع والده يقول: «توكل على الرحمن فأنت في كتاب الرحمن المبين، فهو سينجيك بصمت وبدون كلام أو خطاب». توقفت الأفكار فجأة حين جفل هو وعبير لانطلاق أرنب من بين الزرع غير المحصود، وهو يسابق الريح إلى الأرض المحصودة لسبب ما لا يعرفه

نصير. لكن الرحمن يعرفه في هذا الوقت والزمان والمكان، فشمت وقلمت أنوف الكلاب رائحة الأرنب، فركضت نحوه فركض الأرنب كالريح مغربا نحو الشمس، والكلاب كلها البعيد والقريب تلحق به نابحة ولاهثة، وحالمة بصيد شهي. وليست كلاب الرعاة وحدها التي تركت الحمير والمرياع بدون حراسة، بل أيضا الرعاة أنفسهم أخذوا يطاردون ما تطارده كلابهم. إنها رحمانية رب نصير وعبير، ورب الغور ورب العالمين، ورب كل شيء ورب العرش العظيم.

ابتعد الجميع عن الحمار الذي يحمل الأسفار والمطرة وزوادة الرعاة الذين طمعوا بالأرنب الذي لحقت به الكلاب.

فرح نصير بهذا الفتح المبين وقال: «يا رحمن»، وقفز من فوق سنسلة الطريق، وترك عبير وانطلق كالسهم أو كشرخة الخطفة التي اختطفت جزءا من خده بعد أن خرقته وهو يمسك بكيس القمح. وها هو يقفز نحو حمار الرعاة، وبطرفة عين ويدين صغيرتين فك المطرة. ومن تحت الحمار. ونفذ إلى الجانب الآخر، وفك الزوادة عن ظهر الحمار، ورجع مسرعا ليختفي في غدوة الطريق القصوى. وقال لعبير: «اركضي»، وقد أعطاها المطرة بيدها، وكان يركض وهو حافي ويمسك بيد الزوادة، وباليد الأخرى يمسك يدها، وهي تجري خلفه فيحس أنه يجرها جرا لتلحق به قبل أن تصطاد الكلاب الأرنب البني الذي يموه بركضه الكلاب يمينا ويسارا، مغريا لهم ليلحقوا به بين الزرع، فلا يعود مكشوفا لهم تحت الشمس.

لقد يسر الرحمن لنصير الأرنب ليشغل الكلاب، ويقتسم مع الرعاة

عيشهم ورزقهم، فها هو الأرنب ما زال يقفز والكلاب من خلفه، والرعاة من خلف الكلاب حتى لا تأكل الكلاب الفريسة، ويتمتعوا بالشواء على النار التي تركوها مشتعلة، بينما نصير وعبير يركضان شرقا حتى اختفيا وراء الجبل الذي بجانب الساقية. فلو عاد الرعاة لن يروا أحدا، فلقد أمسيا خلف الجبل يظلهما الرحمن بظل الجبل، ومعهما الماء والغذاء. وبعد أن تقدما مسافة الأمان خففا الخطى، ولم يعد نصير يحس بقدميه الحافيتين، وكان يحس لسع الأشواك بهما، لكنه تألم كثيرا عندما ضرب أصبع إحدى رجليه بحجر، فتعثر وكاد أن يقع، فهو يحذر مما سبق أن وقع له في ماضيه، فيقع على الأرض كما حصل معه عندما سرق البيض من خم الدجاج انتقاما من والده، وها هو يسرق المطرة والزوادة حتى يستطيع أن يلاقي والده، ولعبير حتى تستطيع أن تلاقي أهلها، والرحمن بينهما، فلم يكن لهؤلاء الأطفال أن يعلموا أن ما قاموا بها هو صواب حتى بإذن الرحمن.

إن عبير ونصير لا يعرفان أن ما فعله نصير حرام أو حلال. كانا يمشيان ولا يكادان يسمعان أي خطاب من الرحمن، سوى هاتف من داخل نصير يقول له: «إن ما فعلته كان صوابا.. صوابا.. إنها ضرورة للبقاء على قيد الحياة».

أراد نصير أن يقلد أبا علي الهلالي فيروي لها سيرة أبي زيد، فهما يسيران بنفس الطريق والشمس نحو الغروب تميل، فقالت له: «الطريق طويل، ولا أحد أمامنا نستطيع أن نراه ولا من خلفنا كذلك»، وأضافت: «لقد مضى شهر علينا بعد أن قصف منزلنا، وتشردنا ونمنا في مدارس،

وبعد ذلك قصفوها واحتلوها، وهدموا كثيرا من البيوت، وقتلوا بعض الناس، فهربنا ونمنا تحت الزيتون ومررنا بكثير من القرى. وكان معنا رجل له أقارب له فاستضافونا في بيوتهم. وصلنا إلى المدن، فأرادوا أن يعملوا مخيما بجانب المخيمات القديمة لنا ولغيرنا ممن هم مثلنا، فرفض أبي. وقال: أنا عسكري بالجيش إذا عرفوا بي سيقتلونني، لازم نسير ونصل إلى شرق النهر. وسرنا إلى المشاريق القريبة من الغور بعد أن قالوا إن شرق نابلس أصبحت تجمعا لجيش الاحتلال، فمررنا بقرى كثيرة، وكنا نرتاح تحت الزيتون، وتمزق حذائي البالي، وكان أهل القرى يزودوننا بالماء والطعام والغطاء. وما زلنا نسير حتى شارفنا على الغور، وكنت قد تعبت ولم أقوَ على السير، وأهلي يقولون «الحقي» نريد أن نلحق بأهلنا وجماعتنا من نفس القرية. لكن الحر والأحجار الساخنة حرقت قدمي، والأشواك قد أدمتها حتى أتيتَ ولبست حذاءك، ولا أحسب أنني أستطيع أن أواصل معك السير، فأنا أشعر بالعطش والجوع، وأريد أن أستريح».

قال: اشربي قليلا من مطرة الرعاة، وخذي آخر حبات من الشومر فامضغيها حتى نصل إلى مكان آمن في الطريق قبل أن تغيب الشمس. أمامنا المُعَلَّقَة، وسنصل إليها عند غياب الشمس، فلقد سرت بهذا الطريق من قبل مع أبي علي الهلالي وأعرفه. وقد كان بنفس الوقت وكان يقص علي سيرة أبي زيد. وأشار بيده إلى جنوب الطريق قائلا: «هناك بجانب السدرة استرحنا، وكانت الشمس تغيب»، وأضاف: «انظري وراءك». وعندما نظرت رأت الشمس تغيب خلف الجبال فأضاف: «هكذا نظرت

عندما استرحنا تحت السدرة لنذهب ونستريح تحتها». وسارا بجانب التل المسمى ظهر حمار، وابتعدا عن الطريق، وتحت السدرة حط الزوادة وحطت هي المطرة، واستلقت على الأرض على ظهرها.

بينما هو أراد أن يعمل مثل ما عمل أبوعلي ليعمل عصاه لتكون سلاحه إذا ما حاق بهما خطر، فيدافع عن عبير ويشعرها بالأمان.

حاول أن يكسر غصنا قريبا من الأرض فكان أعلى منه وكانت الحيوانات قد أكلت ما طالته رؤوسها عن الأرض، فلم يبقَ إلا المرتفع.

أخذ يتفحص السدرة وأغصانها. رأى غصنا يصلح ليكون عصا. وهي مستلقية فقال لها: افتحي زوادة الراعي، وكلي ما تجدين، واشربي قليلا من ماء المطرة، سأتسلق الشجرة. تسلقها وكأن الشجرة كانت تدافع عن نفسها وهي تنخز يديه بأشواكها، حتى إذا ارتفع عن قاعدتها مترين تعلق بأحد أغصانها بيديه وترك رجليه في الهواء، فمال الغصن به نحو الأرض وهوى به، فسقط على ظهره والغصن بين يديه، وقد قبَّل أحد أشواكه الطويلة خده حتى اعاد أختراق الخرق الذي بخده وما عليه من لاصقة فثقبت بمقدار رأس الشوكة التي كانت كالإبرة أو أكبر قليلا. كادت السقطة أن تفقده وعيه وينقطع نفسه كما حصل معه عندما سقط من المرجيحة عن اللوزة، لكن الرحمن الذي أخرج الأرنب من حجره لتلحقه الكلاب، احتضنه على رخو من القش والأعشاب التي تشكلت تحت السدرة، فكانت مهدا له امتص قوة السقطة، فاعتقد نصير أنه عذاب من الرحمن على ما اختطفه من الرعيان، وتذكير له بجرحه القديم الذي تسبب به والده من كثرة الشد للحبل، فلقد اشتاق لوالده، ولعل وعسى أن

يجده. فرفع الغصن من على وجهه وبطنه، فأحس بألم شديد ونزف قليل وخيط يخرج برأس شوكة السدر من تحت اللصقة، فكانت القطبات التي لم يخرجها أحد من خده، فقد خرجت بيد الرحمن وعلى رأس الشوكة.

جلس والغصن بين يديه، وعبير اعتدلت وأخذت تمضغ كسرة خبز يابسة، وهو يقول لها إنها أطرى من القردوش. وهو ينزع الأغصان الصغيرة عن ساق الغصن ليكون عصاه، كما فعل له أبوعلي. وكان يريد أن يوقد النار ويقدح الشرر بحجر صوان، لكن الظلام بدأ. وما إن انتهى من العصا حتى سمع شخير عبير، فقد استلقت ومن التعب نامت تحت السدرة، ولم تبلع ما في فمها، فخاف أن تختنق، ففعل كما فعل له والده عند الجسر بجانب القرن، فمد أصابعه في فمها وأخرج المضغة، فأحست به وفتحت عينيها، وقلبت جسدها على جهة اليمين فنامت ولم يعد يسمع شخيرها. أما هو فقد انتهى من تثقيف عصاه، بعد أن استعاض عن شبرية أبي علي بشحفة حجر ساعدته على تثقيفها حتى أصبحت كرمح صغير، وزحف على قفاه نحو قرمية الشجرة. وكان نظره مسلطا على عبير، فوقع نظره على المطرة بجانبها فإذا هي مفتوحة، وإذا ما حركت قدمها فستقع المطرة وينسكب ما بها من ماء، فتقدم زاحفا تجاه المطرة وحملها، وحمل غطاها، وشرب قليلا، وعرف بعد أن رفع المطارة فوق فاه ليبلغ الماء أن فيها تقريبا الربع، فلم يرتوِ بل بلَّ ريقه وسدها بإحكام ووضعها، وعاود الزحف على دبره حتى اصطدم ظهره بقرمية الشجرة، واسند ظهره لها متكئا برأسه فوق يديه الممسكتين بالعصا المغروسة بالأرض ونام، وكأنه للناظر إليه حارس عليها متيقظ.

كان الليل ساكنا، باستثناء أصوات الصراصير وصوت أنفاسهما، فقد كانا نائمين، الأرض فرش لهما والسماء غطاء. ولم تتحمل العصا التي ما زالت طرية نصف جسده، فترنح رأسه فصحا وكعبل جسده كجنين في بطن أمه وهو يضم العصا إلى صدره، ويختلس النظر إلى عبير التي ما زالت نائمة، ولا يفصل بينه وبينها إلا مقدار طول عصاه. وما إن أغمضت عيناه حتى قطع سكون الليل وغطى على أصوات الصراصير خفخفات وهمهمات بعض الوحوش. «لعله ذئب أو ضبع» قال في نفسه ونظر إلى عبير ليرى إن سمعت شيئا فاستيقظت، لكنها كانت نائمة، وأعاد وقال بنفسه: «لا ليس ذئبا فالذئاب همهمتها مثل الكلاب. إنها فخفخة ضبع، فهي أكثر من كونها همهمة، وإن الضبع ليس بقريب. إن فخفخته توحي له أنه يبتعد عنهما، ينزل من جبل ظهر حمار نحو المُعَلَّقَة. حاول أن يتذكر إن كان قد سمع هكذا صوت بالغور، لكنه لم يتذكر، إنه صوت لأول مرة يسمعه. قال نصير: لا، ربما سمعته مرة! أين؟ ومتى؟

رغم التعب وحاجته للنوم لم يستطع أن ينام. كان يريد أن يعرف أين سمع صوت الضبع؟

إن صوت الفخفخة مع الهمهمة ليست لكلب ولا لذئب، إنها تبتعد وتأخذ طريق المُعَلَّقَة، وابتعد الصوت ولم يعد يسمعه وقال: الحمد لله، الآن سوف أنام، ووضع يده تحت راسه واليد الأخرى تمسك العصا، ولا يعرف لماذا سأل نفسه: ماذا بعد المُعَلَّقَة؟ جمونيا والفْجِم والبئر والبيدر.. آه سقيفة دار.. تذكر صوت المجنون من السقيفة عندما صاح ضبع!! ونظر في ذلك الوقت إلى الجانب الجنوبي من المُعَلَّقَة، فكان

ضبع يهمهم ويصدر صوت فخفخة مشابه لما سمع هذه الليلة. فهل هذا نفس الضبع، وبعد أن عرف نام، ولم يعد يتذكر شيئا، إلا إنه أمسك قدميه الحافيتين والمدماتين بدل العصا ليكون بوضعية الجنين، فيكون برحمة الرحيم المكتوبة في كتاب الخلق، فما يضير النائم إذا ما تغطى بآيات الله.

لم توقظهما تغريدات العصافير التي استيقظت باكرا وسبحت بحمد ربها، وطلبت رزقها من ديدان وحبوب بجانب كل شيء أخضر، ومنه شجرة السدر هذه فتفاجأت الطيور، بأن تحتها طفلين ينامان، فتوقفت عن الزقزقة وطارت تبحث عن رزقها في الأرض، لقد ظلّا نائمين يستظلان بظل جبل ظهر حمار حتى انسحب الظل، بعد أن اعتلته الشمس المشرقة للجبل، فأيقظتهما حرارة الشمس.

صباح 7 تموز 67
المُعَلَّقَة

لقد شعر كل من نصير وعبير بنشاط وتجدد وحيوية بعد النوم العميق، وبنفس الوقت كانا يشعران بالجوع والعطش، وما لديهما من بقايا خبز الرعاة لا تستطيع أسنانهم كسره ومضغه، وما كان من ماء في مطرة الرعاة إلا اليسير، وما في الصرة الصغيرة المصرورة بإحكام في زوادة الرعاة، إلا قليل من الشاي المفروط والمخلوط بالسكر، وشيء بصرة أخرى أصغر من الملح القليل.

إنها زوادة الرعاة. وهو يعرف كيف يتحايلون على قسوة كسرات الخبز بسكب حليب الغنم عليه بعد تسخينه على النار، ورش السكر عليه، فيكون خميعة، ويأكلونه ويمضغون بسهولة ويبلعونه.

أما بالنسبة لنصير، فلا يوجد لديه نعاج ليحلبها ولا ماعون يسخن به الحليب، ولديه قليل من الماء، فنظر إلى عبير، التي بعد أن صحت جلست على الصفاة، فاقترب وجلس بجانبها، فأحس بيده على الجانب الآخر من الصفاة وجود معصرة ناشفة وصغيرة قد نحتت بالصفاة، وغطى المعصرة التراب حتى أصبحت صفوان، فنظفها بيديه، وما لم تقدر عليه يديه استعان بشحف الحجارة حتى بانت المعصرة، فكانت كالصحن، وليس كالمغرفة التي كانت في صخرة الناطوفة.

نظر إلى السدرة، فكانت أوراقها خضراء، وكان الغصن الذي كسره بالأمس ليعمل منه عصا قد نزع عنه أوراقه، وأخذت تذوي من حر

الشمس، فجمعها كلها، وأمسك بها ليزيل بقايا التراب من المعصرة، وكرر ذلك مرات كثيرة، فأصبحت المعصرة نظيفة، إلا من عصارة ماء أوراق السدر، ولم يعد بها أي تراب أو شوائب. وقال لعبير: «كسري الخبز قطعا صغيرة»، ووضعها بالمعصرة وجاء بحجر فطحن به كسرات الخبز، وأفرغ عليه شيئا من فرط أوراق الشاي والسكر، وسكب قليلا من الماء، فأصبح الخبز المكسر منتفشا وماصا للماء كقطعة إسفنج، فأخذ بين أصابعه بعضًا منها وقال لعبير: ذوقي وكلي، وأخبريني كيف المذاق؟

قالت وقد كادت أن تعض أصابعه بعد أن التهمت اللقيمة: الحمد لله إنه حلو الطعم.

قال لها وقد وضع في فيه لقمة: كلي، هذه هي أكلة الرعيان المسماة (خميعة).

لقد سبق لنصير أن تناول هذه الاكلة مع والده ومع الرعاة عدة مرات، وكانت بالحليب الساخن، وهذه أول مرة يذوقها بالماء، وبجزء من الماء المتبقي بمطرة الرعاة، فليَّن الماء الخبز اليابس، وحلاه بسكر الرعيان، وخضب لونها فرط أوراق الشاي المنتشرة بالسكر، فأكلا حتى لحسا المعصرة، ولم يتركا إلا ما لا يستطيعان أن يلتقطاه بأصابعهما الصغيرة.

بعد أكلة الخميعة شعرا بالعطش، فشربا ما تبقى من الماء، فأصبحا في هذا الصباح بعد النوم العميق، والأكل الذي يسد الجوع، وبعد أن دارت الدماء في الأجساد الصغيرة، وارتفع هرمون الأدرينالين بالدم، أصبحا يستطيعان المشي والسير، ونزول المُعَلَّقَة المنحدرة والوعرة التي نزولها أصعب من صعودها، وبشكل خاص للحمير المحملة في ليلة يفتقد بها

القمر، فلا بد أن يتعثر من لم يكن له خبرة، ولا يحمل عصاه. ولحسن حظهما، كانت الشمس تستقبل وجهيهما، ولا يعرفان ماذا يخبئ لهما قدر المُعَلَّقَة، وما بعد المُعَلَّقَة؟

تركا شجرة السدر التي كانت مخدعمها لليلة واحدة على الجانب الجنوبي من الطريق، وحملا متاعهما القليل المتمثل في مطرة فارغة، وخرقة قماش تسمى زوادة لم يبقَ فيها شيء، لكنها خرقة طويلة، ربما كانت شدادا لخصر إحدى النساء أو غطاء رأس، فأهل الغور، وكعادتهم لا يرمون متاعا وإنما يبدلونه أو يبدلون وظيفته، فصار حافظا لأكل الرعاة، ويسمى الزوادة لتكفي الرعاة لأسبوع أو أقل، وقد درج أهل قرى شفا الغور أن يكون موعد تزويد الرعاة بها من بعد ما ينتشرون بعد صلاة يوم الجمعة وانقضاء سوق يوم الجمعة.

كان موعد التزويد يتغير في الفصول، ففي الربيع يصبح موعد الزوادة، من بعد ظهيرة يوم الخميس عندما يفج الطلاب من المدراس.

تركا السدرة التي كانت بالجانب الغربي لجبل ظهر حمار، وسارا قليلا شمالا حتى أخذا الطريق الرئيسي النازل إلى المُعَلَّقَة، ولم يكن أحد في ذلك الوقت يسير فيها على بعد نظر نصير وعبير سواء كان نازلا أو صاعدا بها.

تخف الرجل أو تكاد تنعدم في الطريق بعد انتهاء الحصاد من سهل الفْجِم، ومن قبل الحصاد بعد تغريب أصحاب الحلال لحلالهم من الغور إلى شفاهة، وبعد أن جف الربيع فلم يعد الطريق طريقا إلا للمهربين وبعض المتخلفين من المهاجرين وثلة من العائدين. وفي هذا

الوقت الباكر لم يكن ليسلكه إلا عابرو سبيل كنصير وعبير.

قال لها وهو ينظر إلى قدميه الحافيتين، ليتاكد من أنه لا يخبط على شوك أو شحف حجارة، وهو يحرك عصاه يمينا ويسارا بيده دون أن يتوكأ عليها: أنا أعرف هذه الطريق. إنها وعرة ومنحدرة، وكثيرة الالتواءات والأشواك.

قالت: لولا حذاؤك لما تمكنت من المسير معك. أنت تسير وكأنك لا تعرف هذه الطريق فقط، بل وتعرف الغور وكأنه بيتك.

رد عليها: إن الغور، هو كل ما في ذاكرتي.

فلقد تعلم من صمت الغور كيف يسمع أكثر مما يتكلم، تعلم من عطش الغور كيف يجد الماء، وتعلم من والده والرعاة والأغنام كل ما يستطيع أن يتعلمه. تعلم عندما يبلى حذاؤه أن يمشي حافيا، وأن يحذر الشوك والأحجار، فعندما أعطاها حذاءه الواسع، لم تكن المرة الأولى التي يمشي بها حافيا، فهو لا يتذكر المرات التي قطع بها جبال ووديان الغور حافيا، وهو لم يحظ بترف لبس الحذاء واللباس الذي يلبسه إلا في القرية، وبهدف الدخول في المدرسة.

لم يعش نصير عمرا في قريته من قبل الغور، بقدر ما عاش وتعلم من الغور.

رد على عبير، وهو يتلقى ما تعرضه عليه ذاكرته: هذه المُعَلَّقَة صعدتها مرتين وأنا نائم على ظهر الحمارة، ونزلتها مرة لوحدي سيرا على الأقدام بعد أن افترقت عن أبي علي الهلالي، وكانت معي العصا التي عملها لي من نفس شجرة السدر التي بتنا تحتها، فساعدتني على نزول المُعَلَّقَة.

إن نزول المُعَلَّقَة لم يكن شيئا مألوفًا لنصير، لكنه اختبر النزول ونجح، وها هو محاولا النزول مرة أخرى، لكن ليس لوحده فمعه عبير التي ستنزل المُعَلَّقَة لأول مرة، مما يجعله يبتكر طرقا وأساليب لم تكن في المرة الأولى مختبرة، فيضيف إلى ما اختبر أساليب مكر وتحايل على منحنيات وانحدارات المُعَلَّقَة حتى لا تقع أو تنزلق قدما عبير، فكانت خرقة زوادة الرعاة والعصا هما نوع من المكر والحيلة، كإبداع وابتكار للتكيف مع الطبيعة وقوانينها من جاذبية ووعورة وانحدار، فالعصا حتى لا تُجرح قدماه، والزوادة لتمسك بها عبير فلا تضل قدماها وتواصلان وتستمران بالتقدم بصدق، مما جعله يردف كلاما عن المُعَلَّقَة والاقتراب من النزول: «ها نحن نقترب منها وسوف أسير أمامك، ومن أمامي العصا، وأنت سيري من خلفي». وقام بفرد قطعة القماش التي يصر بها زوادة الرعاة، وربطها على خصره وترك طرفها من وراء ظهره، وقال لها: «أمسكي طرفها، واخبطي مكان خبطات قدمي حتى لا تنزلقي أو تقعي أو تتدحرجي، كما حدث مع كثير من الحمير النازلة».

إن الأحداث الكبرى، هي من صنع الناس، نتيجة الصراع أو المنافسة أو الطمع في ملك حيز من الأرض كاحتلال أو غزو. هي من تسيّر أقدام وأقدار الناس ليسلكوا هذا الطريق ليستقروا في مكان ما أكثر أمنًا، ويكون لهم مستودعا، في حين أن الكوارث من سيول وفيضانات، وزلازل، وهزات وبراكين، هي ما تقربهم من بعضهم، ومن كهنتهم الذين في الغالب يستغلونهم من باب التقرب إليهم، بدلا من التقرب من خالقهم، فيضل الناس ويعبدون الخوارق، والجبال، ويقدّسون الأنهار وحتى الشمس

والنجوم، ويغفلون عن الرحمن الذي لن يتوقف عن كلئهم بالليل والنهار نتيجة هذا الضلال.

كانت النكسة حرب ساعات أو أيام ستة، وقد تكون ليست بأكثر من ست ساعات، فهزمت جيوشا من قبل وليد لدولة، وُلدَت من عصابات يهود فكان هذا الحدث الذي تولد معه أحداث، العودة فالهجرة فالتهريب فالتسلل ونقل السلاح، كل تلك الإرهاصات جعلت من نصير يقول لعبير ردا على سبب لقائها معه، فقال:

لولا أن كان إخوتي في الجيش ما هاجروا، وما ذهب أبي ليطمئن عليهم كما قال لأمي. وأنا أعلم ما لم تعلمْه أمي! وأضاف: وإني لأعلم مما تعلمته وهو أن اليقظة هي كل شيء في الغور، أو اليقظة هي الغور حين علمت سبب ذهاب أبي لشرق النهر؟

وعاد من ذهبوا معه ولم يعد هو حتى الآن ولا الحمارة التي معه، والتي كانت تصعد بي هذه المُعَلَّقَة وأنا نائم على ظهرها، وكانت تسير بي لوحدها حتى تصل بي إلى البيت.

اتنهت الهضبة وبدا لهما سهل الفْجِم، كأنه بساط بني اللون مائل للاصفرار ومخضب ببقايا جذور القمح التي لوَّنته بشكل عشوائي. قال لها وهو يضع قدميه على أول منحدر حاد كله من التراب الجاف الدي يخدع القدم فتنزلق، فيقع النازل على ظهره، فتراب المُعَلَّقَة مخادع أكثر من تراب الكَتايِر، ويخفي تحته صرارا وأشواكا، وعلى جنباته ثعابين وعقارب. قال لها مرة أخرى: تمسكي جيدا، فلقد كان هذا السهل قبل شهر يعجُّ بالحصادبن وبالعائدين، وبعد ذلك انقلب ممرا للمهاجرين والعائدين.

تجاوزا المنحدر الأول بنجاح، وسارا أفقيا لجهة الجنوب في مسلك وشعب شكلته حوافر الدواب وهو يقول لها: «سيعترضنا المنحدر الثاني بعد هذا المسلك، وهو أصعب من الأول الذي تسقط منه بعض الحمير». وما إن أنهى كلامه حتى شم رائحة فطيس تزكم الأنوف، وقادمة من أسفل المنحدر، فقال لها: «هل تشمّين كما أشم؟». أومأت برأسها دون أن تستطيع الكلام بسبب إغلاق فتحات أنفها بيد، وبقيت اليد الأخرى تمسك بطرف الزوادة من وراء ظهره.

توقفا وأخذا ينظران إلى أسفل الصخور من تحتهما. وعلى بعد عشرة أمتار، وبجانب صخرة، كانت هناك جثة حمار مهشمة بطنها مفتوح، وأمعاء الحمار ومصارينه مقطعة ومتناثرة، ورأسه على الأرض ممدود، وأرجله مهشمة ومكسرة، وحمله متناثر بين الصخور، وبعض الأمتعة من ملابس وأوانٍ عالقة على بعض شجر الزعرور الذي يكثر في منحدرات المُعَلَّقَة، الذي هو أكثر إيذاء من شجر السدر للأقدام الحافية والأيدي العارية.

«خلينا نمشي بسرعة من هذا المكان». قالها نصير ومد يده من خلفه ليمسك يدها، ويسحب عبير بسرعة من هذا المكان، فلقد تذكر ليلة أمس ما سمعه من خفخفة الضبع على شكل خشرمة، فقد فهم الآن لماذا كانت خفخفة الضبع تنخفض وتبتعد عنهما وهما نائمان تحت شجرة السدر، فلقد شمَّ رائحتهما أولا، فتقدم نحوهما وكان نصير خائفا، لأنه سمع من أبيه والأجداد أن ضباع فلسطين تسرق عقول الأولاد والرجال قبل قتلهم فيلحقون بها ويدخلون جحرها.

كانت الضباع تفتك بالأغنام والعجول الصغار، وروائح القمامة والجيف

تجذبها وتشمّها من بعيد، وتلحق الرائحة حتى تصل إلى الجيفة، وهذا ما حصل لهما، فلقد أنقذتهما رائحة جيفة الحمار التي كانت أقوى من رائحة البشر الأحياء، فلحق الضبع بحواسه الأكثر جذبًا برائحته، وترك الأقل جذبا. وعلى ما يبدو من شكل الجيفة أنه أكل بشره وبسرعة، فقوة هذا المخلوق تكمن بفكه وأنيابه، ومن قبلها رأسه ورقبته، فهو قادر أن يسحب جثة ثور أو حمار، لكنه يفضل أن يبدأ بالأحشاء والحوايا. ويظهر من خروج حوايا الحمارة أنه كان لوحده وأكل ما في بطن الحمار من أحشاء قذرة ونتنة، والضباع تحب ذلك، وتفضّله على لحم الفخذ والساق. هذا ما سمعه من الرعاة الذين كانوا إذا اصطادوا ضبعا أكلوا ظلما وعدوانا الفخذ الايمن، بزعم آبائهم أنه حلال إذا كان هناك اضطرار.

لا أحد يدري، فلربما تعود وعائلتها من الجراء وباقي قطيعها لياكلوا جيفة الحمار، ويكسروا ما تبقى بفكهم القوي، وأسنانهم التي تطحن العظم من قبل أن تهوي الصقور والنسور، وتأتي باقي الوحوش لتأخذ شيئا من الوليمة وتنظف البيئة.

قال لها نصير: «أسرعي».. ونظر إليها فإذا الدمع بعينيها، ولا تستطيع الكلام وهي تقول بصوت متقطع: «إن لون هذا الحمار رمادي، وهو نفس لون الحمار الذي مع أهلي».

قال لها نصير الذي أراد أن ينقذها من هذا الموقف مرة أخرى: «أسرعي»، وسحبها بقوة فكادت أن تنزلق من نفس مكان انزلاق الحمار. وأضاف حتى يبعد هاجس ظن أنه حمار أهلها عنها، وأن أهلها يمشون بدون حمار ومتاع: «إن معظم الحمير لونها أسود أو رمادي، وقليل منها

أبيض، إلا حمارتنا فلونها مميز؛ بني كلون الأرض، وحجمها كبير ومتفرد عن الحمير».

قالت وقد أشاحت بوجهها عنه وعن المنظر حتى لا تتذكر، فيزداد دمعها: «يبدو أنه نفس حجمه»، وأرادت أن تقطع الشك باليقين، فعسى ألا يكون حمارهم، قالت: «هل من سبيل أن ننزل ونتفقد الأغراض العالقة على شجر الزعرور والقنديل، والمبعثرة بين الصخور، فأنا أعرف الأغراض والأمتعة التي كانت على ظهره؟».

قال لها وهو يزيد من شدها لتسير خلفه، ويخوفها من عودة الضباع: «أتريدين أن نعلق في المُعَلَّقَة ولا نستطيع أن نخرج، فتعود الضباع فتأكلنا؟ امشي.. الريحة قتلتنا»..

سارا نازلين بحذر شديد، وقد جفت مقل عيونها. أما نصير فلقد دقمت أصابع قدميه الحافيتين بالحجارة والأشواك عدة مرات، وتألم حتى إنها انتفخت، وبعضها نزفت من تحت الأظافر، وتجمع وتحشَّر الدم في أصبع قدمه اليمنى الكبير، الذي تشقق ظفره وتهشم، ولم يكن ليتوقف ليرى ما حصل به، لكنه كظم ألمه وأسرع قليلا وهو يشعر بأنه يجرها خلفه، ولم يعد ينظر لقدميه أين تخبطان؟ فما كان يحذره قد وقع. فأولى له أن يبتعد عن هذا المكان، وينزل من المُعَلَّقَة إلى السهل حتى لا يعلقا بها، فتكون نهايتهما بين فكي ضبع، إن لم ينقذهما مهاجر متخلف أو مهرب أو عائد ضل الطريق.

لقد استنفد نزول المُعَلَّقَة الحذر وسحب عبير، معظم قوته وطاقته التي استمدها من أكل الخميعة المعدلة، وأصبحت قدماه تؤلمانه،

واستغرق نزول المُعَلَّقَة كل ساعات الضحى، وارتفعت الشمس وزادت حرارة الغور. لقد بدأ الريق لديهما بالنشفان فتحملا العطش، وإن كانت تلك ميزة أهل الغور، فعبير لا خبرة لها بذلك، فقد قالتها له بصريح العبارة إن المطرة فاضية. ومن الطبيعي أن حاجات الناس هي ما يشغل عقولهم، فالحاجة إلى الهواء والتنفس هي التي تفرق بين الحياة والموت، فإذا لم يعد يتنفس لدقائق معدودات تذوق النفس الموت. لكن الهواء كان متوفرا، وما يشغل عقولهم هو العطش والجفاف اللذان، وهذه حاجة الأحياء لها. والسؤال هو كم من الساعات والأيام يستطيعان أن يصبرا على العطش. بالنسبة لنصير، لقد اعتاد على الضحى والعطش لأكثر من يوم، لكنه كان يعوض الماء بأن يأكل بعض ما تأكله الأغنام من خضرة الغور، وفي تموز لا خضرة بالغور.

إن الانشغال الذهني بالعطش يعطي إشارات لنفس عبير وقلبها بأن لا تفكر إذا ما كان الحمار الذي هلك في المُعَلَّقَة هو حمار أهلها أم لا، فلم يعد ذلك يشغلها، بل ما يشغلها هو الحاجة لشرب جرعة ماء تبقي الجسم على قيد الحياة، فهي أولى من مسألة إن كان أهلها أكملوا هجرتهم، وأن حمارهم فضَّل الانتحار على الهجرة، فانزلق بالمُعَلَّقَة.

سألت عبير نصير مستفزة غورانيته: أنت قلت إنك تعرف الغور، فهل من ماء معين لنا هنا وقريب في الغور قبل أن تجف أجسامنا ونهلك؟

لم يجب على سؤالها، وواصل صمته كصمت الغور ليسلك بصمت، ويتتبع حواف الدبب والهضاب، فسلك بها طريقا أقل انحدارا متخذا المسار الأفقي النازل الطويل، وليس المسار العمودي القصير ليحافظ

على ما تبقى لديهما من طاقة كامنة، فيتجنب، حفاظا على قدميه، كثيرًا من الشوك والصخور التي تتطلب طاقة وجهدا وحذرا، فوجد نفسه يقترب من المغارة والسقيفة التي كان يسكنها الأهبل وأهله في ربيع الغور.

ولأن الأماكن تذكّر الإنسان بالمواقف وما سمع وما شاهد، فتستدعي الذاكرة دون إنذار سيلا مما سبق أن شاهده وسمعه في هذا المكان، قال لعبير: «سنستريح في هذا المكان»، وروى لها ما سبق أن اقتنصته ذاكرته من أحداث.

فقلد سمع من المغارة وأشار إليها بيده أحدا وهو يصرخ ويقول بصوت متقطع وعال: «ضبع.. ضضبع» فقد كان مطلق الصوت لا يتقن الكلام نتيجة اعوجاج باللسان، وكان يشير ليس بيديه، بل بكامل جسمه إلى المُعَلَّقَة، فلما لحق بنظره إلى ما يشير إليه، وكان نصير يركب الحمارة، رأى خيالا من بعيد يشبه الكلب ويصعد بسرعة أقل من الكلب المُعَلَّقَة، ويختفي بين أشجار السدر والزعرور.

فلما وصلا إلى المغارة وقد أنهى حديثه عن تلك الحادثة، وكانت عبير أكثر منه إرهاقا وتعبا، قال: «سنستريح بمسكنهم الربيعي»، فجلسا يستريحان على باب المغارة. كانت السقيفة تسد باب المغارة فيتحقق لهما نوع من الحماية والوقاية من العيون.

قال نصير: «عين الحَفيرَة بعيدة عنا، نحتاج ثلاث أو أربع ساعات لنصل إليها، والطريق وعر، وفيه طلوع كثير، وهي إلى الجنوب الشرقي منا، وبئر أبوالدَرَج على الشمال تحت تلك الجبال»، وأشار إلى سادَّة المُبَشِّر بيده.

واستطرد بكلامه مطمئنا عبير: «هناك»، وأشار بيده إلى دبة عرعودة، وهي منطقة أقرب من الحَفيرَة وإلى بئر أبوالدَرَج، وأضاف: «هناك بئر لعائلتنا، ويوجد من فوقها بئر لجمع ماء المطر، أكاد أراه من هنا، وأرى كتلة بنية بجانبه، وهذا الشيء لم يكن موجودا قبل شهر عندما كان والدي يبيدر الحصاد بجانبه». وروى لها حدث الخطفة، وأن كثرة الشد والضغط تولد الفتق والانسلاخ، فقال: «لقد انشرخت الخطفة، واخترقت خدي»، وأشار إلى خده. وتحسس اللاصقة التي ما زالت موجودة، وتحمي خده، فتذكر حادثة العَقَبة مع جنود الاحتلال من بعد يوم جمع الحمير، وأراد أن يرويها لها، فخاف ألا تصدقه.

نظرت إليه عبير وإلى خده، وقالت: هناك أثر دم ناشف عليها.

لم يعلق نصير على ذلك وقال: «لعل البئر هي الأقرب لنا. كلها مشي ساعة، بنكون هناك. وإن شاء الله سنشرب ونستعيد قوتنا، ونبحث كما تبحث مخلوقات الغور عن طعامها».

بينما هو يحكي لها عن مسار الطريق سمعا صوتا يأتي من فوق الجبال. إنه صوت طائرات تحلق في سماء الغور، وهي مرتفعة والصوت يأتي من السماء، فوقف نصير يستطلع، ورفع رأسه إلى السماء فرأى طائرتين ترتفعان وتعرجان في السماء، وتنزلان وتتركان وراءهما خطوطا من الدخان ما يلبث أن يتلاشى، وتطيران شمال الغور حتى لا تكادا تبينان لعيني نصير وعبير من باب المغارة. وما تلبث أن تحلق على أثرهما طائرة هيلوكوبتر تشق الهواء بصوت مروحيتها الكبيرة من فوقها بصوت يختلف عن أصوات الطائرات المقاتلة التي اختفت عن نظرهما. ولم يكن يعلم

نصير لماذا تطير؟

اختفت الطائرتان، فهما تطيران على ارتفاع منخفض، فتكشف إن كان هناك مهرب أو فدائي متسلل، أو أي فلسطيني مغرب، فتصليه بنارها، وإن كان هناك مهاجر وحماره أمامه ومتوجه شرقا، تتركه يرتحل.

كانت تحلق فوق الوديان وترتفع على الهضاب والجبال، وظل نصير من باب المغارة يلاحقها بنظره ومن أمامه السقيفة، بينما عبير تجلس وتستريح وتقول له: ظل معك شومر؟

مد يده بجيبه، فوجد آخر حبات شومر لا تكاد تزيد على عدد أصابع يديه ويديها. فقعوشها بيده ومد لها يده من وراء ظهره، وهو يتابع بنظره الطائرة وهي تصعد المُعَلَّقَة، ولا يريد أن يفوت هذا المنظر الفريد الذي يشاهده لأول مرة، ويسمع الأصوات لأول مرة.

وضعت عبير حبات الشومر بفمها، وسقطت من يدها عدة حبات على الأرض، فانشغلت بالبحث عنها والتقاط ما تعثر عليه منها من بين التراب، والعشب الأصفر والشوك يخدش يدها وهي تبحث عن حبة شومر. فكم هي عزيزة عليها حبات الشومر عندما تطفئ شيئا من الظمأ! فلا يوجد ماء حاضر إلا في بطن حبات الشومر.

لاحظ نصير أن صوت الطائرة بدأ يختلف، وبدا أكثر ضوضاء وطقطقة، وآخر ما شاهد نصير أنها في الهواء تقف وتعفر التراب من حولها. إنها بالضبط على أعلى قمة في جبل ظهر الحمار الذي تنزلق منه المُعَلَّقَة فيكون منزلقا للحمير.

خفت صوت المروحية وكأنها هبطت على ظهر الحمار.

لكن لماذا ظهر الحمار؟ سأل نصير نفسه، واستطرد بالسؤال: ماذا أنزلت ولماذا اتخذت من ظهر الحمار مهبطا؟

إن جبل ظهر حمار يطل على الغور شرقا ويطل على شفا الغور غربا، فهو موقع استراتيجي للمراقبة، سواء للمهربين أو الفدائيين أو المهاجرين، أو حتى للرعاة إذا ما عادوا للغور عندما تتبدل وتتغير الفصول والمواسم.

لم يكن ليخطر لنصير ولا والده ولا جميع أهل البلد أن ما حصدوا هذا الموسم كان الحصاد الأخير، وأنه سيخلفهم من يزيل قناطرهم وعلاماتهم، فلا يعرفون إن كانت هذه أرضهم أو لا. هذا إذا ما سمح لهم اليهود أن يدخلوا جنتهم بعد أن تبدلت وورثها غيرهم.

مضى الوقت ولم تعد الطائرات واختفى صوت الهيلوكوبتر. وبعد الأصوات يبدو أن المهربين والفدائيين غيروا مسارهم عن هذا الطريق الذي لم يصبح آمنًا إلا للمهاجرين.

انتظر نصير لما بعد الظهيرة، وسار مع عبير على حواف وأطراف التلال المحاذية للسهل ليرد إلى بئر البيدر على دبة عرعودة.

كانا يحثان الخطى ليصلا إلى البئر، ونصير كله أمل أن يجد الدلو بحبله الطويل. وكما كان يراه قبل شهر معلقا بخرزة البئر، وأن الجفن أو الحوض به شيء من بقايا الماء الذي كان يسكبه والده لسقي الدواب والطير، ويُبقي شيئا به من الماء إلى عابر سبيل حتى لو كان من النحل والدبور أو أي نوع من المخلوقات التي ليسوا لها برازقين، والتي تمشي على أرجلها أو تزحف على بطنها أو تطير بجسدها نحو الماء.

7 تموز وما بعدها 67
حافة البئر

اقتربا من البئر وهما فرحان، فلقد أوشكا على الهلاك من العطش، وما إن كشف بصر نصير ساحة البئر حتى وقف شعر رأسه وأحمرَّ وجهه وزادت أنفاسه لهاثا وقلبه خفقانا، وارتفع الأدرينالين في شراينه واتسعت حدقات عيونه، ولم يصدق ما رأى أمام عينيه من جسد ملقى على حافة البئر بجانب الجابية والجفن الذي نحت بالصخر ليكون حوض ماء في حال أن رفع الرعاة أو غيرهم الجابية.

يكاد يجزم أنه يعرف هذا الجسد الذي يأخذ لونه لون التراب، فلا يستطيع أحد لمن لا يعرف ذلك الشيء أن يميزه عن التراب أو الطين، ولولا أن الحمل الثقيل الذي جعله على الأرض يستكين، من أكياس تتدلى على جانبيه، لما عرفه الناظر، وهذا ما عبرت عنه عبير لنصير بقولها: ماذا ترى؟ أترى شيئا لا أراه!

أجاب، وهو يحث الخطى نحو ذلك الشيء وقد تفتحت أساريره، وهو يقول: إنها حمارة أبي.

ما إن أحست الحمارة وشمت رائحة جسد نصير، حتى رفعت رأسها من على الأرض وهو يسمعها تطلق شهيقها ونداءها الأخير، فلما اقترب منها تيقن أنها حمارة أبيه المميزة.

كانت الحمارة قد أطلقت صرختها عندما رأت نصير، وعادت وأنابت، وألقت برأسها ورقبتها على الأرض بجانب الحوض الجاف من

الماء، وأسلمت عطشها الذي كاد أن يهلكها وجعلها جسدا ملقى بما عليه من حمل ثقيل. وصاحبها الذي عاشت معه زمنا طويلا لم يعد موجودًا، وها هو ابنه نصير الذي طالما حملته على ظهرها ولم تكن تشعر بأنها تحمله فوق حملها وكانت توصله إلى الديار.

إنه يتذكر أول ما يتذكر أنه كان على ظهرها قبل أن يتذكر حضن والدته. يتذكر طلوعها به المُعَلَّقَة التي ينظر إليها في هذه اللحظة، وهي صامته وتخلو من أي مهاجر أو مهرب أو فدائي عائد، ليسترجع الأرض التي احتلت، ويشغر البيوت التي أخليت وتركت أبوابها مشرعة لمفتاح وغيره بعد أن هاجر منها أهلها.

رمى نصير بجسده الصغير على رقبة الحمارة ورأسها وهو يحتضنها، فأحس بدمعها يرطب خده الجاف، وكأنها تقول له: حزينة لأنني قتلني العطش بعد أن فقدت صاحبي.

تذكر حلم والده عندما قطع الشْريعَة عده مرات، وفي المرة الأخيرة، أصابته شظية بين رجليه فاحترق جزء من لباسه.

سأل نفسه نصير: هل كانت تلك الشظية أقوى وأسرع من شظية الخطفة التي اخترقت هذا الخد الذي يلاصق خد الحمارة في هذا المكان؟

رفع رأسه قليلا وقال لعبير: «لقد وصلت الحمارة للبئر الذي تعرفه وحدها لتشرب الماء من هذه الجابية، أو لتجد من يسقيها».

إن الحمير قد تكون أغبى مخلوقات الله، حتى شبه الحق من يكذب بآياته بها، فمن يحمل حملا مثل ألواح التوارة ولا يعرف ما فيها من

مـواعظ وهـدى ووصـايا الـرب، فهـو الحمـار الـذي يحمـل الأسـفار أو الكتب، ولا يدري ما يحمل، ولا ما في حمله. وكذلك حمارة والده، فهي لـم تكـن تعلـم مـا تحمـل، إلا أنهـا كانـت تحـس أن حملهـا ثقيـل، ولـيس كالأحمـال السـابقة. ولـو عرفـت لمـا حملـت، وأنّـى لهـا أن تعـرف؟ وقـد خلقت وسخرت لتحمل أثقال البشر إلى أماكن لـم يكونـوا بالغيهـا. فكـم مرة حملت سقف الحيط أو فتى الغـور الـذي لا يريـد أن يكـبر، ويريـد أن يبقى فتى غورانيا لا يتطبع مع أولاد القرية؟

كانت الحمارة قادرة علـى أن تصـل إلـى البئـر، وكـان نصـير وعبيـر قـد وصلا أيضا إلى نفس البئر. ومن أوصل الحمـارة للبئـر هـو مـن أوصـلهما إليه، وجميعهم لم يجدوا ماء ولا بشرا، ووجدوا الله ليهدي منهم من يشاء فيقرر فينزل في البئر، فتكون له شربة الحياة وكذلك لمن ينتظر فوق خـرزة البئر من المنتظرين. فالحمارة انتظـرت حتـى هبطـت قوائمهـا مـن الحمـل الثقيل، فاستقرت بجانب الجابيـة منتظـرة مـن ييسـره الـرحمن مـن عبـاده، ليأتي لها بماء من لجف البئر.

لقد انتظرت من اعتادت أن تراه يسوقها ويحرث الأرض، ومن يحمـل ويدرس القمح عليها. ومن حمَّلها هـذا الحمـل الثقيـل سـيلحق بهـا، فهـو يعرف أن لا طريق لها إلا الطرق التي كـان يسـلكها بهـا علـى مـدار خمسـة عشر عاما، وهو لن ينساها.

لقد أوصلها العطش والحاجة لشرب الماء إلـى البئـر، فلـم تجـد المـاء وانتظرت واقفة بالحمل الثقيل الـذي جعـل قوائمهـا تهتـز ولا تقـوى علـى الوقوف، فالهبوط على الأرض يخفف عن ظهرها وقوائمها الحمـل، بعـد

أن تأخـذ كلمـات الله في الوجـود بجاذبيتهـا نصـيبا كبيـرا مـن الحمـل. وبالمقابـل فـان لونهـا البني يخـادع مـن ينظـر اليهـا، فيجعـل النـاظر إليهـا يحسبها جزءا من الأرض، فتخدع الأبصار، ولكنها قـد لا تخـدع القلـوب كقلب نصير، هذا الطفل الغوراني الذي لا يريد أن يكبر.

ساق الرحمن نصير وعبير ليردا على نفس البئر. كـان نصـير يتمنـى أن تنطـق الحمـارة وتقـول مـا في بالهـا وأيـن والـده، ومـا حصـل معهـا ومعـه، ولماذا تأخر والده عن صحبه وشركاه؟

أخـذ يربـت علـى خـدها، ويمسـح دمعهـا، وعبيـر تنظـر إليـه مشـدوهة ومستغربة من لقاء نصير بالحمارة التي تـربض بجانـب الحـوض الجـاف، وعند خرزة البئر، وتطلب في نظراتها منه شربة ماء!!

رفع نصير رأسه نحو عبير مطلقا عبارات غير مفهومـة وزفيـرا، وأحيانـا يشهق، ويريد أن يبكي أمامها، أو يرتمي في حضنها، فقد تمالكه شـعور أن رؤيا أبيه تحققت. أناب قائلا وقال لنفسه إنه مجـرد حلـم، وأدرك أن عبيـر طفلة مثله فقـدت أهلهـا، وربمـا تريـد أن تكـبر، وأنـه هـو الـذي لا يريـد أن يكبر.

فتمالك نفسه أمامها وحبس شهقته وبكاءه وقال: «إنها حمارة والـدي، لعل والدي تركها تذهب إلـى البيـت لوحـدها، وهـو ذهـب لأمـر أكـبر قـد قُدّر، فسارت بغريزتها إلى الأماكن التي تعرفها ومن بينها هذا البئر، ولعلـه كان أقرب شيء في ذاكرتها. لعل أبي وهو مشرق قد مر علـى البئـر فشـرب وسـقاها فعـادت إليـه»، وأضـاف: «هـذا البيـدر والبئـر لنـا، وقـد وصـلت الحمارة إليه وحدها». وقال لعبير: «إن الحمارة تتلـوى مـن العطـش ومـن

ثقل الحمل، ونحن كذلك، ونحن نعرف أنها عطشى، وهي لا تعرف أننا عطشون مثلها»، وأتبع بقوله: يجب أن نسقيها، ونفك عنها الحمل.

قال مقولته قبل أن يدرك إذا ما كان الدلو موجودا ومربوطا بالحبل. لم يكن الدلو ظاهرا على خرزة البئر وما حولها، فلعله ممدود بالبئر!

أخبرها، ولأول مرة يبوح بما نما إليه من سر والده وصحبه، فحتى أمه ما زالت تعتقد بأن والده ذهب ليطمئن على من هاجر من أولاده، قال وهو يحني ظهره ويبحث عن عقدة الحبل ليفكها ويريح الحمارة قليلا حتى تستطيع أن تقف، وتشرب عندما يسكب أول دلو ماء لها في الجابية: لا أعرف ماذا اشترى والدي، أدخان أم قماش أم ماذا؟ يبدو أنه حمل ثقيل!

قالت عبير: أبوك مهرب؟

استغرب نصير من سؤالها، لكنه أدرك أنها قالت ما أحست به، فأراد أن يتحدث عن أبيه بما لا تعرفه عبير، فجلس بجانب الحمارة بعد أن عجز عن إرخاء الحبل فقال: «إن من شد هذا الحبل على حمل وبطن هذه الحمارة هو أبي، كان يعيش في الغور مع أغنامه، وأنا عشت معه وكبرت طفلا بالغور، وكان لا يريد أن يغادر الغور، فباع الأغنام واكتفى بزراعة بالقمح. وهذا البيدر والبئر له ولإخوانه، وقد شهدت وسمعت ما سمعه من مليح ومن الناس عند الجامع والبيدر، وسمعت ما قاله فهيم وما حققه الغير من الربح السريع من التهريب، فأراد والدي أن يجرب فيهرّب مع أخيه مخلص وصاحبه فهيم اللذين عادا ببضاعتهما، وأبي لم يعد معهما، فنزلت إلى الغور باحثا عن أبي لعلي أجده، فوجدتك بالطريق وها نحن كما ترين وجدنا حمارته وبضاعته ولم نجده.

ما إن أنهى حديثه عن والده حتى قام يحاول مرة أخرى ليفك الحبل فيرخيه فترتاح الحمارة، فعثر على العقدة تحت بطن الحمارة، وأخذ يصارع بيديه الصغيرتين ليفك عقدة الحبل التي كانت مشدودة بإحكام. حاول وحاول بيديه فلم يستطع فك العقدة، وتقدمت عبير لتحاول فلم تستطع.

رجع إلى الوراء، فرأى المطرة الفاضية وعصاه، فأخذ العصا وجلس على الأرض، وحمل شحفة حجر، وبدأ يثقف ويثقف، ويبري رأس العصا حتى جعله كرأس قندولة، فقام وحشر رأس العصا المدبب بين العقد، وضغط على العصا حتى وضع حمل جسده عليها، فانغرست بين عقد الحبل، فتوسعت العقدة، وأحدث فيها خرقا كالخرق الذي أحدثته الخطفة في خده، فتنفس الصعداء، وأصبح قادرًا على فك العقد ليرتخي الحبل عن بطن الحمارة وعن الحمل الذي ارتخى ومال قليلا، فأراد أن يضغط عليه لياخذ مكانه على الأرض، فوجده صلبا وأشبه ما يكون بقطعة حديد.

سحب الحبل الذي كان طويلا، وحاولت الحمارة أن تقف على قوائمها بعد أن فسخ الحمل عنها وقلت جاذبية الأرض فما استطاعت، فحاول أن يبعد الاكياس التي أصبحت على الأرض وبجانب طرفي الحمارة، لكن الجاذبية عاندته، فأراد أن يفتح كيسا، ليرى ما هذا الحمل الثقيل؟

أهو دخان كمال؟

أم أدوات مطبخ وسكاكين؟

أم رولات أم لفات قماش؟

وتفاجأ بما رأى هو وعبير التي صرخت وابتعدت قليلا، وعرف نصير لماذا كان الحمل ثقيلا؟

إنه سلاح واشياء تشبه ما كان يحمله جنود اليهود والعسكر المنسحبون. استدعت ذاكرة نصير كل تلك المشاهد، فأدرك أن الحمل الثقيل هو سلاح، وأن أباه لم يكن مهرب دخان كما قالت عبير، بل كان أبونسر فدائيا.

تعجبت عبير كما تعجب نصير، لكن الحاجة لشرب الماء سواء لهما أو للحمارة طغت على المفاجأة.

توجه تلقاء خرزة البئر فلم يرَ الدلو ولا الحبل، ففتح غطاء البئر ولم يجد دلوا معلقا ولا حبلًا، ولم يرَ خياله أو صورته في الماء الراقد بالبئر رغم تعامد الشمس التي كشف له ضياؤها أكثر من ثلثي عمق البئر.

دار نصير حول خرزة البئر باحثا عن الدلو أو ما يشبهه، فعبير لم تعد تقوى على تحمل العطش، والحمارة لم تعد تقوى أن تقف على قوائمها. فهل يستطيع نصير أن يأتي لهم، كلهم جميعا، بماء معين دون أن يرشده الرحمن، ويتوكل عليه؟

كان يتكلم بصوت مرتفع فتسمعه عبير وهو يدور حول الحمارة وخرزة البئر. كان يقول: «لم أرَ صورة وجهي التي رأيتها أول مرة في ماء بئر مغارة أبوالريش؛ كان وجهي جميلا بدون ندب وخرق، وكنت إذا رأيت وجهًا جميلًا لفتى تمنيت أن يكون ذاك الفتى أنا، فأدركت عندما رميت حجرا بالبئر فمحى موج الماء الصورة أن ذاك الوجه الجميل للفتى

هو وجهي. وقد ظن أهلي كما ظن الناس أن صاحب الوجه الجميل قد وقع في البئر. وسألوا آخر من رآني، صديقي الأحدب، فتيقنت أمي أني وقعت في البئر، فانشغلوا بي ونزل في البئر معلم البناء، الذي وعد بجوز زغاليل حمام إذا نشلني من البئر. كل هذا بينما أنا أتجول عند المسجد، ويسرق محفظتي الولد الأبرص».

حكى لعبير جزءا من قصته وهو لا يعرف لماذا يقص عليها ذلك وهو يدور ويبحث عن الدلو، حتى أخذت دائرته تضيق وقدماه لم تقدرا أن تتقدما، فاستراح بجانب رأس الحمارة وبين قوائمها التي ارتفعت بعد أن انبطحت على جنبيها، فكانت أطرافها العلوية للذباب مكشوفة، فتجمع حول فخذ رجلها الخلفية المرتفعة قليلا عن الأرض وهاجمها وهي مستسلمة للذعاته ولسعاته. فكش نصير الذبان عنها، فعرف أن الذباب يجتمع على جرح مشروط شرطا برأس مسلة أو شوكة قندول، وقد بدأ عميقا وانتهي بطرف فخذها سطحيا، وكان بطول شبر، وقد نزف حتى جف لوحده ورمم جلدها أطرافه، فأعاد الذباب الأزرق فتحه لينشر القيح وبيوضه فيه، فتبدأ اليرقات والديدان بامتصاص دمها وبأكل لحمها، وهي تتعذب بصمت.

لم يكن نصير يعلم ماذا يفعل ليريح الحمارة؟ فلقد كان والده يستعمل القطران للأغنام لمثل في هذه الحالات، ولعل جرح هذه الحمارة هو سبب استدعاء الحمير في ملعب المدرسة ومنع التجول. فأخذ نصير يقص على عبير قصة أخرى عن جمع الحمير، وفحص عينات دمها وشعرها. وبينما هو يقص القصة ويسير ذهابا وايابا، وقع نظره على

الموقد الذي كان والده يعمل عليه الشاي، فأسرع إليه باحثا عن الرماد الأسود ليعالج هذا الجرح الذي أقلق اليهود والحمير، وعبير تسمع القصة، وتحاول أن تنسى عطشها وأهلها وحمار أهلها الذي انتحر ولم يواصل الهجرة كغيره من الحمير. وخلعت حذاءه الواسع الذي ضيقه بحشوه بخرق وشرائط، وتفاجأت بأن الشرائط قد التصقت بجروحها، فنزعت أكمام القميص الذي استعمله كجوارب لها، فإذا بآثار الدم والقيح قد ظهرت، فنظرت إلى نصير فقال لها: أحسنت إذ خلعت الحذاء والجوارب لتجف القروح وترتاح قدماك.

نظر نصير حوله فرأى حجارة موقد والده ما زالت قائمة، وتحتها بقايا الجمر الذي كان والده يواريه بالتراب والحجارة حتى يبقي شجرة النار مشتعلة تحت التراب، فلا ينشغل بإشعال النار مرة أخرى في فجر اليوم التالي، لكسب الوقت.

حفر نصير بيديه وبعصاه وقبض قبضة من أثر الرماد والجمر، وتقدم نحو قدمي عبير، وقال لها: «ستجف وتشفى قروحك إن وُضع عليها بعض من الرماد والرماد». وبدأ يمسح قدميها ورجليها حتى ساقيها، ويترك الرماد يغطي الجروح وهو يقول: إذا ما ترك فسوف يعمل قيحا، فالرماد يمتص الرطوبة والقيح، ويحمي الجروح من الذباب.

ترك قدميها وذهب للموقد، وفرك يديه مجددا، وغرف غرفة بيديه ومسح على أصابع رجليه والأظافر، وعاد وغرف ما تبقى من رماد وسكن، وفرك جرح الحمارة وغطى الجرح بالرماد بعد أن نظفه من بقايا بيض الذباب الأزرق بفرك أطراف الجرح، فما لبث أن ابتعد الذباب

وأرتاح نصير بجانب الحمارة يتأمل جرحها، فشاهد الحبل الذي فك عقدته، وشاهد عبير ترفع المطارة فوق فمها تمصيها تمصاية، لعلها تمطر قطرة واحدة في فمها أو حتى تبلل شفتيها الجافتين كشفاه الغور العطشى، فصاح فرحا نصير: «سأستعمل الحبل والمطرة كدلو فنسقي ونشرب ثم نسير».

لف نصير الحبل حول جسد الحمارة كالأفعى، فأمسك طرف رأس الحبل من جانب العقدة التي فكها وأخذ يسحب الحبل من تحتها، ويعمل كما عمل والده، فيضع رجليه على بطنها ويسحب الحبل بقوة، ويكرر قصته على عبير عندما كان والده يشد على حمل البغلة، وكان يستعين بنصير ليعمل توازنا مع أكياس القمح، وهو يشد من الجهة الأخرى.

كان ذلك قبل شهر في هذا المكان، فهو يتذكر ذلك ليستمد من قوة أبيه قوة. لقد بدت عبير متيقنة لكنها متعطشة لشربة ماء، فأحس بذلك نصير فشد الحبل، فسحب قليلا منه، وشعرت به الحمارة وبمحاولاته اليائسة، فحاولت أن تنهض ورفعت جسمها مستندة على قوائم يديها ورجليها، فارتفعا قليلا فمزطت كل لفات الحبل من تحت رجليها، ولم يبقَ إلا اللفة الأخيرة فهي لفة البداية التي كانت معقودة بإحكام ومشدودة على بطنها من وراء ضرعها الذي لم يَرضعه أي كر، فهي لم تخلف وظل حيلها وقوتها فيها، فسحب نصير الحبل كله، وظل طرفه مربوطا وملفوفا حول أضيق مكان في خواصرها وبطنها وظهرها.

كان نصير يسحب بشدة، فلما بدأ الحبل بالارتخاء وجسده مشدود،

ارتد بقوة مطرودا على ظهره فعاد جسده وخر على الأرض بعد كل الشد الذي شده حتى تدحرج وهو يمسك الحبل الذي أصبح كله ملتويا حول جسده، وبالذات حول قدميه، فاندفع جسده وراءه، وما صد الاندفاع إلا ارتطامه بجسد عبير، فاستلقى جسد طفل لا يريد أن يكبر ليستقر في حضنها.

لقد هيأ الرحمن لنصير أن ينتزع الحبل ليربطه بالمطرة فتكون له دلوا، فنهض من حضن عبير وهو مستقيم وهي تبتسم له مستغربة من أفعاله وإصراره وقصة حياته الغورانية التي لا تخلو من تدخل القدر، ليُلقى بها عنده عندما تخلفت عن أهلها. كان ذلك خيار التعب والإرهاق وجكر الاهل، أمّا أن ترافقه في هذه المسيرة فلم يكن لها خيار، إلا أنها تفعل ذلك لتلحق بأهلها، ونصير يفعل ذلك، ويتتبع ما سار عليه هو وأبوه وأبوعلي الهلالي، لينتهوا عند حافة البئر، ويسقي الحمارة وعبير والطير والنحل الذي حول الحوض يحوم ويدوي.

وسع نصير فم المطرة بشحفة حجر، وربطها بالحبل من كل الجهات، وشد عليها الحبل مربعات وعقده كعقدة أبيه، ووقف مقلدا أباه، وربط طرف الحبل على كوعه، وتقدم بثقة وصدق على خرزة البئر، ورمى بها باسم الله متوكلا على الرحمن ليملأ المطرة بالماء.

لقد ارتطمت المطرة بقاع البئر، ولم يسمع ارتطامها بالماء، لكن سمع اصطدامها بحجارة وطين البئر، فحرك الحبل يمينا ويسارا ليتحرك من نهايته بالمطرة قليلا يمينا ويسارا، لعله يجد بقعة ماء بين الحجارة احتُجزت بفعل الانخفاض والجاذبية، لتنتهي إلى فم المطرة الواسع

فتهتدي ولا تضل الطريق. فشد الحبل رافعا المطرة التي كان وزنها خفيفا، فما إن رأى آثار الطين على الحبل المشدود عليها حتى صاح: «يا رب ماذا أفعل؟ كيف آتي بالماء؟».

رفع رأسه في السماء، فهو على يقين أنه وإن كان في حر تموز ولا رزق ينزل من السماء فيحيي الأرض، فإن هناك وعدًا آخر في السماء لهما. لقد كان ينطق بالعبارات التي سمعها من والده في أماكن متعددة من الغور: «توكل على الرحمن ولن تضل الطريق».

ظهرت على عبير خيبة الأمل بالحصول على رشفة من المطرة تبل الريق، فمسح نصر الطين المبلول من فم المطرة وأطراف الحبل، وحاول أن يعصرها بفم الحمارة، فلم تقطر ولا قطرة، فتركها حول شفاهها، فلعلها تتبخر بفمها فترطب لها الحواف.

عاد نصير إلى خرزة البئر محاولا ومكررا الفعل مرات كثيرة، فخرج له ما خرج أول مرة.

وقف وتذكر أنه سمع الرعاة وأبيه يقولون إن لكل عين أو بئر لجفا تختبئ بها المياه عن أعين البشر، وأفواه الأنعام.

إنها كلمات الله، قوانين لا يقوى علي تغييرها البشر، لكن يمكرون أو يتحايلون عليها، فمن استطاع أن ينزل فلينزل، فهي منتظرة من ينزل إليها فيعبأ دلوه ويشرب ويصعد على الحبل متلجفا برجليه ويديه، ليخرج في ما بعد من فم البئر أو يعود فيستقر بقاعه حتى ييسر له سيارة أو عابر سبيل، فيدلي بدلوه ويخرجه إن بقي حيا فيكون بشرى، فيعيش ويروي قصته بالبحث عن قطرة ماء معين في الغور.

وقف نصير حائرا يتطلع يمينا وشمالا، ويتساءل هل في الطريق من شخص، معه ماء. جال ببصره وبصيرته، وتساءل: هل يواصل السير إلى الحَفيرَة أو بئر أبوالدَرَج. وسأل نفسه هل تقوى عبير على السير؟ وهل يترك الحمارة التي لم تتركه؟

كان بصره يطوف على قمم الجبال، وكانت الشمس تميل نحو الغروب بين جبال وتلال الغور، وشفاه الغربية.

كان يرى شيئا يشق السماء مثل العمود، يتسلل من بين خيوط ضياء الشمس فيرتفع بالهواء فوق جبل ظهر حمار في نفس المكان الذي هبطت فيه الهيلوكوبتر، وفوقه قطعه قماش تلوح مع الأفق، وتميل مع هبوب الريح نحو الشرق، وكانها راية أو علم.

لا يستطيع أن يميز زرقتها من زرقة السماء التي اختلطت بشعاع الشمس الذهبي، لكنها تتراءى لنظره وكأنها تقول: أنا الذي حبست صورته في محفظتك، وقد انتزعتها منك يوم فاجأتنا في العَقَبة لما جمعنا الحمير، فها أنا بشعر سوالفي أتولى حراسة الغور والتلال من كل المهربين والفدائيين والعائدين إلا من المهاجرين.

كانت تظهر له طريق المُعَلَّقَة التي يغطيها ظل جبل حمار صامتة، لا أحد يتحرك بها، وربما بالليل ستعود الضباع لتأكل جيفة الحمار.

بينما هو يطوف ببصره، وبصيرته تقول له: ماذا لو نزلت البئر وعبأت الدلو من اللجف، وعبير تنتشل الدلو وتشرب، وتسقي الحمارة، وتعبئ الحوض فيشرب الطير والنحل، وإن كانت بك قوة لتلجف بيديك ورجليك، تصعد وتواصل رحلة بحثك عن أبيك، وتلاقي عبير أهلها،

وتركبان على الحمارة، وتتركان الحمل الثقيل، وتنامان على ظهرها، وتسير بكما. وقال في نفسه بدون أن تسمعه عبير: آه ممكن تودينا على البيت؟

قال نصير ذلك وسكت.

لم تكن خيارات نصير كثيرة، وإن كانت مثيرة، فمنها أن ينتظر أباه على الأقل هذه الليلة أو الصبح. ينزل في البئر، وينتظر المجهول حتى الصباح، لكن ستكون قد خارت قواه وعصره الجوع بعد أن يكون نشفه العطش، فلا يقوى أن ينزل في البئر، وإذا نزل فمن سيخرجه؟

إن عبير لا تستطيع أن تسحبه. ربما تستطيع ذلك الحمارة إذا شربت واستعادت قوتها ووقفت على قوائمها وتحركت دون أن تتعثر بحمولة الأكياس، فتمشي لتأكل شيئا من آثار ومتبقيات البيدر، فدائما يبقى على البيادر ما تأكله الحمير، فتسحب الحبل المربوط بخاصرتها لكي تنهش بفمها بقايا العقد والقصل، وهي لا تدري أنها تسحب نصير من البئر، فقد حملت الحمل الثقيل وهي لا تدري ما تحمل من مسدسات وقنابل وبنادق وذخيرة.

وإن لم تنهض الحمارة، فهل ستنهضها عبير، أم تتركها فتدور حول البئر، وتصيح: «نصير في البير».

خطر على باله أنه إذا لم ينزل في البئر، ماذا سيحصل لعبير؟ ستعاني العطش، وسيشعر بالخزي لأنه لم يستطع أن يتدبر لها قطرة ماء!

والحمارة والطير والنحل سيكفرون به كإنسان كُرّم عليهم وعلى غيرهم، وسُخّروا له، وحين احتاجوه، وجدوه عاجزا عن توفير قطرة ماء!

لماذا يسلمون أمرهم لطفل صغير لا يريد أن يكبر، ويريد أن يبقى فتى الغور الذي تربى فيه ومارس غورانيته قبل طفولته، وترعرع بصمت رحمانية الغور، فكان مثل الحمارة والأغنام والسخول والخرفان التي رعاها، ومثل كلبه سرحان الذي كرهه بعد أن خربشت وجهه الكلاب وتركت له ندبا. وماذا عن هذا الوشم الذي حفرته النَّوَرية على يده؟

وأين هي النَّوَرية الآن منه ومن كفه التي قرأتها له، فتنبأت بمجهول مصيرة؟

وماذا سيقول له أبوه بعد أن روى له حلمه وهو يقطع المخَّاضة ويعود ويقطعها، وبعد ذلك تأتيه شظية من بين رجليه، فتحرق لباسه وتجرح ساقه؟

أيكون والده قد جرح ونزف جرحه ومات بين شجيرات الزور؟ أم أنه لم يعد قادرا على اللحاق بالحمارة المجروحة من شوك الشيك، والتي استطاعت أن تصل بحملها إلى البئر؟

معظم تلك الذكريات كانت لنصير مجرد هلوسات، جزء منها صحيح ويمثل الحقيقة، والكثير منها خرافات، فلا يصدق نصير كل ذكرياته وهلوساته، لعل العطش والجوع ووجود عبير ووجوده، هو وجود واعٍ وحقيقي لوجود غير واعٍ كالبير ولجف الماء.

أما عبير فلقد رآها رأي العين بأم عينه وهي تبكي وتجلس على الصخرة بثوبها الأحمر وشعرها المنفوش.

ربما تكون ذكريات نصير مجرد مشاهد أو قصص لطفل تمنى حدوثها، إلا أن اكثرها قد حدث فعلا، هكذا قال نصير للوجود غير الواعي.

عاد وقال: «إذا كان بعضها حقيقيًّا فإنه مرتبط بطفولتي، وهي تمثل جزءًا جوهريًّا في تكوين هويتي أو نظرتي الغورانية وطبيعتي الصامتة والمستمدة من رحمانية الغور التي تلوثت بالقرية، وغيرت أبي فحدت سلطة القرية من حريتي، وزاد الطين بلة فقيدتني أمي برجل التخت. وتلاشت بعد زمن تلك الغورانية في المدينة». وجد نصير المدينة تتزين، فكان كل ذلك غطاء للغورانية التي كاد أثرها أن ينمحي في ذاكرته التي جعلت بعض الأحداث تظهر وتلعب دورًا رئيسيًّا في تكوين ذكريات جديدة، ومنها قرار النزول في البئر والمضي في اللجف قدمًا حتى يسقي عبير والمخلوقات حتى لو صار اللجف مرقدا أبديا وقبرا طبيعيا لنصير. وتذكر نصير أن هناك من سينصره، إذا ما نصر عبير والحمارة والطير والنحل.

قال في نفسه وهو على حافة البئر محاولا استفزاز غورانيته بإسقاط نرجسيته ونسيان صورة وجهه بماء ذاك البئر، وتذكر تلك الصورة للفتاة الجميلة على الحائط من سرير نافذته؛ فلعل وجه عبير هو ظل تلك الصورة الساكنة في حائط البيت.

وتلك الصورة التي انكسرت وهو على كتفي أبيه هي ظل الشظايا التي أصابت والده في الحلم.

ترك ذكرياته جانبا وعادت إليه غورانيته التي استفزتها غورانية ماء الغور واللجف الذي يفكر أن ينزل إليه. نهض وقال لعبير: «سأنزل في البئر! ولما أقولك انشلي المطرة انشليها، واشربي، واسقي الحمارة وقري عينا، واملأي الحوض، فإذا امتلأ الحوض اصرخي: «امتلى»، فأطلع من

البئر. عندها أمسكي الحبل المربوط بظهر وخاصرة الحمارة، وسأصعد من حيث نزلت، والصعود أصعب من النزول. إن الصعود على حبل مستقيم بعلو عشر فحجات ليس كصعود عقبه أو سُلَّم.

لقد جربته مرة عندما طلب مني الرعاة أن أنزل بالبئر لأُلجّف لهم وكنت صغيرا. وقالوا: أنت أخف واحد وسهل علينا أن ننشلك من البئر. لقد ملأتني غورانيتي بالرجولة، فلما نزلت بقعر البئر كان ظلاما، ولم أرَ شيئا إلا بمقدار فتحة خرزة البير من الضياء. وسرتُ بالجلف الذي كان أشبه ما يكون بالكهف الطويل، فما أن عبأت عدة أدلاء حتى صحت أخرجوني. وحاولت أن ألجف برجلي ويدي، فوصلت إلى نصف البئر، ولم أعد أقوى، فانزلقت إلى قاع البئر، وربطت جسدي بالحبل وقاموا بنشلي. وقد غضب مني أبي، وقال: هاي آخر مرة تعملها.

ويبدو أن أبي كان مخطئًا، وأكمل نصير قائلا لعبير: فإن خانتني قوتي فلم أصعد فهذه عصاي، فاضربي قفا الحمارة، لكن ابتعدي عن جرح شوك السلك لتنهض وتمشي وتسحب الحبل من البئر، وإن لم تنهض فدوري حول البئر كدورة الحمارة على البيدر، واستمري بالدوران، ولا تبتعدي كثيرا عن البيدر واصرخي بأعلى صوتك:

«نصير في البير!!».

فمن يسمعك من السباع سيحضر وينقذني من البئر، ومن يسمعك من الضباع فسيحضر ويفترسك، فاختبئي في البئر، وأمسكي بالحبل وتعلقي به حتى يمر أحد من الفدائيين أو أبي.

ألقى مطرته في البئر وهي مشدودة بالحبل بخاصرة الحمارة، وقلب

كفيه وقدميه الحافيتين الداميتين بسكن موقد أبيه في البيدر، حتى أصبحتا قطعتين من الفحم الأسود. وقبل أن يشبك قدميه في الحبل ويمسكه بيديه ليدلي بجسده في البئر، نظرت إليه عبير نظرة أنثى، وتحرك بداخلها تاثير الأنثى على الذكر الذي قد يهلك نفسه لأجل الأنثى، فلقد شاهد نصير مناطحة الكباش التي تهلك أو تُهزم من اجل الفوز بأبوة القطيع. ولن يذهب بذاكرته بعيدا، فالنحل الذي ينتظر حول الحوض كم سقط ويسقط من ذكوره الذين يطيرون وراء الملكة حتى يبقى أقواهم، فيفوز بها فوز الموت اليقيني.

فهل سينزل نصير في البئر من أجل عبير؟

إن نظرات عبير تقول له: «لا تنزل في البئر»، لكن النظرات لا تكفي فلا بد من العبرات والدموع التي من الممكن أن تخدعه، وتقول: «انزل فاسقني واشرب»، وهو قد عقد العزم على النزول.

أطلقت عبير العبارات عندما لم تنفع النظرات ولا العبرات فقالت: «وماذا إن لم تقدر أن تطلع كما حصل معك عندما غرر بك الرعاة. لا تنزل»، وتقدمت نحوه، وأمسكت بيديه فصُبغت يداها بالسخام الأسود، وقالت: «إن نزلتَ، نزلتُ معك. دعنا نواصل الطريق، فتلاقي أباك وأنا بلاقي أهلي، واللي يصير يصير، واترك الحمارة هابطة خلفك، واترك حمل أبيك الثقيل من السلاح، وخلينا نروح في الصبح على بير أبوالدَرَج، واحكيلي سيرة أبوزيد وكيف غدر بخاله ذياب عند البير». وبينما هي تقول ما تقول جذبته من يده من حافة البئر ليجلسا أسفل خرزته، وبدأت بسحب حبل المطرة من البئر حتى صارت المطرة والحبل بين يديها،

فلفت حبل المطرة حول خصرها حتى أصبحت بين رجليها.

كان ذلك قبل أن تغيب الشمس خلف جبال شفا الغور الغربية، وبينما كانت شمس تموز تودع الغور سمعا صوت الهيلوكوبتر المميز قادما مع شعاع الشمس، فظهرت الطائرة من بعيد من أحد الوديان النازلة من بين جبال شفا الغور الغربية، وهي مشرقة وخارجة من وجه الشمس الذي أوشك أن يغيب. وما لبثت أن انخفضت فأصبحت في سهول الطويل، قبل أن ترتفع قليلا فوق جبل ظهر حمار، واقتربت من سارية العلم التي نصبتها في ضحى هذا اليوم لتنظر هل أنزل السارية أحد من الرعاة، وهل ما زالت صامدة بوجه الريح.

لم يعد هناك رعاة، ولا حصادون إلا بعض العائدين أو المهربين ومن زلف من المهاجرين. عادت الطائرة لترى أن أحدا من سكان ورعاة الغور لم يعد موجودا، ولن يقوموا بالاستيلاء عليها، لتكون السارية حائطا لسقف بيوت الغور، وقطعة القماش حلسا أو جزءا من ظعنهم.

أصبح الغور فارغًا إلا ممن هو عابر فأوقفه العطش على حافة البئر، مثل نصير وعبير اللذين لا يكادان يظهران لمن في الطائرة.

لقد ترك الغور بلا سقف، وها هم المحتلون يضعون سقفهم فيه من أعلام وأبراج مراقبة وقُوبّانيّات ما تلبث أن تصبح مستوطنات.

تحركت الطائرة بعد أن توقفت في الهواء طائفة على جسد الغور وناظرة هل من حركة، وقد اقتربت واقترب صوتها من البئر وما حوله. اقتربت عبير بجسدها من نصير، وتمسكت بيديه والحبل مطوي عليه وعلى خاصرتها ومن بعدهما بخاصرة الحمارة، والمطرة بين رجليها.

وبعد أن ابتعدت الطائرة عنهما، وهدأ سمعهما وسكن الليل إلا من صوت الصراصير، أيقنت أن الكيد ليس للنساء البالغات فقط، بل لمن في عمر عبير أيضا.

ولقد سبق أن قال لها نصير بينما كانت الطائرة تقترب منهما كما قال لهم العسكري المنسحب تحت الزيتونة لما سمعوا صوت الطائرات: «انبطحوا بجانب قرمية الزيتونة حتى الغارة ما تشوفكم وتقصفنا»!

فانزلق والتفا بجسديهما حول خرزة البئر، ورأساهما متقابلان وأيديهما متشابكة وممسكة بالمطرة الفارغة.

لقد أصبحا جزءا من خرزة البير فخدعا من بالطائرة فلا تقصف البئر وما حوله، فتصبح بئرا معطلة غار ماؤها.

اختفى صوت الطائرة خلف شفاه الغور، وغابت الشمس ولم تعد الشفاه المتشققة من العطش قادرة على الكلام، فالنوم وعدم الحركة سيقللان من العطش والجفاف، وقبل أن يستسلما للنوم، وبينما الحمارة تئن، وهما يسمعان تنهديداتها؛ تذكر نصير ما قاله أخوه العسكري الذي عاد وهاجر مع أهله، وما قصه على أبيه عن رحلة العودة. فلقد حاول نصير ألّا تفوته عبارة من عبارات أخيه، تذكر قوله إن أحدهم شرب بوله، وقص ذلك على عبير فقال لها: «إذا استيقظت ليلا فبولي في المطرة، وسأفعل نفس الشيء».

بدأت عبير تنام فترك المطرة تحت رأسها وهي تحتضنها، وسحب يديه من يديها وأحضر عصاه واستند إليها، وجعل ظهره لخرزة البئر، وقال لعبير: نامي وسأبقى أحرسك فلا تخافي.

بقي هو يضع رأسه بين يديه ويسند رأسه على العصا وهو يفكر: إذا تبولا بمقدار ثلث ما شرباه من مطرة الرعاة، فسوف يشربان جزءا يسيرا منه، ويسيران نصف يوم آخر ليصلا إلى نبع ماء. وإذا لم يستطيعا أن يبولا في المطرة نتيجة التعرق من شدة حر الغور، فإن جسديهما سيبردان إذا هبت نسائم الليل، وسيكون بمقدورهما أن يحتفظا ببعض الماء عبر البول، وإذا استمر الحر فلا بول ولا سير، وسيعود نصير إلى خيار النزول في البئر من أجل الحصول على الماء.

بينما هو يفكر ويستذكر سيرة حياته في الغور وغوارنيته تستفزه، عادت وهدأت نفسه بعد أن سمع من شخير عبير ما سمع، ما جعله يستمتع به، ولا يفكر في شيء سوى الشخير فنام ونسمات الغور تداعب وجهه وتقول: «إن الغور للأنام فنام»، فكان الغور سقفه. وإذا نزل غدا في البئر فسوف يكون البئر سقفه وليس الحيط. وكان آخر سؤال سأله لنفسه قبل أن يغلبه سلطان النوم:

«هل ستدور عبير حول البئر وتصرخ نصير في البئر؟».

عزيزي القارئ ؛

أرجو أن تكون قد استمتعت في قراءة هذه الرواية التي أمضيت سنوات من عمري في كتابتها ، ويسرّني استقبال ملاحظاتك وتعليقاتك وتصوّرك للخاتمة عبر البريد الإلكتروني:

thevalleyboy67@gmail.com

أو عبر حسابي على الفيسبوك:

رواية – فتى الغور **67** The Vally Boy67- Novel

فهرس المحتويات

إهداء 5

رحلة الشتاء 7
المربعانية 26
بين الضفتين 33
جبل قرن صِرْطِبّة 42
الجسر 53
نزلة الخميس 60
الصورة والحلم 69
سعد السعود 78
الجبنة والعَقَبة 88
أبوعمر البياع 97
الرجولة المبكرة 104
سرقة المحفظة 111
الفتنة 122
بئر الوهم 126
بين الحرية والغورانية 131
الهدية 136
المقام 140

جرس النَّوَر 148
ملهاة الفزعة 152
عمق الغورانية 157
شفا الغورانية 163
سما الغورانية 166
الحبل السري 173
أسطورة الغوارنية 183
بطل الأغوار 192
فرخ البط عوام 205
التنمر والسقطة 208
بعد 24 ساعة 218
فتى الغور 231
بعد 25 يوم والوشم 248
نصير، وسوق الجمعة 255
أواخر أيار ومسيرة الليل 266
الحلم بالحصاد 274
1 حزيران ٦٧ حلم الطيور السوداء 286
2 حزيران 67 النَّوَر واللعبة 293
قبل الحرب المطحنة 308
ليلة 4 حزيران 67 عودة الحياة 318
نهار 4 حزيران 67 رحلة الصيف 327

5 حزيران 67 الجرح 350
6 حزيران 67 في المدينة 368
ثالث ايام الحرب المناشير 387
وهم الغارة 399
9 حزيران 67 منع التجول 412
10 حزيران 67 البرمجي 427
منتصف حزيران 67 الأبواب المفتوحة 432
بعد 16 حزيران 67 عودة أم هرب؟..... 444
ما بعد 20 حزيران الحمير 472
بعد 1 تموز 67 السر، وهدم البيت 485
5 تموز 67 لقاء أصل الصورة..... 493
6 تموز 67 اللقاء في المغارة 504
6 تموز 67 تحت السدرة 514
صباح 7 تموز 67 المُعَلَّقَة 536
7 تموز وما بعدها 67 حافة البئر 550